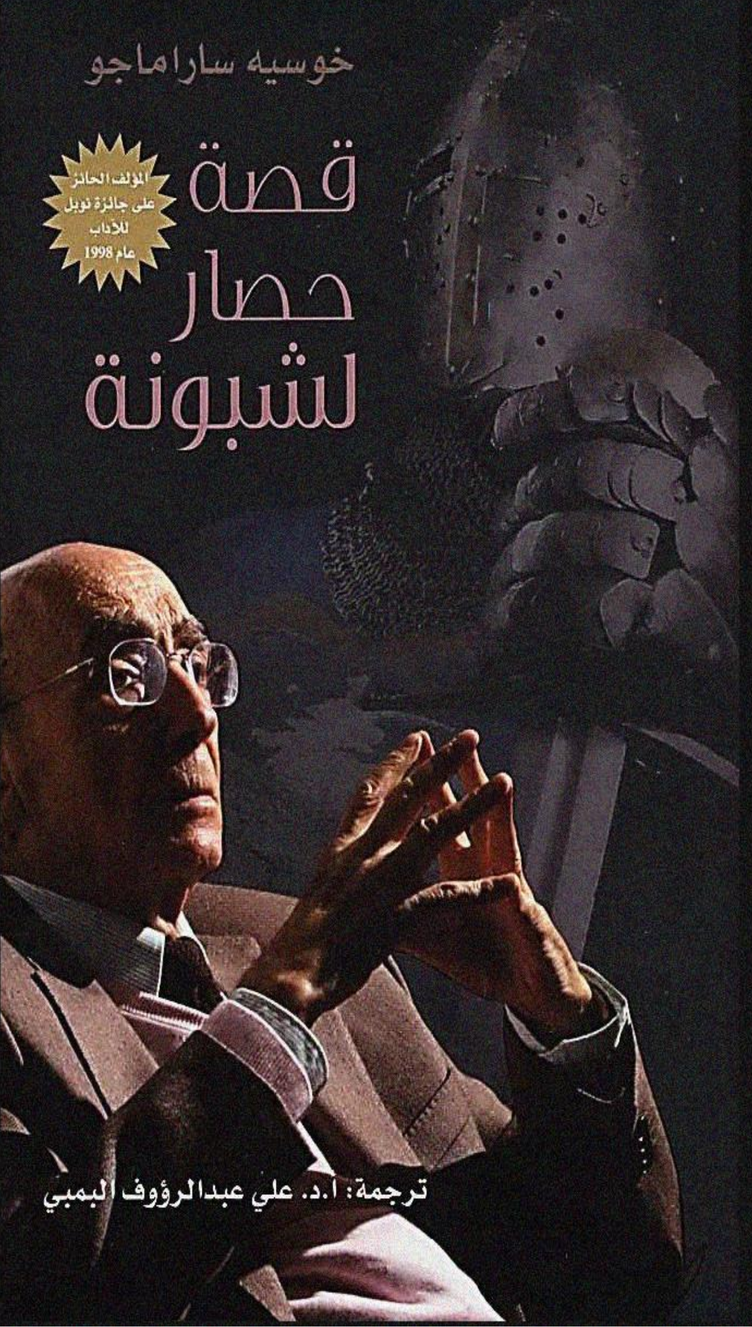
خوسيه ساراماجو

قصة حصار لشبونة

المؤلف الحائز على جائزة نوبل للآداب عام 1998



ترجمة: أ.د. علي عبدالرؤوف البمبي

قصة حصار لشبونة

للكاتب البرتغالي

خوسيه ساراماجو

(جائزة نوبل في الآداب– 1998)

ترجمة: أ.د. علي عبد الرؤوف البمبي

الطبعة الأولى 1431هـ 2010م

قصة حصار لشبونة
خوسيه ساراماجو
PQ9281.A66 H5712 2010
.Saramago, José
قصة حصار لشبونة / تأليف خوسية ساراماجو ؛ ترجمة علي عبد الرؤوف البمبي.-أبو ظبي : هيئة أبو ظبي للثقافة و التراث، كلمة، 2010.
ص. 483 ؛ 12.5x19 سم.
ترجمة كتاب : Historia del cerco de Lisboa
تدمك: 978-9948-01-753-0
1-لشبونة (البرتغال)-تاريخ-قصة.
2-القصص البرتغالية-المترجمات إلى العربية.
3-الأدب البرتغالي-المترجمات إلى العربية.
أ-بمبي، علي عبد الرؤوف.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الأسباني:

José Saramago
Historia del cerco de Lisboa

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.cultural.org.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

تقديـــم

1- نبذة عن حياة المؤلف وأعماله:

مؤلف الرواية التي بين أيدينا هو الكاتب البرتغالي «خوسيه ساراماجو» الحائز على جائزة نوبل في الآداب لعام 1998. وُلد «ساراماجو» بقرية «ريباتيخو» القريبة من نهر «التّاجُه» في شهر نوفمبر عام 1922، وكان من المفروض أن يُطلق عليه اسم «خوسيه سوسا» ولكن موظف السجل المدني بالقرية أُشكل عليه- أو في مزحة منه لوالد الطفل، كما يقول البعض- وسجله باسم «خوسيه ساراماجو». ويبدو أن الكاتب لم ينس هذا الحدث لأنه تناول قضية الخلط في التسمية عند حديثه عن إحدى شخصيات الرواية (موجيمي).

كان لنشأة «ساراماجو»- الذي ينتمي إلى أسرة فقيرة من المزارعين- أثر عميق في تكوين شخصيته، وفي تحديد ميوله السياسية والأيديولوجية. انتقلت أسرته بعد مولده بثلاث سنوات للعيش في لشبونة حيث عمل والده شرطياً، وبعد وقت قصير من النزوح إلى العاصمة توفى أخوه «فرانثيسكو» الذي كان يكبره بعامين، ولكن صلة الكاتب بمسقط رأسه لم تنقطع حتى الآن، إذ يحلو له زيارة

قريته من حين إلى آخر وقضاء بعض الوقت فيها. التحق وهو في الثانية عشرة من العمر بإحدى مدارس لشبونة الصناعية، ولم تكن مقررات هذه المدارس الفنية تخلو في ذلك الوقت من المواد الإنسانية التي تعرف من خلالها على الأدباء القدامى وحفظ كثيراً من نصوصهم الأدبية التي مازالت عالقة بذاكرته حتى الآن. لم يستطع «ساراماجو» استكمال دراسته الثانوية لعجز والده عن تسديد مصروفات المدرسة، ومن ثمّ فقد تركها ليعمل في ورشة لصناعة الأقفال لمدة عامين تمكن فيهما من قراءة كل الكتب الموجودة بمكتبة الحي الذي يعيش فيه. عمل بعد ذلك موظفاً إدارياً في «هيئة الضمان الاجتماعي»، وبعد زواجه في عام 1944 شرع في كتابة أولى رواياته التي نُشرت في 1947 تحت عنوان «أرض الخطيئة»، وتبعتها أخرى بعنوان «كلارابويا»، ولكنهما لم تحظيا بالقبول ولم تلقيا النجاح المأمول، ولذا فقد أمسك بعدهما عن الكتابة الأدبية لما يقرب من عشرين عاماً، أي إلى أن ظهر ديوانه الشعري الأول في عام 1966 تحت عنوان «قصائد محتملة». وفي تعليق منه على هذه المرحلة من حياته الأدبية يقول: «لم يكن لديَّ ببساطة شيء أقوله، وعندما لا يجد المرء شيئاً يقوله فالأفضل له الصمت». وفترة الصمت هذه تنسحب فحسب على الإبداع الأدبي، لأنه لم يتوقف خلالها أو بعدها عن الكتابة الصحفية، بل إنه امتهن العمل الصحفي في كثير من الصحف البرتغالية، وإن

كانت آراؤه السياسية والإصلاحية قد تسببت كثيراً في فصله من عمله. ومنذ عام 1976 تفرغ تماماً للكتابة الصحفية والإبداع الأدبي، كما ترجم للعديد من الأدباء الكبار، أمثال: «موباسان»، و«تولستوي»، و«بودلير»، و«كوكيت».

وفي فترة الحكم الديكتاتوري لـ«سالازار» عانى من الاضطهاد، كما ذاق المرّ من هيئة الرقابة على المصنفات الأدبية. وقد شهد عام 1969 انضمامه إلى الحزب الشيوعي البرتغالي الذي كان محظوراً وقتها، كما انضم أيضاً (في عام 1974) إلى حركة «ثورة القرنفل» التي آتت ثمارها المرجوّة بإدخال الديمقراطية في البرتغال. وهو من المهتمين بالقضايا الإنسانية، والمناهضين للعولمة، وبوجه عام فإنه يقف دائماً في صف المظلومين والمهمشين في أي مكان على سطح المعمورة، وينادي بالحرية والعدالة والمساواة.

ألّف «ساراماجو» نحو أربعين كتاباً متنوعاً، ما بين دواوين شعرية وأعمال مسرحية ومجموعات قصصية وروايات ومؤلفات تاريخية، ولكنه يدين بشهرته إلى فن القصّ الذي صدر له فيه ما يقرب من عشرين عنواناً. ونشير فيما يلي إلى عدد من أعماله الروائية المهمة:

- «لبنتادو دي شاو» (1980)، التي يدور موضوعها حول ظروف الحياة التي يعيشها عمال «لاربي» الواقعة في محافظة «ألينتيخو»،

وفي هذه الرواية يعثر الكاتب على صوته الخاص وعلى أسلوبه المميز، المجنّح، الذي يقترب من الشاعرية.

- «مذكرات الدير» (1982)، التي تتحدث عن الواقع الحياتي الصعب لشعب بدائي بسيط يعيش في العصور الوسطى المظلمة، ويعاني من الحروب والجوع وسيطرة الخرافات. وقد تم تحويل هذا العمل إلى أوبرا غنائية.
- «سنة موت ريكاردو ريس» (1984).
- «الطوف الحجري» (1986)، التي يتخيل فيها ما سوف يحدث لشبه جزيرة إيبيريا في حالة انفصالها عن القارة الأوروبية.
- «الإنجيل طبقا ليسوع المسيح» (1991)، التي أثارت زوبعة غير مسبوقة في البرتغال، عندما منعت حكومة هذا البلد (والمفروض أنها علمانية) تقديم الرواية لنيل «الجائزة الأدبية الأوروبية» بدعوى «إهانتها للمسيحيين الكاثوليكيين». وقد غادر البرتغال على إثر هذا الحادث- احتجاجاً منه- وانتقل للعيش في جزيرة «لانثاروتي»، وهي إحدى جزر الكناري الإسبانية.
- «بحث عن العمى» (1995)، التي تحولت فيما بعد إلى فيلم سينمائي.
- «كل الأسماء» (1997)، التي حازت أيضاً على إعجاب النقاد والقراء.

ويعتبر «ساراماجو» أول كاتب في اللغة البرتغالية يفوز بجائزة نوبل في الآداب، ومنذ فوزه بتلك الجائزة فإنه يعيش متنقلاً بين جزيرة «لانثاروتي» التي يقطنها منذ عام 1991 وبين لشبونة، كما أنه يشارك في الأنشطة الثقافية والاجتماعية بكلا البلدين (إسبانيا والبرتغال).

وبالإضافة إلى جائزة نوبل فقد حصل أيضاً على العديد من الجوائز الأدبية– سواء كانت محلية أو عالمية –، كما حصل على الدكتوراه الفخرية من جامعات شتى في البرتغال وإسبانيا وإيطاليا وإنجلترا وفرنسا والمكسيك والسلفادور.

2– قصة حصار لشبونة:

موضوع الرواية:

تعتبر هذه الرواية التي صدرت في عام 1989 من أهم أعمال «ساراماجو»، وفيها يستعيد الكاتب بتهكم دقيق جانباً من التاريخ البرتغالي. يدور موضوع الرواية الرئيسي حول حدث تاريخي معروف، ألا وهو الحصار الذي فرضه البرتغاليون في عام 1147م على لشبونة المسلمة وانتهى بسقوطها في أيديهم وطرد المسلمين منها. وبطل الرواية يُدعي «رايموندو سيلبا»، وهو رجل في بداية العقد السادس من العمر، يعيش بمفرده في أحد الأحياء القديمة في لشبونة الحالية، ويعمل مصححاً لدى إحدى دور النشر حيث

يقوم بمراجعة الكتب المختلفة التي تصدرها هذه الدار. وفي أثناء مراجعته لكتاب في التاريخ بعنوان «قصة حصار لشبونة» قام- نتيجة لعدم اقتناعه ببعض الوقائع التاريخية التي يراها منافية للعقل والمنطق- بتغيير كلمة في إحدى جمل النص الأصلي (وضْع «لا» مكان «نعم») حوّلت معنى الجملة من الإثبات إلى النفي، بحيث أصبحت هكذا: «لم يساعد الصليبيون البرتغاليين في حصار لشبونة والاستيلاء عليها». اكتشفت دار النشر التحريف وتداركته قبل نشر العمل وتوزيعه، واستدعت المصحح للتحقيق معه. لم تفصله دار النشر في النهاية، تقديراً منها لسنوات خدمته الطويلة التي اتسمت بالتفاني والجدية، ولكنها استحدثت وظيفة «المنسق العام للمصححين» لتفادي حدوث مثل هذه الأخطاء في المستقبل، وأسندت الوظيفة إلى الدكتورة ماريا سارة. وكانت هذه السيدة هي التي اقترحت على المصحح كتابة تاريخ أو قصة جديدة للحصار من منطلق كلمة «لا» التي وضعها متعمداً وجعل الصليبيين يغادرون بسببها ويتخلون عن مساعدة البرتغاليين. تردد المصحح في البداية، ولكنه استجاب في النهاية وشرع في كتابة قصته الجديدة التي لن يطلع عليها أحد غيره سوى صاحبة الاقتراح. هذا هو الإطار العام للرواية، وإن كان الكاتب قد اتخذه حجة- كما هو متوقع- لعرض أفكاره وتأملاته الفلسفية حول الحياة والموت والفن والأدب والمعتقدات والسلوكيات البشرية.

التقنيات القصصية والأسلوب:

تكمن أهمية الرواية فيما تحفل به من تقنيات وخصائص أسلوبية مميزة. إنها، وعلى هذا الصعيد، منبع لا ينضب، ومجال خصب للدراسات النقدية المتعددة حتى ولو كانت متباينة الرؤى، لأن نصوصها قابلة للتأويلات المختلفة والتفسيرات المتنوعة. وسوف نقتصر فيما يلي على الإشارة الموجزة إلى بعض سماتها التقنية والأسلوبية والتي نعتبرها بمثابة إرشادات للقارئ تعينه على تجلية مناطق الغموض فيها وتساعده على النفاذ إلى دقائقها وإدراك مراميها:

على صعيد الهيكل والبنْية، الرواية مقسمة إلى ثمانية عشر فصلاً متفاوتة الطول، وبداية الفصل ليست محددة بعناوين أو أرقام أو أية علامات أخرى، ويلجأ الكاتب إلى التكنيك الطبوغرافي للتمييز بين الفصول ويتمثل في تخصيص الصفحة اليمنى دائماً لبداية كل فصل (ومن ثمّ ينبغي تخصيص الصفحة اليسرى لبداية الفصل في الترجمة العربية) فضلاً عن ترْك فراغ أو مساحة بيضاء توازي تسعة أسطر في بداية كل فصل. كما أن كل فصل من الفصول– فيما عدا الفصل الأول– مقسم بدوره إلى أجزاء، يفصل بين الجزء والجزء الذي يليه فراغ أو مسافة سطر. والكتابة متصلة دائماً ولا تتوقف سواء انتهت الجملة في آخر السطر أو قبل آخره، ولا يتم البدء في سطر جديد إلا مع بداية جزء جديد من أجزاء الفصل. والرواية لا تحتوي على فهرس لأنها لا تشتمل على أي عنوان أو ترقيم داخلي.

ومن جهة أخرى، فإن الكاتب لا يستخدم علامات التعجب أو الاستفهام أو العلامات المميزة للجمل الاعتراضية أو الجمل التفسيرية أو العلامات الدّالة على الاقتباس والتضمين، ولا يستخدم من علامات الترقيم سوى الفاصلة والنقطة. أما بالنسبة للحوارات، فإنه لا يستخدم أية علامة من العلامات المعروفة والدّالة على بداية كلام كل طرف من أطراف الحوار (مثل الشَّرْطة أو البدء من أول السطر) بل يكتفي ببدء كلام المتحاور بحرف كبير، ولما كان هذا الحرف غير موجود في اللغة العربية فقد وضعنا علامة النقطة للإشارة إلى بداية كلام المتحاور أو للفصل بين مداخلات المتحاورين.

وعلى الصعيد التقني، تتميز الرواية بتعدد الأصوات (صوت المؤلف والرّاوي والبطل)؛ والتداخل بين السرد (ذي المستويات المتعددة) والحوار والوصف والمونولوج؛ النقل المفاجئ لأماكن الأحداث من لشبونة الحالية إلى لشبونة المسلمة أو العكس؛ التقاطع الزمني والانتقال دون سابق إنذار من القرن الثاني عشر الميلادي إلى نهاية القرن العشرين أو العكس؛ الحرية المطلقة في استخدام الأزمنة الفعلية والتحول المفاجئ من زمن إلى آخر؛ ترك بعض الأحداث مفتوحة ودون خاتمة؛ الاستعانة بالمنهجية الفكرية في كثير من مناطق الرواية بحيث تبدو وكأنها بحث علمي وليس عملاً إبداعياً..... إلخ.

وعلى مستوى الأسلوب تجدر الإشارة إلى: الاقتصاد في استخدام الكلمات، والإيجاز المضمخ بالمعاني المكثفة. كثرة الجمل الاعتراضية والحوار الذاتي (المونولوج) اللذين يساهمان في تعقيد النص، ولاسيما في ظل غيبة العلامات الكتابية المميزة لهما. التراكيب النحوية غير الخاضعة لقواعد اللغة، وغياب الروابط بين الجمل في كثير من الأحيان، مما يزيد من تعقيدها ويجعلها صالحة في الوقت نفسه لقراءات متعددة. التضمين والاقتباس، واستخدام الأمثال والأقوال المأثورة التي تكون أحياناً من اختراع المؤلف. استخدام التهكم المحكم والدقيق بكل درجاته- من الدعابة الخفيفة إلى السخرية المريرة اللاذعة- لإبراز فكرة ما أو لدحض قناعات مغلوطة- الاستفادة من مكاسب الحركة السريالية والمتمثلة في الاستعارات الجريئة والتشبيهات غير المألوفة والنعوت الغريبة غير المناسبة للمنعوت. شاعرية النص، لاسيما الفقرات المتعلقة بوصف الطبيعة.

شفاهية النص: من اللافت للنظر في الرواية خاصية شفاهية النص، أي أنها مكتوبة لكي يرويها حكّاء أو مُنشد على أسماع الناس المتحلقين حوله، سواء في سوق أو ميدان عام، على غرار ما كان يفعله الشعراء الجوّالون (Juglares) في المجتمعات الأوروبية خلال العصر الوسيط، وعلى غرار ما كتبه أول شاعر غنائي في

اللغة الإسبانية (خوان رويث أو كاهن هيتا) أو «رابيليه» أو «خوان جويتيسولو» في عصرنا الحالي، ومن سمات هذا النوع من الأدب نكتفي بذكر ما يلي: التوجه إلى السامع ولفت انتباهه باستمرار، الاستغناء عن العلامات الكتابية (مثل علامات التعجب والاستفهام والجمل الاعتراضية وعلامات الترقيم، باستثناء الفاصلة والنقطة) اكتفاءً بالتنغيم الذي يقع على عاتق الحكاء أو راوي الحلقة؛ الوقوف في حكاية حدث ما عند نقطة الذروة فيه ثم العودة إليه لاحقاً؛ الحرية المطلقة في استخدام الأزمنة الفعلية والتحول من زمن إلى آخر في الجملة نفسها؛ حثّ المستمع على الإدلاء بدلوه في سير الأحداث من خلال تخييره بين عدة احتمالات؛ النهاية المفتوحة للقصة؛ الإشارة إلى أحد أبطال القصة (موجيمي) بعدة أسماء؛ عدم التحرز في تفادي الأخطاء- وإن كانت هنا متعمدة- مثل تقدير الرّاوي لعدد المسلمين المحاصَرين داخل لشبونة بحوالي خمسمائة ألف نسمة، وإشارته إليهم بعد ذلك بقوله «هؤلاء الخمسمائة»؛ الاستغناء في كثير من الأحيان عن الروابط بين الجمل... إلخ.

وفي النهاية يمكن القول إن الرواية تتطلب- لما تحويه من تأمل فلسفي وحشد تقني هائل وأسلوب رفيع- اليقظة والتركيز الشديد من جانب القارئ حتى يتمكن من ولوج عالم «ساراماجو» الساحر، والاستمتاع بمكنوناته الشيّقة.

أ.د. علي عبد الرؤوف البمبي

قصة حصار لشبونة

الإهداء

إلى «بيلار»

ما دمت لم تبلغ الحقيقة فلن تستطيع تصويبها، ولكنك إذا لم تقم بتصويبها، فلن تصل إليها، وفي هذه الأثناء، حذارِ من الاستسلام.

من «كتاب النصائح»

قال مصحح التجارب المطبعية: نعم، الكلمة التي تُطلق على هذه العلامة هي «deleátur»[1]، وتستخدم حين نحتاج إلى حذف شيء ما أو جعله يختفي ويتلاشى، الكلمة نفسها تعني هذا، سواء كان متعلقاً بحروف متفرقة أو كلمات تامة[2]. أنت تذكرني بحيّة اعتراها الندم لحظة قيامها بعَضّ ذيلها. نعم يا سيدي، لشدة تشبثنا بالحياة، لا يُستبعد حقاً أنه حتى الحيّة يمكن أن تقف حائرة مترددة أمام الخلود. أعد عليّ الرسم، ولكن ببطء. إنه سهل للغاية، يجب الإمساك فحسب بالفرجار، قد ينظر أحد شارداً فيعتقد أن اليد

(1) Deleátur: فعل لاتيني في المبني للمجهول لزمن المضارع مع ضمير الغائب المفرد (وفي الصيغة غير الإخبارية) ويعني: ربما يُزال، ربما يُمحق، ربما يُطمس، ربما يُلغي... إلخ، وسوف نتركه في الترجمة كما هو، لأن الجملة الآتية بعده تشرح معناه. (المترجم).

(2) نوجّه عناية القارئ إلى أن الكاتب يمزج بين السّرد والحوار والمونولوج، دون وضْع علامات أو إشارات توضيحية. وبالنسبة للجمل الحواريّة فإنه يبدأها بحرف كبير فحسب، وقد استعضنا في الترجمة عن هذا الحرف الكبير- غير الموجود في اللغة العربية- بعلامة النقطة، والفصل الأول الذي بين أيدينا حوار كله. (المترجم).

سوف ترسم الدائرة المخيفة، ولكن لا، انتبه إلى أنني لم أوقف الحركة هنا حيث بدأتها، بل انحرفت بها إلى جانب، نحو الداخل، وسوف أستمر الآن تجاه تحت لقطع الجزء الأسفل من المنحنى، وما يظهر هو بالضبط حرف Q كبيراً، ولا شيء أكثر. واأسفاه على رسم كان يوحي بالكثير. لنقنع بتخيل النظير، ورغم هذا، أصدقك القول حين أخبرك– ومعذرة للتعبير عن نفسي بأسلوب تنبؤي– أن الاهتمام بالحياة كان يكمن دوماً في الاختلافات. وما علاقة هذا بالتصحيح الطباعي. المؤلفون يعيشون في الأعالي، لا يبددون معارفهم الثمينة في ترهات وتفاهات، حروف مبتورة، مستبدلة، معكوسة، هكذا نصنف أخطاءهم ساعة الإنشاء اليدوية، فالاختلاف والخطأ كانا وقتئذ شيئاً واحداً. أعترف أن من يصححون لي هم أقل صرامة، وإني لأثق في براعة الطبّاعين (هذه القبيلة الموازية لعائلة الصيدلانيين الشهيرة ذات الوساوس والعُقد) القادرين على فك شفرة حتى ما لم تتم كتابته. وليأت بعد ذلك المصححون لحلّ المعضلات. أنتم ملائكتنا الحارسة، نثق فيكم، وحضرتك، على سبيل المثال، تذكرني بأمي المغالية التي كانت لا تكف عن تكرار فرْق شعري حتى يصبح وكأنه مُختط بمسطرة. شكراً للمقارنة، ولكن إذا كانت والدتك قد ماتت، فحريّ بك أن تتولى من الآن العناية بنفسك، دائماً ما يصل اليوم الذي يتعين فيه التصحيح بعمق. تصحيح، أنا أصحح، لكنني أقوم بحلّ الصعوبات الأشد سوءاً على عجل، بكتابة كلمة فوق

أخرى. لقد لاحظت هذا. لا تُشر إليه بهذه اللهجة، فعلى قدر المستطاع أبذل ما في وسعي، ومن يبذل ما في وسعه... لستَ مضطراً لإضافة المزيد، نعم يا سيدي، وعلى وجه الخصوص حين تنتفي- كما هو في حالتك- لذة التعديل، متعة التغيير وعمق الإحساس بالتقويم. المؤلفون يعدلون دوما، فنحن لا نقنع ولا نرضي أبداً. لا مفر من الإشارة إلى أن مملكة السماء هي المقر الأوحد للكمال، لكن تعديلات المؤلفين شيء آخر، فيها نَظَر، تختلف كثيراً عن تعديلاتنا نحن. ما تريد قوله على طريقتك هو أن طائفة المصححين تستمتع بعملها. لا أتجاسر على الذهاب بعيداً، الأمر يتوقف على الغُواية الحِرَفية، ومصحح ذو غُواية مازال ظاهرة غير معروفة، وعلى هذا فما يبدو جلياً وثابتاً هو أننا- معاشر المصححين- شهوانيون قلباً وقالباً. لم أسمع قط بمثل هذا من قبل. كل يوم يأتي جالباً معه بهجته وكدره، وأيضاً درسه المستفاد. تتحدث عن خبرة شخصية. بالطبع أتحدث من منطلق الخبرة الشخصية، فلديّ منها نصيب دون شك، ماذا كنت تعتقد، ولكني استفدت أيضاً من ملاحظة تصرفات الآخرين، والملاحظة علم أخلاقي لا تعوزه الأسس. لو حكمنا على مؤلفي الأزمنة الغابرة من في معيارك سيكونون أناساً من هذا النوع، مصححين مدهشين، وأنا أتذكر هنا التجارب المطبعية التي راجعها بلزاك، إنها سياحة فنية مبهرة من التصويبات والإضافات. الشيء نفسه كان يفعله «عيسى

كيروس» وهو من أبناء جَلْدتنا، حتى لا يخلو المقام من مثال وطني. يخطر الآن ببالي أن عيسى وبلزاك كانا سيشعران اليوم بأنهما أشد الناس سعادة بالجلوس أمام الكمبيوتر، حيث يمكنهما إقحام أسطر وتأخيرها وحذفها أو تغيير فصول بأكملها. ولن نتعرف مطلقاً– نحن معاشر القراء– على الدروب التي سلكتها أعمالهم أو ضاعت معالمها قبل بلوغها الشكل النهائي، إن كان لهذا الشكل وجود. مرحى، مرحى، المهم النتيجة، فلن تفيد في شيء معرفة حيرة دانتي وكاموس أو محاولاتهما الأولية. أنت رجل عمليّ، حديث، تعيش حالياً في القرن الحادي والعشرين. لنرى، أخبرني إذن إذا كانت العلامات الأخرى لها أيضاً أسماء لاتينية مثل الـ «deleátur». لها أو كان لها، لا أدري، لست واسع المعرفة، ربما اندثرت لصعوبة نطقها. في ليل الأزمان... معذرة لو خالفتك، فأنا لا أستطيع استخدام مثل هذه العبارة. ألأنها مطروقة، حسب علمي. لا تقل هذا، فالمطروق والجمل الجاهزة والمساعدة، وكذا حشو الكلام والحكم المتداولة والمأثورات والأمثال يمكن أن تبدو جميعها مستحدثة شريطة الاستخدام المناسب للكلمات السابقة لها والمتأخرة عنها. لماذا لا يمكنك إذن قول ليل الأزمان. لأن الأزمان تخلّت عن كونها ليلاً في حد ذاتها عندما شرع الناس في الكتابة، أو التصحيح الذي هو عمل– أكرر– من قماشة أخرى وتجلّ من نوع آخر. تعجبني العبارة. وأنا أيضاً، وبصفة أساسية لأنها المرة الأولى

التي أنطقها فيها، أما في الثانية فسوف تكون أقل وقْعاً. لأنها تكون قد تحولت إلى مكان عمومي. بل مطروق، فهذه هي لفظتها العلمية. أعتقد أنني أستشف من كلماتك ضرباً من مرارة الشك. الأفضل أن تراها شكاً مريراً. من يتفوّه بهذه ينطق بتلك. لكنه لا يتحدث عن الشيء نفسه، المؤلفون يرهفون السمع عادة لمثل هذه الفوارق. ربما جمدت لديّ طبلتا الأذنين. معذرة، كان دون قصد. لست حساساً إلى هذه الدرجة، استمر، أخبرني لماذا تحس بأنك جدّ ممرور أو– كما تحب– شكّاك. تأمل الحياة اليومية للمصححين، وفكّر في مأساة وجوب القراءة مرة، اثنتين، ثلاث، أربع أو خمس مرات، كتباً... من المحتمل أنها غير جديرة بالقراءة ولو لمرة واحدة. أثبت عندك أنني لم أكن الذي تفّوه بكلمات خطيرة الشأن، أنا أعرف جيداً موقعي في مجتمع الآداب، شهواني نعم، ولكني أتسم أيضاً بالاحترام. لا أرى مكمناً للخطورة فيما قلت، لقد بدت لي واضحة خاتمة جملتك، دلالات علامات الحذف البليغة تلك، رغم عدم إطلاعي على ما كتمته ولم تصرح به. إذا أردت معرفة هذا فاذهب إلى المؤلفين واستثرهم بنصف جملتي ونصف جملتك وسترى أنهم سوف يردون عليك بما قاله ابليس للإسكافي وصار مثلاً يُحتذى، حين أشار الحِرَفيّ إلى الخطأ في حذاء إحدى الشخصيات، وبعد تأكده من تعديل الفنان للخطأ تجاسر بإبداء الرأي حول بِنْية الركبة. كان عندئذ عندما هاج ابليس ورد على الوقح قائلاً له: أيها

الإسكافي عليك بأحذيتك، إنها جملة تاريخية. لا أحد يعجبه إملاء الدروس من الآخرين. في هذه الحالة كان لدى ابليس الحق كله، لكن غواية الإسكافي هي الأكثر شيوعاً بين بني البشر، خلاصة القول إن المصحح فحسب قد خَلُص إلى أن عمله في المراجعة هو الوحيد الذي لن ينمحي البتة من العالم. هل داخلتك غوايات جمّة لإسكافي عند تصحيح كتابي. العمر يجلب لنا شيئاً محموداً بينما هو سيئ، وهذا يُهدىء من رَوْعنا، أما الغوايات، حتى الملحّ منها، فتبدو لنا أقل استعجالاً. في كلمات أخرى، أنت ترى العيب في الحذاء ولكنك تفضل الصمت. لا، وإن كنت أتغاضى عن خطأ الركبة. يعجبك الكتاب. نعم يعجبني. تقوله دون حماس. لم ألحظه أيضاً في سؤالك. إنها مسألة تكتيك، إذ يجب على المؤلف إظهار بعض التواضع رغم ما يكلفه هذا من جهد. المتواضع يجب أن يكون المصحح، وإذا صعدت إلى رأسه ذات يوم فكرة ألا يكون فهو بهذا مضطر لأن يكون مبلغ الكمال في صورة بشرية. لم تصحح الجملة، تكرَّر فعل الكينونة ثلاث مرات، شيء لا يغتفر، اعترف بهذا. دع الحذاء في سلام، فالكلام عذر لأي شيء. حسناً، لكني لا أغفر لك بخل الرأي. أذكرك أن المصححين أناس معتدلون، لقد شاهدوا أدباً كثيراً وحياة. كتابي كما تعلم في التاريخ. هكذا وَسَمُوه دون شك، وفقاً للتصنيف التقليدي للأجناس، وإن كان في رأيي المتواضع– ودون أن أقصد الإشارة إلى

تناقضات أخرى– أن كل ما ليس بحياة هو أدب. التاريخ أيضاً. والتاريخ على وجه الخصوص، وأرجو ألا تشعر بالإهانة. والرسم والموسيقى. الموسيقى تمضي في مقاومتها منذ ولادتها، تستنكف مرات وتنضوي أخريات، تبغي التحرر من الكلمة، حسداً على ما أظن، لكنها تعود دوماً إلى حظيرة الطاعة. والرسم. حسناً، الرسم ليس إلا أدباً مصنوعاً بفراشيّ. آمل ألا تنسى أن البشرية أخذت ترسم قبل معرفة الكتابة بوقت طويل. أتعرف ذلك المثل الذي يقول «اصطد بالقط، إذا لم يكن لديك كلب»، وفي كلمات أخرى، من لا يستطع الكتابة يرسم ويصور، هذا ما يفعله الصغار. ما أردتَ قوله، بكلمات أخرى، إن الأدب كان موجوداً قبل أن يولد. نعم يا سيدي، مثل الإنسان تماماً، وبكلمات أخرى، لقد كان إنساناً قبل أن يكون. يبدو لي أنها وجهة نظر غير مسبوقة. لا تعتقد هذا، فالملك سالومون، الذي عاش منذ زمن جدّ بعيد، كان يؤكد في عصره أنه لا جديد تحت الشمس، وإذا كانوا يقولون هذا في سالف العصور المغرقة في القدم فما هو قولنا اليوم وبعد مرور ثلاثين قرناً، إن لم تخنّي ذاكرة الموسوعة. إنه لأمر غريب، فأنا، رغم كوني مؤرخاً، لو وجهوا السؤال إليّ، هكذا بغتة، فلن أتذكر أن كل هذه السنوات تفصلنا عن حياته. شيمة الزمن وديدنه، يجري دون أن ندري، يمضي الواحد منا مشغولاً بأشيائه وسرعان ما ينتبه فيتعجب قائلاً: رباه، كيف يمر الوقت، يبدو الزمن الذي كان يعيش فيه

سالومون وكأنه اليوم، في حين أنه قد انقضت عليه ثلاثة آلاف سنة. لديّ انطباع بأنك أخطأت المهنة، كان يجب أن تكون فيلسوفاً أو مؤرخاً لأنك مزوَّد بالمواهب والسمات التي تتطلبها مثل هذه الفنون. ينقصني الإعداد يا سيدي، ماذا يمكن أن يصنع رجل نكرة بلا إعداد، لقد حباني حسن الطالع بالإتيان إلى العالم مصحوباً بكل صفاتي الوراثية المتلائمة، رغم كونها خاماً ولم تتعرض بعد ذلك لصقل سوى للحروف الأولى التي غدت الوحيدة. يمكنك تقديم نفسك كمثقّف لذاته، ناتج لمجهودك الخاص الجدير بالإشادة، لا يوجد في هذا ما يُخجل، فالمجتمعات السابقة كانت تتباهى بالمعلمين لذواتهم فيها. لقد انتهى هذا، جاء التطور ليقضي عليه، فالمعلمون لذواتهم مثلي يُنظر إليهم باستهانة، من يكتبون أشعاراً وحكايات للتسلية هم الوحيدون المصرح لهم لكي يكونوا– لحسن حظهم– معلمين لذواتهم، أما أنا، فأعترف لك بأنني لم أمتلك قط المهارة للإبداع الأدبي . صرْ فيلسوفاً إذن، أيها الرجل. أنت تتمتع يا سيدي بروح الفكاهة الرفيعة، وتستنبت السخرية ببراعة حتى أنني أتساءل كيف تخصصت في التاريخ رغم كونه علماً عميقاً ومتجهماً. أنا ساخر في الحياة الواقعية فحسب. لديّ الحق إذن عندما حسبت أن التاريخ مغاير للحياة الواقعية، إنه أدب ولا شيء أكثر. ولكن التاريخ كان حياة واقعية في الوقت الذي كان لا يمكن أن نسميه فيه تاريخاً. أمتأكد أنت مما تقول.

حقاً، أنت علامة استفهام بساقين، وشك بذراعين. لا ينقصني سوى الرأس. كل شيء في وقته، فالعقل هو آخر شيء تم اختراعه. أنت عالم. لا داعي للمبالغة، يا صديقي العزيز. هل تريد الاطلاع على البروفات الأخيرة. الأمر لا يستحق العناء، تصويبات المؤلف جاهزة وها هي بين يديك، الباقي يتعلق بالتصحيح النهائي وهو مسألة روتينية. شكراً على الثقة. إنها مستحقة دون ريب. حينئذ، هل تعتقد حقاً أن التاريخ هو الحياة الحقيقية. نعم أعتقد هذا. أريد أن أقول، هل كان التاريخ حياة حقيقية. لا يكن لديك أدنى شك في هذا. ما هو حالنا لو لم يكن الـ «deleátur» موجوداً، تنهد المصحح.

* * *

عندما تكون الرؤية فحسب أشد حدّة ألف مرة عما يمكن أن تجود به الطبيعة للقدرة على رصد الفرق الأولّ الفاصل في مشرق السماء بين الليل والنهار، استيقظ المؤذن. كان يستيقظ دوماً في هذه اللحظة، صيفاً أو شتاءً، فالأمر بالنسبة له سواء، دون الاعتماد على جهاز لقياس الوقت سوى التحوّل متناهي الصغر في ظلمة الحجرة، وهاجس النور المُتكهَّن فحسب على جلد الجبهة مثل نفخة طفيفة تمر على الحاجبين أو الملاطفة الأولى شبه الأثيرية– التي هي فن خاص وسرّ لم يكتشف حتى اليوم– لتلك الحوريات رائعات الجمال اللاتي ينتظرن المؤمنين في جنة محمد. سرّ مكنون، وأيضاً معجزة– إن لم تكن غموضاً مُستغلقاً– فضيلة استعادتهن للعذرية فور فقدانها، إنه نعيم علويّ في جنة الخلد يدل في نهاية المطاف على عدم خلاصهن بهذا من الأعمال الخاصة وعمل الغير، وكذا من المعاناة غير المستحقة. لم يفتح المؤذن عينيه، مازال يمكنه الاستمرار مستلقياً لبعض الوقت بينما تقترب الشمس رويداً رويداً

من أفق الأرض، ومادامت بعيدة عن الوصول إلى أن يرفع ديك بالمدينة رأسه لاستقصاء حركة النهار. بالتأكيد نبح كلب ولكن دون نتيجة لأن الآخرين مازالوا نائمين، يحلمون- ربما- بالنباح في المنام. إنه حلم- يظنون- ويستمرون في النوم، محاطين دون شك بعالم مُشَبَّع بروائح مُحفزة، ليس من بينها جميعاً رائحة مُلِحَّة تجعلهم يستيقظون فزعين مثل الرائحة المتميزة للتهديد أو الخوف، مُكتفين من الأمثلة بذكر اثنين أساسيين منها. نهض المؤذن مُحَرِّراً في الظلمة، عثر على ملابس تغطى بها وخرج من الغرفة. كان المسجد غارقاً في الصمت، الخطوات غير الواثقة فحسب كانت ترنّ تحت الأقواس، جرجرة قدمين حذرتين كما لو كانتا تخشيان ابتلاع الأرض لهما. لم يتجشم من قبل- في أية ساعة أخرى من النهار أو الليل- ضيقاً أمام المستور كالذي يتجشمه في هذه اللحظة الصباحية التي سيصعد فيها سلم المئذنة للنداء على المؤمنين بالصلاة الأولى. قلق خرافيّ كان يجعله يتمثل في مخيلته الجرم الخطير لاستمرار قاطني المدينة في النوم بعد أن تكون الشمس قد أخذت مكانها فوق النهر، واستيقاظهم المفاجئ مذهولين من الضوء الساطع، فيصرخون متسائلين: أين كان المؤذن الذي لم يرفع عقيرته بالنداء في الوقت المناسب، ولن يعدم المقام أحداً شفوقاً ليقول: ربما أقعده المرض، في حين أنه اختفى، نعم، أخذه شيطان مارد إلى جوف الأرض. السلم حلزونيّ، صعوده مُتعب، لاسيما إذا كان المؤذن مسنّاً، وإن كان لا يحتاج لحسن الحظ

أن يعصبوا له العينين تجنباً للدُّوار. حين صعد إلى أعلى أحس على وجهه طراوة الصباح وذبذبة ضياء الفجر، حتى الآن بلا لون، لا يمكن أن يكون ذلك الوضوح الصافي الذي يسبق النهار ويلمس- كأنه أصابع غير مرئية- الجلد فيرتعش بخفة، انطباع فريد يحمل إلى الظن بأن التقليل من شأن الإبداع الإلهي ليس في نهاية المطاف- إذلالاً للمتشككين والزنادقة- سوى صناعة ساخرة للتاريخ. مرر المؤذن يده ببطء على الحاجز الدائري حتى عثر على العلامة المنحوتة في الحجر والتي تشير إلى جهة مكة، المدينة المقدسة. كان جاهزاً. بضع لحظات أخرى لإفساح الوقت كي تطل الشمس بهالتها الأولى على شرفات الأرض، ولجلاء الصوت أيضاً، فالعلم الجهاريّ لمؤذن يجب أن يكون جليّاً منذ الصيحة الأولى التي ينبغي أن يعلن فيها عن نفسه، وليس عندما تكون الحنجرة قد أُرهفت بفعل الكلام أو سلوى الطعام. تحت قدمي المؤذن توجد مدينة، إلى جوارها نهر، الكل مازال نائماً، ولكن في قلق. يبدأ النهار في التحرك فوق المنازل، يتحول جلد الماء إلى مرآة للسماء، عندئذ يأخذ المؤذن نفساً عميقاً ويؤذن بصوت حاد «الله أكبر»، معلناً على أجنحة الهواء عظمة الإله، ويكرر، كما يؤذن ويكرر الصيغ التالية بصوت طروب نشوان، آخذاً العالم شاهداً على أن «لا إله إلا الله» وأن «محمداً رسول الله»، وبعد نطقه بهذه الحقائق الجوهرية ينادي على الصلاة «حيّ على الصلاة»، ولأن الإنسان كسول بطبعه رغم

إيمانه بقدرة ذلك الحي الذي لا ينام، يوبخ المؤذن بتحنان أولئك الذين مازالت جفونهم ثقيلة «الصلاة خير من النوم»، ثم يختم في النهاية معلناً «لا إله إلا الله» ولكن الآن لمرة واحدة، فهي أكثر من كافية مادامت تتعلق بحقائق قطعية. تغمغم المدينة النداءات، ظهرت إرهاصات الشمس فأضاءت الأسطح، لن يتأخر ظهور القاطنين في الأفنية. المئذنة غارقة في الضوء. المؤذن أعمى.

لم يصفه المؤرخ هكذا في كتابه، بل يقول فحسب إن المؤذن صعد إلى المئذنة ومن فوقها نادى على المؤمنين للصلاة في المسجد، دون تفاصيل عرضية مثل التوقيت الذي حدث فيه هذا، إن كان صباحاً أو ظهراً أو ساعة الغروب، لأن التفاصيل الصغيرة– طبقاً لرأيه الصائب– لا تهم التاريخ، المهم أن يكون القارئ على قناعة بأن المؤلف خبير بشؤون ذلك الزمن بالقدر الذي يؤهله للخوض فيه خوضاً مسؤولاً. يجب أن نشكره على هذا لأن موضوع كتابه المتعلق بالحرب والحصار، أي برجوليات فذة، يعفيه من رخاوات صلاة هي الأشد انقياداً من بين جميع المواقف إذ يستسلم فيها المصلي دون قتال. وحتى لا يظل دون اختبار واعتبار ما هو مخالف لهذا التناقض بين الصلاة والحرب يمكن أن نتذكر هنا والآن، اعتماداً على قُرب الزمن وعلى الشواهد الجمّة الشهيرة التي مازالت حية، يمكن أن نتذكر هنا، نكرر، المعجزة ذائعة الصيت التي جرت في

«أوريكي»، عندما تجلّى المسيح للملك البرتغالي فصاح فيه الأخير بينما جيشه يجثو على الأرض باكياً: عليك بالكافرين يا إلهي، عليك بالكافرين، لا عليّ، فأنا لا أشك فيما يمكنك صنعه، ولكن المسيح- واحسرتاه- لم يرد الظهور للمسلمين، لأنه لو تجلّى لهم لكان يمكن اليوم، بدلاً من الحديث عن المعركة البشعة، أن نسجل في هذه الحوليات التحول المدهش إلى المسيحية لمائة وخمسين ألفاً من البرابرة قضوا نحبهم هناك، قمامة أنفس لتهدئة روْع السماء. وهكذا، فكل شيء لا يمكن تفاديه، ونحن لا نعيب الرب مطلقاً بنصائحنا الحسنة، ولكن القدر له قوانينه الصارمة، وكم من المرات بآثار غير متوقعة وفنية، والأثر الأخير يتجلى في استطاعة «كامونس» الاستفادة من الصرخة الملتهبة، موزعاً إياها على بيتين خالدين من الشعر. حقاً، لا شيء في الطبيعة يستحدث ولا شيء يُفقد، الكل مُستفاد منه.

كانت أزماناً طيبة ومحمودة، تلك التي إذا أراد الواحد فيها تلقي صنفاً من صنوف الخير فما عليه سوى طلبه بالكلمات المناسبة، حتى لو كان الأمر يتعلق بحالات صعبة كحالة المريض الذي لا يُرجى بِرْؤُه ولا أمل في علاجه. وخير مثال على ما تقدم هذا الملك نفسه الذي وُلد بساقين صغيرتين كليلتين- أو ضامرتين، بكلام هذه الأيام- وشُفي تماماً بأعجوبة دون أن تمتد إليه يد طبيب، وإن

كان لن ينفعه في شيء امتداد أيادي الأطباء جميعهم. إنه حتى رغم كونه شخصاً قد اختارته الأقدار للتتويج ملكاً فيما بعد، فلا توجد إشارات تفيد بأنه كان من الضروري إزعاج صاحبي المقام السامي– نقصد العذراء والرب– أو ملائكة المرتبة السادسة، لكي يستعيد الصحة التي بفضلها– كما هو معلوم الآن– نالت البرتغال استقلالها. أصل الحكاية أن «دون إيجاس مونيث»– مؤدب الطفل «أفونسو»– بينما كان نائماً في سريره تجلّت له «سانتا ماريا» وقالت له: كفاك نوماً يا «دون إيجاس مونيث»، ولمعرفة ما إذا كان نائماً أو مستيقظاً سألها للتأكد: من أنتِ أيتها السيدة، فأجابته في نبرة ودّ: أنا العذراء، آمرك بالذهاب إلى «كاركيري» الواقعة في زمام «ريسندي» لكي تحفر في مكان كذا هناك وسوف تعثر على كنيسة كانت قد شُيدت على اسمي منذ زمن، أصلحها وأعدها إلى ما كانت عليه فإنها في حاجة إلى هذا الإصلاح بعد إهمال طويل ومؤسف، ثم اعتكف فيها صائماً، وضَعْ الطفل في المذبح وسوف يتعافى في التوّ واللحظة، اعتن به جيداً بعد ذلك لأني على علم بأن «ابني» لديه فكرة إسناد مهمة تدمير أعداء الدين له، وبالطبع فإنه لن يستطيع تنفيذ المهمة بساقين قصيرتين هكذا. استيقظ «دون إيجاس مونيث» مبتهجاً، لملم الأفراد، وعلى متن بغلته شدّ الرحال إلى «كاركيري» وأمر بالحفر في المكان الذي أشارت إليه العذراء فعثر على الكنيسة المدفونة، ولكن الدهشة من هذا الأمر تخصنا نحن، لا تخصهم،

لأن البلاغات العلوية في تلك الأزمان المباركة لم تكن خادعة ولا مجانية، ومصدر الدهشة يكمن في أن «دون إيجاس» لم يقم في واقع الأمر بتنفيذ ما أملته عليه العذراء حرفياً، فقد أمرته- كما هو مذكور من قبل بوضوح- أن يقوم هو شخصياً بالحفر- حسب فهمنا -، وماذا فعل، أمر آخرين بالقيام بالحفر، والأقرب إلى الاحتمال أنهم كانوا ممن يُطلق عليهم «عبيد الأرض» ففي تلك الأزمان كانت موجودة هذه الفوارق الاجتماعية. ونشكر للعذراء عدم تدقيقها في هذه التفاهات وإلا كانت قد اشتاطت غضباً وجعلت ساقي الصغير «أفونسو» تضمران ثانية، فكما توجد للخير معجزات كانت هناك أخريات للشر، وخير شاهد على النوع الثاني خنازير الكتاب المقدس التعيسة التي ألقت بنفسها من حالق عندما وضع «يسوع الطيب» في أجسادها الشياطين التي كانت حبيسة في جسد الممسوس، مما نجم عنه تجشم تلك الحيوانات البريئة دون غيرها مرارة الاستشهاد، وأعظم خطراً مما سبق ما كان من أمر هبوط الملائكة العُصاة- التي أصبحت شياطين فيما بعد- في مناسبة التمرد المعروفة وللعلم، لم يمت منهم أحد، وهو ما لا يمكن غفرانه للرب، سيدنا، لأنه ترك بهذا الإهمال فرصة القضاء على سلالتهم دفعة واحدة، وفي هذا يصدق المثل القائل: من يترك فرصة موت عدوّ من يده، ليته لا يندم يوماً بعد فوات الأوان. وهكذا، فلو كان لديه وقت في تلك اللحظة المشؤومة لاسترجاع ذكريات حياته الماضية، نأمل في اهتدائه وتفهمه أنه كان

من الواجب عليه أن يوفر علينا جميعاً- بشراً وخنازير هشة- هذه الآثام والمعاصي ومعاناة السخط والتي هي- كما يُقال- أثر وعلامة للخبث. بين المطرقة والسندان، نحن حديد مُحْمَرّ، من شدة الطرق عليه ينطفئ.

والآن كفى تاريخاً مقدساً. ما يهم هو معرفة من الذي كتب حكاية ذلك الاستيقاظ الرائع للمؤذن في فجر لشبونة، بما تحويه من تفاصيل واقعية كثيرة بحيث تبدو وكأنها عمل شاهد عيان أو، على الأقل، نتيجة لمهارة الاستفادة من وثيقة معاصرة، ليست بالضرورة متعلقة بلشبونة، لأن الأمر لا يحتاج لأكثر من مدينة ونهر وصباح وضّاح، ومسألة العثور على ثلاثتهم مجتمعين هيّنة كما نعرف. الإجابة غير متوقعة، فعلى خلاف ما يبدو، لم يكتبه أحد، ليس مكتوباً، لأنه كله ليس إلا أفكاراً مبهمة في رأس المصحح تجمعت لديه خلال قراءة ومراجعة ما لم يرضَ عنه في البروفة الأولى والثانية. لدى المصحح موهبة الانفصام الفذّة عند تأديته لعمله أو إدراجه لفاصلة مؤكدة، كما يتمتع أيضاً بالقدرة على الانقسام بحيث يستطيع تتبع الطريق الذي توحي به صورة أو مقارنة أو استعارة، ولذا فليس بغريب أن تقوده- من خلال عملية الربط- النغمة البسيطة الناجمة عن تكرار كلمة بصوت منخفض إلى تشييد عمارات لغوية متعددة الأصوات تحوّل مكتبه الصغير إلى مساحة متضاعفة، رغم أنه من الصعب شرح

معنى هذا بكلمات دارجة. يبدو للمصحح أن ما أورده المؤرخ في هذا الشأن قليل، وأن مجرد ذكره للمؤذن والمئذنة كان- لو كان مسموحاً بآراء سيئة الظن- بقصد إضفاء مسحة من اللون والمداد التاريخيين على ميدان الأعداء، وينبغي تصحيح عدم الدقة الدلالية لكلمة ميدان هنا لأنها تناسب المحاصِرين لا المحاصَرين الذين كانوا ما يزالون ينعمون بالاستقرار في مدينتهم التي هي تحت أيديهم- باستثناء فترات متقطعة- منذ عام سبعمائة وأربعة عشر، طبقاً لتقويم المسيحيين، لأن حساب المسلمين للزمن مختلف كما هو معروف. وهذه الإضافة من عمل المراجع الذي يتمتع بمعرفة لا بأس بها بالنسبة للتقويم الزمني، فهو يعرف أن العام الهجري قد بدأ- طبقاً لدرس «فن تحقيق التواريخ» المهم- في السادس عشر من يوليو عام ستمائة واثنين وعشرين بعد ميلاد المسيح، وبما أن العام الهجري المرتبط بمنازل القمر أقصر من نظيره المسيحي المحكوم بالشمس فإن الأول يقل عن الثاني بمقدار ثلاث سنوات كل قرن. يمكن أن يكون ممتازاً هذا المصحح المدقق لو اعتنى بتعطيل أجنحة تفكيره المولع بتهويمات عرضية غير مسؤولة تدفعه لارتكاب أخطاء واضحة والانسياق وراء إضافات مشكوك فيها، ومنها توجد هنا ثلاث، لو ثبتت عليه فإنها تدل في النهاية أن المؤرخ لم يكن لديه أدنى حق عندما نصحه بالتخصص في التاريخ. أما بالنسبة للفلسفة، فنستعيذ بالله منها.

والنقطة الأولى المشكوك فيها تتعلق- وفقاً للترتيب العكسي

للحكاية- بوجود علامة، أقرب الظن أنها على شكل سهم، منقوشة على حجر في حاجز المئذنة تشير باتجاه مكة. فرغم التقدم الكبير الذي يمكن أن يكون عليه في ذلك العصر العلم الجغرافي والمساحيّ لدى العرب والمسلمين، فمن غير المعقول أنهم كانوا يعرفون تحديد- بالدقة التي تستوجبها الكلمة- مكان كعبة على سطح كوكب الأرض حيث تكثر الحجارة، البعض منها أشد تقديساً من البعض الآخر. فكل هذه الأشياء- سواء كانت تبجيلات أو انحناءات أو سجدات أو نظرات نحو أعلى أو أسفل- يتم تحديدها بشكل تقريبي أو- لو سمحنا لأنفسنا باستخدام لغة صيّاد غاب- بالاعتماد على مجرد الإصابة بالنظر، المهم في النهاية هو أن يتمكن الرب والله من قراءة المسطور في القلوب ولن يأخذا على محمل سيئ إرجاع الظهور لهما عن جهالة. إن تفادي البقع لا يتوقف- كما هو معروف- على خامة القماش، بل يُقال إنه حتى على أجودها تسقط بقعة، وبما أنه لا توجد أيضاً بقعة دون أخرى إلى جوارها فها هو الخطأ الثاني الذي هو فعلاً بالغ الخطورة، لأنه يمكن أن يحمل القارىء غير المتبصر- لو كان هذا مكتوباً، وهو لحسن الحظ ليس كذلك- إلى اعتبار وصف ما يفعله المؤذن بعد استيقاظه صحيحاً ومتناغماً مع وقائع الحياة الإسلامية. الخطأ يتجلى في عدم قيام المؤذن بالوضوء قبل النداء على الصلاة، وبالتالي ظهوره في حالة عدم طهارة، وهو وضع لا يحتمل التصديق إذا أخذنا في الاعتبار شدة القرب وقتذاك- أربعة

قرون ونيّف- من المنابع الأولى للإسلام، أي من مهده. أما فيما بعد، ومع اتساع رقعة الزمن، فلن ينقص التهاون والتراخي أو التبرم من الصيام أو التفسيرات المزعزعة لقواعد تبدو واضحة، إذ لا يوجد شيء يُتعب الأشخاص أكثر من المراعاة الصارمة للمبادىء، فقبل تسليم الجسد تكون الروح قد أصابها السَّقَمُ والهزال، ورغم هذا لا تُحاسب بل تنصب اللعنات والإهانات على الجسد المسكين. وإضافة إلى ما تقدم فقد كان ذلك الزمن هو زمن الإيمان الكامل، ومن ثمّ فإن المؤذن هو آخر شخص يمكن أن يُتصور صعوده إلى المئذنة دون طهارة الجوارح ونقاء القلب، وعلى هذا فهو بريء من الذنب الذي ألصقته به الرعونة التي لا تُغتفر للمصحح. ورغم الأهلية المهنية التي سمعناه يتحدث بها في أثناء حواره مع المؤرخ، فقد حان الوقت للكشف هنا عن أول الشكوك حول نتائج الثقة التي أودعها فيه مؤلف قصة حصار لشبونة، عندما أوكل إليه- ربما في لحظة تهاون أو لانشغاله بسفر قريب- مهمة القراءة الأخيرة للبروفات دون رقيب. تنتابنا الرجفة لمجرد تصور أن ذلك الوصف لاستيقاظ المؤذن يمكن أن يحتل مكاناً في النص العلمي للمؤلف، وكلاهما ثمرة للدراسات المتأنية والتحقيقات العميقة والمواجهات الدقيقة. تحوم الشكوك، على سبيل المثال، وإن كان من الفطنة المحمودة دائماً الشك في الشك ذاته، حول ما إذا كان المؤلف قد أشار في حكايته إلى نباح الكلاب أو إلى الكلاب أنفسها، لأنه يعرف أن

الكلب بالنسبة للمسلمين حيوان نجس، والخنزير أيضاً، ومن ثمّ فمن دلالات الجهل البيّن الظن بأن مسلمي لشبونة، الغيورين على دينهم، كانوا يعيشون مع الكلاب. فالحظائر الصغيرة المتسخة أمام أبواب المنازل، وبُييت الدرْواس، وسلال الكلاب صغيرة الحجم، كلها من اختراع المسيحيين، وليس من قبيل الصدفة أن يطلق المسلمون على محاربي الصليب لفظة كلاب، وإن لم يثبت- لحسن الحظ- أنهم نعتوهم بالخنازير. وإذا كان الأمر هكذا حقاً يتضح أنه من المؤسف خلوّ المشهد من كلب ينبح على القمر أو يهرش أذنه المعذبة بالهوام، لكن الحقيقة- لو عثرنا عليها في النهاية- يجب أن توضع فوق أي اعتبار، سواء كانت مع أو ضد، وبمقتضاها لا مفر هنا من إثبات أن الكلمات التي وصفت الفجر السلميّ الأخير للشبونة ليست مدونة ولا مكتوبة، وأن ذلك النص المزيف- رغم تماسكه، وهذا هو الخطر الأكبر- لم يخرج قط من رأس المصحح، ولم يكن سوى هذيان وخَرَف.

تثبت الدلائل إذن أن المراجع قد أخطأ، وإن لم يكن أخطأ فقد اختلط عليه الأمر، وإن لم يكن اختلط عليه الأمر فقد تخيل، وليأت ليَرميه بأول حجر ذلك الذي لم يخطئ ولم يختلط عليه الأمر ولم يتخيل قط. فالخطأ- قاله من يعرف- من طبع البشر، ومن لا يخطئ لا يعتبر إنساناً حقيقياً. ومع هذا لا يمكن بأي حال استخدام هذا المبدأ العلوي السامي بمثابة ذريعة كونية للتبرئة من أحكام عرجاء

وآراء كتعاء. من لا يعرف، يجب عليه التحلّي بخلّة التواضع فيسأل، وتحوّط جوهري مثل هذا يجب أن يضعه المصحح نصب عينيه دائماً، لاسيما أنه لا يستلزم الخروج من البيت أو المكتب الذي يعمل فيه الآن حيث لا تنقص كتب ترشده لو تحلى بالعقلانية والفطنة في نبذ الإيمان الأعمى بما يظن أنه يعرفه، فمن هنا تأتي الخدع الأشد سوءاً، وليس من الجهل. على هذه الأرفف المكتظة تنتظر آلاف وآلاف من الصفحات لمعان حب استطلاع أوليّ أو الضوء الراسخ المتمثل دوماً في شك يبحث عن استنارة. يُحسب للمصحح في النهاية جَمْعه خلال مشواره المهني، طوال حياة بأكملها، مصادر كثيرة ومتنوعة للمعلومات، مع إن نظرة بسيطة إلى فهارسه تبين لنا أنه مازالت تنقصه تكنولوجيا المعلومات، ولكن المال لا يتسع للأسف لكل شيء، فهذه المهنة– وقد آن الأوان لقوله– تعتبر من الأقل عائداً في شتى أنحاء المعمورة. وسوف يأتي اليوم، بعون الله، الذي تتوافر فيه، لكل مصحح كتب، وصْلة كمبيوتر تربطه ليلاً ونهاراً– من خلال حبلها السري– بالبنك المركزي للمعلومات، دون أن يكون عليه أو علينا سوى الدعاء بألا يكون من بين بيانات هذه المعرفة الشاملة الخطأ الوسواس، كمثل الشيطان في الدير. وإلى أن يأتي هذا اليوم الموعود، ها هي الكتب مثل مجرّة نابضة، والكلمات فيها غيمة غبار كونية أخرى طافية، في انتظار نظرة تثبتها في معنى أو تبحث فيها عن المعنى الجديد، فكما تتغير شروحات الكون تتغير

أيضاً الأحكام التي كانت تبدو من قبل دائمة وصالحة لكل شيء، ولكنها توعز فجأة بتفسيرات جديدة قد تكون واضحة التناقض. هنا، في هذا المكتب، حيث لا يمكن أن تكون الحقيقة سوى وجه واحد فوق أقنعة متنوعة لا نهائية، توجد القواميس المعتادة في اللغة والمصطلحات: قواميس «مَوْرا» و«أوريليوس» و«تورينهاس» وبعض كتب القواعد، وكتاب المصحح الكامل (كتاب جيب المهنة)، كما توجد أيضاً كتب في تاريخ الفن، والعالم، والرومانيين، والفرس، والإغريق، والصينيين، والسلافيين، والبرتغاليين، أي لمعظم ما يمكن أن يكون شعباً أو أمة قائمة بذاتها، وتاريخ العلوم، والآداب، والموسيقى، والأديان، والفلسفة، والحضارات، «لاروس» الصغير، «كيليت» المختصر، «روبرت» الموجز، الموسوعة السياسية، الموسوعة البرتغالية البرازيلية، دائرة المعارف البريطانية (غير كاملة)، قاموس التاريخ والجغرافيا، أطلس العالم، أطلس «جواو سواريس»، الحوليات السنوية، قاموس المعاصرين، السيرة الذاتية للعالم، مرشد بائع الكتب، قاموس الخرافات والأساطير، قاموس المكتبة البرتغالية، قاموس الجغرافيا المقارنة والقديمة والوسيطة والحديثة، الأطلس التاريخي للدراسات المعاصرة، القاموس العام للآداب، والفنون الجميلة، والعلوم الأخلاقية والسياسية، ولكي ننتهي، بذكر ما هو في متناول نظرنا فحسب، القاموس العام للسير الذاتية، والتاريخ، والأساطير، والجغرافيا القديمة والحديثة، العاديات والمؤسسات

الإغريقية، والرومانية، والفرنسية، والأجنبية، دون نسيان قاموس الغرائب والعجائب والطرائف الذي يحتوي- في مصادفة مدهشة تأتي على مقاس هذه الحكاية المخترعة- على مثال للخطأ الذي نتحدث عنه، وهو يتمثل هنا في تأكيد أرسطو على أن الذبابة المنزلية الشائعة لها أربع رجيلات، وقد ظل المؤلفون اللاحقون يكررون هذا النقص الحسابي جيلاً بعد جيل، في حين أن الصبية يعرفون- من خلال القسوة والتجريب- أن لها ست رجيلات، إذ أنهم لا يزالون منذ عهد أرسطو ينتزعون منها هذه الرجيلات، متلذذين بتعدادها: واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس، ست، وعندما يكبر هؤلاء الصبية ويقرأون للعالم الإغريقي يقول بعضهم للبعض الآخر «الذبابة لها أربع رجيلات»، إن سلطة التعليم بوسعها الكثير وكثير أيضاً ما تعانيه الحقيقة بالدرس الذي يعطوه لنا عنها باستمرار.

نستنتج من هذه الإغارة المفاجئة على حدود علم الحشرات أن الأخطاء المنسوبة للمصحح ليست في نهاية المطاف له، بل لتلك الكتب التي لم تفعل سوى تكرار ما جاء في الأعمال الأقدم منها دون تمحيص، ومادام الأمر كذلك، فإننا نشفق على كل من صار ضحية بريئة لحسن نيته ولأخطاء الغير. حقيقة أننا لو تلطفنا هنا أكثر فسوف نعود للوقوع في براثن الذريعة الكونية التي شجبناها من قبل، لكننا لن نفعل هذا إلا بشرط مسبق، ألا وهو أن يأخذ المصحح

في الاعتبار– وهذا لصالحه– الدرس الرائع لباكون عن الأخطاء والوارد في كتابه الذي يحمل عنوان: Novum Organum. يقسم «باكون» الأخطاء إلى مستويات أربعة: أخطاء الطبيعة البشرية، أخطاء شخصية، أخطاء لغوية، وأخيراً، أخطاء الأنظمة. وأخطاء المستوى الأول ناجمة عن عدم كمال الحواس، وتأثير الأفكار الضارّة وجموح الرغبات، وعادة الحكم على كل الأشياء انطلاقاً من أفكار مكتسبة، وحب استطلاعنا النّهم رغم القدرات المحدودة للأنفس، ومن الميل لإيجاد تشابهات أكثر مما هو موجود منها فعلاً بين الأشياء. ومصادر المستوى الثاني من الأخطاء ترجع إلى التفاوت بين النفوس التي يتوه بعضها في الصغائر بينما يضلّ بعضها الآخر في العموميات، كما ترجع أيضاً إلى تفضيلنا لعلوم معينة، مما يجعلنا نميل إلى إخضاع كل شيء لها. وبالنسبة لأخطاء المستوى الثالث، المتعلق باللغة، فالسوء يكمن في أن الكلمات لا تحتوي في معظم الأحيان على معنى، أو يكون لها معنى ولكنه غير محدد، أو يمكن حملها على مدلولات عكسية. أما أخطاء المستوى الأخير، المتعلق بالأنظمة، فهي تفوق الحصر بحيث لا يمكن الانتهاء منها مطلقاً إذا شرعنا هنا في تعدادها. على المصحح إذن الانصياع لهذا التصنيف وسوف يحالفه النجاح، وليستفد كذلك من حكمة «سنيكا» المتحفظة والمناسبة أيضاً لأيامنا هذه، والتي تقول:

Onerat discentem turba, non instruit.. هذه الحكمة

الثمينة التي كانت والدة المصحح- دون علمها باللاتينية، ورغم ضآلة معرفتها للغتها الأم- تترجمها منذ سنوات طويلة خلت في ارتياب طبيعي على النحو التالي: عندما تقرأ أكثر، تعرف أقل.

بهذا الامتحان والإجابات تم إنقاذ شيء ما بالتأكيد، ألا وهو إثبات أنه لم يكن خطأ كتابة- لأنه في النهاية مكتوب- أن المؤذن أعمى. ربما يجهل المؤرخ، الذي يتحدث فحسب عن مؤذن ومئذنة، أن معظم المؤذنين في ذلك العصر- ولزمن طويل بعده- كانوا عمياناً. لو كان المؤرخ يعلم هذا فلربما تصور أن المكفوفين لديهم ملكة خاصة وميل فطري للنداء على الصلاة، أو أن المجتمعات الإسلامية كانت تحلّ هكذا، جزئياً، مشكلة بطالة المحرومين من نعمة البصر. وهذا خطأ آخر له يُلحق الضرر دون تمييز بأشياء كثيرة. ليعلم المؤرخ أن المؤذنين كانوا- طبقاً للحقائق التاريخية- يُختارون من بين العميان، ليس انطلاقاً من نهج إنساني لمكاتب العمل أو من مبدأ مراعاة الملاءمة الفسيولوجية للمهنة، بل لعدم استطاعتهم هتْك ستر الأفنية والأسطح التي تُشرف عليها المئذنة من علٍ. لا يتذكر المصحح كيف عرف هذا، لقد قرأه بالتأكيد في كتاب موثوق به ولم يعدّل فيه الزمن، ومن ثمّ يمكن الإصرار على المعلومة التي تقول إن المؤذنين كانوا عمياناً، نعم يا سيدي. كلهم تقريباً. إنه لا يستطيع فحسب- عندما يحلو له التفكير فيما تقدم- أن يطرد من داخله

الشك فيما إذا كانوا يقتلعون لهؤلاء الرجال أعينهم المضيئة، مثلما كان يُفعل- وربما ما يزال يُفعل- بالعنادل حتى لا تعرف من الضوء مظهراً آخر سوى صوت مسموع في الغياهب، صوتهم، أو ربما صوت ذلك «الآخر» الذي لا يعرف سوى تكرار الكلمات التي نخترعها، هذه الكلمات التي نحاول بها قول كل شيء، تباريك ولعنات، حتى ذلك الشيء الذي لن يحمل اسماً على الإطلاق، غير القابل للتسمية.

* * *

المصحح له اسم، يُدعى «رايموندو». لقد حان الوقت لمعرفة من هو الشخص الذي نتحدث عنه من البداية دون ذكر اسمه، هذا إذا كان الاسم واللقب قد نفعا من قبل في إضافة فائدة ملموسة إلى المرجعيات المعتادة والبيانات المجملة الأخرى مثل السن، القامة، الوزن، اللغة، لون الجلد والعينين، الشعر (مسترسل أو متجعد أو متموج أو- ببساطة- غير موجود)، معدن الصوت (رائق أو أجش)، الحركات والإيماءات المميزة، طريقة المشي... لقد أظهرت الخبرة بالعلاقات الإنسانية- ونحن نعرف هذا، وما هو أكثر منه أحياناً- أن مثل هذه الأوصاف لا تفيدنا بشيء ولا تجعلنا قادرين حتى على تخيل ما ينقصنا لمعرفة شخص ما معرفة حقيقية. وعلى العكس فقد تفيد تجعيدة فحسب، أو غِلظ معصم، أو شكل الأظفار، أو خط الحاجبين، أو نُدبة قديمة وغير مرئية، أو اللقب الذي لم يُذكر، ذلك اللقب المحبوب، وهو في هذه الحالة «سيلبا». الاسم الكامل إذن هو: رايموندو سيلبا، هكذا يقدم نفسه حين يستلزم الأمر، مُغفلاً

ذكـر «بينبينيدو»[1] الذي لا يحبه. لا يرضى أحد بما حباه به القدر، ورايموندو سيلبا الذي كان من المفروض احتفاؤه بلقب «بينبينيدو» فوق أي شيء آخر لما يحمله من معنى جميل وهو الترحيب به في الحياة، لا يعجبه اللقب. لحسن الحظ- يقول- اختفاء عادة أن يكون الإشبين هو صاحب القرار في اختيار الأسماء الأعلام، رغم أنه لا يُخفي إعجابه الشديد باسم رايموندو لما يتضمنه من مهابة ولما هو عليه من قِدم، حسبما يوضح مُعَلّلاً. كان الوالدان يطمحان في تأمين مستقبل الابن بجزء من أملاك السيدة التي كانت إشبينته، ولذا خالفا عادة خلْع الإشبين- زوجها- للقبه فحسب على الطفل عند تعميده، وأضافا إليه أيضاً لقب الإشبينة بعد تحويله إلى صيغة المذكر. نعرف جيداً أن القدر لا يُعنى بالأشياء على نسق واحد، وفي هذه الحالة لا مفرّ من الاعتراف أن هناك تلازماً ما بين الأملاك التي لم يستفد منها البتة وبين اللقب المرفوض شكلاً وموضوعاً، ورغم أنه لا يجب أن تحملنا الشكوك إلى الظن بوجود علاقة سبب بأثر بين خيبة الأمل والرفض. دواعي رفضه للقب لا ترجع مطلقاً إلى شعوره في أية لحظة من حياته بالإخفاق الحقود، بل تعود اليوم إلى سببين: أحدهما جماليّ خالص، ويتمثل في سوء جرْس الكلمة المركبة من

(1) Bienvenido ، كلمة مركبة تعني: مُرَحَّب به، وإذا كانت بين علامتي تعجب يكون معناها: أهلاً وسهلاً أو مرحباً. وهي هنا لقب لعلم مذكر، ويمكن أن تكون لمؤنث بتغيير الحرف الأخير فيها من O إلى A. وأكثر الأسماء والألقاب لها معانٍ في اللغة الإسبانية (ومنها هذا اللقب) كما هو الحال أيضاً في اللغة العربية (المترجم).

ظرف واسم مفعول، أما الثاني فأخلاقي وجوديّ، لأن محاولة حْمل شخص ما على الاعتقاد بأنه حقاً مُرحَّب بقدومه إلى هذا العالم في الوقت الذي هو موجود ومستقر جيداً فيه، تعتبر- طبقاً لفهمه المُعْوَج- بمثابة مزحة سوداوية مريرة.

من الشرفة الصغيرة القديمة التي تظلُّها سقيفة خشبية مازالت تحتفظ بنقوشها اليدوية، يُرى النهر، إنه بحر شاسع ما يبلغه النظر بين مجال ومجال، من الخط الأحمر للقنطرة حتى أراضي «بانكاس» و«الكوتشيتي» المنبسطة الموحلة. ضباب كثيف يسد الأفق ويجعله في متناول اليد تقريباً، وأسطح البيوت تهبط في درجات حتى المياه البنية العكرة حيث ينفتح أثر أبيض آبق عند مرور سفينة، توجد أخريات تُبحر بصعوبة، ثقيلات، كأنهن يصارعن تياراً من الزئبق، ويبدو أن التشبيه الأخير مناسب أكثر للمساء لا لهذه الساعة من النهار. استيقظ رايموندو سيلبا متأخراً بعض الشيء عن المعتاد، لقد عمل حتى ساعة متأخرة من الليل، في سهرة طويلة وشاقة، وعندما فتح صباحاً النافذة لفحه ضباب أشد كثافة مما نراه في منتصف النهار، حين يقرر الجو- كما يقول المثل الشعبي- إذا كان سَيُثقل ويكدّر أو يخفف ويرحم. لم تكن أبراج الكاتدرائية وقتئذ سوى بقع منطفئة، ومن لشبونة لم يكن يبقى سوى حفيف أصوات وطنين مبهم، إطار النافذة، السطح المجاور، وسيارة أمامها شارع بكامله. كان المؤذن

الأعمى قد أذّن في فضاء مَضيء، متورد، ثم أزرق، والأخير- إن جاز لنا الوثوق في الأعين القاصرات التي أتينا بهن إلى العالم- هو لون الهواء بين الأرض تحتنا والسماء التي تغطينا، لكن المصحح- الذي هو اليوم شديد العمى مثله- دمدم فحسب، بضجر من لم ينم جيداً لانشغاله بأحلام حصار وسيوف طويلة وأسياف محدبة ومقاليع بليارس[1]، مغتاظاً عند الاستيقاظ لعدم استطاعته تذكر كيف كانت مصنوعة ماكينات الحرب هذه- نقصد المقاليع-، لكن يجب علينا عدم الانسياق الآن وراء غواية سبق الأحداث، وقَصْر أسفنا على الفرصة الضائعة لمعرفة أية آلات كانت هذه المقاليع وكيف كانت تُزخّر وتطلق، لأنه ليس بغريب أن تكشف عن نفسها في الأحلام التي تحوي أسراراً عظيمة، ليس من بينها بالطبع الرقم الفائز في اليانصيب لأن مثل هذه التفاهة لا تليق بأي حالم يحترم نفسه.

يتساءل رايموندو سيلبا متحيراً، وهو مازال في السرير، عن سبب إصراره في التفكير في مقاليع بليارس- أو المجانيق، كما يُقال أيضاً دون منافاة للصواب- فكلمة بليارس لا ينبغي أن تكون لها علاقة

(1) Baleares (بليارس) هي الجزر الإسبانية المعروفة بهذا الاسم، وتقع في البحر المتوسط. والفعل Balear (بليار) يعني إطلاق النار علي، ومنه كلمة Bala (بالا) بمعنى طلقة أو قذيفة. وتنسب المقاليع إلى هذه الجزر فيقال «مقاليع بليارس» لأن سكانها القدماء كانوا مشهورين بهذا النوع من المقاليع أو المجانيق. وسوف يتضح هذا كله في الفقرات التالية من الرواية (المترجم).

بالجزر التي تحمل الاسم نفسه، بل هي مشتقة من «Balas» التي تعني قذائف، كما نعرف، أي الحجارة التي كانت تقذفها الماكينات على الحوائط ومن فوقها لكي تسقط على البيوت وعلى الخلائق المذعورة بداخلها، ولكن كلمة «Balas» لم تكن معروفة في ذلك العصر، والكلمات لا يمكن نقلها بطيش من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هنا، حذارِ، فقد يظهر بعد ذلك من يقول: أنا لا أفهم. تناوم، ظل هكذا عشر دقائق، وعندما استيقظ من جديد، الآن نافذ البصيرة، نَحّى عن تفكيره الماكينات التي كانت تلح في العودة وسمح لصور السيوف الطويلة والقصيرة المحدّبة بالاحتلال الخطير لروحه، ابتسم في الظلمة الخفيفة للحجرة، لأنه يعرف جيداً أنها رموز واضحة لعضو الذكورة، صحيح أن «قصة حصار لشبونة» هي التي جلبتها إلى الحلم لكنها متجذرة فيه، من يشك في جذور الأسلحة ذات الطرف والسّنان، لاسيما إذا كانت مغروزة، نعم إنها هكذا وتكفي نظرة إلى السرير الخالي إلى جواره لفهم كل شيء. عقف ذراعيه فوق عينيه وهو مستلق على ظهره، همهم في غير ابتكار: يوم آخر لم يُسمع فيه صوت المؤذن، كيف يستطيع مسلم أصم تدبير أمره حتى لا يتخلف عن الصلوات، لاسيما صلاة الفجر، سوف يطلب بالتأكيد المعونة من جاره: توكل على الله وناد على الباب بقوة ولا تتوقف عن الدقّ حتى يفتح لك. الفضيلة ليست شديدة السهولة مثل الرذيلة، لكن يمكن أن يُستعان عليها.

لا تعيش امرأة في هذا البيت. تأتي واحدة من الخارج مرتين في الأسبوع، ولكن لا يجب أن يظن أحد بأن ذلك المكان الشاغر من السرير له علاقة بتلك الزيارة نصف الأسبوعية، ولوضع الأمور في نصابها من الآن نقول إن المصحح لكي يرتاح من الضغوط الأشد قسوة للحم ينزل إلى المدينة، يتعاقد، يُشفي غلّته ويدفع، كان عليه أن يدفع دائماً حتى مع انتفاء البهجة. المرأة التي تأتي من الخارج هي من هذا النوع الذي نطلق عليه خادمة أو وصيفة، تُعنى بثيابه، ترتب وتنظف ما هو أساسي في البيت، تضع على الموقد حلّة كبيرة من الحساء، دائماً هو نفسه، حساء فاصوليا بيضاء وخضروات يكفي لعدّة أيام، ولا يعني هذا أن المصحح عزوف عن الطيبات، لكنه يحتفظ بها للمطعم الذي يذهب إليه من وقت إلى آخر، دون أن يصل هذا إلى درجة المواظبة أو الاعتياد. لا توجد، إذن، امرأة في البيت، ولم توجد قط. المصحح رايموندو سيلبا رجل أعزب، ولا يفكر في الزواج. عمري يزيد- يقول لنفسه- عن خمسين سنة، من هي التي ستحبني أو أحبها، وإن كان من الأسهل- كما يعرف الجميع- أن أحب من أكون محبوباً، والتعليق الأخير الذي يبدو وكأنه صدى لألم ماضٍ تحول اليوم إلى حكم نهائي لا يُفصح به إلا لأهل الثقة من المقربين، وهو يحدث نفسه بهذا التعليق، فضلاً عن السؤال السابق له، لأنه رجل شديد التحفظ لا ينسكب أمام الأصدقاء الذين سيحظى بهم مستقبلاً، وإن كان من المحتمل- كما تمضي الأمور

حتى الآن– ألا تكون هناك ضرورة لاستدعائهم إلى القصة. ليس له أخوة أو أخوات، مات أبواه لا مبكراً ولا متأخراً، والعائلة– لو بقيت له عائلة– تمضي مبعثرة، لا تُضيف أخبارها– عندما تصل– سوى القليل إلى طمأنينة عدم امتلاكها، انقضت البهجة، الحداد لا يستحق العناء، الأشياء الوحيدة التي يحس فعلاً بقربها منه هي: الوقت الذي يمضيه في قراءة البروفات، والخطأ الذي يجب عليه إخراجه من مكمنه، وأيضاً القلق الذي لا يجب أن يكون له، بل للمؤلفين حاملي المجد والشهرة، ومنه هذا القلق الذي يعتوره الآن بسبب «مقاليع بليارس» التي عادت إلى تفكيره ولا تود مغادرته. نهض رايموندو سيلبا أخيراً، بحث عن الشبشب بطرف إحدى قدميه، ثم دخل المكتب وهو يلبس الرّوب فوق البيجامة. لا تملّ الخادمة من إسماعه التصريح المهيب بضرورة تنظيف تراب الكتب، لاسيما على الأرفف العالية حيث تصطف الكتب التي نادراً ما يرجع إليها، والتي تبدو مثل مستودع طمي لتراكم السنين، تراب أسود ورماد لا أحد يعرف مصدره، لا يمكن أن يكون من التبغ لأن المصحح أقلع منذ زمن عن التدخين، إنه تراب الزمن، والجملة الأخيرة تقول كل شيء. ودون أن يعرف جيداً لماذا، يتم إرجاء المهمة دائماً، إذ يراها محلولة أمام عينيه بعقد العزم عليها، هل لأن ذلك الشيء لا يعكر– كما يُظن– صفْو إنسان أصله صلصال أم أنه لا يريد أن يفوّت فرصة القول: حسناً، الذنب ليس ذنبي.

يبحث رايموندو سيلبا في القواميس والموسوعات، يتتبع كلمة «أسلحة» في العصر الوسيط، يتوقف عند «ماكينات الحرب»، يجد التوصيف المعتاد لترسانة ذلك العصر من الأسلحة البدائية التي كان لا يمكن التوصل بها آنذاك– ويا للخسارة– لقتل رجل محدّد أو ما يشبهه من مسافة مائتي خطوة، أما بالنسبة للصيد فقد كان على الصيّاد، إن لم يكن بيده قوس أو مقلاع، الاقتراب من ذراعي الدّب أو قرني الوَعْل أو أسنان الخنزير البريّ، ولا شيء يعدل الآن هذه المغامرة الخطيرة سوى مصارعة الثيران، إن مصارعي الثيران هم آخر الرجال القدماء. لا يوجد في أي مكان من هذه المجلدات الضخمة رسم يُعطي فكرة ولو تقريبية عن تلك الآلة المميتة التي أذاقت المسلمين ويلاتها، ولكن غياب مثل هذه المعلومات ليس جديداً على رايموندو سيلبا، وما يريد معرفته الآن هو سبب نسبة «المقلاع» إلى «بليار»، يتنقل بين الكتب، يعاود البحث، يتململ، إلى أن يسعفه في النهاية كتاب «Bouillet» المدهش ويعلّمه أن سكان جزر بليارس كانوا يُعتبرون في العصور القديمة أفضل من شهدهم العالم تخصصاً في المقاليع، ولذا أُطلق عليها اسم جزرهم، ومن المعروف أن الإغريقيين كانوا يعبرون عن الفعل «يقذف» بكلمة Balló، والمسألة بعد ذلك واضحة تماماً لأن أيّ مصحح بسيط قادر على تتبع خط الاشتقاق المستقيم الذي يصل Balló بـ Baleares، ولكن الخطأ مازال يكمن– يا سيدي الدكتور– في كيفية نسبة «مقاليع»

إلى الكلمة بعدها: فالصحيح أن يُقال «مقاليع بلياريكاس» لا «مقاليع بليارس». ورغم هذا فلن يقوم رايموندو سيلبا بتعديل هذا، انطلاقاً من أن شيوع الاستخدام يُكسب الخطأ بعضاً من حصانة- وإن لم تكن الحصانة كلها -، ومن جهة أخرى لأن أول وصية من الوصايا العشر للمصحح الذي يطمح في بلوغ مرتبة القداسة تتمثل في وجوب التزامه دائماً بإعفاء المؤلفين من ثقل المنغصات. ترك الكتاب في مكانه، فتح النافذة، وكان وقتئذ عندما لفحه الضباب الكثيف المستغلق، لو كانت مئذنة المسجد الجامع مازالت موجودة بدلاً من أبراج الكاتدرائية فلن يتمكن بالتأكيد من رؤيتها لما هي عليه من رهافة وأثيريّة تجعلانها غير محسوسة تقريباً، لكنه كان سيسمع حينئذ صوت المؤذن- لو كان الوقت وقت صلاة- هابطاً من السماء البيضاء، مباشرة من الله، الممتدح لذاته بما يستحق ولا نستطيع لوْمه كليّاً عليه.

كان الصباح في منتصفه عندما دق جرس الهاتف. إنه من دار النشر، يريدون معرفة أخبار التصحيح، كانت مونيكا- من قسم الإنتاج- هي التي بدأت بالكلام، وتتسم مثل كل العاملين في هذا القسم بعادة التنويه الدّالة على الجلال وهكذا قالت: سيد سيلبا قسم الإنتاج يسأل- وكأن صاحب الجلالة هو الذي يسأل -، وتُكرر كما كان يكرر مبشرو الملوك، قسم الإنتاج يسأل عن الانتهاء من مراجعة

البروفات. ولكنها- أي مونيكا- لم تفهم حتى الآن رغم قضائها شطراً كبيراً من حياتها في مكان عام أن رايموندو سيلبا يكره مخاطبته بسيلبا فحسب، لا لأنه يمقت اللقب بل لاحتياجه إلى رايموندو، ولذا أجاب بجفاء، جارحاً رهافة حس مونيكا: أخبريه أن العمل سيكون جاهزاً غداً. سوف أخبره يا سيد سيلبا، سوف أخبره، ولم تضف المزيد لأن شخصاً آخر التقط فجأة سّماعة الهاتف: هنا كوستا. وهنا رايموندو سيلبا- استطاع المصحح الرد. أعرف، أريد البروفات جاهزة اليوم، البرنامج متوقف، وإذا لم يدخل هذا الكتاب المطبعة غداً بسبب المراجعة فسوف يحدث مالا تحمد عقباه. لم تتجاوز المراجعة المتوسط الزمني المطلوب لمثل هذا النوع من الكتب والموضوعات وعدد الصفحات. دعك من المتوسطات أريد العمل منتهياً اليوم، ارتفع صوت كوستا وهذا مؤشر على وجود رئيس بالقرب منه، مدير أو ربما صاحب دار النشر نفسه. تنهد رايموندو سيلبا ليحتج قائلاً: المراجعات السريعة تحمل في طياتها أخطاء بالجملة. والكتب التي يتأخر صدورها تعني أيضاً خسارة بالجملة- بالتأكيد صاحب دار النشر يتابع هذا النقاش الحاد -، ثم يضيف كوستا: التجاوز عن خطأين أفضل من تأخير البيع يوماً واحداً، أفهمت. لا، صاحب دار النشر ليس موجوداً، ولا المدير ولا الرئيس، لأن كوستا لا يمكن أن يقبل أمامهم، هكذا بأريحية، أخطاء في التصحيح مقابل سرعة الإنجاز. إنها مسألة معايير- أجاب رايموندو سيلبا. لا تحدثني عن

معايير، أعرف جيداً معيارك، أما معياري فهو شديد البساطة: أحتاج هذه البروفات اليوم لأبدأ بها العمل غداً دون تأخير، دبّر أمورك كما يحلو لك، فالمسؤولية مسؤوليتك. لقد أخبرت مونيكا أن العمل سيكون جاهزاً غداً. يجب أن يدخل غداً ماكينات الطباعة. سوف يدخل، يمكن أن ترسل إليّ من يأخذه في الثامنة صباحاً. هذا مبكر جداً، ففي هذه الساعة تكون الدار مغلقة. أرسل في طلبه إذن وقتما تحب، أنا لا أستطيع الاستمرار في إهدار الوقت بهذا الشكل، ثم وضع السمّاعة. اعتاد رايموندو سيلبا على هذا، لا يأخذ على محمل سيئ وقاحات كوستا أو فظاظاته الخالية من الشر. لا يمل المسكين كوستا من تكرار الكلام نفسه عن قسم الإنتاج، يقول- نعم يا سيدي- في ماذا يفيد العلم الغزير للمؤلفين والمترجمين والمصححين ومصممي الأغلفة إذا لم يكن هناك قسم للإنتاج، إن دار النشر مثل فريق كرة القدم، كثير من الترقيص والتمرير وألعاب الرأس والكعوب والشقلبات، ولكن إذا كان حارس المرمى من بين أولئك المشلولين أو المصابين بداء الروماتيزم فسوف يذهب هذا كله أدراج الرياح، ثم يصل كوستا إلى الخلاصة- التي ينطقها هذه المرة على شاكلة علماء الجبر -: إن قسم الإنتاج بالنسبة لدار النشر مثل حارس المرمى بالنسبة لفريق كرة القدم. لدى كوستا الحق.

عندما تحين ساعة الغداء، سوف يجهز رايموندو سيلبا لنفسه

عجّة تحتوي على ثلاث بيضات وسجق محشوّ بلحم الخنزير، مازال كبده قادراً على تحمل السعرات الحرارية الزائدة. ومع طبق حساء، برتقالة، كوب نبيذ، وفنجان قهوة من أجل الختام، لا يحتاج لأكثر من هذا امرؤ ملازم للجلوس. حمل الأطباق بعناية، يبدد ماءً وسائل تنظيف أكثر من اللازم، جفف الأطباق ثم وضعها في خزانة المطبخ، إنه رجل منظم، مصحح بالمعنى المطلق للكلمة، هذا إذا كانت هناك كلمة يمكن أن توجد وتستمر في الوجود حاملة معها دائماً معنى مطلقاً. قبل عودته إلى العمل ذهب ليلقي نظرة على الساعة، أصلح هندامه قليلاً، يبدأ الآن في الظهور الشاطئ الآخر للنهر، إنه خط معتم فحسب أو بقعة ممطوطة، لا يبدو أن حدّة البرد قد خفتت. توجد على المنضدة أربعمائة وسبع وثلاثون صفحة، راجع منها مائتين وثلاثاً وتسعين، الباقي لا يدعو إلى الخوف، فمازال لدى المصحح المساء كله والليل، نعم، والليل أيضاً، لأن دقته المهنية تفرض عليه عمل مراجعة أخيرة دائماً، متبوعة بتنكبه في الختام دور القارئ العادي الذي يحس بالمتعة وبسعادة الفهم حين يقرأ بحرية وانطلاق ودون شكوك. كان لدى ذلك المؤلف الحق كله عندما سأل ذات يوم: كيف يبدو جلد «جولييت» لعيني صقر، حسناً، المصحح في مهمته شديدة الدقة هو الصقر على وجه التحديد، ورغم أن نظرته الآن متعبة ولكنه عند الوصول إلى القراءة الختامية يصبح مثل روميو حين شاهد جولييت أول مرة، طاهر الذيل ومخترقاً بسهم الحب.

وبالنسبة لقصة حصار لشبونة هذه، فهو يعرف أن روميو لن يجد دواعي كافية للافتتان، رغم أن رايموندو سيلبا قد أعرب للمؤلف– في الحوار التمهيدي والمستغلق بعض الشيء عن تصحيح الأخطاء وأخطاء التصحيح– عن إعجابه بالكتاب، ولم يكن في الحقيقة يكذب. ما معنى «يعجب»– نسأل نحن –، فما بين «يعجب كثيراً» و«لا شيء يعجب» يوجد الإعجاب القليل والأقل، ولا تكفي كتابته لكي نعرف في أية أجزاء من «نعم» و«لا» و«ربما» يشترك كل ما تقدم من صور الإعجاب، بل تتوقف معرفته على نطقه بصوت عالٍ لأن السمع يلتقط الذبذبة الأخيرة، يلتقطها دوماً، وخداعنا لأنفسنا أو تركها للخداع يكون عندما لا نعير للسمع أذناً صاغية. ورغم هذا لا مفر من الاعتراف بأن ذلك الحوار لم تكن به أية صورة من صور الخداع بالنسبة لمسألة الإعجاب، إذ سرعان ما لوحظ أنه يتعلق بإعجاب دون لون، محايد، لقد تفوّه رايموندو سيلبا بتلك الكلمة الفاترة «يعجبني» واتضح ما هي عليه من برودة فور الانتهاء من نطقها. إنه لم يعثر في الصفحات الأربعمائة وسبع وثلاثين على حدث جديد أو تفسير جدليّ أو وثيقة لم تنشر من قبل أو حتى إعادة طرح من منظور جديد. إن ما تحويه ليس إلا تكراراً لقصص الحصار المحكية آلاف المرات، ووصف المواقع، وأقوال وأفعال الملك، ووصول الصليبيين إلى «بورتو» وإبحارهم حتى

الدخول في نهر «تاجُه»، وأحداث يوم سان بدرو، والإنذار الأخير للمدينة، والمعارك والاقتحام، والتسليم، وأخيراً أعمال السلب والنهب. أما ما يُقال إنه من كتابة «أوسبرنو» ودخل الخلود بفضل الحصار والاستيلاء على لشبونة والحكايات التي رُويت عن هذه الأحداث، فسوف نقوم هنا بترجمته رغم أنف المتشدقين باللاتينية، تقول كلمات «أوسبرنو»: «في يوم جميع القديسين تحوّل المسجد الفاسد إلى كنيسة كاثوليكية مُطهرة». نعم، من الآن لن يستطيع مطلقاً المؤذن النداء على المؤمنين من أجل القدوم إلى المسجد لعبادة الله، وسوف تحل محله الأجراس بعد أن تم استبدال ربّ بآخر. ليتهم تركوا الرجل المسكين يمضي لحال سبيله، إنه أعمى، غير أن «أوسبرنو» كان أشد عمى بغضبه الدمويّ حين رأى أمامه مسلماً طاعناً في السنّ لا يقوى حتى على الهرب، يتمرغ هنالك على الأرض، يهز قدميه وساقيه- في خوف حقيقي لا مُتخيل- كما لو كان يود الغوص في باطن الأرض هرباً بحياته، ولكن- نقول نحن- ليس لوقت أطول من هذا حتى لو استطاع، لأنهم يفتحون الآن فجوات في الأسوار. على فترات متقطعة يُسمع- قادماً من النهر- خُوار أجش لصافرة سفينة تعلن الاستعداد للإبحار، إنه هكذا منذ الصباح، ولكن رايموندو سيلبا لم يفطن إليه إلا في هذه اللحظة فحسب، ربما بسبب الصمت الهائل والمفاجئ الذي توسده من الداخل.

في يناير، يحل الليل سريعاً. جوّ المكتب ثقيل وخانق. الأبواب مغلقة. ولكي يدفع عن نفسه البرد يضع المصحح بطانية فوق ركبتيه، ومدفأة بجوار المنضدة، تتسلق كعبيه تقريباً. ذكرنا من قبل أن البيت قديم وخالٍ من الرفاهية، ينتمي لزمن إسبرطيّ وفظ، الخروج منه إلى الشارع يعتبر أفضل وسيلة لمن لا يوجد لديه سوى ردهة جليدية حيث يتم فيها تسخين الجسد بتمارين المشي القصيرة. ولكن في الصفحة الأخيرة من «قصة حصار لشبونة» يمكن أن يجد رايموندو سيلبا تعبيرات حارّة لحماس وطني، بالتأكيد كان سيتفاعل معه لو لم تكن الحياة الرتيبة المبتذلة قد أماعت حماسه الخاص، كان سيشعر الآن بالرجفة من تلك النفثة الصادرة عن أرواح الأبطال، أنعم النظر جيداً فيما كتبه المؤرخ: «من أعلى القلعة هبط لآخر مرة، نهائياً وإلى الأبد، الهلال الإسلامي، وإلى جوار الصليب الذي يعلن للعالم التعميد المقدس للمدينة المسيحية الجديدة ارتفعت ببطء في زرقة الفضاء، يقبلها الضوء ويحركها النسيم، خفاقة بكبرياء النصر، راية دون أفونسو هنريكس[1] وعليها شجر الكينا». سحقا، ولا يظن أحد أن المصحح يوجه هذه الكلمة الغوغائية إلى الشعار الوطني، بل إنها بمثابة نفثة مصدور لمن تم تعنيفه على أخطاء خيال ساذجة ويجب عليه السكوت على نجاة أخطاء أخرى ليست من عمل يده، بينما يروقه–

(1) هذا هو اسم أول ملك للبرتغال باللغة البرتغالية، ويعرف في الحوليات الإسبانية باسم «ألفونسو إنريكيث» (Alfonso Enriquez)، أما في الحوليات العربية فيعرف بابن الرَّنك أو ابن الرّنق (المترجم).

وبكل عدالة– أن يرمي هوامش الصفحات بوابل من التعديلات الساخطة، ولكننا نعرف أنه لن يفعل هذا لأن تعديلات من هذا النوع تكدّر المؤلف وتغضبه، «على الإسكافي– حسب كلمات ابليس الجزعة والحاسمة– قصر اهتمامه على الحذاء، فمن أجل هذا يدفعون له». ولكن هذه الأخطاء ليست مثل خطأ المقاليع الذي يعتبر من الهنات البسيطة التي يمكن حملها على أوجه عدّة، فلن يقدم أو يؤخر بالنسبة لنا اليوم قول «مقاطيع بليارس» أو «بلياريكاس»، أمّا ما لا يجب التغاضي عنه مطلقاً فهو الحديث عن شجر الكينا في زمن «أفونسو الأول» لأن هذا النوع من الشجر لم يظهر على العلم البرتغالي إلا في عهد ابنه «سانتشو»، هذا بالإضافة إلى أننا لا نعلم ما إذا كان هذا الشجر قد وُضع في البداية داخل صليب بمنتصف العلم أم أنه كان موزعاً شجرة هنا وأخريات هنالك في بقية الأطراف أم أنه كان يغطي العلم كله، والافتراض الأخير هو الأرجح، طبقاً للمصادر الأكثر جدية. سقطة جديدة وليست الوحيدة، تلوث إلى الأبد الصفحة الأخيرة من «قصة حصار لشبونة» الحافلة فيما عدا ذلك بالكثير من المقابر الفخمة والطبول الرنانة وحالات الهياج البلاغية، وبقوات مُشكلة في وضع ثبات– هكذا نتخيلها– حيث يقف المشاة والفرسان بأقدامهم على الأرض، يشاهدون إنزال الراية البغيضة ورفع العلم المسيحي والبرتغالي، صائحين في صوت واحد، بينما يدقون بالسيوف على التروس، في جلبة حربية عنيفة: «تعيش

البرتغال»، وبعد ذلك العرض أمام الملك المنقذ الذي يدوس بقدميه، فضلاً عن الدم المسلم، الهلال الإسلامي، وهذا خطأ ثان وهذيان فادح لأن مثل هذا العلم لم يرفرف قط على حوائط لشبونة، فمن المعروف- كما لا يجب أن يخفى على المؤرخ- أن وضع الهلال على العلم الإسلامي كان من اختراع الإمبراطورية العثمانية، أي بعد قرنين أو ثلاثة من هذه الأحداث. وضع رايموندو سيلبا سنّ القلم على شجر الكينا، لكنه ما لبث أن فكر في أنه لو أزالها من هناك، مصحوبة بالهلال أيضاً، فسوف يكون مثل إحداث زلزال بالصفحة يتهاوى معه كل شيء، لأن الباقي سيكون بمثابة قصة دون نهاية تستحقها عظمة اللحظة. وهذا الدرس المفيد جداً يبين مدى أهمية تعلم الناس أن الشيء الذي يبدو لهم في النظرة الأولى قطعة قماش بلون واحد أو عدة ألوان وعليها تصاوير رمزية مبتورة وبألوان متعددة أيضاً، قد يكون قلاعاً أو نجوماً أو أسوداً أو وحيد القرن أو صقوراً أو شموساً أو مناجل أو مدقات أو قروحاً أو وروداً أو سيوفاً أو سكاكين أو عجلات أو أفيالاً أو ثيراناً أو قلنسوات أو أيادي أو نخيلاً أو جياداً أو شمعدانات... أو أي شيء آخر لا علم لي به في هذا المتحف الذي يضل فيه الواحد إن لم يستعن بمرشد أو كتالوج. ويزداد الأمر سوءاً لو ألحقنا بالرايات ما يندرج تحت شعار العائلة أو الأسرة لأننا لن ننتهي في هذه الحالة من: أزهار زنابق، لمحار، لشراكات، لفهود، لنحل، لأسلحة وعتاد، لأشجار، لمعاول،

لتيجان، لسنابل، لخواتم، لبط، لحمائم، لخنازير، لعذراوات، لقناطر، لغربان، لرماح، لكتب، حتى الكتب أيضاً: التوراة، الإنجيل، القرآن، الكابيتال (وليحزر من يستطيع معنى الأخير) وأكثر وأكثر من هذا كله، بحيث يمكن الاستنتاج أن البشر لا يستطيعون قول من هم إذا لم يكونوا قادرين على الزعم بأنهم شيء آخر، وهذا- في النهاية- سبب كافٍ لكي ندع ما يخص الرايات (الهابطة أو الصاعدة) في مكانه، ولكننا في الوقت نفسه على يقين من أن هذا كله محض افتراء، وأننا لا نملك الشجاعة- ويا لشدة الخجل- لتعديله ووضع الحقيقة الجوهرية مكانه، إنه طموح زائد ولكنه لا ينطفئ، وليشملنا الله برحمته.

لأول مرة، منذ سنوات طويلة من العمل المهني الدقيق، لن يقوم رايموندو سيلبا بقراءة أخيرة للكتاب كاملاً. إنها- كما ذُكر- أربعمائة وسبع وثلاثون صفحة مثقلة بالهوامش، وقراءة هذا كله يتطلب منه قضاء الليل كله، أو معظمه، سهران، وهو ليس مستعداً للإقدام على هذه التضحية بعد أن سيطر عليه جفاء لا يتزعزع تجاه العمل والمؤلف، وغداً سيردد القراء السذج وشباب المدارس أن الذبابة الداجنة لها أربع رجيلات لأن أرسطو قال هذا، وفي الذكرى القادمة للاستيلاء على لشبونة من أيدي المسلمين، عام ألفين وسبعة وأربعين، إن كانت ما تزال لشبونة موجودة وقتها والبرتغاليون فيها،

لن تعدم المناسبة رئيساً لاستحضار تلك الساعة المجيدة التي حلّت فيها أشجار الكينا- مزهوّة بكبرياء النصر- محل الهلال في السماء الزرقاء لمدينتنا الجميلة.

ورغم هذا فضميره المهني يحتم عليه القيام على الأقل بتصفح الأوراق ببطء، بجعل عينيه الخبيرتين تهيمان فوق الكلمات، ومن خلال تنوع مستوى الانتباه فإن أيّ خطأ على أقل ارتفاع لن يستطيع الاختباء، مثل الظلمة التي تبددها فجأة حركة كشاف مضيء، أو تلك اللمحة الجانبية المعروفة التي تلتقط في اللحظة الأخيرة صورة في طريقها إلى الفرار. لن يهم في شيء معرفة ما إذا كان رايموندو سيلبا قد تمكن من تنظيف الصفحات المزعجة تنظيفاً شاملاً، المهم في المقابل ملاحظته الآن في أثناء إعادته لقراءة خطبة «دون أفونسو هنريكس» أمام الصليبيين، طبقاً لرواية «أوسبرنو»، والتي ترجمها مؤلف «الكتاب» من اللاتينية ليُعفي نفسه من انتقادات الآخرين، لاسيما أن الأمر يتعلق بمادة ذات أهمية خاصة، إذ أنها أول خطبة محققة لملكنا المؤسس. أمّا بالنسبة لرايموندو سيلبا، فإن الخطبة من بدايتها إلى نهايتها سخف باطل، لا لأنه يسمح لنفسه بالشك في صرامة الترجمة، فالعلم باللاتينية ليس من خصاله كمصحح بالكاد متوسط، بل لأنه لا يمكن التسليم حقاً أنه قد خرجت من فم هذا الملك أفونسو- العاري عن الخصال- تلك الخطبة المعقدة، المؤلَّفة-

والحق يُقال– على غرار العظات الملتوية التي ينطق بها الرهبان من يومنا هذا وإلى ستة أو سبعة قرون خلت، وقت أن كانت اللغة في مرحلة التهتهة. ظل المصحح هكذا، مبتسماً ابتسامة تهكمية عندما خفق قلبه خفقة فجائية، أخيراً، إذا كان «إيجاس مونيث» مؤدباً ومعلماً جيداً كما تصفه الحوليات، وإذا لم يكن قد وُلد إلا لحمل الأمير المسكين المريض إلى «كاركيري» أو للذهاب فيما بعد إلى طليطلة وحبل المشنقة حول عنقه، فلن تفوته الأقوال المأثورة الكافية– مسيحية كانت أو سياسية –، وبما أن اللاتينية كانت هي الوسيلة المثلى لهذه الكمالات فمن المنطقي الظن بأن الصبي الملكي، إضافة إلى التعبير عن نفسه بطلاقة باللغة الجليقية، كان يعرف من اللاتينية ما يمكنه– حين يتطلب الأمر– من إلقاء الخطبة المذكورة أمام حشود الصليبيين الأجانب ذوى الثقافة الجمّة، في حين أنهم لا يعرفون من اللغات سوى لغة موطنهم وبعض الكلمات المشابهة من الأخرى (اللاتينية) ولكن بمساعدة الرهبان المترجمين. كان «دون أفونسو هنريكس» يعرف إذن اللاتينية، ولذا لم يكلف أحداً لينطق بها بدلاً منه في ذلك المحفل التاريخي، إنه يمكن حتى أن يكون مؤلف كلماتها الشهيرة، وهذا افتراض يلقي الاستحسان بالنسبة لشخص كتب بخط يده وباللاتينية نفسها «قصة الاستيلاء على شنترين»، طبقاً لما يشرحه لنا في أهمية ووقار «باربوسا ماتشادو» في «مكتبته البرتغالية»، مُعلِمنا إيّانا أيضاً أن مخطوط هذه القصة كان

محفوظاً وقتئذ بأرشيف «الدير الملكي في الكوباثا» في نهاية كتاب لسان فولخنثيو. تجدر الإشارة إلى أن المصحح لا يصدق كلمة واحدة مما تراه عيناه، فالشك ديدنه، لقد صرح هو شخصياً بهذا، ولكي يقطع الشك باليقين وللاسترواح أيضاً من الغضب الذي يتملكه من هذه القراءة الإجبارية، رجع إلى المنبع الصافي، إلى «علم التاريخ الحديث»، بحث وجد أن «ماتشادو» قد نسخ دون تمحيص ولا تدقيق ما كتبه «فراي برناردو دي بريتو» و«فراي أنطونيو برنداو»، وبهذا الشكل تتكيف الأخطاء التاريخية: فلان يقول إن «علاّن» قال إن «ترِكان» سمع، وبثلاث مرجعيات من هذه يتم تأليف قصة تاريخية، وفي النهاية يتضح أن الذي كتب فعلاً «قصة الاستيلاء على شنترين» هو كاهن قانوني ينتمي لرهبانية «سانتا كروث دي قُلُمْرية»، لم يبق حتى اسمه ليحتل في المكتبة المكان الذي يستحقه ويحذف منها اسم الملك الغاصب.

رايموندو سيلبا واقف على قدميه، فوق كتفيه البطانية التي يلامس أحد أطرافها الأرض ويتجرجر عندما يتحرك، يقرأ بصوت عالٍ- مثل منادٍ ملكي يزعق على الناس بآخر الأخبار والتعليمات- الخطبة التي ألقاها سيدنا الملك أمام الصليبيين، وتقول كلماتها: «نعرف جيداً ونشاهد بأعيننا أنكم حقاً رجال أقوياء، بواسل ومحنكون، لم تُنقص رؤيتكم شيئاً مما حدثتنا به سمعتكم التي طبقت الآفاق. لم

نجتمع بكم هنا، أيها الرجال موفورو الثراء، للتساوم حول ما يمكن أن نعدكم به من هبات من أجل البقاء معنا لحصار هذه المدينة. إن شغلنا الشاغل والدائم بالمسلمين أتى على ما في خزائننا من خيرات، ولذا فإن تدبير ما نحتاج إليه من نفقات كثيراً ما ينغص علينا الحياة. وبما أننا لا نود إخفاء مواردنا عنكم ولا نوايانا نحوكم، فإننا نقدر لكم عدم الاستهانة باعتبار أن كل ما تحويه أرضنا هو طوْع أمركم ورَهْن تصرفكم. ومع هذا فنحن على ثقة من أن تقواكم هي التي ستحفزكم أكثر لقبول المشاركة في هذا الحدث العظيم لا ما يمكن أن نعدكم به من مال ومكافآت مادية. وحتى لا تعرقل الجلبة الصادرة من رجالكم إيصال ما أعرضه عليكم بوضوح، أدعو هؤلاء وأولئك للانسحاب بعيداً بعد اختياركم لمن ترونه مناسباً، لكي نتدارس معاً، في وئام وطمأنينة، تفاصيل عرضنا عليكم ونصل فيها إلى اتفاق، وبالطبع فسوف يُذاع عليكم جميعاً بعد ذلك ما توصلنا إليه، وإذا لم يبد أحد من الطرفين معارضة فسوف يتم إبرام الاتفاق بالضمانات المؤكدة والقسم أمام الرب».

لا، ليست هذه الخطبة من عمل ملك مبتدئ، خبرته الدبلوماسية يسيرة، بل يوجد هنا إصبع ويد ورأس رجل دين كبير، ربما يكون مطران «بورتو» نفسه «بدرو بتويس» وبالتأكيد أسقف «براغ» «جواو بكوليار»، وبالتنسيق بينهما استطاعا معاً إقناع الصليبيين

بدخول نهر «الدويرة» ثم الانعطاف منه إلى نهر «التاجُه» للمساعدة في الاستيلاء على المدينة، قائلين لهم، على سبيل المثال: على الأقل اسمعوا منا الأسباب التي ترشح تقديمكم للمساعدة وأنتم تعاينون البضاعة. وبما أن الرحلة قد استغرقت في النهرين- من بورتو إلى لشبونة- ثلاثة أيام، فليس من الضروري أن يكون المرء مزوداً بخيال خصب لكي يظن أن الأسقفين قد قاما في الطريق- وعلى سبيل التبكير في العمل- بإعداد مسودّة الخطبة التي اختارا كلماتها بعناية وضمناها كثيراً من التلميحات والاحتراسات الحذرة والوعود البراقة المغلفة بتحفظات فطنة، دون نسيان التملق، المنبع الثرّ للازدهاء والخيلاء الذي يؤتي ثماراً لا تقل عادة عن نسبة ألف إلى واحد، حتى لو كانت الأرض جدباء والزارع أخرق. يترك رايموندو سيلبا، متورداً من الخجل، البطانية تسقط بإيماءة مسرحية، يبتسم دون سرور. لا أحد يصدق هذه الخطبة التي تبدو أشبه بنفثة عبقرية شكسبيرية لا عمل أساقفة صغار. يعود إلى المنضدة، يجلس، يحرك رأسه مهزوماً. يداهمه التفكير في عدم القدرة على الوصول مطلقاً إلى معرفة الكلمات الحقيقية التي قالها «دون أفونسو هنريكس» للصليبيين حتى ولو «صباح الخير»، ثم ماذا، ثم ماذا، وسرعان ما يظهر أمامه الوضوح الناصع لهذه الحقيقة- عدم المعرفة- مثل تعاسة. ألديه القدرة على نفي شيء منها، لا يسأل نفسه «ماذا» أو «كم»، إنه مستعد لبذل المهجة والمال، إن وُجدا، من أجل العثور-

وعلى وجه التفضيل في هذا الجزء من لشبونة حيث يسكن وكان، تحديداً، المدينة كلها في ذلك العصر- على رقاع أو ورقة بردي أو قصاصة صحيفة أو ورقة مفردة أو حجر منقوش، وعلى أيّ منها تسجيل للخطبة الحقيقية، أو بالأحرى الأصلية التي تقل حصافة دون شك، في الفن الجدلي المنطقي، عن الرواية الرسمية المصطنعة، وتخلو تماماً من الكلمات القوية الجديرة بالمناسبة.

كان العشاء سريعاً وبسيطاً، أخفّ كثيراً من وجبة الغداء، لكن رايموندو سيلبا احتسى فنجانين من القهوة بدلاً من فنجان، لكي يدفع عن نفسه النوم الذي لن يتأخر تهديده، لاسيما بعد النوم السيئ في الليلة السابقة. في إيقاع ثابت تغير الصفحات مكانها، تتلاحق الأحداث والمشاهد، المؤلف يزخرف الآن الأسلوب بالأعلام لنقل الجدال الحاد الذي دار بين الصليبيين بعد الخطبة الملكية حول ما إذا كان يجب أم لا مساعدة البرتغاليين في الاستيلاء على لشبونة، ما إذا كانوا سيبقون هنا أم يستمرون- كما كان مخططاً له من قبل- نحو الأراضي المقدسة حيث ينتظرهم المسيح تحت سيوف الأتراك. الذين أعجبتهم فكرة البقاء كانوا يستندون إلى أن طرد هؤلاء المسلمين من المدينة وجعلها مسيحية هو في خدمة الرب أيضاً، فيرد عليهم المعارضون قائلين: إذا كانت هذه خدمة للرب فهي جدّ ضئيلة وأن فرسانَ مغاوير مثلهم- كل من كانوا هناك كانوا يعتبرون أنفسهم

هكذا- لا خيار أمامهم سوى الوجود حيث تكون المهمة أكثر صعوبة ومشقة، لا في مؤخرة العالم هذه، بين فلاحين فقراء وبخلاء مقترين، بالتأكيد صنف من الاثنين هم المسلمون والآخر البرتغاليون، وهنا لم يتحر المؤلف- ربما لأنه لا يستحق العناء- كي يبين لنا أية شتمة منهما يختار. كان المحاربون يصيحون كالممسوسين بكلمات عنيفة مصحوبة بإيماءات، المدافعون عن فكرة استمرار الرحلة إلى الأراضي المقدسة كانوا يؤكدون على الأرباح الضخمة والفوائد الجمّة التي سيحققونها من سلب الأموال والبضائع من السفن التي سيجدونها في البحر سواء من إسبانيا أو إفريقيا. أصاب «دون أفونسو» حين تنبأ بانتهاء مناقشة عرضه بغارة (جلبة)[1]، ورغم أن الكلمة عربية الميلاد إلا أنها تصلح للإطلاق على أيّ صياح وهُتاف، سواء كان لرينانيين أو فلامنجيين أو بولونيين أو بريتونيين أو اسكتلنديين أو نورمانديين، فقد كانوا جميعاً مختلطين هناك. اتفق الطرفان المتعارضان أخيراً، بعد مشادات كلامية استغرقت يوم سان بدرو كله، وفي صباح اليوم التالي، الموافق 30 يونيو، سيذهب ممثلو الصليبيين لإخبار الملك بموافقتهم على مساعدته في اقتحام لشبونة، في مقابل ممتلكات الأعداء- الذين يرقبونهم هناك من فوق الأسوار- وتسهيلات أخرى مباشرة وغير مباشرة.

(1) Algazara، كلمة إسبانية من أصل عربي ومعناها: غارة، أو صيحات المسلمين في الحرب، أو جلبة، أو صخب ... (المترجم).

منذ دقيقتين ورايموندو سيلبا ينظر بثبات، كأنه شرود، إلى الصفحة المدوَّنة بها تلك الأحداث الراسخة من القصة، لا لأنه يشك في اختفاء خطأ بها، أيّ خطأ غادر يكون قد عثر على وسيلة للاختباء بين ثنايا جملة طويلة ملتوية، والآن يستفزه بألاعيبه وحيله، مطمئناً إلى نظرة المصحح المتعبة وإلى النعاس الشامل الذي يغزوه ويخدره. ما كان يغزوه ويخدره هو الاستخدام المضبوط للأزمنة الفعلية، لأن رايموندو سيلبا كان في منتهى اليقظة منذ ثلاث دقائق مضت وكأنه ابتلع قرصاً مُسهراً من شريط كان لديه هنا خلف الكتب، باقياً من روشتة طبيب أبله. يقرأ ويعيد القراءة، مفتون اللب، السطر نفسه، هذا الذي يؤكد بشكل قاطع في كل مرة أن الصليبيين سوف يساعدون البرتغاليين في الاستيلاء على لشبونة. شاء الحظ، أو القدر المشؤوم، أن تجتمع هذه الكلمات وحيدة المعنى في سطر واحد، مقدمة نفسها هكذا بقوة أسطورة أو حكم لا رجعة فيه، ولكنها أيضاً مستفزة كأنها تقول في تهكم: اجعل مني شيئاً آخر لو استطعت. بلغ التوتر فجأة مبلغاً لا يستطيع معه رايموندو سيلبا التحمل أكثر، نهض، رافعاً الكرسي إلى الوراء، ويمشي الآن مضطرباً من جانب إلى آخر في المساحة الضيقة غير المشغولة بالأرفف والأريكة والمنضدة، يقول ويكرر: هراء، هراء، وكما لو كان لزاماً عليه التحقق من هذا الخبر الراديكالي عاد لالتقاط الصفحة، والتي نستطيع بفضلها الآن التأكيد– قبل أن يتملكه الشك مثلما جرى في مرات سابقة– على

انتفاء هذا الهراء، لأنه مذكور فيها وبوضوح تام أن الصليبيين سوف يساعدون البرتغاليين في الاستيلاء على لشبونة، والدليل على أن هذا ما حدث فعلاً ما تشتمل عليه الصفحات التالية من وصف للحصار واقتحام الأسوار والقتال في الشوارع والبيوت وكثرة القتلى والسلب والنهب. وليتفضل السيد المصحح ليقل لنا أين يكمن الهراء، أين هذا الخطأ الذي يتفلت من بين أيدينا. صحيح أننا لسنا في مستوى خبرته العريضة ولذا فمن الطبيعي أننا ننظر أحياناً ولا نرى، لكننا نعرف القراءة، وإن كان يعتقد ولديه الحق أننا لا نفهم دائماً ما نقرؤه بسبب النقص في الإعداد التقني. سيدي المصحح، لا يرجع هذا فحسب إلى النقص في الإعداد التقني بل أيضاً– وعلينا الاعتراف به– للتكاسل في كثير من الأحيان عن الرجوع إلى القاموس لمعرفة المعنى المراد، وهذا ليس له من نتيجة سوى إلحاق الأذى بنا. هراء، يكرر رايموندو سيلبا بإلحاح وكأنه يتوجه إلينا بالإجابة، لن أفعل هذا الشيء، ولماذا أفعله، المصحح شخص جاد في عمله، لا يلعب، ليس مشعوذاً، يحترم الثابت في الملخصات وكتب القواعد، يسترشد بالنظم ولا يغيرها، يلتزم بالقوانين غير المكتوبة لعلم الواجبات الأدبية، إنه محض مراقب تضطره المصلحة لقمع شطحاته وشكوكه، إن ألمَّت به ذات مرة يحتفظ بها لنفسه، لن يضع «لا» حيث كتب المؤلف «نعم»، هذا المصحح لن يفعله. الكلمات التي انتهى من قولها الآن «د. جيكيل» تحاول التصدي

لأخريات لم نسمعها تُنسب لمستر هايد، ليس من الضروري ذكر هذين الاسمين لنفطن إلى أننا نشاهد مرة أخرى- في هذا البيت القديم بحي القلعة- الصراع بين البطل الملائكي والبطل الشيطاني، ومنهما تتألف وإليهما تنقسم المخلوقات، دون استثناء المصححين. ولكن هذه المعركة سوف يفوز بها- ويا للأسف- مستر هايد، كما يُلاحظ في الطريقة التي يتبسم بها رايموندو سيلبا في هذه اللحظة، بتعبير لم نكن ننتظره منه، بشرّ خالص، لقد اختفت من على وجهه ملامح د. جيكيل كلها، من الواضح أنه اتخذ قراراً سيئاً، يقبض بيد ثابتة على القلم ويضيف كلمة إلى الصفحة، كلمة لم يكتبها المؤرخ، وباسم الحقيقة لم يكن يستطيع كتابتها مطلقاً، الكلمة هي «لا»، وعلى هذا فما هو موجود في الكتاب الآن يقول: الصليبيون «لن» يساعدوا البرتغاليين في الاستيلاء على لشبونة، هكذا هو مُدوّن، وبالتالي، صار هو الحقيقة رغم أنها مختلفة، وما نسميه مزيفاً طغى على ما نسميه حقيقياً، ومن ثمّ يجب على أحد ما التقدم لحكاية القصة الجديدة، ولكن كيف.

لم يجرؤ مطلقاً رايموندو سيلبا طوال سنوات حياته المهنية الشريفة على أن يقوم، وهو في كامل وعيه، بخرق القوانين غير المكتوبة لعلم الواجبات الأدبية التي تنظم العلاقة بين عمل المصحح وأفكار وآراء المؤلفين. فالمؤلف معصوم، بالنسبة لمصحح يعرف حدوده.

وعلى سبيل المثال، فمن المعروف أن مصحح نيتشة قد كظم، رغم كونه مؤمناً غيوراً، رغبته في إدخال كلمة «لا» أيضاً على صفحة معينة لكي يحول «الإله مات» التي كتبها الفيلسوف إلى «الإله لم يمت». لو لم يكن المصححون مكبلي الأيدي والأرجل بجملة من المحظورات الأشد ردعاً من قانون العقوبات لتمكنوا في سهولة ويسر من تغيير وجه العالم، تدشين مملكة السعادة الكونية، بتقديم الشراب للعطشان، والطعام للجوعان، والسلام لمن يعيشون قلقين، والبهجة للمحزونين، والصحبة لمن يشعرون بالوحدة، والأمل لمن يفتقده، ناهيك عن سهولة القضاء على البؤس والجريمة، وهذا كله من خلال تغيير طفيف للكلمات، وإذا كان أحد لديه شك في مدى قدرة هذه القوة الخلاّقة فما عليه سوى تذكر أن العالم هكذا خُلق وأيضاً الإنسان. كُن– قال الرب– وفي الحال كان.

لن يستمر رايموندو سيلبا في القراءة. إنه مُجهد، استُنزفت قُواه كلها في ذلك النّزال مع «لا»، إضافة إلى السمعة الطاهرة المستحقة، والضمير الهادئ المطمئن. من اليوم فصاعداً سوف يعيش متأهباً للحظة المحتومة التي يظهر فيها– إن عاجلاً أو آجلاً– أحد يسأل عن الخطأ، يمكن أن يكون على وجه التحديد المؤلف الغاضب، أو ناقداً ساخراً لا يرحم، أو قارئاً واعياً في خطاب إلى دار النشر، أو «كوستا» صباح الغد عندما يأتي لأخذ البروفات، فمن غير المستبعد

مجيئه شخصياً إذا أخذنا في الاعتبار نزعته البطولية المحبة للتضحية: لقد أتيت، فمن الأفضل دائماً أن يؤدي المرء ما عليه من واجبات بنفسه. وإذا خطر ببال «كوستا» تصفح البروفات قبل وضعها في حافظة الأوراق، وقفزت أمام عينيه الصفحة الملوثة بالفِرْية، وفوجئ بظهور كلمة جديدة في البروفات التي يبلغ عددها الآن أربع، فعمد إلى قراءتها وفهم ما آل إليه حال الجملة، سوف يقول بشيء من التردد: سيد سيلبا، يبدو لي وجود خطأ هنا. عندئذ سيتظاهر رايموندو سيلبا بالنظر، ولن يجد مفراً من القول: نعم، يا للبلاهة، لا أدري كيف حدث هذا، من أثر النعاس دون شك. ولن يكون ضرورياً الإمساك بمزيل لحذف الكلمة المشؤومة، بل يكفي ببساطة شطبها، كما يفعل الصغار، وعندئذ سيعود العالم إلى مداره القديم الهادئ، وما كان سيظل كائناً، وعلى الدوام. ورغم أن «كوستا» لن يعود للتطرق إلى هذا الحادث الغريب، إلا أنه سيجد مبرراً إضافياً للتشدق بعظم أهمية قسم الإنتاج.

نام رايموندو سيلبا. إنه مستلق على ظهره، يداه معقوفتان تحت رقبته، لا يشعر الآن بالبرد. توجد حواجز تعوقه عن التفكير فيما فعله، لا يعترف بخطورته، بل يصل به الأمر إلى التعجب من أنه لم يخطر بباله من قبل تغيير معنى كتب أخرى قام بمراجعتها. في لحظة معينة يبدو له وكأنه آخذ في الانفصام، وقسم منه- مبتعداً-

يرى القسم الآخر مستغرقاً في التفكير، يفزع قليلاً. يهز كتفيه بعد ذلك، مُرجئاً الانشغال الذي بدأ ينساب إلى روحه: سنرى، غداً أقرر الإبقاء على هذه الكلمة أو حذفها. وبينما يغير وضعه بالرقود على الجانب الأيمن، مُعطياً ظهره للنصف الخالي من السرير، يدرك أن صافرة السفينة قد صمتت، يعلم الله منذ متى. لا، لقد سمعها في أثناء قراءته لخطبة الملك، أتذكر هذا على وجه التحديد، كان بين جملتين، عندما ارتفع نحو السماء البيضاء خُوار أجش كأنه لثور تائه بين الضباب بعيداً عن القطيع، غريبٌ ألا توجد حيوانات بحرية بأصوات قادرة على ملء سعة البحر، أو هذا النهر الواسع، سأذهب لرؤية كيف تكون السماء. نهض، تغطى بالرّوب الصوفيّ السميك الذي يبسطه دائماً في الشتاء فوق أغطية السرير ثم ذهب لفتح النافذة. لقد اختفى الضباب، من غير المعقول أنه كان يستر كل هذا اللمعان والبريق، أضواء السفح هنالك، وأضواء الجانب الآخر، صفراء وبيضاء، مُصوَّبة نحو الماء مثل شعاع مرتجف. الجو أكثر برودة. فكر رايموندو سيلبا في غير قليل من العَنَت: لو كنت أدخن لأشعلت على الفور سيجارة وأنا أنظر إلى النهر، مفكراً في أن كل شيء مُبهم ومتباين، ولكن هكذا- بدون تدخين- فإن التفكير سيقتصر فحسب على أن كل شيء متباين ومُبهم حقيقة، رغم أن السيجارة- لو دخنتها- تعبر بذاتها على تباين وإبهام الأشياء، مثل الدخان. يتسلى المصحح بالنظر من النافذة لبعض الوقت، لن ينادي

عليه أحد: أدخل، سوف تصاب بالبرد، يحاول تخيل أنهم ينادون عليه بعذوبة، ولكنه يظل بُرهة مفكراً، مُبهماً ومتبايناً، وأخيراً، وكأنهم نادوا عليه مرة أخرى: أدخل، أرجوك، أطع وأغلق النافذة وعد إلى السرير، يستلقي على الجانب الأيمن في انتظار النوم.

* * *

لم تكن عقارب الساعة قد أشارت إلى الثامنة حين دقّ كوستا جرس الباب. كان المصحح، الذي قضى ليلة صعبة بين غفوات يسيرة مضطربة، قد استسلم أخيراً لنوم عميق، وهذا ما اعتقده أحد نصفيه (الذي كان قد بلغ مستوى من الوعي يؤهله لاستخلاص هذه النتيجة: النوم العميق) نظراً للصعوبة التي يلاقيها النصف الآخر في الاستيقاظ رغم الصوت الحاد والملحّ للجرس، أربع، خمس مرات، والآن صوت مستمر إلى ما لا نهاية وكأن زرّ الجرس قد علُق. كان رايموندو سيلبا يدرك تماماً أن عليه الاستيقاظ، لكنه لم يكن يستطيع ترك نصفه الآخر في السرير، فماذا يقول كوستا- بالتأكيد هو، لأن الشرطة لا تأتي في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح لانتزاع أحد من سريره- حين يرى نصف رايموندو سيلبا فحسب (وربما بنبينيدو)، والإنسان يجب أن يذهب مكتملاً دائماً إلى حيث ينادون عليه، ولا يمكنه التعلل قائلاً: ها هو ما أنا عليه، والباقي تأخر في الطريق. مازال صوت الجرس مستمراً، يتسرب القلق إلى كوستا:

«يا له من صمت يخيم على البيت»، وأخيراً يتمكن الجزء المستيقظ من المصحح الصياح بصوت أجش: أنا قادم. وعندئذ فحسب يشرع الجزء النائم في التحرك متبرماً. والآن، والنصفان متحدان دون ثبات أو ثقة، على ساقين لا يعلمان لأيهما ينتسبان، يجتازان الغرفة ثم باب سلم الرّدهة الذي يشكل معها زاوية مستقيمة بحيث يمكن فتحهما بحركة واحدة تقريباً. إنه كوستا، بادياً عليه الندم من إحداث هذا الإزعاج الصباحي. آسف– وعندئذ يدرك أنه لم يلق بتحية الصباح– صباح الخير، معذرة يا سيد سيلبا من قدومي مبكراً هكذا، إنه من أجل البرويفات. يطلب كوستا المعذرة حقاً، لأن التصغير المتواضع لكلمة «بروفات» لا يفيد معنى آخر. حسناً، حسناً– يقول المصحح– تفضل بالدخول إلى غرفة المكتب.

حين يعود رايموندو سيلبا للظهور، رابطاً حزام الرّوب الأزرق المطبوع برسم اسكتلندي ومرتباً طيتيه العلويتين حول رقبته، يجد كوستا ممسكاً البروفات بكلتي يديه وكأنها تثقل عليه، حتى أنه يقول: مفهوم، إنها ضخمة بالفعل، لكنه لم يتصفحها ويقتصر على السؤال قلقاً بعض الشيء: هل عدّلت فيها كثيراً. فيجيب رايموندو سيلبا مبتسماً: لا، ولحسن الحظ لا يستطيع أحد سؤاله عن سر الابتسامة، ولا يعلم كوستا أنه قد خُدع بكلمة ضئيلة، تكاد تظهر وتختفي في الصوت المنطوق نفسه، لقد سأل كوستا هل عدّلت فيها

كثيراً، وأجاب المصحح مبتسماً لا، لكن التوتر يغزوه عندما يضيف: يمكن أن تتصفحها لو أردت. يتعجب كوستا من هذه الأريحية غير المعهودة، لكن هذا الإحساس المبهم سرعان ما يتلاشى فيرد قائلاً: الأمر لا يستحق العناء، سوف أحملها إلى المطبعة مباشرة لأنهم سيبدأون في طبع الكتاب فور وصول البروفات، هكذا أخبروني. يفكر المصحح في أنه مازال بوسعه إقناع كوستا بجملتين ملتويتين أو ثلاث في حال تصفحه للبروفات واكتشافه الخطأ، لكن كوستا يريد الانصراف فحسب، فالمطبعة تنتظر، وهو مسرور بتحقيق نصر جديد لقسم الإنتاج في صراعه مع الزمن. اليوم هو الأول فيما تبقى لك من حياة، يجب التحلي بالصبر، نحتاج إلى هامش أمان أكبر للعمل، فمن غير المقبول أن تنتهي الأمور دوماً بالحل في اللحظة الأخيرة. ولكن المصحح يبدو عليه الانكسار والخذلان وهو بداخل ذلك الرّوب ذي الصوف الإسكتلندي المصطنع، اللحية طويلة، وشعر الرأس مصبوغ بفظاظة في تناقض بائس مع جذامات شعر الوجه البيضاء، حتى أن كوستا، الفتى اليافع، يُخرس– رغم انتسابه لأجيال تسخر من الطيبة– شكواه العادلة، ويخرج بود تقريباً من الحافظة أصل كتاب جديد للمراجعة: هذا صغير، أقل من مائتي صفحة، ولسنا مستعجلين كثيراً على الانتهاء منه. لدى رايموندو سيلبا ميزة تلقي وفهم معاني الكلمات والإشارات، فك شفرة النغمة المتوسطة المُضافة أو المنقوصة من نطق حرف لين، فسمعه

يعرف القراءة جيداً مثل عينيه، وبما تقدم كله يغشاه نوع من تأنيب الضمير لخداعه براءة كوستا، مبعوث وحامل خطأ ليس مسؤولاً عنه، مثل معظم الناس الذين يعيشون ويموتون سذجاً، مؤكدين أو نافين لحساب الغير مع تحملهم للفاتورة التي لا تخصهم، لكن الله هو العليم وحده، وما عدا هذا فمن أوهام العقل وتبجحاته.

ذهب كوستا مسروراً بالبداية الطيبة لليوم،ويدخل رايموندو سيلبا لإعداد القهوة بالحليب والخبز المحمص بالزبدة. يعتبر الخبز المحّمص- بالنسبة لرجل مبادئ ونظم مثله- عادة سيئة ومظهراً حقيقياً للشّره المطلق، وفيها تتداخل جملة من الأحاسيس سواء كانت خاصة بالبصر أو اللمس أو الشم أو الذوق، بدءاً من لمعان المحمصة المطلية بالكروم، ومروراً بالسكين وهو يقطع الشرائح حيث تفوح رائحة الخبز المحمص والزبدة السائلة، وانتهاءً بالمتعة المركبة في الفم وسقف الفم واللسان والأسنان التي يَعْلُق بها القشر الخفيف الناعم والوردي، لكي تعود الرائحة من جديد ولكن من الداخل هذه المرة، لينعم الله بجنة الخلد على الذي ابتكر هذا الشيء الجليل السامي. والدعاء الأخير نطقه رايموندو سيلبا بصوت عالٍ ذات يوم، في لحظة خاطفة بدا له فيها تلقي دمه عصارة هذا العمل الرائع للنار والخبز، وإن كانت الزبدة غير ضرورية في الحقيقة للأخير ويمكن الاستغناء عنها دون أسف كبير، غير أنه يعتبر من الحمق الصُّراح رفض شيء لو

أضيف إلى ما هو جوهري سوف يضاعف من شهيته ومذاقه، سواء بالنسبة للخبز والزبدة– موضوع حديثنا– أو بالنسبة للحب، مثلاً، لو كانت لدى المصحح خبرة عريضة فيه. انتهى رايموندو سيلبا من الإفطار، دخل الحمام لحلاقة ذقنه والعناية بمظهره. يتفادى النظر المباشر إلى المرآة إن لم يكن وجهه كله مغطى برغاوي كريم الحلاقة، يعيش الآن نادماً على قراره السابق بصبغ شعر رأسه، لقد أصبح سجين تدبيره وتكلفه، لأنه إضافة إلى الكدر الذي يعتريه من جرّاء صورته لا يحتمل فكرة الإقلاع عن الصباغة، لأن الشعر الأبيض الذي لديه سوف يظهر عندئذ فجأة، دفعة واحدة وبلا مقدمات مثل فوران بركان عاتٍ، بدلاً من التقدم الطبيعي البطيء الذي قرر ذات يوم بغرور أبله إيقافه. إنها الصغائر البائسة للروح ويدفع الجسد ثمنها دوماً، دون ذنب جناه.

في المكتب، ومن أجل التعرف على موضوع العمل الجديد، يتفحص رايموندو سيلبا الأصل الذي تركه كوستا، أتمنى ألا يكون التاريخ الكامل للبرتغال حتى لا يجرني إلى غوايات أخرى من نوعية «نعم» و«لا»، أو إلى فتن أشد لأن احتواءه على آراء متناقضة سيفتح الباب على مصراعيه أمام «ربما» التي لن تدع فيه حجراً قائماً على حجر ولا حدثاً فوق حدث. لقد اتضح في النهاية أن الكتاب مجرد قصة من بين القصص، لا ينبغي الانشغال بإضافة أشياء إليها أكثر مما

هو موجود فيها، لأن التخيلات المحكية في هذا النوع من الكتب يتم ابتداعها من خلال شك مستمر، بإثباتات متحفظة، وعلى وجه الخصوص القلق النابع من معرفة أنه لا يوجد فيها شيء حقيقي وضرورة التظاهر بعكس ذلك، على الأقل لفترة ما، أي لحين الوصول إلى القناعة باستحالة مقاومة بداهة التغيير المؤكدة، وعندئذ يكون هذا التظاهر قد انتمى إلى الزمن الماضي، وهو فحسب الزمن الحقيقي، ثم تأتي بعد ذلك محاولة إعادة صياغة اللحظة التي انقضت في أثناء صياغتنا للحظة أخرى، وهكذا دواليك، لحظة بعد أخرى، والقصص كلها على هذا المنوال: يأس ومحاولة فاشلة لكي لا يصبح الماضي شيئاً ضائعاً تماماً. أما ما لم يتم التوصل فيه حتى الآن إلى رأي قاطع فيتمثل فيما إذا كانت الحكاية هي التي تمنع الإنسان من النسيان، أم أن استحالة النسيان هو الذي يحمل الإنسان إلى كتابة الحكايات.

لدى رايموندو سيلبا العادة الصحية المتمثلة في منح نفسه يوم إجازة عندما ينتهي من تصحيح كتاب. إنها- يقول- بمثابة راحة ومُطهر، وهكذا ينزل من بيته إلى الدنيا، يجوب هذه الشوارع، يتسكع أمام واجهات المحلات، يجلس على مقعد في حديقة، يقضي ساعتين في إحدى دور السينما، يدخل متحفاً ليرى من جديد لوحة تناديه فجأة، أي أنه- باختصار- يمارس حياة زائر لا

ينتظر العودة إلى المكان في المستقبل القريب. لكنه لا يكمل أحياناً البرنامج كله، ولذا فليس بغريب أن يعود إلى منزله والمساء مازال في منتصفه، لا بسبب التعب أو الضجر، ولكن استجابة لصوت داخلي يُذَكِّره، ولا يكلف نفسه عناء مناقشته، بأن هناك كتاباً في انتظاره، كتاب آخر من دار النشر التي تقدره وتحترمه كثيراً لأنها لم تتركه مطلقاً وحتى الآن عاطلاً عن العمل. ورغم السنوات الطويلة لهذه الحياة الرتيبة إلا أن حب الاستطلاع مازال يستولي عليه لمعرفة ما هي الكلمات التي تنتظره، وما هي الصراعات والنظريات والآراء... مثلما حدث تماماً مع «قصة حصار لشبونة»، رغم أن الأحداث المغرقة في القدم لم تثر اهتمامه مطلقاً منذ أيام المدرسة.

ولكن رايموندو سيلبا يتوقع هذه المرة العودة متأخراً جداً إلى البيت، ومن المحتمل أيضاً ذهابه إلى حفلة منتصف الليل بالسينما، ولا يحتاج الأمر إلى ذكاء خارق لمعرفة أن السبب هو رغبته في أن يكون بعيداً عن متناول كوستا إذا توصل إلى اكتشاف الخطأ الذي هو مؤلفه ومتستر عليه: مؤلفه لأنه من عمل يده، ومتستر عليه لأنه لم يقم بواجبه كمصحح. الساعة الآن هي العاشرة تقريباً، وبالتأكيد فإنهم يقومون في المطبعة بتجميع أطواق ربط الحروف، وسوف يشرع الطابع– بالإيماءات المتمهلة والمدققة التي تميز المتخصصين– في ضبط الآلة، وما هي إلا لحظات معدودة وتخرج مسرعة صفحات

الأوراق التي ستروي القصة المزيفة لحصار لشبونة، وبعد قليل من الآن أيضاً يمكن أن يرن جرس الهاتف- غريب أنه لم يرن حتى الآن- ليُسمع من على الطرف الآخر صوت كوستا وهو يصيح: خطأ غير مفهوم ولا مقبول يا سيد سيلبا، لحسن الحظ أنني اكتشفته قبل فوات الأوان، تعال فوراً، خذ سيارة أجرة، إنها مسؤوليتك، لا، لا يمكن علاج المسألة عبر الهاتف، أطالبك بالحضور فوراً. ومن العصبية يضيع صوت كوستا، ورايموندو سيلبا عصبياً مثله، ومدفوعاً بتصور ما سيحدث يرتدي ملابسه على عجل، يطل من النافذة للتعرف على حالة الجو، إنه بارد لكن السماء صافية. على الضفة الأخرى من النهر، تقذف المداخن العالية أعمدة حلزونية من الدخان، تصعد عمودية في البداية حتى تزعزع الريح اندفاعها وتخمدها في سحابة بطيئة تتجه صوب الجنوب. ينظر رايموندو سيلبا إلى أسفل، نحو أسقف البيوت التي تغطي أرض لشبونة القديمة. يرتكز بيديه على حاجز الشرفة، يحس بالحديد البارد الخشن، هو الآن هادئ، ينظر بالكاد، لا يفكر، وفي هذه اللحظة ترد على فؤاده الفارغ خاطرة لشغل يوم إجازته، سوف يشغله بشيء لم يفعله من قبل في حياته. لا حقّ في الشكوى من قِصر الحياة للذين لم يستطيعوا استغلال المتاح لهم فيها.

ترك الشرفة، اتجه إلى غرفة المكتب، فتش بين أوراق إحدى

الخزانات عن البروفة الأولى لقصة الحصار التي مازالت بحوزته، إضافة إلى الثانية والثالثة، أما الأصل فتحتفظ به دار النشر بعد الانتهاء من المراجعة الأولى، وضعها كلها في كيس ورقيّ، وفي هذه اللحظة رنّ جرس الهاتف. قفز رايموندو سيلبا ويده اليسرى تقترب بحكم العادة من السماعة، ولكنها توقفت بانقباض في منتصف الطريق، وكأن هذه الآلة السوداء قنبلة موقوتة على وشك الانفجار أو أفعى سامة مستعدة للهجوم. ابتعد المصحح ببطء شديد، كما لو كان يخشى سماع خطواته على الطرف الآخر حيث يطلبونه، وهو يغمغم: إنه كوستا. لقد أخطأ التقدير، ولن يعرف مطلقاً من الذي أراد الحديث معه في تلك الساعة من الصباح- من ولماذا- ولن يقل له كوستا في غضون بضعة أيام: اتصلت بالبيت ولم يرد أحد. ولن يكرر عليه أيضاً شخص آخر- من- كلام مشابه، مثل: يا للأسف، كان لديّ خبر سعيد لك، رنَّ الهاتف ورنّ ولا مجيب. الهاتف يرن بالفعل، يرن، ولكن رايموندو سيلبا لن يجيب لأنه الآن في الردهة مستعداً للخروج، المسبوق في الغالب بكدر وغير قليل من الشكوك. قد يكون اتصالاً خاطئاً كما يحدث أحياناً، ولكننا لن نصل مطلقاً للتأكد من هذا، إنه مجرد تخمين، والافتراض لا يخلو عادة من فائدة، وفائدته هنا أنه جعل المصحح أكثر ارتياحاً، والقول الأخير ليس إلا ضرباً من ضروب القول الطائش غير المتبصر، آخذين في الاعتبار أن تلك الراحة تشبه تماماً- في ظل الظروف الحالية-

الراحة المؤقتة والمزعزعة الناجمة عن الإرجاء والتسويف. أبعد عني هذا الكأس– قال الآخر –، ولن يفيد قوله بشيء لأنهم سيفرضونه عليه من جديد.

يفكر رايموندو سيلبا، في أثناء هبوطه السلم الضيق المنحدر، في أنه مازال لديه الوقت لتفادي الساعة السوداء التي تنتظره حين يتم اكتشاف فعلته المتهورة، لن يتطلب الأمر منه سوى إيقاف سيارة أجرة والجري نحو المطبعة حيث يوجد كوستا بالتأكيد، مسروراً بإثباته مرة أخرى الفعالية التي تعتبر ميزته الأولى. يُسعد كوستا الذهاب إلى المطبعة لإعطاء إشارة البداية، وسوف يذهب تحديداً لإعطائها عندما يظهر رايموندو سيلبا على الباب فجأة ليقول: كما كنت، توقفوا. بالضبط مثل المشهد القصصي الذي يأتي فيه الرسول لاهثاً وحاملاً للمحكوم عليه بالإعدام العفو الملكي في اللحظة الأخيرة. يا لها من راحة، وإن كانت هذه الراحة مؤقتة أيضاً ومزعزعة، ولكن هناك بوْنا شاسعاً بين معرفة أننا سنموت ذات يوم وبين أن نجد أمام أعيننا نهاية كل شيء، فرقة الإعدام مصوبة أسلحتها. لا يوجد أحد يدرك هذا الفارق أفضل ممن استطاع الهرب بمعجزة قبل تنفيذ الحكم فيه، وهو الآن في اللحظة الحرجة الأخيرة دون أمل في الفكاك. لقد تم إنقاذ ديستوفسكي في المرة الأولى وليس في الثانية. في الضوء الساطع والبارد للشارع يبدو أن رايموندو سيلبا مازال ينعم النظر

فيما سيفعله في النهاية، إنه مجرد تظاهر وليس تفكيراً، ومن ثمّ فإنه يعرض أمام نفسه نقاشاً خاتمته معروفة مسبقاً، وتناسب المقام هنا الجملة المعهودة بين لاعبي الشطرنج الصارمين «القطعة الملموسة، ملعوبة»، ما سطرته بيدي مكتوب الآن على أي حال. يتنفس رايموندو سيلبا بعمق، ينظر إلى صفي المنازل على اليمين واليسار، بإحساس تملك غريب للأرض التي يمشي عليها، رغم أن جذوره المفقودة في بُعد الزمن ليست واضحة المعالم ولا أمل له في انتشالها من بين براثنه، ورغم ضياع أمل الارتزاق من أملاك بينبينيدا الإشبينة، في الجنة ونعيمها لو كان ورثتها الشرعيون المحظوظون لا يبخلون عليها بصلواتهم، شأنهم في هذا شأن غيرهم في كل مكان. المصحح الذي يعيش منذ سنوات لا تُحصى في هذا الحي المتاخم للقلعة ولا يكاد يعرف من معالمه سوى الأماكن وثيقة الصلة بمحل سكنه، يشعر الآن- إضافة إلى المتعة المذكورة آنفا والنابعة من الإحساس بالتملك- براحة ومتعة من يعرف قدر امتداد الظل من الناصية القادمة عند انعطافه إلى شارع «بارتولوميه دي جوسماو». يتساءل بينما يمشي عن مصدر هذه الطمأنينة التي هبطت عليه، رغم ملاحقة سيف ديموقليس الشهير له، في صورة خطاب إقالة، لأسباب أكثر من عادلة، من بينها الغش وعدم الكفاءة وسوء النية والتحريض على الفساد. يسأل، ويتخيل تلقيه الإجابة من الخطأ الذي ارتكبه، لا من الخطأ في حد ذاته بل من نتائجه الواضحة للعيان. نعم، رايموندو

سيلبا الموجود الآن وبالتحديد في أماكن المدينة الإسلامية القديمة، أصبح مزوداً– نتيجة لهذه المصادفة التاريخية والطبوغرافية– بوعي متعدد أو بمنظار يشبه منظار «صندوق الدنيا»، وهذا دون شك من جرّاء القرار اللغوي الذي اتخذه وجعل الصليبيين يتخلون بموجبه عن مساعدة البرتغاليين، وبالتالي إلزام هؤلاء بالاعتماد على أنفسهم قدر المستطاع بقواتهم الوطنية القليلة– إن كان يمكن تسميتها آنذاك بالوطنية– رغم أنهم، وبمساعدة حملة صليبية أخرى، قد فشلوا منذ سبع سنوات من مجرد الاقتراب من الأسوار وارتدوا على أعقابهم خائبين، واقتصر نشاطهم الحربي حينذاك على شن الغارات الخاطفة وتخريب البساتين والحظائر والاعتداء على الملكيات الخاصة. والهدف الوحيد من سوْق هذه الاعتبارات شبه التفصيلية يكمن في بيان– رغم استحالة قبوله في ظل الحقيقة الراسخة– أن لشبونة مازالت، وحتى إشعار آخر أو إلى أن يُقدر الرب سيدنا، مسلمة، حيث أنه لم تمر، ومعذرة للتكرار، سوى أقل من أربع وعشرين ساعة على اللحظة المشؤومة التي أعرب فيها الصليبيون عن سلبيتهم المخزية، وفي وقت جدّ قصير مثل هذا لن يتمكن البرتغاليون وحدهم من حلّ المسائل التكتيكية والاستراتيجية العويصة المتعلقة بالحصار والحرب والهجوم واختراق الأسوار. نرجو ألا يستغرق الأمر وقتاً أقصر عندما تحين اللحظة.

من البديهي أن محل حلويات «أ. جراثيوسا» حيث يدخل المصحح الآن لم يكن موجوداً هنا في عام 1147 الذي نحن فيه، تحت سماء يونيو الرائعة والحارة رغم النسمات الرطبة القادمة من جهة البحر عبر لسان الحاجز الرمليّ. يعتبر محل الحلويات منذ الأزل مكاناً جيداً لمعرفة المستجدات، وبما أن هذا حيّ شعبي والناس فيه ليست متعجلة ويعرف بعضهم البعض الآخر فإن الألفة اليومية قد قلّصت إلى الحد الأدنى من الطقوس الممهدة للاتصال، وهي عادة صيغ بسيطة، مثل «صباح الخير» و«كيف حالك» و«بخير» ... تُقال دون إعارة اهتمام كبير إلى المعنى الحقيقي للأسئلة والأجوبة، ومن الطبيعي أن يتم الانتقال على الفور بعدها إلى مستجدات اليوم، المتعددة والخطيرة. بهؤلاء الناس الذين يدخلون هرباً من مطاردة قوات «ابن الرّنك» الجليقي، عليه لعنة الله، تحولت المدينة إلى جوْقة نُواح. يأتي هؤلاء التعساء في حالة يُرثى لها، الجروح تقطر دماً، في بكاء وعويل، وغير قليل منهم مبتور اليد أو منزوع الأذنين بوحشية أو مجدوع الأنف، إنها الرسائل التي يبعث بها أمامه الملك البرتغالي. يبدو- يقول صاحب محل الحلويات- أن هناك صليبيين قادمين من البحر، ملعونين أينما ثقفوا، يقولون إنهم في مائتي سفينة، الأمور هذه المرة ليست مطمئنة. آي يا للتعساء- تقول امرأة سمينة وهي تجفف دمعها- أنا قادمة حالاً من عند بوابة فييرّو (الحديد)، هناك مشهد حزين يثير الأسى والأسف، الأطباء لا يدرون من يسعفون،

رأيت أشخاصاً وجوههم مغطاة بالدماء، ورجلاً مسكيناً فُقئت عيناه، يا للهول، يا للهول، ليسقط سيف الرسول فوق أعناق القتلة. سوف يسقط- قال شاب كان مستنداً إلى الطاولة وهو يشرب كوب حليب- منذ سبع سنوات مضت جاء أيضاً برتغاليون وصليبيون ولم يحملوا سوى الفتات، ولكن الله- استطرد الشاب بعد مسح فمه بظاهر يده- لا يُعين إلا من لديهم القدرة على إعانة أنفسهم، وهذه السفن الصليبية الخمس الرّاسيات في النهر منذ ستة أيام لماذا لا نهاجمها ونغرقها. سيكون هذا قصاصاً عادلاً- قالت المرأة السمينة- تعويضاً عما نلاقيه من أهوال. لا يعتبر هذا تعويضاً- قال صاحب المحل- لأن انتقامنا لم يكن أقل من مائة في مقابل واحد. ولكن عينيّ مثل حمامتين ميتتين لن تعودا يوماً إلى العش- قال المؤذن.

دخل رايموندو سيلبا، ألقى بتحية الصباح دون النظر إلى الموجودين، اتجه للجلوس عند منضدة خلف الخزانة الزجاجية التي تُعرض فيها المشتهيات المعتادة: تورتات وجاتوهات، فطائر محشية بالقشدة، كعك ملفوف بالسكر، كيك، أصابع الست، لقمة القاضي... والكرواسونات فائقة الوصف بالشكل الذي أعطاها الاسم الفرنسي: هلال في البداية، ثم منقوصاً بعد أول قضمة، ثم محاقاً فيما بعد، إلى أن لا يتبقى منه في الطبق سوى فُتات، ذرات

سماوية يحملها إلى الفم الإصبع الهائل والمبلل للربّ، بحيث لا يبقى بعد ذلك سوى الخُواء الكوني الرهيب، لو كان يمكن الجمع بين الوجود والعدم. يترك النّادل- وليس صاحب المحل- غسيل عدد من الأكواب لكي يحضر القهوة التي طلبها المصحح، إنه يعرفه رغم عدم تردده اليوميّ على المحل، بل من حين إلى آخر. يبدو المصحح أكثر راحة في جلسته، يفتح كيساً ورقياً ويستخرج منه رُزمة ضخمة من الأوراق، يبحث النّادل عن مساحة شاغرة لوضع الفنجان وكوب الماء، يضع السكر في الفنجان، وقبل انسحابه يلقي بالتعليق الذي يكرره طول الصباح، إنه عن البرد: لحسن الحظ لا يوجد ضباب اليوم. يبتسم المصحح وكأنه تلقى خبراً سعيداً: نعم، لحسن الحظ لا يوجد ضباب. ولكن امرأة سمينة على المنضدة المجاورة تقول وهي تغمس كعكتها الملفوفة بالسكر في كوب الحليب: من المحتمل وفقاً للنشرة الجوية أن يعود الضباب مع حلول المساء، كيف هذا والسماء الآن مَجْلُوّة بالصفاء والشمس متألقة، لم تقل المرأة هذه الملاحظة الشاعرة لكننا نحن الذين أثبتناها هنا لجمالها الذي لا يُقاوم. الجو مثل الحظ، متقلب- قال المصحح وهو على وعي ببلاهة الجملة. لم يرد النّادل، ولا المرأة، وهذا هو التصرف الفطن أمام الأحكام الحاسمة، السماع والصمت، انتظاراً لأن يحطمها الزمن نفسه، وإن كان من غير المستبعد أن يعيدها أشد حسماً مما كانت عليه، مثل أحكام الإغريقيين واللاتينيين، المحكوم

عليهم بالنسيان أيضاً عندما فات زمانهم وانقضى كله. عاد النّادل لغسيل الأكواب، والمرأة إلى الباقي من الكعكة، وبعد قليل سوف تحاول خُفية– لأن ما ستقدم عليه لا يتفق مع الذوق العام رغم أنه لا يُقاوم– لَحْس ما يعلق بإصبعها السبّابة المبلل من فتات الكعكة، لكنها لن تستطيع أخذه كله لأنه– ونعرف هذا عن طريق الخبرة– مثل الذرّات الكونية، نقاط متناهية الصغر لا تُحصى لضباب لا نهائي مجهول المصدر. في محل الحلويات هذا سيكون حاضراً شاب إن ظل على قيد الحياة ولم يمت في الحرب، أما بالنسبة للمؤذن يكفي تذكر أننا بدأنا التعرف على نهايته المفزعة، حين اتجه إليه الصليبي «أوسبرنو»، ولكنه ليس «أوسبرنو» الذي كان يرفع سيفاً يقطر دماً حارّاً، ليتغمد الله مخلوقاته التعيسة برحمته. يفتش رايموندو سيلبا بينما يحتسي القهوة عما يهمه في «قصة حصار لشبونة»، لا يبحث عن خطبة الملك ولا عن أحداث المعركة، كما أنه فقد الاهتمام بقضية مقاليع بليارس أو بلياريكاس، ولا يهمه كذلك معرفة ما يتعلق بالاستسلام وأعمال السلب والنهب. عثر الآن على ما يفتش عنه، امتدت يده إلى الرزمة أربع مرات لتستخرج منها أربع صفحات شرع في قراءتها على مهل، مُعَلّماً بقلم فلورسنت أصفر على النقاط الأكثر أهمية. ترمق المرأة هذه العملية غير المفهومة باحترام متشكك، وبعد قليل تكوّم– على عجل ودون احتراز– الفتات بأطراف أصابعها كلها ثم تضغط عليه وتحمله إلى فمها، متجشئة إياه بلذة وصوت

مسموع. نظر إليها رايموندو سيلبا شذراً، متضايقاً من الجلبة التي أحدثتها، لا يوجد أدنى شك– يقول لنفسه– في أن الميول العدوانية من السمات البشرية الأصيلة. ماذا سيكون رد الفعل لو كان «دون أفونسو هنريكس» يأكل بأصابعه على الطريقة الإسلامية وقد كانت هذه هي عادة تلك الأزمان، رغم أنها شهدت بعض المستجدات مثل إغماد نصل السكين في الشريحة وحملها هكذا إلى الفم، لكن الاختراع يتأخر عادة، ويكفي أن يدقق المخترعون الغافلون النظر في المذراة البدائية التي مازال يلملم بها الفلاحون القمح المحصود ويرفعونه إلى العربات، كثيراً ما أثبتت الخبرة أنه لا يمكن الذهاب بعيداً في الفن والحياة لو أدرنا ظهورنا لما يحدث في العاصمة. لكن هذه المرأة القابعة في محل الحلويات لا عذر لها، بالتأكيد علّمها أبواها بعد عنت شديد آداب المائدة، وها هي تنتكس، ربما لانحدار تصرفها هذا من الأزمان الفظة القديمة، حين كان المسيحيون والمسلمون متساوين في الأفكار ونمط الحياة، وإن كانت القضية الأخيرة محل جدل كبير فلن يعدم المقام أحداً يخرج علينا مؤكداً ومدللاً على أن الأسبقية في الحضارة كانت من نصيب أتباع محمد، وأن الآخرين كانوا همجاً خُلَّصاً، سادرين في عنادهم ولم تكد تنبت لديهم حينذاك حِكّة السلوك القويم، ولكن هذا كله سوف يتغير في اليوم الذي يقبلون فيه على عبادة العذراء سيدتنا بصدق وإخلاص، مُغفلاً في هياجه «ابنها الرباني» ولا داعي للإشارة إلى إهانته المتكررة

«للأب الخالد» في تعاملاته اليومية.

يعيد رايموندو سيلبا بروفات «قصة حصار لشبونة» إلى الكيس الورقيّ، باستثناء الصفحات الأربع المختارة والتي يطويها ويحفظها بعناية داخل الجيب الداخلي للسترة، يتجه نحو الطاولة حيث يقدم النادل كوب حليب لشاب تبدو على وجهه أمارات من يبحث عن عمل وتركيز من لا يتوقع أن تتاح له وجبة خفيفة أخرى في اليوم نفسه. المصحح مُلاحظ ممتاز للغاية، وحساس لدرجة التقاط معلومات مستفيضة من مجرد نظرة بسيطة خاطفة، يمكننا حتى قبول افتراض أنه التقى ذات يوم في مرآة بيته بعينين هكذا، نقصد عينيه هو ولا داعي للتصريح به أو سؤاله عن صحة هذا الافتراض، لأن ما يهمنا منه هو الحاضر، أما الماضي- لاسيما ماضيه- فلا يهمنا منه سوى الماضي العام، أي الجزء الذي تغير فيه بفعل الكلمة غير المسؤولة. ما ينقص الآن هو معرفة إلى أين ستحملنا هذه الكلمة- نحن ومعنا رايموندو سيلبا في المقدمة بالتأكيد- لأن الكلمة، أيّاً كانت، تتسم بميزة التوجيه الدائم لمن نطقها، وبعد ذلك، ربما، ربما نحن السائرين خلفها مثل كلاب صيد تتشمم، إلى اعتبارات مازالت سابقة لأوانها، لو كان الحصار لم يبدأ حتى الآن فالمسلمون الوافدون على محل الحلويات يغنون في جماعات «سوف ننتصر، سوف ننتصر بالأسلحة التي في أيدينا»، ولكن نصراً مثل هذا

يتطلب مساعدة محمد بكل ما أوتي من قوة، لأننا لا نشاهد أسلحة، والمخازن لا يوجد بها ما يسدّ الحاجة. يقول رايموندو سيلبا للنّادل: احتفظ بهذا الكيس، سأعود لأخذه قبل الإغلاق- محل الحلويات هو المقصود حسب فهمنا-، يضع النادل الكيس بين جواليّ سكر، خلفه، هنا لن يلمسه أحد- يقول- دون أن يخطر بباله السؤال لماذا لا يذهب رايموندو سيلبا لترك الكيس في منزله القريب من الناصية المجاورة والواقع في شارع «ميلاجرو دي سان أنطونيو». حسناً، النُّدلاء، وعلى خلاف الفكرة الشائعة، أناس متحفظون، يسمعون بصبر أيوب الأقاويل المتناثرة هنا وهناك، يوماً بعد آخر، العمر كله، ثم يبدأ السأم في التسلل إليهم من الرتابة، صحيح أنهم يظهرون للزبون- انطلاقاً من أدبيات المهنة ومراعاة عدم مضايقته- اهتماماً زائداً، لكنهم في الأعماق يفكرون دائماً في شيء آخر، وهذا النّادل على سبيل المثال فبماذا تفيده إجابة المصحح لو أعطاها له: أخاف أن يرن جرس الهاتف وأنا موجود في البيت. انتهى الشاب من التهام كعكته والآن يُلقي في خفية الفضلات التي ظلت عالقة بأسنانه ولثته. يكمن المكسب في المستفاد منه، هكذا يعلم الآباء أبناءهم، وإن كان علمهم الجمّ لم يفلح في جعلهم أثرياء، ومن خلال ما نعرفه فلم يكن هذا أيضاً هو السبب في البكاء على الأملاك الضائعة للإشبينة «بينبينيدا»، غفر الله لها، لو أمكن.

يصنع النّادل خيراً بعدم إصاخته السمع لما يُقال. فمن المعروف أن السياحة هي أول الأنشطة الصناعية التي يلحقها الأذى والكساد في حالة حدوث توتر عالمي خطير. ولو كانت مدينة لشبونة هذه مُقبلة الآن على حصار وعُرضة لهجوم وشيك لما جاء هؤلاء السياح الذين يستقلون حافلتين، في إحداها يابانيون بالنظارات وآلات التصوير الفوتوغرافية، وفي الثانية سراويل الجينز الأمريكية. يتجمعون في صفين منفصلين خلف المترجمين استعداداً للصعود، سيدخلون شارع «شاو دي فيرا» عبر البوابة التي يوجد بها محراب «سان خورخي»، وسوف يتأملون القديس والتنين المخيف، المضحك في حجمه بالنسبة لعيون اليابانيين المعتادة على حيوانات مفترسة هائلة. أما بالنسبة للأمريكيين فسوف تُلاحظ عليهم إهانة الاعتراف بضآلة راعي بقر الغرب وهو يصطاد بحبل عجلاً صغيراً حديث الفطام، مقارنة بالفارس المدجج بالأسلحة الفضية، المظفر في جميع المعارك التي خاضها، رغم أن الشكوك قد بدأت تحوم حول تخليه عن معارك جديدة وأنه يقتات حالياً من تلك الشهرة التي بلغها في الماضي. ها قد دخل السائحون، وبقي الشارع هادئاً فجأة، وفي هذا المقام تعجبنا بشدة كتابة «في سُبات عميق» التي تشير بقوة إلى تراخي الروح والجسد من جرّاء الصيف الحارق، لكنها لا تناسب الحديث عن صباح يوم بارد، المهم أن السياح قد ذهبوا في سلام وتركوا الشارع هادئاً. من هنا يمكن رؤية النهر، من فوق مقرنصات

حاجز الكاتدرائية التي تبدو مثل الدُّمى على أبراج الأجراس غير المرئية بفعل تفاوت مستوى الأرض، ورغم بُعد المسافة إلا أنه يُحس بالسكينة التي تخيم على المكان وبطيران النّوارس فوق الجريان اللامع للمياه. لو كانت هنالك بالفعل خمس سفن صليبية لكانت قد شرعت دون شك في إلقاء القذائف على المدينة الخاملة، لكن هذا لا يمكن حدوثه لأننا نعرف جيداً أن هذه الجهة لا تشكل خطراً على المسلمين، ومن جهة أخرى- وطبقاً لما هو مُثبت كتابةً من قبل- فإن البرتغاليين لن يحصلوا على مساعدة من رسوا هناك من أجل التزود فحسب بالماء والمؤن وللاستراحة من الإبحار ومضايقة العواصف قبل استئناف رحلتهم، لا من أجل انتزاع هذه المدينة المبتذلة من أيدي الكفار، بل الأرض الغالية التي أحست بثقل الربّ، ومن قدميه مازالت تحتفظ- في مكان ما لم يمر عليه مخلوق بعدها، وتركته الأمطار والرياح سليماً كما هو- بالآثار العلوية الحافية.

اجتاز رايموندو سيلبا الناصية، متجهاً إلى شارع «ميلاجرو دي سان أنطونيو»، وعند مروره من أمام بيته تخيل- لإرهافه السمع للأصوات حوله- أنه سمع لبرهة رنين هاتف. هل هو هاتفي- قال لنفسه-، لكن مصدر الرنين قريب ويمكن أن يكون من محل الحلاقة الواقع على الجانب الآخر من الشارع، وفي هذه اللحظة تحديداً خطر بباله احتمال ثانٍ كشف له عن عدم تبصره، لقد كان من قبيل

العَته البيّن الظن بأن كوستا سيبدأ باستخدام الهاتف، بل يمكن أن يكون قادماً الآن إلى هنا. وفي الحال صوّرت له مخيلته هذا المشهد: كوستا في السيارة يخترق مغاضباً شارع «ليمويرو» وصوت العجلات يزعق عند منحنى الكاتدرائية، وإذا لم يبادر رايموندو سيلبا بإنقاذ نفسه فسوف يظهر كوستا ومحرك سيارته يئز، ثم يقف أمامه بعد الضغط على الكابح إلى نهايته ليقول له منطفئاً. «اركب، اركب، لي معك حديث طويل، لا، لا أريد الكلام هنا»، فكوستا رغم كل شيء إنسان مؤدب لا يقدر على إثارة فضيحة في الشارع. المصحح لا ينتظر أكثر، بل يهبط درج «سان كريسبين» بسرعة، ولا يتوقف إلا بعد اجتيازه للمنحنى، مختفياً عن البحث الدؤوب والجزع لعيني كوستا. يجلس على إحدى الدرجات لالتقاط أنفاسه من «الخضّة»، يهش كلباً اقترب منه لاعقاً الهواء بفمه، ثم يخرج من جيبه الصفحات التي فصلها عن رُزمة البروفات، يفردها فوق ركبتيه ويملّس عليها بكفّه.

ذكرنا آنفاً أن رايموندو سيلبا بينما كان ينظر من شرفته إلى أسطح البيوت المنحدرة على شكل درجات سلّم نحو النهر واتته فكرة التأكد عملياً من المعلومات التي أوردها المؤرخ عن تصميم السور الإسلامي، وإن كانت الأمانة تقتضي القول بإنها معلومات قليلة ومشكوك فيها. يوجد هنا، أمام عيني رايموندو سيلبا تحديداً، جزء،

إن لم يكن من السور الأصلي فهو على أدنى تقدير من جدار يحتل مكانه، وهذا الجزء يهبط بمحاذاة السلّم الذي يطلّ عليه صفّ من النوافذ العريضة التي ترتفع فوقها أفاريز عالية. رايموندو سيلبا موجود إذن في الجانب الواقع خارج المدينة القديمة، ينتسب إلى الجيش الغازي، وليس من المستبعد أن تُفتح نافذة من تلك النوافذ لتظهر منها شابة مسلمة تغني «هذه هي لشبونة الغالية، المصونة، هلاك للمسيحي المعتدي»، وبعد الانتهاء من غنائها تصفق درفات النافذة بشدة، ولكن الستارة الحريرية الرقيقة- إن لم تكن عينا المصحح تخدعانه- قد أزيحت بخفة، وهذا التصرف كافٍ لتحطيم ما في كلمات الأغنية من تهديد، وعندئذ يمكن أن تبدو لشبونة على خلاف ما بدت: امرأة وليست مدينة، ويكون المقصود بالهلاك هلاك العشق فحسب، لأنه الهلاك الوحيد السعيد. اقترب الكلب ثانية. ينظر إليه رايموندو سيلبا بتفهم هذه المرة، إنه ليس من الكلاب المسعورة التي من سماتها- طبقاً لما قرأه ذات يوم، لا يذكر أين- تهدّل الذيل، ولكن ذيل هذا الكلب لا ينم عن عدوانية، ربما بسبب الجوع الذي يترك بصماته على ضلوعه أو اللعاب الذي يسيل من بين أنيابه لاحتمال شمّه للرائحة النفّاذة لطعام يتم إعداده بمنزل قريب من سلم «سان كريسبين». لنهدئ من روعنا إذن، فالكلب ليس مسعوراً، قد يكون على خلاف هذا في زمن المسلمين، وإن كان من الغريب رؤية كلب متشرد في مدينة حديثة ومنظمة وصحية

مثل هذه، ربما أنقذه من الشّباك تفضيله لهذا الطريق المنزوي شديد الانحدار الذي يتطلب ساقاً سريعة متسعة الخطى، وهي خصال لا تتوافر في جامعي الكلاب.

يراجع رايموندو سيلبا الأوراق متتبعاً ذهنياً مسار السور، ينظر خلسة إلى الكلب ويتذكر وصف المؤرخ لفظائع الجوع التي ألّمت بالمسلمين بعد شهرين من الحصار، وطبقاً لوصفه فلم يبق على قيد الحياة كلب ولا قط، ولا حتى الفئران نجت من الالتهام، ورغم هذا لا يمكن تسفيه حلم من قال «إن كلباً نبح في ذلك البكور الساكن الذي صعد فيه المؤذن لينادي على المؤمنين من فوق المئذنة لصلاة الفجر»، ومن ثمّ فقد أخطأ من حاول تفنيد ما سبق بقوله «إن المسلمين لا يطيقون النظر إلى الكلب لأنه حيوان نجس»، أما من جهتنا فإننا قد نتفهم استبعادهم له من البيوت والملاطفة والصّحاف لكنهم لا يستثنونه مطلقاً من الإسلام الرَّحب، فنحن إذا كنا قادرين بالفعل على العيش في سلام بصحبة نجاساتنا الخاصة فبأي حق نرفض بشراسة نجاسات الآخرين، المتعلقة في هذه الحالة بطبيعة الكلاب وهي أشد براءة وطهارة من طبيعة البشر الذين يزجون باسم الكلب في مواقف شديدة السوء حين يلقون به كسُباب في وجوه الأعداء، من المسلمين إلى المسيحيين، ومن المسيحيين إلى المسلمين، ومن كلا الفريقين السابقين إلى اليهود، حتى لا نتطرق اليوم إلى من نعرفهم

جيداً، وهم الوجهاء البرتغاليين الذين يبالغون في العناية بكلابهم وتدليلها لدرجة الحرص على مقاسمتها الفراش وكأنها محظيات، وعندما يواجهون خصومهم الأشد قسوة لا يخطر ببالهم كلمة أسوأ من «كلب» ليرموهم بها، ويبدو أنه لا توجد إهانة أشد من هذه، باستثناء «ابن الكلبة» (أي ابن الزانية). وهذا كله نابع من معايير البشر الذين يصنعون الكلمات، لكن الحيوانات المسكينة لا علم لها بالقواعد، وإذا حدث وحضرت الكلاب شجاراً مثل هذا: «أيها الكلب– يقول المسلم، فيرد عليه المسيحي قائلاً بل أنت، ويشرعان في المبارزة بالرمح والسيف والدَّرقة» فإنهم يقولون لبعضهم بعضاً «الكلاب هم نحن، ولكن الأمر يعنيهم».

رايموندو سيلبا ليس في عجلة من أمره. يستطلع بجهامة مسار السور القديم، ولإرضاء نفسه يسجل بعض الملاحظات الدقيقة في ذهنه، أو بالأحرى الملاحظات التكميلية التي تثبت معاصرته، هنالك على قارعة طريق «كورّيرو بلهو» توجد وكالة دفن الموتى، وطائرة نفاثة تطلق دخاناً أبيض تحت السماء الزرقاء كالأثر الطويل الذي تتركه على صفحة مياه البحر الزرقاء سفينة مسرعة، بنسيون «كاسا أوليبيرا» (حجرات تشرح الصدر) في شارع «باداريا»، وإلى جوار بوابات «البحر» يوجد مطعم (كلُ، وادفع، وتجوّل) ومَشْرب «كونثيثاو»، صخرة السلاح العالية «ماسكارينهاس» على ناصية

أحد بيوت «أركو دي خيسوس» حيث كانت موجودة إحدى بوّابات السور الإسلامي ويشير إليها رسم على جدار وكأنه علامة احتجاج، البوابة النيوكلاسيكية لقصر كونتات «كوكوليم»، ومخزن سلاح «ماسكارينهاس» يعتبر بمثابة ذكرى لأيام العظمة الخوالي، لعالم من الأشياء المؤقتة الفانية، شأنه في ذلك شأن بقية الأشياء بالتأكيد، دون استثناء لأثر النفاثة الذي انقشع الآن وما فضُل منه سوف يقدم عنه الزمن الحساب في حينه، يكفي فحسب صبر الانتظار. دخل المصحح «الفامة» بعد اجتيازه لقوس «شفاريث دل رِيّ»، سوف يتناول الغداء هناك، في أحد مطاعم شارع «سان جواو براثا» بجوار برج «سان بدرو»، سيتناول طعاماً برتغالياً شعبياً يتمثل في شَوْريليّة وأرز بالطماطم وسلاطة خضراء، وحظ أوفر لو كانت من نصيب طبقه أوراق قلب الخسّ اللدنة حيث– وهذا لا يعرفه الجميع– تتجمع طزاجة الأصباح المتتالية والندى ورزاز السماء، والكلمتان الأخيرتان معناهما واحد وإذا كنا قد ذكرنا مرادف الأولى فمن باب متعة كتابة الكلمات وقولها بتلذذ. كانت تقف على باب المطعم فتاة غجرية، في الربيع الثاني عشر من عمرها، تبسط يدها منتظرة، دون كلام، مثبتة نظرها فحسب على المصحح الغارق فيما يشغله من أفكار، لم يرها غجرية بل مسلمة في ساعة الاحتياج الأولى، عندما كان من يمكن أن تطلب منه مازال موجوداً، وعندما كانت الكلاب والقطط والفئران مازالت تعتقد بأن حياتها مضمونة إلى

أن يحين أجلها الطبيعي، سواء عن طريق المرض أو حرب الأنواع، المهم أن التقدم أصبح حقيقة ولا يوجد في لشبونة اليوم من يعدو خلف حيوانات مثل هذه لاصطيادها وأكلها، ولكن الحصار لم ينته، وهذا ما تُنبئ به عينا الغجرية.

سوف يمر رايموندو سيلبا بتمهل على الأماكن التي لم يتفحصها بعد، على جزء من السور في ساحة «سنيور مورثا» بشارع «أديثا» حيث يتجه السور إلى أعلى، وفي شارع «نوربرتو دي أراوخو»– وهذا هو الاسم الذي أطلق عليه حديثاً– حيث توجد كتلة هائلة من السور متآكلة القاعدة، إنها حجارة تنبض حقاً بالحياة، راسخة في مكانها منذ تسعة أو عشرة قرون، إن لم يكن أكثر، من زمن البرابرة، ومازالت تقاوم وتتحمل في رباطة جأش برج أجراس كنيسة «سانتا لوثيا» أو «سان بلاس»، لا فرق، وفي هذا المكان نفسه كانت تُفتح «بوّابة الشمس» المنعطفة جهة الشرق لتكون الأولى في استقبال هالة الشروق الوردية، والآن لا يبقى سوى الميدان الذي انتحل اسمها، لكن الآثار المميزة للبلور لم تتغير، فألف سنة بالنسبة للشمس مثل زفرة قصيرة من زفراتنا نحن. كان السور القديم يمتد في هذين الجانبين بزاوية شديدة الانفراج بحيث تتعامد مع سور القصبة، وبهذا الشكل يتم تطويق المدينة بالكامل، من حافة الماء تحت إلى نقاط الالتقاء بالحصن الصغير ذي الرأس المرتفعة والتطعيمات

البارزة والذراعين المعقوفين والأصابع المتشابكة الثابتة، مثل أصابع المرأة الممسكة ببطنها الحامل. يصعد المصحح متعباً شارع «دوس ثيجوس»، يدخل ساحة «دون فراديكي»، ينفتح الزمن في فرعين حتى لا يلمس هذه القرية النائمة على الصخور منذ القوط أو الرومانيين أو الفينيقيين، وبعد ذلك المسلمين، ثم البرتغاليين الأوائل يليهم الأبناء والأحفاد حتى نحن حالياً، القوة والمجد، ثم عصور الانحطاط الأولى والثانية والثالثة، وكل عصر منها ينقسم إلى أجناس وتوابع للأجناس. بالليل، وفي هذا الفضاء بين البيوت الوطيئة، تتجمع الأشباح الثلاثة: شبح ما كان، وشبح ما كان على وشك أن يكون، وشبح ما كان يمكن أن يكون. لا يتكلمون، ينظرون إلى بعضهم بعضاً مثل العميان، ويصمتون.

يجلس رايموندو سيلبا على مقعد حجري، في الظل البارد للمساء، يستشير الأوراق للمرة الأخيرة ويتأكد من فراغه من رؤية كل شيء، القلعة يعرفها بما فيه الكفاية ولا داعي للعودة إليها اليوم، رغم أن اليوم مخصص للاستكشاف والجرد. تبدأ السماء في التحول إلى البياض، مُنذرة بالضباب الذي وعدت به النشرة الجوية، تنخفض درجة الحرارة بسرعة. يغادر المصحح الساحة إلى شارع «شاو دي فيرا» الذي توجد أمامه بوابة «سان خورخي»، مازال هناك أناس يلتقطون صوراً للقديس. يلاحظ أن الفاصل بينه حيث يقف وبين

بيته- وإن كان لا يُرى من هنا- يقل عن خمسين متراً، وعندئذ يدرك بوضوح ولأول مرة أنه يعيش في نفس المكان الذي كانت تُفتح فيه قديماً بوّابة «الفوفا»، وبالطبع لا يمكن التحقق الآن مما إذا كانت تفتح إلى الداخل أم إلى الخارج، ومن ثمّ لا نستطيع معرفة إذا كان رايموندو سيلبا محاصِراً أم محاصَرا، المنتصر أم المهزوم.

لم يكن موجوداً تحت عقب الباب أية رسالة غاضبة من كوستا. دخل الليل ولم يرنّ الهاتف. شغل رايموندو سيلبا السهرة بالبحث في هدوء وسكينة بين الأرفف عن الكتب التي تتحدث عن لشبونة المسلمة. وفي وقت متأخر من الليل ذهب إلى الشرفة لمعرفة حالة الجو. ضباب لكنه ليس بكثافة البارحة. سمع نباح كلبين فازدادت- على خلاف المتوقع- سكينته. لم تمسك الكلاب عن النباح مع اختلاف القرون، العالم إذن لم يتغير. آوى إلى الفراش. ونتيجة للتعب من كثرة التجوال بالنهار استغرق في نوم عميق، لكنه استيقظ بضع مرات، بعد كل مرة كان يحلم فيها ويعود للحلم بسور مُفَرَّغ من الداخل مثل جوال ذي رقبة ضيقة يمطّ كرْشه حتى ضفة النهر، تحيط به منحدرات مليئة بالأشجار، وغابات ووديان، وجداول صغيرة، وبيوت متناثرة، وبساتين ومزارع زيتون، ومصبّ واسع تمتد الأرض بداخله. وفي الخلفية كانت تظهر بوضوح أبراج «أموريراس».

ثلاثة عشر يوماً طويلة زحفت بطيئة حتى اكتشفت دار النشر– أو أحد لها– العمل الشرير. قضى رايموندو سيلبا هذا الوقت اللانهائي وكأن بجسده سمّاً بطيئ المفعول وإن كانت مُحصّلته النهائية محصلة أشد السموم فتكاً، إنها حالة تشبه تماماً حالة الموت الذي يعدّه كل واحد منا لنفسه طول حياته، والحياة ذاتها بمثابة شرنقة حامية له أو حبل سري يتغذى عليه. في خلال هذه المدة حملته قدماه إلى دار النشر أربع مرات دون أن يناديه داع حقيقي إلى هناك، لأن عمله كما نعلم ذو طبيعة شخصية ومنزلية، مختلف عن معظم التكاليف التي تقيد حركة عموم الموظفين، سواء القائمين بالأعمال الإدارية أو الإنتاج أو الإدارة الأدبية أو التوزيع أو التخزين، عالم تتحكم فيه الرقابة ولا ينتمي إلى مملكة الحرية مثل عمله في التصحيح. كانوا يسألونه ماذا يريد، فيجيب: لا شيء، كنت قريباً من هنا وواتتني فكرة الدخول. كان يظل واقفاً عدة دقائق، منتبهاً إلى المحادثات والنظرات، في محاولة منه للإمساك بخيط ريبة أو ابتسامة مداراة

مُستفزّة أو جملة عابرة لفك شفرتها المستغلقة. كان يتفادى النظر إلى كوستا، لا بسبب الخوف من أذى يأتيه من جهته، بل لأنه خدعه واستغل براءته، ونحن نتحاشى دوماً مواجهة من أساء لنا دون وجه حق ومازالوا يجهلون تلك الإساءة. يمكن القول إن رايموندو سيلبا كان يذهب إلى دار النشر مثل المجرم الذي يحوم حول مكان جريمته، ولكن هذا ليس صحيحاً تماماً لأن رايموندو سيلبا كان مشدوداً إلى المكان الذي سيتم فيه اكتشاف الجرم واجتماع القضاة لإصدار حكم إدانته بالإخلال بواجبات وظيفته والتزييف دون أن تكون لديه مبررات يدافع بها عن نفسه.

ليس لدى المصحح أدنى شك في أنه يرتكب خطأ ساذجاً لأنه سيتم اعتبار هذه الزيارات وقت الحساب بمثابة استعراض مقيت لسوء الطويّة. كنت تعرف الجرم الذي اقترفته ومع هذا لم تكن لديك الرجولة– سيقولون الرجولة– والصراحة والأمانة للاعتراف بمحض إرادتك، وظللت مترقباً ما سوف تسفر عنه الأحداث، ضاحكاً من الأعماق، وبخبث (وأصر على الكلمة الأخيرة) استهزاءً بنا (وابتذال الكلمات الأخيرة نابع من عدم مناسبتها لخطبة الغرض منها التأنيب والوعظ). سيكون من غير المفيد بيان أنكم مخطئون لو حسبتم أن رايموندو سيلبا كان يذهب بحثاً عن الطمأنينة والراحة، ألا تدركون إلى الآن أنه كان من أجل التقاط الأنفاس فحسب، أما الطمأنينة

والراحة فلم يكونا يستمران إلا قليلاً، لأنه فور عودته إلى منزله كان يحس بأن طوْق الحصار المفروض عليه أشد مما كان على لشبونة.

وبما أنه لا يعتقد في الخرافات، لم يرد بخاطره أن شيئاً كريهاً يمكن أن يحدث له في اليوم الثالث عشر. من لديهم النزوع إلى التفاؤل أو التطيّر هم فحسب الذين يحدث لهم مكروه في اليوم رقم 13، أما أنا فلم أُسلم نفسي بتاتاً لمثل هذه السلوكيات المعيبة، يحتمل أن تكون إجابته هكذا لو ألمح إليه أحد بهذا الافتراض. تفسر الديباجة السابقة الامتعاض المفاجئ الذي اعتراه حين سمع صوت سكرتيرة المدير وهي تقول له عبر الهاتف: «يا سيد سيلبا، أنت مدعوّ اليوم لاجتماع في تمام الرابعة»، قالت هذا بجفاء كأنها تقرأ منشوراً مكتوباً بعناية حتى لا تنقصه كلمة جوهرية أو تزيد عليه أخرى يمكن أن تقلّص من أثر الكدر الذهني، بمنطقية وقحة، والآن لم يعد للمفاجأة والغضب معنى أمام بداهة أن اليوم الثالث عشر لا يعفي أصحاب العزائم القوية من شروره، فضلاً عن تحكمه فيمن ليسوا كذلك. وضع سماعة الهاتف ببطء شديد ونظر حوله بإحساس من يدور به البيت: حسناً، لقد أزفت الآزفة– قال. في أوقات مثل هذه قد يبتسم الزينونيّ الصبور، لو كانت هذه النوعية القديمة من البشر لم تتلاشَ بالكامل لتفسح المجال أمام المستهتر نتاج التطور الحديث، وإن كان فيه بعض شبه من سلفه المشّاء الفلسفي. وسواء كان هذا

أو ذاك فعلى وجه رايموندو سيلبا ابتسامة شاحبة، يخفف الحزن الرجوليّ من وقْع كونها تعبيراً عن استسلام الضحية، وهذا ما نراه بكثرة في قصص الشخصيات، القراءة تعلّم الكثير.

يتساءل المصحح فيما إذا كان متضايقاً أم لا، ولا يعثر على إجابة. ما يبدو له غير محتمل بالفعل هو الانتظار حتى الرابعة لمعرفة الحكم الذي ستصدره دار النشر بشأن المصحح المذنب، كيف ستعاقب الاعتداء السفيه على الأحداث التاريخية الراسخة التي يجب– في المقابل– تعزيزها باستمرار وصوْنها بردع من يحاول العبث بها، لأنه يقوّض بهذا الشكل معنى معاصرتنا ذاتها، ويفتح الباب أمام التعكير الخطير لصفْو الآراء التي ترشدنا والمعتقدات المترتبة عليها. والآن وبعد اكتشاف الخطأ، في ماذا يفيد إنعام النظر في النتائج التي قد يفرزها في المستقبل وجود «لا» تلك في «قصة حصار لشبونة» لو أراد الحظ اختفاءها أكثر بين طيّات الصفحات ولم تلحظها أعين القراء بينما تشق لنفسها طريقاً غير مرئي، كالقرضات التي تترك قطعة أثاث مازلنا نحسبها ثقيلة مثل قشر بيضة فارغة. أزاح البروفات التي كان يراجعها جانباً، لم تكن بروفات القصة التي تركها له كوستا في ذلك اليوم الشهير، بل بروفات كتاب قصائد صغير، وعندما أراح رأسه الشاحبة بين كفّيه وردت بباله قصة لا يتذكر عنوانها ولا مؤلفها، رغم أنه قد بدا له أن العنوان كان شيئاً مثل

«طرزان والإمبراطورية الضائعة»، حيث توجد مدينة بها رومانيون قدماء ومسيحيون أوائل، ولكنهم جميعاً مختبئون في أحد الأدغال الإفريقية، صحيح أن خيال المؤلفين ليس له حدود، ومؤلف هذه القصة- لو كانت بقية الأحداث متطابقة- يمكن أن يكون «إدجار رايث بورّوش». كان يوجد بالمدينة سيرك وكان المسيحيون يلقون بأنفسهم- دون محاولة للفرار، رغم أن هذه هي أرضهم- للوحوش، أي الأسود، ويقول مؤلف القصة، دون سوْق أدلة أو تقديم إثباتات، إن الأشد عصبية من بين هؤلاء التعساء لم يكن ينتظر مهاجمة الأسود له، بل كان يجري للقاء الموت، لا بدافع السَّبْق لدخول الجنة، بل لأنه ببساطة لم تكن لديه القدرة على تحمل انتظار ما لايمكن تفاديه. ومن باب توارد الأفكار فإن هذه القصة التي تذكرها رايموندو سيلبا من قراءات مرحلة الشباب جعلته يتصور أن بيده إمكانية تعجيل سير الأحداث وتسريع الزمن والذهاب فوراً إلى دار النشر مستنداً إلى ذريعة ما، مثل: «لدي موعد مع الطبيب في الرابعة، أخبروني بماذا تريدون»، وستكون هذه هي طريقة كلامه مع كوستا، لكنه يعلم بوضوح أنه لم يذهب للحديث مع قسم الإنتاج لأن الاستدعاء صادر من سكرتيرة المدير العام، بما يعني أن قضيته سيتم معالجتها على مستوى الدوائر العليا، ومن السخف أن الأمر الأخير قد أرضى غروره. «لقد أصابني الجنون»، غمغم بهذه الكلمات التي يكررها على مدار ثلاثة عشر يوماً. يرضيه، وسط هذه البلبلة التي

تتنازعه فيها الأحاسيس، سيطرة إحساس واحد عليه بحيث يستطيع الإجابة فيما بعد على السؤال الذي قد يطرحونه عليه: وماذا كان إحساسك في هذا الموقف شديد الصعوبة. أحسست بالاهتمام أو بعدم الاكتراث أو بالخوف أو بالخجل. إنه لا يعرف حقيقة ما يحس به، يتمنى فحسب وصول الساعة الرابعة بسرعة، اللقاء المحتوم مع الأسد الذي ينتظر فاغراً فمه بينما يصفق الرومانيون. هكذا تكون اللحظات، فرغم أنها تبتعد بعامة حاملة معها الفزع الذي جعلنا نخدش جلودنا، إلا أن واحدة منها تبقى دائماً لكي تلتهمنا. الاستعارات والكلمات البليغة عن الزمن والقدر المحتوم كلها مأساوية وعديمة الجدوى في الوقت نفسه، ورد هذا المعنى على خاطر رايموندو سيلبا وإن لم يكن بالكلمات نفسها، وخالجه السرور. ومع هذا لم يكن قادراً على تناول الغداء، فلديه في الحلق غصّة وفي المعدة تشنج، والجملة الأخيرة غير مبتذلة وتعبر بصدق عن خطورة الموقف. كان اليوم هو موعد زيارة الخادمة، وجدته على غير المألوف حتى أنها سألته: هل أنت مريض، وكان لسؤالها– على عكس المتوقع– مفعول مُحفّز، لأن حالته إذا كانت قد اختُزلت في عيون الآخرين على أنها مرض فحسب، فينبغي عليه إذن السيطرة على نفسه ونبذ البؤس الذي حاق به، ولذا كانت إجابته: أنا في أحسن حال، وقد كان هكذا حقاً في تلك اللحظة.

كانت الرابعة إلا خمس دقائق عندما دخل دار النشر. وجد كل ما يبحث عنه من قبل: همهمات ونظرات وضحكات، وفي وجهٍ أو وجهين أيضاً تعبير حيرة فحسب، مثل من لا يقتنع بأمر جليّ وعليه الاعتقاد فيه. أدخلوه صالة انتظار الإدارة، تركوه هناك لأكثر من ربع ساعة، الوقت الكافي لإثارة هلع غير المنضبطين. نظر إلى الساعة، من الواضح أن الأسد قد تأخر، من الصعب اليوم السير على هدى في الأدغال رغم وجود أرصفة رومانيين، ولكن من المحتمل جداً في هذه الحالة أن أحداً قد واتته فكرة اللجوء إلى تكتيكات نفسية أثبتت جدواها، وجَعْله ينتظر بقصد تحطيم أعصابه ودفعه إلى حافة الأزمة بحيث لا يقوى على الدفاع حين يسقط فوقه الهجوم الأول. ورغم هذه الظروف فإن رايموندو سيلبا يعتقد أنه هادئ للغاية، مثل من لم يفعل طول حياته سوى وضع الأكاذيب مكان الحقائق دون الاهتمام كثيراً بالفارق، ومثل من تدرب على الاختيار بين الأسانيد المفيدة أو غير المفيدة من طول معايشته للقضايا الجدلية والفتاوى القانونية التي ملأت رأسه وتملكت وعيه. ظهرت على الباب الذي فُتح بعنف سكرتيرة المدير الأدبي، لا المدير العام: «من فضلك، اصطحبنى»[1]، ورايموندو سيلبا، رغم رصده للخطأ النحوي في الجملة، تحقق من أن الهدوء المظنون كان هشّاً ولا يتعدى الظاهر،

(1) الخطأ النحوي المشار إليه يتمثل في عدم الإتيان بحرف «de» في الجملة التي نطقتها السكرتيرة إذ قالت: Haga el favor acompanarme، والصحيح أن تقول ... de acompanarme (المترجم).

لأن ركبتيه كانتا ترتجفان حين نهض من الأريكة، أثار الأدرينالين الاضطراب في الدم وشرعت في العرق يداه وإبطاه، حتى أن مغصا قولونياً مبهماً أعطى الإشارة بالرغبة في الانتشار بالجهاز الهضمي كله، «أبدو كأنني عجل في طريقه إلى الجزّار»– قال لنفسه –، ولحسن الحظ كان قادراً على احتقار نفسه.

انتحت السكرتيرة جانباً: ادخل، ثم أغلقت الباب خلفه. قال رايموندو سيلبا: مساء الخير. رد اثنان من الموجودين: مساء الخير، أما الثالث، المدير الأدبي، فقال فحسب: اجلس يا سيد سيلبا. الأسد أيضاً يجلس ناظراً، من الممكن الظن بأنه يلثم خطْمه كاشفاً عن أنيابه بينما يقوّم كثافة وطَعْم لحم هذا المسيحي الشاحب. يضع رايموندو سيلبا ساقاً على أخرى، لكنه يعيدها إلى ما كانت عليه في الحال، وفي هذه اللحظة يدرك أنه لا يعرف أحد الأشخاص الموجودين هناك، المرأة الجالسة على يسار المدير الأدبي. أما الجالس عن يمينه فهو مدير قسم الإنتاج، بَيْد أن المرأة لم يرها من قبل في دار النشر، «من تكون، يا تُرى». يحاول ملاحظتها خُفية، ولكن المدير الأدبي أخذ الكلمة: أظن أنك تعرف لماذا استدعيناك. أتصور هذا. سعادة المدير العام كان يرغب في تولي هذا الموضوع بنفسه، لكن مشكلة عاجلة طرأت في اللحظة الأخيرة اضطرته للغياب. سكت المدير الأدبي وكأنه يريد إفساح الوقت لرايموندو سيلبا كي يتمكن

من نذْب حظه العاثر بضياع فرصة الاستجواب من المدير العام شخصياً. وإزاء صمت المصحح ترك صوته يعبر للمرة الأولى عن غضب مكظوم رغم إذابته له في نغمة تصالحية بعض الشيء. أشكرك- قال- على اعترافك الضمني بالمسؤولية، لأنك بهذا الشكل وفّرت علينا الخوض في مسائل شائكة مثل الإنكار أو محاولة تبرير ما حدث. فكر رايموندو سيلبا في أنهم ينتظرون منه الآن إجابة أكثر اكتمالاً من الكلمتين البسيطتين السابقتين «أتصور هذا»، لكنه قبل أن يتمكن من الكلام تدخل مدير قسم الإنتاج قائلاً: أنا لا أستوعب، يا سيد سيلبا، ارتكابك لخطأ مثل هذا رغم كفاءتك المهنية وعملك مع هذه الدار منذ سنوات طويلة. لم يكن خطأً- قاطعه المدير الأدبي- ولا داعي لبسط هذه اليد الرحيمة للسيد سيلبا، فنحن نعرف مثله تماماً أنه كان عملاً مقصوداً ومدبراً، أليس كذلك يا سيد سيلبا. وما الذي يحمله، يا سيادة المدير، على الاعتراف بأنه كان عملاً مقصوداً. أرجو ألا تكون قد تراجعت الآن عما كنت تنويه حين دخلت إلى هنا. أنا لا أتراجع، بل أسأل فحسب. بدا الغضب واضحاً على المدير الأدبي، لاسيما بعد التهكم الذي تضمنته الكلمات السابقة: أعتقد أنه لا داعي للفت نظرك بأن حق توجيه الأسئلة وطلب الاعتذار، فضلاً عن التدابير الأخرى المناسب اتخاذها، لا يخصك أنت بل نحن، وخاصة أنا بصفتي الممثل الرسمي للمدير العام في هذه الجلسة. لديك الحق كله، يا سيادة

المدير، وأسحب سؤالي. لا داعي لسحبه، وإجابتي عليه هي أننا نعرف أنه كان عملاً مقصوداً من خلال التحقق من الطريقة التي كتبت بها «لا» في البروفة، لقد كتبتها بحروف قوية ومدببة، على خلاف عادتك في الكتابة بخط خفيف غير مضغوط وإن كان واضحاً. وهنا سكت المدير الأدبي فجأة، كأنه تذكر أنه يتحدث أكثر من اللازم وهذا يُضعف، بالتالي، من وضعه قاضياً. مرت فترة صمت، بدا لرايموندو سيلبا أن تلك المرأة لم تمسك خلالها عن النظر إليه. «من تكون، يا تُرى»، لكنها كانت تلزم الصمت وكأن الموضوع برمّته لا يعنيها. ورئيس قسم الإنتاج بدوره، حانقاً من المقاطعة التي كان هدفاً لها، بدا أنه فقد الاهتمام بنقاش ينحو بوضوح نحواً سيئاً. ألا يدرك هذا الأبله أن هذه ليست طريقة يدير بها الحوار، يتكلم ويتكلم، يسره سماع الآخرين له، ويهدي النصر لسيلبا الذي يقضي وقتاً طيباً على ما يُعتقد، ولنشاهد كيف يلوذ بالصمت فحسب، إنه الهدوء بعينه في الوقت الذي ينبغي أن ينتفض فيه من شدة الرعب. رئيس قسم الإنتاج واهم بالنسبة لما يحسبه هدوءاً من رايموندو سيلبا، أما بالنسبة إلى ما عداه فربما لا، لأننا لا نعرف المدير الأدبي حق المعرفة لكي نقطع فيه برأي يعتمد على أساس. رايموندو سيلبا ليس هادئاً بالفعل، إنه يبدو هكذا فحسب نتيجة للبلبلة الناجمة عن الاتجاه غير المتوقع للحوار الذي كان يتصوره كارثياً بمعنى الكلمة: الاتهام المهيب، تلعثمه في الدفاع

عما لا يمكن الدفاع عنه، التكدير، التهكم المرير، الخطبة اللاذعة، التهديد، وربما الفصل بمثابة الختام النهائي لكل ما سبق، «أنت مفصول، ولا تنتظر ولا حتى خطاب توصية منا». يدرك رايموندو سيلبا أن الكلام قد حان وقته، لاسيما أن الأسد ليس في مواجهته مباشرة، لقد انتحى جانباً بعض الشيء ويهرش لبدته بظفر مكسور، ربما ينتهي المشهد دون موت مسيحي واحد في السيرك، رغم انعدام أيّ أثر لطرزان. يقول، متجهاً في البداية إلى رئيس قسم الإنتاج ثم في خفية إلى المرأة التي مازالت صامتة: لم أنكر كتابتي لهذه الكلمة، ولم أفكر قط في الإنكار عندما يتم اكتشاف الأمر، بَيْد أن المهم- في تقديري- لا يكمن في كتابة «لا»، بل في البحث عن السبب الذي جعلني أقدم على هذا. لن تقل لي أنك لا تعرفه، ردّ المدير الأدبي بنبرة تهكم في عودة منه لإدارة الجلسة. حقيقة، لا أعرف. ترتكب خطأ متعمداً، وتتسبب في إلحاق الضرر المادي والمعنوي بدار النشر والقارئ، ولم تخرج من فيك حتى الآن كلمة اعتذار، وببراءة العالم كله تريد حملنا على الاعتقاد بأن قوة خفيّة أو روحاً علوية هي التي ساقت يدك بينما كنت في غيبوبة مُنَوَّماً. ابتسم المدير الأدبي، مسروراً بانسياب الجملة، ومحاولاً جعل الابتسامة بمثابة سخرية ساحقة. لا أعتقد أنني كنت في حالة غيبوبة- أجاب رايموندو سيلبا- أتذكر جيداً ملابسات كل شيء، وإن كان هذا لا يعني بالنسبة لي وضوح سبب كتابة هذا الخطأ المتعمد. آه، تعترف أنه لم

يكن خطأ بل تزويراً، وأردت وأنت في كامل وعيك الإضرار بدار النشر وتسفيه حلم قارئ الكتاب. أعترف أنه تزوير، لكني لم أقصد الأشياء الأخرى التي ذكرتها. ربما كان اضطراباً عارضاً، تدخل مقترحاً رئيس قسم الإنتاج بلهجة من يريد تقديم العون. انتظر رايموندو سيلبا تعقيباً من المدير الأدبي، سيكون خشنا بالتأكيد، لكن التعقيب لم يأت، وعندئذ فهم أن الجملة التي نطقها رئيس قسم الإنتاج كانت متوقعة، ومن ثمّ لن يكون هناك فصل ولن يتطور الموقف إلى ما هو أبعد من الكلمات، نعم، لا، ربما، وداهمه شعور مكثف بالراحة أحس بانزلاقه على جسده وتفيأت به روحه، من الواجب عليه الآن التلفظ بالكلمات الضرورية، وعلى سبيل المثال: نعم، كان اضطراباً عارضاً، وإن كان من المفروض ألا نتناسى مرور بضع ساعات قبل تسليم البروفات لكوستا، وهنا هنأ رايموندو سيلبا نفسه على المهارة في إدخال صيغة الجمع في حديثه والتي وضعته بجانب القضاة على المنصة وجعلته واحداً منهم. حسناً– قال المدير الأدبي– سوف يتم توزيع الكتاب وبه تنويه عن خطأ مطبعي، إنه خطأ مضحك، مفاده: يجب قراءة «لا لا» بدلاً من «لا»، أي قراءة «ساعد الصليبيون» بدلاً من «لم يساعد الصليبيون»، سوف يتندرون علينا، المهم أننا ولحسن الحظ تداركنا الأمر في الوقت المناسب، والمؤلف من جهته تفهم الموضوع ويبدو أنه يقدرك ويحترمك كثيراً، فقد حدثني عن حوار جرى بينكما منذ فترة ليست ببعيدة.

بالفعل، كنا نتحدث عن الـ «deleátur». عن ماذا، سألت المرأة. عن الـ «deleátur»، ألا تعرفينه، سأل رايموندو سيلبا بعدوانية. أعرفه، لكنني لم أسمع بوضوح. ويبدو أن تدخل المرأة غير المنتظم كان سبباً في تغيير دفّة المحادثة. هذه السيدة– قال المدير الأدبي– سوف تتولى من الآن مسؤولية توجيه المصححين الذين يتعاملون مع دار النشر، سواء بالنسبة للإيقاع الزمني للعمل أو ضبط المراجعات، أي أن كل شيء قد أصبح منوطاً بها، وعودة مرة أخرى إلى الموضوع أقول إن دار النشر قررت تسوية هذا العارض الكريه، آخذة في الاعتبار ما قدمه السيد سيلبا من خدمات وفيّة وجليلة، ويلزم التنويه إلى أن الإرهاق كان السبب فيما حدث، غشاوة مؤقتة على الحواس، وأخيراً ينبغي إهالة التراب على الموضوع آملين ألا يتكرر، وإضافة إلى ما تقدم نطلب منك كتابة خطاب اعتذار لدار النشر وخطاباً آخر مثله للمؤلف رغم أن الأخير قال إنه ليس ضرورياً وإنه سوف يتكلم معك ذات يوم عن هذا الحادث العارض، وإن كنا نرى أن الواجب يقتضي تقديم اعتذار مكتوب له. سوف أفعل. حسناً– أزاح المدير الأدبي من على كاهله في التوّ عبئاً ثقيلاً وأحس بالراحة– ولا داعي للقول بأننا سوف نتابع عن كثب عملك من الآن، لا لأننا نظن عودتك ثانية للتحريف المتعمد للنصوص، بل لتفادي أي عارض قد ينجم عن عدم السيطرة الكاملة على مكامن الوعي والشعور، وليس من الضروري

تنبيهك إلى أنه حتى لو حدث شيء نتيجة لهذا فلن تجدنا أقل تساهلاً. سكت المدير الأدبي في انتظار قيام المصحح بالإعراب عن نواياه المستقبلية، الواعية على الأقل، أما الأخرى- لو وُجدت- فإنها تنسب إلى دهاليز اللاشعور التي تستعصي شفراتها على الحلّ. فهم رايموندو سيلبا المنتظر منه، الكلمات تحتاج- حقاً- إلى كلمات، ولذا يُقال الكلمة تريد كلمة، ولكن من الحق أيضاً أنه لا ينشب صراع بين اثنين إذا أمسك أحدهما عن الرد، لنتصور أن «المهاجر روميرو» ترك دون إجابة حب الاستطلاع المشؤوم للتابع «تيلمو»[1]، الأكثر احتمالاً أنهما كانا سيسويان الأمور ولما حلّت المصيبة العميمة التي تتضمن الصراع والمأساة والموت، أو لنتخيل أن رجلاً يسأل امرأة: أتحبينني، فتصمت، ناظرة إليه فحسب كأبي الهول، شاردة وبعيدة، رافضة قول «لا» التي ستحطمه أو «نعم» التي ستحطمهما معاً، نخلص مما سبق إلى أن العالم سيكون أفضل كثيراً لو قنع كل واحد بما يقول دون انتظار للرد عليه، وسيكون أفضل أكثر وأكثر لو لم يطلب هذا الرد أو يتمناه. ولكن يجب على رايموندو سيلبا أن يقول: أتفهم اتخاذ دار النشر للاحتياطات التي تريدها، فمن أكون أنا كي أحفل بما يصنعون، وفي النهاية أطلب منكم المعذرة وأعدكم بعدم تكرار ما حدث ما دمت في كامل

(1) «المهاجر روميرو» والتابع «تيلمو» شخصيتان رئيسيتان في القصة الرومانسية المأساوية التي تحمل عنوان «فراي لويس دي سوسا»، للكاتب «ألميدا جارّيت» (1799- 1854)- (المترجم).

الوعي، وهنا توقف، كأنه يسأل نفسه إذا كان من الضروري الاستمرار، لكنه سرعان ما فكر في أن كل شيء قد قيل، وسكت.

قال المدير الأدبي: حسناً، وعندما كان يتهيأ لإضافة الكلمات المنتظرة «انتهى التحقيق، هيا بنا إلى العمل» في الوقت الذي ينهض فيه ويمد يده مبتسماً– علامة على التصالح– لمصافحة رايموندو سيلبا، أجهضت المرأة الجالسة على يساره الحركة والكرم بمقاطعتها: بعد إذنكم، يدهشني أن السيد سيلبا، وهذا هو اسمه على ما أعتقد، لم يكلف نفسه عناء تبرير اقترافه هذا التزوير بتغيير معنى جملة كان واجبه المهني يحتم عليه احترامها والدفاع عنها، فمن أجل هذا يعمل المصححون. لقد برز الأسد من جديد على حين غرّة، مزمجراً ومستعرضاً أسنانه المخيفة ومخالبه المسنونة، أملنا الأخير الآن ونحن تائهون على الرمال يتمثل في ظهور طرزان معلقاً في الأحبال النباتية المدلاّة، وزاعقاً بأعلى صوته «آهااه آهوووه»، وربما يكون متبوعاً بالفيلة التي أحضرها للمساعدة، بما تتسم به من ذاكرة قوية. وإزاء هذا الهجوم المباغت قام المدير الأدبي ومدير قسم الإنتاج بتغيير تعبيرات وجهيهما حتى لا يُتهما بالخَوَر من قِبل امرأة هشّة واعية بالتزاماتها المهنية التي تقلدتها حديثاً، ومن ثمّ فقد نظرا إلى المصحح بالغلظة المناسبة. لم ينتبها إلى عدم وجود تلك الغلظة على محيا المرأة، بل على العكس ابتسامة خفيفة وكأنها تتسلى بالموقف. نظر إليها رايموندو سيلبا مشوّشاً، إنها مازالت شابة، أقل من أربعين عاماً،

يُرى أنها طويلة، بشرتها كابية، شعرها كستنائي، ولو كان المصحح أكثر قرباً لأمكنه ملاحظة احتوائه على بعض الخيوط البيضاء، فمها مكتنز لكن شفتيها غير سميكتين، تنبعث إشارة بالقلق من عضو من أعضاء جسد رايموندو سيلبا، والكلمة المضبوطة هي إزعاج لا قلق، والآن يجب علينا اختيار النعت المناسب لها، وعلى سبيل المثال جنسيّ، ولكننا لن نفعل هذا. لا يمكن أن يتأخر أكثر في الرد رايموندو سيلبا، رغم أنه من الشائع القول: بقي الزمن معطلاً، وهذا ما لم يفعله الزمن قط منذ أن صار العالم عالماً. مازالت الابتسامة على وجه المرأة، بيْد أن فظاظة الكلمات لا يمكن نسيانها، ومن لا يصدق فما عليه سوى النظر إلى وجهي المديريْن. تردد رايموندو سيلبا بين الإجابة بعدوانية مماثلة أو اللجوء إلى نغمة تصالح تنصح بها تبعيته من الآن لتلك المرأة، فلديها بطبيعة الحال الكثير من الوسائل لتعكير صفْو حياته المستقبلية، ولن تعوزها المبررات، وبما أنه فكر مليّاً في الأمر بقدر ما أسعفه الوقت القليل المتاح، ومع وضعه أيضاً في الاعتبار للوقت الذي بدّده في ملاحظاته الجسمانية، فقد أجاب أخيراً بقوله: لا يوجد من هو أِشدّ مني تعطشاً للعثور على تفسير مقنع، وبما أنني لم أعثر عليه حتى الآن فإني أشك في إمكانية توصلي إليه فيما بعد، أعتقد أن صراعاً قد نشب بداخلي بين وازع الخير، لو كنت أمتلكه فعلاً، ووازع الشر الذي نملكه جميعاً، بين د. جيكيل ومستر هايد– لو سمحت لنفسي باستخدام

إشارات كلاسيكية –، أو بالأحرى القول، بكلماتي أنا، بين الغواية المتحولة للشرّ والروح المحافظة للخير، إنني أتساءل أحياناً عن كُنْه الأخطاء التي ارتكبها «فرناندو بيسوا»– في المراجعة وأشياء أخرى– نتيجة تشوشه اللاإرادي، إنها معركة يشارك فيها جميع الشياطين على ما أظن. ظلت الابتسامة على وجه المرأة طيلة خطبة رايموندو سيلبا، ومبتسمة سألت: وما كُنه الزائد في شخصية حضرتك عن جيكيل وهايد. استطعت حتى الآن أن أكون رايموندو سيلبا. حسناً، انظر فيما إذا كنت تستطيع الحفاظ على شخصيتك هكذا من أجل مصلحة دار النشر وتوخياً للوئام مستقبلاً في علاقتنا المهنية. آمل ألا يكون قد دار بخلدك أنها يمكن أن تكون غير هذا. لقد اقتصرت على تكملة جملتك، فمن واجب المصحح اقتراح الحلول لتفادي الغموض سواء كان متعلقاً بالأسلوب أو المعنى. أظن أنك تعرف أن رأس من يسمع أو يقرأ هي مكان الغموض واللَّبْس. لاسيما إذا كان الحافز قد أتى من جهة من يكتب أو يتكلم. أو من جهة من يحفزون أنفسهم بأنفسهم. لا أعتقد أن حالتي من هذا النوع الأخير. ألا تعتقد. نادراً ما أقدم على تأكيدات حاسمة. كنت حاسماً عندما كتبت «لا» في «قصة حصار لشبونة»، ولا تستطيع أن تكون كذلك عندما يتعلق الأمر بتبرير التدليس أو شرحه على الأقل لأنه لا يقبل التبرير. معذرة، فنحن نعود إلى نقطة البداية. أشكرك على هذه الملاحظة التي توفر عليّ عناء

إخبارك مرة أخرى برأيي في فعلتك. فتح رايموندو سيلبا فمه استعداداً للإجابة، لكنه لاحظ تعبيرات الذهول على وجهي المديريْن، فقرر السكوت. مضت فترة صمت، لم تتوارَ ابتسامة المرأة، ولكن ربما لبقائها وقتاً طويلاً هكذا فما كان على وجهها هو نوع من الانقباض أو التشنج، أحس رايموندو سيلبا فجأة بالغرق وأن جوّ ذلك المكتب يجثم ثقيلاً فوق كتفيه، أكره هذه المخلوقة– قال لنفسه –، ثم نظر متعمداً إلى المديريْن وكأنه يريد إفهامهما أنه لن يقبل من الآن فصاعداً أسئلة من غيرهما ولن يوجه إجاباته لأحد سواهما. كان يعرف أن المباراة خاسرة في هذا الجانب، نهض المديران معاً وقال أحدهما: انتهى التحقيق وهيا بنا إلى العمل، لكنه لم يمد يده إلى رايموندو سيلبا وكأن لسان حاله يقول إن هذا السلام المزعزع لا يستحق الاحتفاء، وعندما خرج المصحح قال المدير الأدبي لمدير قسم الإنتاج: أعتقد أنه كان من الأسهل فصله، ولكن المرأة كانت هي التي علّقت قائلة: وكنا خسرنا عندئذ مصححاً ممتازاً. ما حدث هنا لن يجعله هكذا بعد الآن. لا أظن.

تقابل رايموندو سيلبا لدى خروجه مع كوستا الذي كان قادماً من المطبعة. ألقى عليه بتحية المساء دون مقدمات، وكان سيستمر في طريقه لو لم يوقفه كوستا في غير عنف بجذب كُمّ المِعْطف الذي يرتديه بلطف، كانت عينا كوستا جادتين، حانيتين تقريباً، وكانت

الكلمات مُرَوّعة وسأله: لماذا فعلت بي شيئاً مثل هذا، يا سيد سيلبا. لم يجد رايموندو سيلبا ما يجيب به، اقتصر على النفي بطفولية: لكني لم أصنع بك شيئاً. هزّ كوستا رأسه، سحب يده وواصل طريقة في الردهة أمامه، محال أن يكون هذا الرجل لا يدري أنه أهانه شخصياً، فالقضية تتعلق أساساً بالاثنين، كوستا ورايموندو سيلبا، المخدوع والخادع، وبينهما لا يمكن أن يوجد سوء تفاهم مُنقذ. حين وصل كوستا إلى نهاية الردهة التفت نحوه وسأل: هل أقالوك، لا، لم يقيلوني. حسناً، لو فصلوك لكنت أكثر غيظاً (Cabreado) مما أنا عليه. لا شك أن كوستا رجل عظيم ومعتدل في تصريحاته، لم يقل حزيناً أو ممروراً متدرعاً بالمهابة، بل قال «مغتاظاً»، إنها كلمة عامية كما تصنفها القواميس غير أنها لا تنم عن خصومة، وهذا هو رأينا فيها وإن خالف رأي الحريصين على صفاء اللغة. إن كوستا في نهاية المطاف مغتاظ، ولا توجد كلمة أخرى أفضل منها للتعبير عن حالته المعنوية، أو عن حالة رايموندو سيلبا الذي لو سأل نفسه للمرة الألف عن طبيعة إحساسه الشخصي لما استطاع أن يجيب أيضاً وبأريحية قاطعة: أنا مغتاظ.

عندما وصل إلى البيت كانت الخادمة قد غادرته، تاركة له رسالة، نفس الرسالة التي تتركها له دوماً حين يكون غائباً: لقد ذهبت، كل شيء مُرتب، أخذتُ الملابس التي لم أفرغ من كيّها لأعيدها مكويّة

في الزيارة القادمة. وإظهار هذا الحرص من جانبها يعني أنها استغلت فرصة غيابه لمغادرة المكان قبل الموعد المحدد، لكنها لن تعترف بهذا مطلقاً، ورايموندو سيلبا الذي لا يشك في ملفها المهني كان يقبل التوضيح ويسكت. تنشأ بعض العلاقات المتوائمة وتستمر بفضل نظام معقد لأكاذيب صغيرة، نوع من الرقص المتواطئ لمواقف وتصرفات، ويلخص ما تقدم مثلٌ غير متداول بما فيه الكفاية- وإن كان يناسبه أكثر إطلاق لفظة «حُكم» عليه- ويقول: «كلانا يعرف ما يعرفه الآخر، فلا تبح بما تعرف لأنني لن أبُح». وهذا لا يعني أن هناك أسراراً أو خبايا أو مصائب مخبوءة في خزائن مغلقة وسوف يتم الكشف عنها بالحديث عن العلاقة بين سيد وخادمة في هذا البيت حيث يعيش رايموندو سيلبا وإلى حيث تأتي من وقت إلى آخر- للعمل- خادمة قد لا يكون من الضروري حتى معرفة اسمها. ولكن من المهم جداً الاعتراف بأن حياة هذين الكائنين معتمة وشفافة في الوقت نفسه، فبالنسبة لرايموندو سيلبا لا يوجد من هو أقرب إليه منها، ورغم هذا لم يهتم حتى اليوم بمعرفة أية حياة تمارسها هذه المرأة في الوقت الذي لا تخدمه فيه، أما بالنسبة للاسم فيكفيه أن ينادي «سيدة ماريا» فتظهر على الباب سائلة: نعم، دون رايموندو، أتريد شيئاً. السيدة ماريا قصيرة وعجفاء، لونها القمحي يقترب من السواد، شعرها الأجعد عنوان خيلائها، ليس لها من خيلاء غيره، فقد وُلدت عارية عن جّل مواصفات الجمال. عندما تقول أو تكتب

«كل شيء مرتب» فإنها تتعسف بوضوح في استخدام الكلمات، إذ أن فهمها للترتيب يكمن في تطبيق قاعدة ذهبية مفادها: أن كل شيء يبدو مرتباً، أو- بالاستعانة بفنون التفسير- أنه لم يبق في مجال النظر ما لم يصل إلى كونه مرتباً، وفي بعض الأحوال لن يكون مرتباً على الإطلاق. ويُستثنى من هذا بطبيعة الحال مكتب رايموندو سيلبا حيث تبدو الفوضى وكأنها شرط أساسي للعمل في حد ذاته، طبقاً لفهمه، على عكس مصححين آخرين مولعين بالترتيب والدقة والتناسق الهندسي، وبهذه الأشياء كانت ستقاسي كثيراً السيدة ماريا لأنهم كانوا سينهرونها قائلين: «هذه الورقة ليست في المكان الذي كانت فيه»، أما بالنسبة لأوراق رايموندو سيلبا فهي موجودة دائماً في المكان الذي تركها فيه، لسبب بسيط وهو أن السيدة ماريا لا تستطيع ولا حتى لمسها، ومن ثمّ فإنها سوف تحتج قائلة «الذنب ليس ذنبي» عندما لا يعثر رايموندو سيلبا على كتاب أو بروفة.

كوّر الورقة، مزدرياً الرسالة، ثم ألقاها في سلّة المهملات. خلع المِعْطف بعد ذلك، استبدل ملابسه، ارتدي قميصاً سميكاً وبنطالاً مخصصاً لهذا الغرض، صديرياً من الصوف المشغول بالإبرة، لا من أجل اتقاء برودة الجو فحسب، بل لمقاومة البرد الذي يحس به أيضاً، فرايموندو سيلبا من النوعية التي تتأثر كثيراً بالبرد، ولذا تدثّر فوق كل ما تقدم بالرّوب ذي المربعات الإسكتلندية، أحس بالراحة

من ثقل الملابس التي عليه، إضافة إلى عدم انتظاره لزيارة أحد. استطاع خلال المسافة التي قطعها من دار النشر إلى بيته إبعاد التفكير عن نفسه، لا يستطيع البعض فعل هذا، لقد أتقن رايموندو سيلبا فن جعل الأفكار المبهمة تطفو في مُخيّلته، كالسحب التي تظل متباعدة، بل إنه يستطيع حتى النفخ على اللاتي تقتربن منه أكثر، فمن المهم ألا تعود متجمعة في واحدة فاتحة الباب أمام تتابع أخريات، أو، لما هو أسوأ لو تصادف ووجدت شحنة كهربائية في المجال العقلي فإنها ستؤدي إلى حدوث عاصفة ذات رعود وبروق. جعل تفكيره ينشغل للحظات بالسيدة ماريا، لكن العقل أصبح الآن فارغاً مرة أخرى. ولكي يحافظ عليه هكذا فتح باب الصالة التي يوجد بها التلفاز وأدار مفتاح تشغيل الجهاز. كان الهواء أكثر برودة هناك. فوق المدينة، ونتيجة لصفاء السماء، كانت الشمس مازالت تلمع من موقعها المؤقت جهة البحر، مرسلة في أثناء سقوطها ضوءاً ناعماً ومُدَاعَبَةً منيرة سرعان ما تجيب عليها بلّورات السفح، في البداية بما يشبه شعلات متأرجحة، شاحبة بعد ذلك، ثم متضائلة إلى فِلقة مرآة مرتجفة، إلى أن ينطفئ كل شيء ويبدأ الشفق في غربلة رماده البطيء بين البيوت، مُخفياً أفاريز الأسقف وماحيا الأسقف بعد ذلك، في نفس الوقت الذي تخمد فيه أيضاً ضوضاء المدينة الوطيئة وتتراجع أمام الصمت المسكوب من هذه الشوارع المرتفعة حيث يعيش رايموندو سيلبا. لا يُصدر التلفاز صوتاً لأن رايموندو سيلبا جعله

صامتاً، لا توجد سوى صور ضوئية تتحرك، ليس على الشاشة فحسب، بل أيضاً على قطع الأثاث والحوائط وعلى وجه رايموندو سيلبا الذي ينظر دون أن يرى أو يفكر. تتوالى منذ ساعة تقريباً «كليبات» «توتالي ليف»، يتمايل المغنون– لو كان لهذه الكلمة معنى هنا– والراقصات معبرين عن كل الأحاسيس والمشاعر البشرية (وإن كان بعضها غير مقنع)، كل شيء موجود على وجوههم، لا يُسمع ما يقولون لكن لا يهم، التقلبات التي تعتري الوجه مدهشة، ما بين تشنج وعبوس وارتخاء وإيماءات مُهدّدة...، كائن صغير مخنث في شكل مستعار وداعر، نسوة ناضجات بشعور طويلة، فتيات لدنات ذوات أفخاذ وأعجاز ونهود سخيّة، وأخريات نحيفات كشجر الصفصاف ملبوسات بشياطين الجنس، رجال ناضجون يبرزون ثنيات مهمة ومنتقاة، وهذا كله مصنوع بأضواء برّاقة، وكله مخنوق بالصمت، كما لو أن رايموندو سيلبا قد أمسك بكلتا يديه هذه الحناجر خانقاً إياها تحت ستارة من الماء، ستارة صامتة أيضاً. يظهر الآن رجل بمفرده، يغني دون شك رغم أن شفتيه تتحركان بالكاد، تقول الكلمات المكتوبة على الشاشة إنه «ليوناردو كوهين»، تنظر الصورة إلى رايموندو سيلبا، وتشي حركات الفم بسؤال: لماذا لا تريد سماعي، أيها الرجل الوحيد، وبالتأكيد يضيف: اسمعني الآن، لأنك لو تأخرت فلن تستطيع ذلك، فبعد كل «فيديو كليب» يأتي آخر، هذه ليست إسطوانة بإمكانك جعلها تدور ألف مرة ومرة،

ربما أعود، لكني لا أعرف متى، وقد لا تكون هنا ساعتها، اغتنم الفرصة، اغتنم الفرصة، اغتنم الفرصة. يميل رايموندو سيلبا نحو التلفاز ويفتح الصوت، الإيماءة الصادرة عن «ليوناردو كوهين» تبدو كأنها إيماءة شكر، الآن يمكنه الغناء، وغنى، تفوّه بأشياء يقولها غيره من الأحياء، وتساءل: كم ومن أجل ماذا؟ ومن أحب من ولماذا؟ وبعد فراغه من سرد الأسئلة جميعها لا يجد إجابة– ولو واحدة –، على عكس ذلك الذي أكد ذات يوم أن الإجابات كلها موجودة هنالك وما علينا سوى تعلّم توجيه الأسئلة. عندما سكت «ليوناردو كوهين» عاد رايموندو سيلبا لقطع الصوت ثم أغلق الجهاز في الحال. تحولت الصالة فجأة إلى ليل دامس، واستطاع المصحح تغطية عينيه بكفيه دون أن يستطيع أحد رؤيته.

سوف يسأل الآن من يهتم بمنطقية الأشياء: هل يُعقل ألا يكون رايموندو سيلبا قد فكر ولو مرّة خلال هذا الوقت الطويل في المشهد المخزي بدار النشر، أو، أنه لو فكر فيه فلماذا لم يبح بهذا التفكير من باب الحفاظ على تماسك الشخصية ورجحان تصديق ما يصدر عنها. حسناً، لقد فكر رايموندو سيلبا ولبضع مرات في هذا الموقف الكريه، لكن التفكير لا يكون دائماً هو نفسه بالنسبة لسائر الأحوال، ولذا يمكن القول بأنه سمح لنفسه بتذكره ولكن بالكيفية المبينة آنفاً عند الحديث عن سحب في السماء (متفرقة) وشحنات

كهربائية في الهواء (في فولت منخفض). هناك فرق بين تفكير فعّال يحفر آباراً وسراديب حول حدث ما وبين تفكير من نوع آخر- إن استحق هذه التسمية- خامل وذاهل، لا يتوقف حين ينظر بل يستمر، مُراهناً على عدم وجود ما ليس مذكوراً، كالمريض الذي يُعتبر صحيحاً مُعافى مادام لم يتلفظ إلى الآن باسم مرضه. ورغم هذا يخدع نفسه من يتصور أن هذه النظم الدفاعية تستمر على الدوام، لأنه لو ظن هذا فإن إبهام التفكير يتحول في اللحظة نفسها إلى فكرة محددة، وهي كافية بوجه عام لإطالة الوجع أكثر قليلاً. وهذا ما حدث مع رايموندو سيلبا عندما لمعت في ذهنه بغتة- بينما كان منهمكاً في غسيل الأواني الخزفية القليلة التي اتسخت بفعل طعام العشاء- بديهية أن دار النشر لم تتأخر ثلاثة عشر يوماً حتى تكتشف الخدعة، بما يعني انعتاقه من ربْقة خرافة الرقم 13، وإن كان هذا يعني في الوقت نفسه أنه لم يسدد إلى الآن فاتورة هذا الرقم وأن طاقته السلبية مازالت متوثبة لشحن يوم بريء قادم. قبل استدعائه إلى دار النشر كانوا قد اكتشفوا الأمر وناقشوه فيما بينهم: ماذا سنفعل مع هذا الرجل- سأل المدير العام. واتصل المدير الأدبي هاتفياً بالمؤلف ليبلغه- وهو يتأسف- بالحادث اللامعقول: لا يمكن الثقة بأحد هذه الأيام. ورد عليه المؤلف بإجابة قد تبدو غريبة: ليست نهاية العالم، تنويه بالخطأ يحل المشكلة- قال هذا وهو يضحك. ما الشيء الذي تذكره هذا الرجل وجعله يضحك. واتت كوستا فكرة: ينبغي أن

يكون هناك شخص ما للإشراف على المصححين. يعرف كوستا ما يُوجع رايموندو سيلبا. بدت الفكرة مناسبة حتى أن مدير قسم الإنتاج تولى رفعها- كما لو كان صاحبها- إلى عناية الجهة العليا، تمت الموافقة الجماعية عليها، وقبل حلول اليوم الثالث عشر كانوا قد بحثوا واختاروا هذه السيدة وسلموها العمل حتى أنها حضرت بكامل الأهلية المحاكمة السريعة التي انعقدت للنظر في الأسباب الواضحة والثابتة والمعترف بها في النهاية، وإن كان قد خالط هذا الاعتراف شكوك وتحفظات معنوية للمذنب، وهذا ما أثار حفيظة الموظفة الجديدة، إذ لا يوجد تعليل آخر للهجوم العنيف الذي شنته في الجولة الأخيرة. لكنني رددت عليها بما تستحق، غمغم رايموندو سيلبا بهذه الكلمات بينما كان يجفف يديه وينزل كُمّيْه اللذين شَمّرهما قبيل قيامه بالعمل المنزلي.

رايموندو سيلبا جالس الآن أمام المنضدة التي عليها بروفات كتاب الشعر، يلاحق التفكير، وإن كان الأكثر تحديداً القول بأنه يتقدمه، لأن التفكير كما نعلم سرعته شديدة بحيث يكون قد وصل إلى النجوم بينما ما نزال نحن منهمكين في اختراع «الباسا رولا»[1]. يحاول رايموندو سيلبا التفكير وإعادة التفكير

---

(1) «الباسّارولا» [Passarola] عبارة عن عصفور طائر، أو على الأرجح منطاد كان قد اخترعه «بارتولومية لورنثو دي جوسماو» (1685- 1727) وطار به عدة مرات. وبارتولوميه هذا هو قسيس يسوعى برتغالي تحول إلى اليهودية في أخريات حياته

لفهم مغزى عدم استطاعته كظم العدوانية من بداية كلماته. ألا تعرفين ما هو الـ «deleátur»، يضايقه على وجه الخصوص تذكر النبرة المستثيرة والفظة التي ألقى بها السؤال، وبعد ذلك، المبارزة الختامية للأعداء، وكأنه كان معنياً هناك بتصفية مسألة شخصية، حقد قديم، علما بأن الاثنين لم يلتقيا من قبل وإذا كانا قد التقيا صدفة فلم ينعم أحدهما النظر في الآخر. من تكون هذه، فكر رايموندو سيلبا، ودون أن يدري أرخى عندئذ العنان الذي يقود به التفكير، وقد كان هذا كافياً لأن يسبق العنان التفكير ويشرع في التفكير لحسابه الخاص، إنها مازالت شابة، أقل من أربعين سنة، ليست طويلة جداً كما توهّم في البداية، بشرتها كابية، الشعور مرسلة وكستنائية، العينان من اللون نفسه، والفم صغير ومكتنز، ينظر رايموندو سيلبا إلى الأرفف الموجودة أمامه، حيث تجتمع الكتب التي راجعها طول سنيّ حياته المهنية، لم يعدّها وإن كانت تؤلف مكتبة، عناوين، أسماء، هذا قصّاص، وهذا شاعر، وذاك مسرحيّ، وهؤلاء ساسة نفعيون وكُتّاب سير ذاتية، عناوين، أسماء، عناوين، بعضها لم تنفك عنه الشهرة إلى اليوم، البعض الآخر أخذ وقته وانتهى زمنه، والبعض الثالث مازال مصيره معلقاً. ولكن المصير الذي يخصنا هو نفس المصير

وتعرض لمحاكات عدّة من جانب محاكم التفتيش، وقام باختراع الكثير من الأجهزة الميكانيكية ومن بينها هذا المنطاد. وقد جعله خوسيه ساراماجو إحدى الشخصيات الرئيسية في قصة «مذكرات الدّير» (المترجم).

الذي نحن عليه، غمغم المصحح بهذه الكلمات في إجابة منه على ما فكر فيه من قبل. المصير الذي نحن عليه هو المصير الذي يخصنا. شعر بالحرارة فجأة، رغم أن المدفأة غير موصولة بالمِقْبِس الكهربائي، فك حزام الرّوب، نهض من على الكرسي، يبدو أن لهذه الحركات غرضاً ما، لا يوجد تفسير آخر، لقد كانت تعبيراً عن تحسن غير متوقع، عن حيوية هزلية تقريباً، عن راحة هابطة من السماء لا تستوجب تأنيباً للضمير. تحوّل البيت فجأة إلى الصّغر ثانية، حتى أن النافذة المفتوحة على الرحابات الثلاث (المدينة والنهر والسماء) بدت مثل كُوّة عمياء، لم يكن هنالك ضباب بالفعل، وبرد الليل القارس لم يكن سوى برودة ناعمة وخفيفة. لم يكن في هذه اللحظة، بل قبلها، عندما سأل رايموندو سيلبا نفسه «ما اسمها، يا تُرى»، يحدث أحياناً أن يكون لدينا تفكير في شيء ما لكننا لا نريد الاعتراف به، إعطاءه الثقة، ونقوم في الوقت نفسه بعزله من خلال إحاطته بأفكار جانبية، وهذا ما حدث بالنسبة لتذكره أخيراً أنه لم يتم التصريح ولو مرة باسم تلك المرأة. هذه السيدة– قال المدير الأدبي– سوف تتولى من الآن المسؤولية، وبسبب سوء التربية– غير المحتمل– أو بسبب التوتر الشخصي والعام لم يقم بالتقديم المفترض: هذا هو رايموندو سيلبا، وهذه السيدة هي فلانة الفلانية. كانت هذه التأملات هي السبب في إرجاء رايموندو سيلبا للسؤال المباشر «ما اسمها،

يا تُرى»، أما الآن وبعد صياغته للسؤال فإنه لا يقوى على التفكير في شيء آخر، وكأنه قد بلغ في النهاية- وبعد كل هذه الساعات- مقصده، والكلمات مستعملة هنا بمعناها العاميّ، دون أية تضمينات وجودية، بل فحسب بالمعنى الذي يقصده المسافرون[1]. وصلتُ، معتقداً معرفته لكل ما ينتظره.

ما فعله رايموندو سيلبا لا ينتظر ولا يستلزم تفسيراً. عاد إلى المكتب، أحضر قاموس مفردات «خوسيه بدرو ماتشادو» وفتحه على الطاولة، ثم أخذ يراجع على مهل قسم أسماء الأعلام، بادئاً من الحرف الأول «الألف»، أول اسم قابله هو «آلا» لكن الجنس الذي يدل عليه غير مذكور، لا يُعرف سبب هذا الإغفال: هل هو ناجم عن خطأ في المراجعة، أم أن إغفال ذكر الجنس يعني صلاحيته للإطلاق على المؤنث والمذكر سواء بسواء، على أي حال فإن مسؤولة عن المصححين لا يمكن أن يكون اسمها «آلا». أدرك رايموند وسيلبا النوم عند الحرف «ميم» وإصبعه فوق اسم «ماريا»، إنه لامرأة دون شك، لكنها خادمة كما نعرف، وإن

(1) الجملة الواردة في النص الأصلي (llegar a su destino) لها معنيان:

- المعنى الأول يتعلق بالقسمة والنصيب والقضاء والقدر، وفي هذه الحالة يمكن أن تكون ترجمتها هكذا: بلغ مصيره- وافى قدره ... إلخ.
- أما المعنى الثاني (العاميّ) فيتعلق بوصول المسافر إلى نهاية رحلته، وفي هذه الحالة يمكن أن تكون ترجمتها هكذا: بلغ مقصده- وصل إلى المكان الذاهب إليه ... إلخ. وقد قمنا بترجمتها طبقاً للمعنى الثاني الذي أراده المؤلف وقام بالتنبيه إليه في الجملة الاعتراضية (المترجم).

كان هذا لا يعني استبعاد افتراض وجود صدفة في عالم يعج بالمصادفات التي لا تخطر على بال.

* * *

الخطاب الذي كتبه رايموندو سيلبا لمؤلف «قصة حصار لشبونة» كان يتضمن جرعة الاعتذار اللازمة، إضافة إلى مسحة خفيفة من السخرية التي تسمح بها العلاقات الودية بين المرسل والمرسل إليه دون استغلال للثقة، وإن كان يجب أن يسوده في النهاية انطباع بحيرة عفيفة وباستفهام جاد عن عدم القدرة على التحكم في بعض الأنشطة السخيفة. وهذا النوع من التأمل في الضعف البشري كفيل بتحطيم النوايا الأخيرة للمقاومة، لو بقيت إحداها، عند من أجاب– حين تم إخباره بالتعدي المؤذي على ملكيته الثقافية– على المدير الأدبي بإجابة تركته مذهولاً: «ليست نهاية العالم»، وبالطبع فإنه لا يمكن العثور في الحياة الواقعية على إنكار للذات مثل هذا، والملاحظة الأخيرة ليست صادرة عن المؤلف وإنما هي محض إضافة مُدرجة الآن عن قصد، كما يمكن إدراجها في أية لحظة وفي أية صفحة من هذه الحكاية. غدت سلّة الأوراق مكتظة بالصفحات المكوّرة، بمحاولات دون إتمام، بمسودّات تحمل تعديلات في شتى

الاتجاهات، بزيادات عقيمة ليوم كامل من المجهود المبذول في الأسلوب والقواعد، في مواءمات دقيقة جداً من أجل إضفاء التوازن على الأجزاء المكوّنة للرسالة، حتى أن رايموندو سيلبا قد وصل به الحال إلى التفريج عن نفسه بصوت عالٍ: إذا كان المؤلفون يقاسون هكذا دوماً، فيالهم من مساكين، وداخله نوع من السرور لأنه ليس أكثر من مصحح بروفات مطبعية.

كان رايموندو سيلبا يصعد درجات سلّم البيت بعد عودته من وضع الخطاب في صندوق البريد عندما سمع رنين الهاتف. لم يسرع، لإحساسه- من جهة- بالتعب، ومن جهة أخرى لعدم اكتراثه، الأكثر احتمالاً أنه كوستا يريد الاطمئنان على سير مراجعة كتيب الشعر أو القراءة الأولية للقصة التي تركها له في ذلك اليوم الأسود. تلكأ حتى يملّ كوستا من الانتظار دون نتيجة، لكن الهاتف لم يسكت، كان يرنّ بنوع من العناد الوديع، مثل من يقرر الاستمرار من منطلق الواجب فحسب لا من أجل الحصول على إجابة. كان يُدخل هادئاً المفتاح في كالون الباب عندما تذكر أن كوستا لا يمكن أن يكون هو الذي على الطرف الآخر من الهاتف، لأنه لم يعد مُحاوره المباشر، مسكين كوستا، ضحية بريئة، تقلص دوره الآن على وظيفة ميكانيكية تقريباً تتمثل في الحمْل والإحضار، وهو الذي كان قادراً من قبل- ومن الضروري إثبات هذا- على مقارعة زمرة المراجعين

مقارعة الندّ للندّ. توقف رايموندو سيلبا على عتبة باب المكتب، وعندئذ ضاعف الهاتف– كأنه لاحظ وجوده– صريره، حتى أنه بدا مثل كلب مجنون بالحماس لإحساسه بقرب قدوم سيده، ما كان ينقصه فحسب هو النزول من فوق المنضدة والشروع في القفز متلهفاً للملاطفة، لسانه متدلٍ، لاهثاً، ورائلاً من المتعة الخالصة. هنالك بعض معارف لرايموندو سيلبا يتصلون به هاتفياً من حين إلى آخر، بل حدث أيضاً أن امرأة ما قد أحست بالحاجة إلى التحدث إليه وسماعه، لكن هذه الأشياء تنتمي إلى الماضي، في الماضي حدثت وفي الماضي انطوت صفحتها، أصوات لو صدرت منه الآن تكون مثل شيء خارق للطبيعة ينبعث من العالم الآخر.

جعل رايموندو سيلبا يده تجثم فوق الهاتف، منتظراً إلى الآن، كأنه يريد إعطاءه الفرصة الأخيرة للسكوت، رفع السمّاعة أخيراً معتقداً معرفته لما ينتظره بالضبط. السيد سيلبا– سألت عاملة السويتش، أجاب باقتضاب: نعم. كنت سأغلق الخط لطول الانتظار. تريدين شيئاً. لا، إنها الدكتورة ماريا سارة التي تريد التحدث إليك، لحظة من فضلك. مرّت فترة صمت تخللتها جلبة ناجمة عن تغيير الخطوط، الوقت الكافي لكي يتمكن رايموندو سيلبا من التفكير: «اسمها ماريا سارة». لقد أصاب بالفعل في نصف الاسم لكن دون أن يدري، لأن النوم إذا كان قد أدركه وإصبعه الكاشف فوق

اسم «ماريا» فإنه لا يتذكر في الحقيقة شيئاً عن ذلك، ولأنه بعد الاستيقاظ، برفع رأسه من على اليد المبسوطة فوق القاموس، وقيامه بعد ذلك بفرك عينيه بكلتا يديه، يكون قد سحب من على الصفحة تلك الإشارة الاسترشادية المزعزعة، ولم يبق لديه شيء يُعتد به سوى علامتين متباعدتين تتمثلان في اسم «مانويلا» الذي يتصدر الصفحة واسم «مارولا» الذي يختمها، وعليه في هذه الحالة الاختيار بين هذين الاسمين غير المناسبين أصلاً للشخصية أو الأسماء الواقعة بينهما وهي جدّ كثيرة. قالت عاملة السويتش: «أوصل حضرتك». يستخدم عمال السويتش هاتين الكلمتين كتنبيه يُفضي دوماً إلى نتيجة، سواء كانت خيراً أم شراً. «أوصل حضرتك»- قالت- غير مكترثة بمصير المستفيد من خدماتها، ودون أن تنعم النظر فيما تقوله (هل توصل من أجل التقريب أو الجمع أو لمّ الشمل أو الرّبط أو التفريق أو الخصومة...) لأن الأمر في مخيلتها يتعلق فحسب بتمكين شخصين من الاتصال، ولكن هذا العمل البسيط يحمل في طيّاته مخاطر أكثر من كافية حتى لا نتناوله برعونة وخفّة. ورغم هذا، فإن التنبيهات لا تفيد عادة في شيء، علماً بأن الخبرة قد أثبتت لنا على مدار الأيام أن كل كلمة هي بمثابة السحر الخطير.

تهاوى رايموندو سيلبا على الكرسي، وفي لحظة أحس أن تعبه قد تضاعف. بالنسبة لنا، نحن المسنين، تعطينا الرُّكب المرتعشة هذا

الحق، لكن المخابرة المفروضة عليه فرضاً كانت هي السبب، فليس مسنّاً رجل تجاوز الخمسين بقليل، كان هذا من قبل، أما الآن فنحن نُعنى جيداً بأنفسنا، توجد غسولات وصبغات وكريمات وملطفات متنوعة، وعلى سبيل المثال هل يمكن العثور في عالمنا المتمدين على رجل مازال يضع مسحوق الشّبه الكريه على بشرة وجهه بعد الحلاقة، الآن أصبحت مستحضرات التجميل هي الملكة المتوّجة، وإذا كان لا يمكن بها إخفاء رجفة ساقين فإنها على الأقل تُضفي على الوجه نوعاً من الرَّوْنق في حضرة شهود العيان. وبما أنهم ليسوا موجودين الآن فإن وجه رايموندو سيلبا يميل إلى التغضن، في حين أن الدكتورة ماريا سارة على الجانب الآخر تُرجع برأسها إلى الخلف- في إيماءة واضحة الملاحة- الشعر المتدلي على صدغها الأيسر حتى تتمكن من تقريب السمّاعة من أذنها، لتقول في النهاية: لم نتعارف ذلك اليوم، وأقدم إليك نفسي الآن، اسمي ماريا سارة، أما اسمك...، وكانت ستقول «أعرفه»، لكن رايموندو سيلبا- مجروراً بحكم العادة- نطق اسمه كاملاً، دون إغفال ذكر اللقب الثاني «بينبينيدو»، وكان على وشك التواري خجلاً. ورغم أن ماريا سارة لم تذكر عن شخصها سوى القليل، فلا يبدو أنها قد شغلت تفكيرها بالاعتراف المسهب لمحدثها وظلت تناديه برايموندو سيلبا دون إضافات، ولا يمكن تخيل كمْ من البلسم قد سكبته بتصرفها هذا فوق الحساسية المفرطة للمصحح. يسرني التحدث مع حضرتك بشأن تنظيم عملنا، أنا ألتقي

حالياً بجميع المصححين، يهمني التعرف على ما يفكرون فيه، نعم، إنها مقابلات شخصية، لا توجد وسيلة أخرى، ما رأيك في اللقاء ظهر غد لو يناسبك. ليس لديّ مانع. إذن، إلى اللقاء غداً. تم إغلاق الهاتف ورايموندو سيلبا لم يسترد حتى الآن سكينته الكاملة، أصبح البيت غارقاً في الصمت، لا يُحس سوى بنبض غير مسموع، يمكن أن يكون لُهاث المدينة أو حركة النهر، أو، ببساطة، قلب المصحح.

استيقظ مفزوعاً عدة مرات في أثناء الليل، كأن أحداً يهزه بعنف. كان يُطبق عينيه لتفادي الاستيقاظ، لكنه كان ينتقل بعد ذلك من خُدار قلق إلى حلم مضطرب، دون أن ينعم بالنوم. أخذت تمطر في الهزيع الأخير من الليل، وكان سقف الظُلَّة هو الأول– كالعادة– في إعطاء الإشارة حتى لو كان المطر خفيفاً، استيقظ مع الحفيف المتواصل للرذاذ المتساقط، فتح عينيه ببطء لتلقي الضوء الرمادي الذي أخذ بالكاد يُعلن عن نفسه من خَصاص النافذة. وكما يحدث غالباً بالنسبة لمن يستيقظ في مثل هذه الساعة فقد عاد للنوم، الممزوج هذه المرة بالأحلام المتقطعة، ومصارعاً القلق الذي اعتراه من جرّاء التفكير فيما إذا كان الوقت سيسعفه لصبغ شعره بشكل جيد بحيث يبدو وكأنه غير مصبوغ. عندما استيقظ كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة وعندئذ قال لنفسه «ليس لديّ وقت للصباغة»، لكنه غيّر رأيه بعد ذلك. دخل الحمام وهو مغمض العينين ومشعث

الرأس ومقطب الجبين، ثم أخذ يتفحص نفسه على الضوء الساطع الصادر من المصباحين المحيطين بالمرآة، مصباح على كل جانب. كانت الجذور البيضاء للشعر تُعلن عن نفسها في كآبة، ولن يكون التمشيط كافياً لتغطيتها، ومن ثمّ قرر البدء في عملية الصباغة. تناول الفطور في ثوان قليلة، متنازلاً عن شغفه بالخبز المحمص بالزبدة، عاد إلى الحمام حيث أغلق عليه الباب للشروع في صك عملته المزيفة، أي لوضع الصبغة حسب تعليمات النشرة الداخلية للعلبة. يغلق عليه الباب دوماً حين يصبغ شعره، وبالرغم من أنه يكون وحيداً في البيت إلا أنه يفعل في السرّ- وعليه أن يدرك هذا- ما لا يخفي على أحد، وبالتأكيد سوف يتوارى خجلاً إذا ما ضبطه أحد ذات يوم متلبساً بما يعتبره- هو نفسه- مثيراً للشفقة. وبالطبع من المستحيل مقارنة درجة اللون التي عليها حالياً الشعر الكستنائي للدكتورة ماريا سارة بدرجة لون شعر رايموندو سيلبا، لأن اللون الموحّد لشعر الأخير يذكرنا- وبشكل لا يُغتفر- بباروكة مهملة قرضتها العُثّة، باروكة منسية وتم العثور عليها من جديد في مخزن وسط قطع أثاث وأمتعة قديمة وعديمة الفائدة. قبيل الحادية عشرة والنصف بقليل كان جاهزاً للخروج، إنه متأخر جداً، وإذا لم يحالفه الحظ بالعثور فوراً على سيارة أجرة فسوف يتعين عليه طلب موعد جديد. ومن حسن طالعه بالفعل أنه يعيش في شارع «ميلاجرو دي

سان أنطونيو»[1] لأن معجزة فحسب هي التي بإمكانها أن تجعل سيارة أجرة خالية تظهر فجأة في شارع مُقْفِر وفي يوم مطير كهذا، وتتوقف عندما أشار إليها آخرون ولم يشر إليها من كان يقصد اتجاهاً مغايراً. دخل رايموندو سيلبا سيارة الأجرة مبتهجاً، أعطى السائق عنوان دار النشر، ولكنه بعد ذلك، وعندما أراح الشمسية إلى جواره اتهم نفسه بالعته. لقد كان يتنازعه إحساس متباين: الخوف من الذهاب والرغبة في الوصول، لقد أصبحت دار النشر بالنسبة له مكاناً بغيضاً، ومن جهة أخرى فإن حثّه المستمر للسائق بضرورة الإسراع، الذي قد يؤدي إلى خلق عداوة مع شخص ظهر من البداية ضرباً من المعجزة، لم يكن فحسب من أجل الوصول في الموعد المحدد (الثانية عشرة). تطلب النزول إلى المدينة الوطيئة وقتاً طويلاً، وكان التقدم وسط حركة السيارات التي يعوقها المطر أشبه بالبربطة في العسل، كان رايموندو سيلبا يتصبب عرقاً من شدة الجزع، وفي النهاية مرت عشر دقائق على الثانية عشرة عندما دخل دار النشر، مدمدماً، وفي أسوأ حالة معنوية ينشدها امرؤ لحضور لقاء سيتم فيه مناقشة مسؤوليات جديدة، ويحمل في طياته- بالتأكيد- أضراراً حديثة.

---

(1) اسم الشارع الذي يعيش فيه رايموندو سيلبا هو: «ميلاجرو دي سان أنطونيو» ومعناه: «معجزة القديس أنطونيو». ومن المعروف أن أسماء الأعلام لا تترجم إلى المعاني التي تدل عليها، لكن المؤلف قد استفاد هنا بدلالة الاسم العلم (ميلاجرو معجزة)، ولذا لزم التنويه (المترجم).

نهضت الدكتورة ماريا سارة من على الكرسي، وذهبت للقائه متوددة: كيف حالك، يا سيد سيلبا. معذرة لتأخري، المطر وسيارة الأجرة... لا عليك، تفضل بالجلوس. جلس المصحح، لكن إيماءة بالنهوض صدرت عنه لأن الدكتورة ماريا سارة اتجهت نحو طاولتها. لا تتحرك من فضلك. عادت وبيدها كتاب وضعته على الترابيزة الصغيرة الوطيئة الموجودة بين الأريكتين المكسوّتين بجلد أسود. جلست جلوساً مستريحاً، وضعت ساقاً على أخرى، كانت ترتدي تنّورة سميكة مضبوطة المقاس، أشعلت سيجارة. تابعت عينا المصحح حركة الأجزاء العلوية من جسدها، وشاهدتا وجهها الذي يعرفه من قبل، وشعرها المسترسل المتدلي فوق كتفيها، وفجأة أحس بصدمة عندما تبدت له بوضوح خيوط بيضاء كانت تلمع تحت ضوء مصباح السقف. لا تصبغ شعرها– قال لنفسه– وتملكته الرغبة في الفرار من هناك. سألته الدكتورة ماريا سارة إذا كان يريد التدخين، لكنه لم يسمعها في المرة الأولى وأجاب في الثانية: شكراً، لا أدخن، ثم خفض بصره حاملاً فيه صورة قميص بتقويرة على الصدر لم يستطع تحديد لونه لتشوشه. الآن لا يرفع عينيه عن الترابيزة الصغيرة الوطيئة، مندهشاً، فعليها توجد «قصة حصار لشبونة»، منحرفة نحوه بحيث يستطيع رؤيتها– بالتأكيد عن عمد–، وعليها يوجد كل شيء: اسم المؤلف، العنوان بأحرف كبيرة، رسم في

منتصف الغلاف يحتوي على فرسان من العصور الوسطى وعلى صدورهم شارة الصليب، وفوق أسوار القلعة صور لمسلمين في أحجام مختلفة، وكان من الصعب من هذه المسافة معرفة ما إذا كان الرسم مستشفاً من تصميم قديم أم أن فناناً قد رسمه مستوحياً– وإن كان في سذاجة– الأسلوب القديم. لم يكن يروقه النظر إلى الغلاف المستفز، كما لم يكن يود مواجهة الدكتورة ماريا سارة التي ترمقه على الأرجح في نفس اللحظة بنظرة ثاقبة، مثل كوبرا مستعدة لشن الهجوم الأخير. لكنها قالت في صوت عادي، بنبرة محايدة وبسيطة مثل الأربع كلمات التي نطقتها: هذا الكتاب هو كتابك، وبعد وقفة قصيرة أضافت، مُشدّدة هذه المرة على نطق بعض المقاطع: أو لنقل بطريقة أخرى، هذا الكتاب لك. رفع رايموندو سيلبا رأسه مشوشاً ثم سأل: لي، أنا. نعم، إنها النسخة الوحيدة من «قصة حصار لشبونة» التي لا تحمل تنويهاً بالتعديل، ومثبت فيها أن الصليبيين لم يساعدوا البرتغاليين. أنا لا أفهم. بل قل إنك تحاول كسب الوقت لمعرفة كيف تتحدث معي. معذرة، لكني أقصد... لا داعي للتبرير، لن تمضي حياتك في الشرح وإبداء الأسباب، ما كنت أنتظره بالفعل أن تسألني عن الداعي لتسليمك نسخة بدون تعديل، كتاباً لم يُمس فيه التزوير، يصر على الخطأ، يستمر في الكذب، اختر بنفسك النعت الذي يعجبك أكثر. وها أنذا أسأل. لقد تأخرت كثيراً، وليست لديّ رغبة الآن في الإجابة– قالت هذا وهي تبتسم، وإن كان التوتر بادياً

على وجهها. أرجوك، أصرّ، مبتسماً بدوره، وأدهشه تصرفه هذا إذ لا يليق في موقف كهذا إظهار الأسنان لامرأة لا أعرف عنها شيئاً، وبالتأكيد تسخر مني. أطفأت الدكتورة ماريا سارة سيجارتها وأشعلت أخرى، يبدو أنها عصبية. لاحظها رايموندو سيلبا بتركيز، لقد بدأت الكفّة تميل ضده، لم يكن يدرك لماذا، ولا حتى معنى لهذا كله. إنه لم يتم استدعاؤه في نهاية المطاف لمناقشة موضوع ما، ولا حتى لتلقي تعليمات عن المنهاج الجديد للمراجعة، إن ما يحدث هنالك يكشف بوضوح أن موضوع «الحصار» لم تتم تسويته نهائياً في تلك الساعة السوداء من اليوم الثالث عشر الذي حضر فيه لكي تتم محاكمته. لا تظني أنكِ قادرة على تعريضي لمهانة أخرى– قال لنفسه –، دون أن يرد على خاطره التسليم بأن الأحداث السابقة ليست بمثابة تشريف له، وأنه في الحقيقة قد تخلص بأعجوبة من كدر الفصل المخزي، مثلاً، وأنهم لم يكونوا هناك بصدد تقليده نيشاناً أو وضع اسمه في جدول الأعمال لترقيته رئيساً للمصححين، وهي وظيفة لم تكن موجودة من قبل، وموجودة الآن على ما يبدو.

نهضت الدكتورة ماريا سارة بحركة سريعة، من المهم ملاحظة أن سرعة لفتاتها لا تؤثر بالسلب على التلقائية المتدفقة التي تمحو عنها كل مظاهر الخشونة، اتجهت نحو الطاولة وأحضرت من عليها ورقة سلمتها لرايموندو سيلبا. من الآن فصاعداً سيتم مراعاة هذه

الإرشادات في المراجعة، لا توجد تعديلات جوهرية في القواعد المعمول بها حتى الآن، وكما ترى فإن الشيء الأكثر أهمية يتعلق بضرورة عمل مراجعة أخيرة للبروفات التي يعمل فيها مصحح بمفرده، مثل حضرتك، ويمكن أن أقوم شخصياً بهذا أو أي مراجع آخر، شريطة الاحترام الكامل لمعايير المصحح الأول، ما ننشده يتمثل فحسب في عمل مراجعة أخيرة لتفادي الأخطاء ولتدارك السهو والغفلة. أو الانحرافات المقصودة- أضاف رايموندو سيلبا محاولاً الإفراج عن ابتسامة مريرة. لم يحالفك الصواب، هذه الحالة أصبحت في ذمة الماضي ولن تطل برأسها ثانية ولا تستحق مجرد التنويه، فبعد السرقة يتم إغلاق الباب جيداً بالضبّة والمفتاح، لأني متأكدة من عدم عودة اللصوص ومن بقاء الباب حالته الأولى، القواعد التي بين يديك أملاها حسّ مشترك بسيط، وليست قانوناً للعقوبات لردع ومعاقبة تعديات مجرم قاسي القلب. مثلي أنا. جناية واحدة ولن تتكرر- كما سبق وأعلنت- لا تجعل من شخص طبيعي مجرماً، ناهيك عن قسوة القلب. شكراً على الثقة. لا محل لثقتي هنا لأن القضية قضية منطق لا يستعصى فهمها إلا على طفل صغير. لديّ حدودي والدوائر التي أتحرك فيها. كل واحد له حدوده. لم يجب رايموندو سيلبا، ظل ناظراً إلى الورقة التي يمسكها بيده، ولكن دون أن يقرأها، من الصعب بالنسبة لمصحح مخضرم مثله اختراع مفاجأة يبقى أثرها ويستمر لأبعد من الوقت الذي نُطقت فيه.

ظلت الدكتورة ماريا سارة جالسة، لكنها عدّلت جذعها وانحنت قليلاً إلى الأمام لكي تُظهر أن الحوار قد انتهى من جانبها، وإذا لم يحدث شيء مضاد في اللحظة التالية فسوف تقف على قدميها لنطق الكلمات الأخيرة، تلك الكلمات التي لا يُلتفت إليها عادة، صيغ التحية والوداع التي تآكل معناها بفعل التكرار والعادة، إنها مثل صدى لآخر صدر في زمن ومكان مختلفين ولا يستحق بالتالي إضافة أو تعديل.

طوى رايموندو سيلبا ورقة الإرشادات طيتين وحفظها في الجيب الداخلي للسُّتْرة. صدرت عنه بعد ذلك حركة تموّجيّة خدعت الدكتورة ماريا سارة، كان يبدو أنه سوف ينهض، ولكن لا، لقد كانت الحركة فحسب من أجل أخذ دَفْعة تمكنه من إكمال الجملة التي أراد نطقها. تستطيع السينما، أكثر من المسرح، إظهار هذه الرقصات اللطيفة للإيماءات، حتى أنها يمكنها تفكيكها وإعادة تركيبها على التوالي، ورغم هذا فقد أثبتت خبرة الاتصال أن الديناميكية الواضحة للتصوير لم تقلص الحاجة إلى الكلمات، أيّاً كانت، حتى تلك التي تُنبئ بالنزر اليسير عن أنشطة وتفاعلات الجسد والإرادة الكامنة بداخله– والتي نطلق عليها لفظة «غريزة» في غياب مسمى آخر– وكيمياء العواطف وأشياء أخرى لا يمكن ذكرها لعدم وجود الكلمات الدّالة عليها. وبما أن حديثنا لا يتعلق بالسينما أو المسرح، ولا حتى بالحياة، فإننا نكون مضطرين للتعبير عن أنفسنا بكلمات

تستغرق وقتاً أطول من اللازم، لاسيما حين ندرك- بعد المحاولة الأولى والثانية وربما الثالثة- أن جزءاً ضئيلاً فحسب من الجوهر أصبح واضحاً، وإن كان مازال متوقفاً على التفسيرات المختلفة، وبعد الفراغ مما نقول نعود متعكرين إلى نقطة البداية، على وشك تقريب أو إبعاد مستوى التركيز الذي ينطوي على مخاطرة صرف الاهتمام إلى حواشي الداعي الرئيسي، ومن ثمّ إرجاع هذا الداعي إلى حظيرة الغموض ثانية. وبالرغم مما سبق قوله فإننا لم نغفل في هذه الحالة- ولحسن الحظ- عن ملاحظة رايموندو سيلبا، لقد تركناه عند تلك الحركة التموّجية التي ستحمل مداخلته، كما أننا لم نغفل أيضاً عن الدكتورة ماريا سارة التي كان يسيطر عليها الإذعان بصورة ما- ومعذرة لقسوة الكلمة- لا بسبب فقدانها للإرادة، بل في انتظار أخير منها وربما رحيم، القضية تكمن الآن في معرفة ما إذا كان رايموندو سيلبا سوف ينطق بالكلمات المناسبة والمحددة دون إطناب فارغ، هيا بنا نرى كيف سيتغلب رايموندو سيلبا على هذه المشكلة: من فضلك- قال، ولا يوجد أدنى شك في أنه بدأ بداية طيبة -، رد فعلي تجاه الكتاب، ومفاجأة سماع عدم تعديل الخطأ فيه، كل هذا يمكن فهمه، إنه مثل وجع أحد الأطراف وانقباض الجسد كله بشكل غريزي عند لمس هذا الطرف، أعرب لكِ فحسب عن أمنيتي بانمحاء هذا كله من الذاكرة. أجدك اليوم أقل تحدياً بكثير من المرة السابقة. الأضواء تنطفئ، الانتصارات تفقد معناها، التحدي يُتعب،

أكرر، أتمنى نسيان ما حدث. قد يكون مستحيلاً لو قبلت الاقتراح الذي سأقدمه لك. اقتراح. أو عرض، إن شئت. أخذت الدكتورة ماريا سارة من على رفّ منخفض إلى جوارها ملفّاً ووضعته في حجرها ثم قالت: آراؤك عن الكتب التي نشرتها أو لم تنشرها دار النشر في السنوات الماضية موجودة هنا. هذه حكاية قديمة. حدثني عنها. أتعتقدين أنها تستحق العناء. لديّ من الأسباب ما يجعلني أرد بالإيجاب. حسناً، كانت دار النشر في بدايتها، وأية مساعدة لا بأس بها، وظن أحد المسؤولين في تلك الحقبة أن بإمكاني عمل شيء أكثر من مراجعة البروفات، مثل إبداء الرأي في الكتب المقدمة للدار، بصراحة لم أتصور أن تلك الأوراق ظلت محفوظة إلى اليوم. وجدتها في أثناء فحص الجزء الذي يهمني من الأرشيف. لا أكاد أتذكرها. لقد قرأتها جميعاً. آمل ألا تكوني قد ضحكت على كثرة ما بها من هُراء. لا شيء من الهراء، بل على العكس، إنها آراء ممتازة، حسنة التفكير والعرض. آمل ألا تكوني قد عثرت فيها على تغييرات لنعم بلا، وتجرأ رايموندو سيلبا على الضحك الذي لم يستطع مقاومته، وإن كان من شدقيه فحسب حتى لا يبدو نهّازاً للفرص. ضحكت الدكتورة ماريا سارة بدورها: لا، لم يكن بها تغييرات، كل شيء في مكانه الصحيح والمضبوط. حدثت وقفة، تصفحت الملف تصفحاً عشوائياً، بدا عليها التردد لكنها قالت أخيراً: إن هذه التحقيقات المتميزة والمعروضة بشكل جيد تشير- إضافة إلى الملاحظة النقدية

الثاقبة– إلى نوع من التفكير شديد التفرد يمكن أن أطلق عليه «تفكيراً زائغاً». تفكير زائغ. لا تطلب مني شرحاً لهذا، أنا لا أحسه فحسب بل أراه رأى العين، وهذا، أكرر، ما عضّد لديّ الاقتراح الذي قررت عرضه عليك. وما هو؟ أن تكتب قصة حصار لشبونة على أساس إحجام الصليبيين عن مساعدة البرتغاليين، أي من خلال التجاوب واتباع «الزّيْغ» الذي ساقك إليه تفكيرك من قبل، وأنا أستخدم هنا الكلمة التي أسمعتك إيّاها منذ قليل. معذرة، ولكني لا أفهم جيداً فكرتك. إنها شديدة الوضوح. ربما يكون هذا هو العائق في فهمها. لم تتعود على الفكرة لأنها طُرحت عليك دون سابق إنذار، ومن الطبيعي أن يكون رد فعلك المبدئي هو الرفض. لا يتعلق الأمر برفض، إني أراها ضرباً من المحال. أسألك إن كنت تعرف محالاً أكبر من «زيغك» السابق. لا داعي للحديث عنه. وبالرغم من أننا لن نتطرق إليه، ومع افتراض أن النسخة التي تحملها تحتوي أيضاً على استدراك للخطأ مثل الأخريات، فإن «لا» التي كتبتها في ذلك اليوم تعتبر– رغم هذا كله– العمل الأكثر أهمية في حياتك. وماذا تعرفين عن حياتي. لا شيء غير هذا. لا يمكنك إذن تكوين رأي عن أهمية الباقي. فعلاً، ولكن ما قلته لم يكن لتأخذه بمعناه الحرفي، إنها مجرد تعبيرات تفخيمية تتوقف دائماً على ألمعية المتحاور. أنا قليل الذكاء. وهذا تعبير تفخيمي آخر، ليست له أية قيمة. أيمكنني أن أوجه إليكِ سؤالاً. تفضل. ألست تحاولين صراحة التسلية على

حسابي. بصراحة، لا. إذن، لماذا هذا الاهتمام، هذا الاقتراح، هذا الحوار. لأن الواحدة منا لا تجد كل يوم أحداً فعل ما فعلته. كنت مشوش الذهن. مرحى، مرحى. خلاصة القول، ودون رغبة مني في أن أكون سيئ الأدب، فإن فكرتك بلا رأس ولا قدمين. عليك إذن نسيان أنها طُرحت من قبل.

نهض رايموندو سيلبا، ملّس على المعطف الذي لم يخلعه: إذا لم يكن هناك موضوع آخر، أستأذنك في الانصراف. خذ كتابك، إنها نسخة وحيدة. لا يوجد في أصابع الدكتورة ماريا سارة خاتم أو دبلة. أما بالنسبة للقميص فإنه يبدو من الحرير، لونه واهن يصعب تحديده، بيج أو سنّ فيل أو أبيض غائم، هل من الممكن أن تهتز الأنامل بشكل مختلف تبعاً للألوان التي تلمسها أو تداعبها، نحن لا نعرف.

لم تخف حدّة المطر. يقف رايموندو سيلبا عند مدخل دار النشر وينظر- عكر المزاج- إلى السماء من بين أغصان الأشجار، لكن السماء كانت سحابة واحدة ثقيلة لا تتخللها فجوات زرقاء والمطر يتساقط في تواتر مثير للأعصاب. «لن يطلع علينا يوم آخر»، غمغم مكرراً هذه المقولة التي يرددها منذ القدم بعض الناس المعتادين على الأحوال المناخية النافعة، ولا ينبغي الاعتقاد الكامل فيها لأن الأيام

لم تتوقف عند ذلك اليوم، ولأنه ليس الأخير حقاً بالنسبة لرايموندو سيلبا. وفي أثناء انتظاره لتخفيف الجو- غير المحتمل- من غلوائه، كان الموظفون يخرجون لتناول غدائهم، الساعة تجاوزت الواحدة، لقد استغرقت المقابلة وقتاً طويلاً. خطر بباله إن كوستا يمكن أن يظهر ويُضطر للحديث معه وسماعه وتحمل نظرته المعاتبة، وهذا لا يروقه، وفي نفس اللحظة اكتشف أنه لا يروقه كذلك رؤية شخص آخر، الدكتورة ماريا سارة، التي قد تكون في المصعد الآن في طريقها إلى الهبوط، ويمكن أن تظن عندما تراه واقفاً عند مدخل دار النشر أنه فعل ذلك عمداً، بحجة المطر، لكي يستطيع مواصلة الحديث معها في مكان آخر (في مطعم مثلاً، ويكون هو صاحب الدعوة)، أو- وهذا الاحتمال أشد رعباً من سابقه- لكي يتيح لها الفرصة للتطوع بحمله في سيارتها، في تصرف إنساني وكريم، نظراً إلى المطر الذي يتساقط دون هوادة، «إنها ليست مضايقة من أي نوع- سوف ترد عليه-، ادخل، ادخل وانج بنفسك». بالطبع لا يعرف رايموندو سيلبا إذا كانت الدكتورة ماريا سارة تملك سيارة، لكن الاحتمالات التي ترشح هذا كثيرة ولا تخطؤها العين: فهي إنسانة متمدينة تتحلى بالإيقاع السريع للعصر، ويكفي ملاحظة إيماءاتها المحسوبة بدقة، وهي إيماءات من تمرس على تغييرات صندوق السرعات (الفتيس) في الثانية المحددة، وأنها معتادة- من خلال نظرة خاطفة- على تقدير المسافات والمساحات اللازمة لعمل أية مناورة. سمع صوت

توقف المصعد فالتفت خلفه بسرعة، كان المدير الأدبي ممسكاً بباب المصعد حتى تخرج منه الدكتورة ماريا سارة، بينما يتحدث الاثنان في حيوية وانطلاق، لم يكن في المصعد غيرهما، وعندئذ وضع رايموندو سيلبا الكتاب تحت إبطه بين القميص والجاكت- حماية له-، ثم فتح الشمسية بشكل عنيف وانزلق حافّاً بالمنازل مثل كلب تطارده الحجارة، لقد كانت هيئته هكذا فعلاً: كلب هارب وذيله بين ساقيه. «بالتأكيد سيتناولان الغداء معاً»، قال لنفسه بينما يخبّ في الشارع مبتعداً، وبعد ذلك تفحص نفسه لكي يفهم سبب ذلك التفكير لكنه لم يجد سوى حائط أبيض دون نقش أو كتابة، وهو نفسه علامة استفهام.

استقلّ حافلتين وترام من أجل الاقتراب من محل سكنه، لم تكن هنالك وسيلة أخرى في ظل عدم وجود سيارة أجرة خالية، ومع هذا فقد نال منه المطر بما فيه الكفاية، لو أن أحداً سقط في المحيط أو النهر لم يكن ليبتل أكثر منه، خلاصة القول إن رايموندو سيلبا لو مشى على قدميه من دار النشر حتى بيته ما كان سيبتل أكثر مما هو عليه الآن، وخلال المسافة إلى البيت مرت عليه لحظة كريهة- ولو أردنا إضفاء البعد الدرامي على الموقف نقول مخيفة بدلاً من كريهة- عندما تخيل الدكتورة ماريا سارة جالسة في المطعم تحكي للمدير الأدبي التاريخ الفكاهي للمصحح: قلت له عندئذ ألّف كتاباً وأربكته الفكرة، بل

إنه أجابني قائلاً إن حكاية «لا» في «قصة حصار لشبونة» كانت فحسب نتيجة لخلل ذهني، تصوّر. هذا الرجل يثير الضحك، لا يمل من ترديد هذا اللّغط، ورغم هذا يجب الاعتراف بكفاءته في العمل. وبعد انتهائه من الإدلاء بهذا التصريح العادل والشفوق يغلق الموضوع وينتقل إلى ما يهمه أكثر: ما رأيك يا ماريا سارة لو خرجنا أحد هذه الأيام لتناول العشاء ثم الذهاب إلى مَرْقص أو إلى أي مكان آخر لتناول كأس معاً. وفي أثناء تخطيه لناصية الشارع قلبت هبّة ريح غادرة اتجاه الشمسية- بطناً لظهر- وسقط كل المطر المنهمر من السماء فوق وجه رايموندو سيلبا، كانت الريح كالإعصار، لم يستغرق الأمر سوى بضع ثوان إلا أنه كان مثل يأس احتضار لم ينج منه سوى الكتاب الموجود بين القميص والجاكت. انتهت دوّامة الهواء وعاد الهدوء، وعادت الشمسية لتأدية دورها رغم تحطم أحد أضلاعها، وإن كان في الحقيقة دوراً رمزياً لا فعّالاً. «لا»، فكر رايموندو سيلبا وظل تفكيره معلقاً بهذه الكلمة، ولا ندري إذا كانت هي الكلمة التي استخدمتها الدكتورة ماريا سارة للإجابة على دعوة المدير الأدبي، أو ما إذا كان هذا الرجل الذي يصعد درجات سلّم «سان كريسبن»- حيث لا يُرى ولا حتى أثر لكلب ضال- هو الذي لا يصدق في النهاية أنه يمكن أن يوجد في العالم أناس غلاظ القلوب يجرؤون على السخرية هكذا من مصحح مسكين أعزل. وهذا دون الأخذ في الاعتبار احتمال أن تكون الدكتورة ماريا سارة

سوف تذهب لتناول الغداء في بيتها.

استبدل ملابسه، ثم قام وهو شبه جاف بتجهيز الغداء، طهي بعض البطاطس لإضافتها إلى الأتون المحفوظ الذي استقر رأيه عليه بعد مراجعته للخيارات الضئيلة المتاحة، ولم ينس إدراج طبق الحساء في هذه القناعة وسرعان ما أحس بالراحة وعودة الطاقة. وفي أثناء ازدراده للطعام ألمّ به انطباع غريب، إذ صورت له مخيلته كأنه عائد لتوّه من رحلة طويلة في أراضٍ بعيدة وحضارات مختلفة. من المعروف أن أيّ جديد- حتى لو كان تافهاً بالنسبة لآخرين- يمكن أن تعتبره الطبائع العارية عن روح المغامرة بمثابة ثورة عارمة، ومع هذا- معتمدين فحسب على هذا المثال الغريب- فإنه لم يُرجع جرأته الجديرة بالذكر ضد النص شبه المقدس لقصة حصار لشبونة إلى أثر قادم من بعيد، أما الآن فإن بيته يبدو كأنه ينتمي إلى شخص آخر، وهو غريب فيه، حتى أن الرائحة مختلفة، والأثاث يبدو كأنه لا ينتمي إلى مكانه أو أنه مطموس المعالم نتيجة لمنظور محكوم بقوانين مختلفة. أعدّ فنجان قهوة، شديد السخونة كالعادة، وبينما يرتشف منه، والطبق والفنجان في يده، أخذ يطوف بأرجاء البيت حتى يحس بانتمائه إليه ثانية، بدأ بالحمام حيث مازالت توجد بقايا من عملية الصباغة التي قام بها قبيل خروجه، ليس من بينها الخجل الذي اعتراه منها في النهاية، ثم الصالة الصغيرة التي لا يجلس فيها إلا

نادراً وتضم التلفاز والمنضدة الوطيئة والكرسي والأريكة والمكتبة ذات الضُّلف الزجاجية، وبعد ذلك غرفة المكتب التي أعادت إليه ألفة النظر واللمس آلاف المرات، وأخيراً غرفة النوم بسرير خشب الماهون القديم وخزانة الملابس من الخشب نفسه والكومودينو، إنه أثاث قد صُنع سلفا لحوائط كبيرة لكنه يُقلّص المساحات الخالية هنا. يوجد على السرير الكتاب الذي كان قد ألقاه فوقه عند الدخول، إنه مثل الهندي الأخير الذي هلكت قبيلته عن بكرة أبيها وأمكنه الفرار إلى شارع «ميلاجرو دي سان أنطونيو» نزولاً على الرغبة غير المفهومة للدكتورة ماريا سارة، غير مفهومة للاقتراح (ألّف كتاباً) الذي تقصد به السخرية فحسب، لا التآمر، لما ينطوي عليه الأمر الأخير من حميمية لا معنى لها هنا، اللهم إلا إذا كانت الدكتورة تريد معرفة إلى أيّ مدى يمكن أن يحمله الجنون، مادام هو نفسه الذي تحدث عن الخلل الذهني. وضع رايموندو سيلبا الطبق والفنجان على الكومودينو: «من يدري» إذا كان هذا الانطباع بالغرابة هو أحد علامات الجنون، كالاستغراب المتمثل في الإحساس بأن البيت ليس هو بيتي أو أنني لا أنتمي إلى هذا المكان وإلى هذه الأشياء، ظل السؤال معلقاً، دون إجابة، شأنه في هذا شأن كل الأسئلة التي تبدأ هكذا: «من يدري». أخذ الكتاب، الرسم الموجود على الغلاف هو بالفعل محاكاة لرسم قديم، فرنسي أو ألماني، وفي هذه اللحظة انتابه شعور بالكمال والقوة طغى على كل ما عداه، كان يملك في يده

شيئاً يقتصر عليه دون غيره، شيئاً مُزدرياً بالفعل من الآخرين، ولكن، للسبب نفسه: «من يدري»، الآن يسأل نفسه بتقدير واحترام. خلاصة القول: هذا الكتاب لا يجد من يريده، وهذا الرجل ليس لديه ما يريد سوى هذا الكتاب.

لا يجهل أحد أننا نمضي ثلث حيواتنا القصيرة في النوم، ومن السهل على كل مستفيد من خبرته الشخصية حساب الفرق بين النوم والاستيقاظ، مع استقطاع وقت السُّهاد بالنسبة لمن يُعاني منه، وخصم الوقت المستهلك بعامة في تمارين الحب الليلية، وهي تُمارس عادة ومازالت في الساعات الميتة، رغم الذيوع المطرد للساعات المرنة لدى البعض والتي يبدو أنها تسير بنا نحو تحقيق الأحلام الذهبية للفوضى، أي لذلك العمر المبتغي الذي يستطيع فيه أي فرد عمل ما يشتهيه، ولكننا نضع هنا شرطاً واحداً، وإن كان جوهرياً، وهو عدم جرح شعور «الآخرين» وتحجيم رغباتهم. نعم، لا شيء أبسط من هذا، لكن الشيء الذي استعصى إلى الآن حتى على مجرد التعريف الصائب والدائم يتمثل في تحديد من هم «الآخرون» بالنسبة لنا وسط هذا الخضم من «الأغيار»، وهذا خير دليل على أن صعوبة تنفيذ ما هو بسيط تتجاوز في التعقيد كل مهنة أو تكنيك، أو في كلمات أخرى، إن صنع العقل الإلكتروني والتحكم فيه بجعله يتصور أو يعتقد أقل صعوبة من الاهتداء في عقولنا نحن إلى أبسط

الطرق للكوْن سعيداً. ورغم توالي الأزمان، زمناً بعد زمن، إلا أن ما يضيع دوماً في النهاية هو الأمل. ولسوء الحظ فنحن الذين نشرع في إضاعته بأيدينا منذ اللحظة الراهنة، لأن الزمن الذي مازال في علم الغيب حتى تتحقق السعادة الكونية يتم عدّه بحسابات فلكية، وهذا الجيل لا يطمح في العيش طويلاً، إضافة إلى قنوطه الواضح وخَوَره الشديد.

وهذا اللّف والدوران الطويل الذي لا يُقاوم نتيجة لجرّ الكلمات لبعضها البعض بحيث تبدو وكأنها لا تفعل سوى اتباع رغبة من يتعين عليه في النهاية الإجابة بها، وإن كانت سوف تغرر به وتجعله في مرات عديدة على وشك ترك رأس الحكاية مهملاً في مكان بلا اسم أو عنوان، وتفريغ الخطاب من السبب والهدف وجعله متأرجحاً، أي صالحاً لأن يكون مشهداً أو حلية لدراما أو خيال، لا يهم، هذا اللّف والدوران الذي بدأ بالتحري عن ساعات النوم وساعات السُّهاد لينتهي بالتأمل المستهلَك حول قصر الحيوات وطول عمر الآمال، قد يكون لهذا اللّف والدوران مبرر– ولننه المسألة عند هذا الحد– لو أننا سألنا أنفسنا فجأة عن عدد المرات التي يطل فيها المرء من النافذة طول حياته، كم يوماً وأسبوعاً وشهراً قضاها هناك ولماذا. نحن نطل من النافذة– عامة– للتعرف على حالة الطقس أو التَوَهان مع القمر أو للتلصص على الجيران، وأيضاً

لإلهاء العينين وشغلهما بشيء بينما يكون التفكير مصاحباً للصور التي تمر، الصور المولودة كما تولد الكلمات. إنها نظرات، لحظات، وتأملات طويلة لما لم يصل لأن يكون منظوراً، لحائط أملس وأعمى، لمدينة، للنهر الرمادي أو للمطر المتساقط على أفاريز الأسطح.

لم يفتح رايموندو سيلبا النافذة، ينظر من خلال الزجاج، ويمسك بيده الكتاب، مفتوحاً على الصفحة المزيفة، كما تُسمى مزيفة العملة المسكوكة بواسطة من لا يملك شرعية السكّ. يرن المطر رنيناً مكتوماً على زنك سطح ظلّة الشرفة، لا يسمعه، لأنه- نقول نحن- مشغول بالبحث عن تشبيه مناسب لما يجري، إنه مثل الحفيف الذي مازال بعيداً لسرية من الجيش، سقوط الخوذات على الأرض الطرية الرطبة، حركة ركود الماء في بركة، وهذا حادث غريب نظراً لتعطل المعارك دوماً في الشتاء، وإلا، فماذا يكون من أمر الفرسان على صهوات الخيول، وهم يرتدون ملابس قليلة تحت الدروع والزُّرد، والمطر يتسرب إليهم من خلال الفجوات والفُرج، ولا عزاء في هذا المقام للمشاة الحفاة الذين يخوضون في الطين أو فيما هو دونه، وأيديهم متجمدة من البرد حتى أنها تمسك بالكاد الأسلحة الضئيلة التي أحضروها لاحتلال لشبونة، كيف يدور بخلد الملك القدوم للحرب في مثل هذا الجو، «ولكن الحصار كان في فصل الصيف»- غمغم رايموندو سيلبا بالكلمات الأخيرة. أصبح المطر

مسموعاً على الظلّة رغم تساقطه بقوة أقل، ابتعدت بربطة الجياد، عائدة إلى معسكراتها. وبحركة سريعة– غير متوقعة في شخص معتاد على الاعتدال في حركاته وإيماءاته– فتح رايموندو سيلبا النافذة على مصراعيها، طرطشت بعض القطرات على وجهه ولم تصل إلى الكتاب الذي حماه، وعندئذ غزاه نفس الشعور السابق بالقوة التامة والزائدة التي تملكت جسده وروحه، هذه هي المدينة التي حوصرت، الأسوار تنحدر من هنالك حتى البحر– يستحق النهر هذا الاسم لشدة اتساعه– ثم تصعد متشامخة إلى أبعد من متناول البصر، هذه هي لشبونة المسلمة، ولو لم يكن الهواء ضارباً إلى اللون البنّي في هذا اليوم الشتوي لاستطعنا تمييز أشجار زيتون السفح التي تهبط حتى مصبّ النهر، والأشجار الموجودة على شاطئه الآخر، وهي الآن غير مرئية كما لو كانت تغطيها سحابة دخان. نظر رايموندو سيلبا وعاود النظر، الكون يهمهم تحت المطر، رباه، يا له من حزن عذب وناعم، ليتنا لا نُحرم منه أبداً، ولا حتى في ساعات السرور.

* * *

ينكر بعض المؤلفين- ربما عن قناعة مكتسبة أو لمزاج روحي قليل الاعتياد على التمحيصات الصبورة- بديهية أن العلاقة بين ما نسميه «سبباً» (علّة) وبين ما نطلق عليه «أثراً» (معلولاً)، لإتيانه بعده، ليست مباشرة وجليّة على الدوام. يتعلل هؤلاء- ولا ينبغي إنكار حقهم في هذا- بأن العالم منذ أن كان عالماً، رغم أننا لا نعرف متى بدأ، لم يشهد «أثراً ليس له من «سبب»»، وأن كل «سبب»- سواء كان جبْرياً أو نشاطاً آلياً محضاً- قد أفضى وسوف يُفضى إلى «أثر» يحدث- وهذه نقطة مهمة- على الفور، رغم أن فاصل الانتقال من السبب إلى الأثر قد يغيب عن إدراك الملاحِظ أو أنه قد يتمكن بعد وقت طويل فحسب من إعادة تركيبه (ذهنياً) على وجه التقريب. وللذهاب إلى أبعد من هذا- رغم ما ينطوي عليه من خطورة مخيفة- فإن هؤلاء المؤلفين يؤكدون أن كل الأسباب المرئية والمعترف بها اليوم قد نجمت عنها آثارها، وليس علينا سوى انتظار تكشفها، وأن كل الآثار- سواء المكتشفة أو التي في طريقها

إلى التكشف- قد نجمت عن أسباب قطعية، وإن كان ما نعانيه من قصور جمّ قد حال بيننا وبين الاهتداء إليها من خلال معايير مُحكمة تُعين على إثبات العلاقة اللزومية بينهما، وهي ليست مباشرة ولا جليّة على الدوام كما أشرنا من قبل. وبالخروج من هذا السياق الخاص وتوجيه الحديث إلى عموم الناس- قبل أن يدفعنا عقلانيون مجتهدون نحو مشاكل أشد وعورة، مثل براهين «ليبنز» (Leibniz) حول عدم لزومية وجود العالم، أو براهين «كانط» (Kant) الخاصة بالكونيات- فإن ما تقدم عرضه يعني تماماً مواجهتنا للرب بالسؤال عما إذا كان موجوداً حقيقة أم أنه قد أربكنا بإبهامات لا تليق بذات عليا ينبغي عليها فعل كل شيء وقوله بوضوح ودون لَبْس. يسعى هؤلاء المؤلفون إلى إثبات أن شغْل أنفسنا بالغد (اليوم القادم) لا يستحق العناء، لأن كل ما يحدث قد حدث بشكل ما أو بشكل مؤكد، والتناقض هنا ظاهريّ فحسب كما تم بيانه من قبل، لأنه إذا كان غير ممكن إرجاع الحجر إلى اليد التي ألقته فلا مفر إذن من تلقي الضربة والجرح طالما كان التنشين محكماً وما دمنا لم نستطع الانحراف في الوقت المناسب نتيجة للتهاون أو الغفلة. وعلى هذا يتضح أن العيش ليس صعباً فحسب بل إنه مستحيل في الغالب، لاسيما في تلك الأحوال التي لا يكون فيها السبب ملموساً ومازال فيها الأثر يستنجد بنا، مطالباً إيّانا بتوضيح أسسه وأصوله، وقد بدأ السبب يتطلب أيضاً الأمر نفسه، وكما لا يخفى على أحد

فإن مسؤولية البحث عن معان وتخريجات لهذا التناقض تقع على عاتقنا نحن في حين أن ما يروقنا هو إغماض العيون في سكينة تاركين العالم يمضي كما هو لأن الأفضل لنا كوْنه حاكماً لا محكوماً. ولو حدث هذا، أي لو وجدنا أمام عيوننا ماله بريق «أثر» ولا ندري له «سبباً» مباشراً أو قريباً، فالحل يكمن في المسايرة، في إعطاء وقت للزمن، مادام الجنس البشري- ولنفهم هذا جيداً لأنه لم يأت عرضاً- لا يُعرف عنه رأي آخر سوى رأيه في نفسه، ومكتوب عليه انتظار الآثار إلى ما لانهاية، والبحث إلى ما لانهاية حتى اليوم.

يسمح لنا الاستنتاج السابق، الجامع بين عدم الاسترسال والتوفيق الرباني، بالعودة- من خلال التحويل البارع لمستوى السرد- إلى المصحح رايموندو سيلبا في اللحظة المناسبة التي يمارس فيها «نشاطاً» لم نتمكن من التوصل إلى دواعيه لانهماكنا في الحديث العام والدّسم عن الأسباب والآثار، والذي توقف لحسن الحظ حين شرع في الانزلاق نحو الكرْب الوجودي المعجز. ويعتبر هذا النشاط- مثل كل الأنشطة- «أثراً» ولكن «سببه» الذي قد يكون غائباً عن رايموندو سيلبا نفسه، يبدو لنا مُستغْلَقاً، إذ أنه من غير المفهوم- طبقاً للمعلومات الواردة آنفاً- لماذا يُفرغ هذا الرجل في حوض المطبخ الغسول الفاضل المُصْلح الذي كان يخفف به نوائب الزمن. يبدو مستحيلاً بالفعل- نتيجة لغياب الإيضاح من صاحب

الشان نفسه، ولإيثارنا السلامة بعدم الخوض الخطير في افتراضات وتكهنات لا تعدو أن تكون مجرد آراء متهورة ورعديدة- إثبات تلك العلاقة المباشرة، المرغوبة والمطمئنة، التي تجعل أية حياة بشرية بمثابة تسلسل حتمي لأحداث منطقية، مُحكَمة الترابط. لنقنع إذن، على الأقل الآن، بمعرفة أن رايموندو سيلبا في اليوم التالي لذهابه إلى دار النشر، وبعد ليلة مفعمة بالأحلام المتناقضة، دخل المكتب، قبض على قنّينة صبغ الشعر المخبوءة، وبعد لحظة قصيرة- محل التردد الأخير- سكبها كلها في حوض الغسيل، ثم فتح الصنبور بماء وفير جعل السائل المصطنع- المسمى بخبث «ترياق الشباب»- يختفي من على وجه البسيطة في أقل من دقيقة.

بعد الفراغ من اقتراف هذا العمل الفذ، كررت الخطوات التالية الروتين المعتاد، وسوف نشير إليه فيما يلي للمرة الأخيرة اللهم إلا إذا حدثت تغيرات ذات قيمة: حلاقة الذقن، الاستحمام، تناول الفطور ثم فتْح النافذة لتهوية البيت حتى أركانه البعيدة، مثل السرير بالملاءات المفروشة بكاملها فوقه ومازالت باردة دون آثار لسهاد مضطرب، ناهيك عن الأحلام المجلوبة في النهاية بواسطة النعاس المُنْهَك، تلك الصور الحمقاء التي لا يصل إليها الضوء ويستعصي وميضها حتى على الروائيين أنفسهم، رغم اعتقاد أصحاب المعلومات المغلوطة في امتلاكهم لكل الحقوق وحيازتهم لكل المفاتيح، لأنهم لو كانوا هكذا فعلاً لتَوَارت عندئذ إحدى حسنات هذا العالم: الخصوصية

وخفايا الأشخاص. مازال المطر مستمراً، بيد أنه ليس مثل طوفان الأمس، ويبدو أن درجة الحرارة قد انخفضت، يتم غلق النافذة بعد نقاء جو البيت بفضل هبة الريح المنعشة القادمة من جهة اللسان الرمليّ. لقد دقت ساعة العمل.

تجثم «قصة حصار لشبونة» فوق «الكومودينو». أخذ رايموندو سيلبا الكتاب وتركه ينفتح تلقائياً، الصفحات هي التي نعرفها ولن تُقرأ مرة أخرى. جلس إلى الطاولة حيث ينتظر كتاب القصائد الذي لم ينته، أي لم تنته مراجعته، كما لم يتم أيضاً سوى مراجعة ثلث القصة التي أحضرها كوستا وليست مستعجلة، وطالت التصويبات فيها– فضلاً عن اقتراح بعض الإيضاحات– أخطاء نحوية تتعلق بالتطابق وأخطاء أخرى إملائية. نحّى رايموندو سيلبا جانباً التزاماته المهنية، أراح جبهته على أصابعه المتشابكة في شكل قوس أمام قصة حصار لشبونة، مثبتاً النظر على الكتاب ولكن دون رؤيته، كما يتضح من تعبيرات الغياب الآخذة في الانتشار شيئاً فشيئاً على وجهه. لم تتأخر «قصة حصار لشبونة» في اللحاق بالقصة الأخرى وكتاب القصائد، قُرْص الطاولة المستخدمة مكتباً مسطح أملس ونظيف، وجه صافٍ– للحديث بأهلية لغوية كاملة –، ظل المصحح هكذا خلال دقائق عديدة، يُسمع الحفيف المبهم للمطر في الخارج، لا شيء أكثر، والمدينة كأنها غير موجودة. أخذ رايموندو سيلبا عندئذ

ورقة بيضاء، ملساء ونظيفة أيضاً، وفي أعلاها كتب بخطه الواضح وحروفه المتقنة «قصة حصار لشبونة». أعاد على الكتابة مرتين وهذّب بعض الحروف فتمزقت الصفحة، ظهرت بها أربعة خروق، ليست ناجمة عن الإهمال بل عن هوس التحوّط. أحضر صفحة أخرى، لا من أجل الكتابة عليها، لأنه فردها بعناية بحيث تتوازى أطرافها الأربعة مع أطراف الطاولة، ينبغي عليه ثني جسده كله في هذه الحالة، يريد طرح شيء كالسؤال التالي: «ماذا سأكتب»، وانتظار الإجابة بعد ذلك، الانتظار حتى تتشوش عيناه ولا يرى سوى المسطح الأبيض العقيم، أو بمعنى أدق: حيرة كلمات نابعة من الأعماق مثل أجساد غرقى سرعان ما تغطس من جديد، إنها لم تر ما يكفي من العالم وأتت فحسب من أجل هذا، ولن تعود ثانية.

«ماذا سأكتب»، ليس هذا هو السؤال الوحيد لأنه سرعان ما ورد بخاطره آخر، ملحّ أيضاً وشديد التعاقب بحيث يصعب تفادي اعتباره أثراً منعكساً فورياً، ولكن الحنكة تقضي بعدم العودة إلى النقاش الذي تهنا في دروبه من قبل، وتقتضي في المقابل- حتى لا نعود القهقرى مرة بعد مرة إلى بلبلة التصورات- التمييز على الأقل بين العلاقات الجوهرية الحميمة والعلاقات العرضية، ما يهم أخيراً بالنسبة لهذا الشأن هو معرفة أن رايموندو سيلبا سأل: «من أين سأبدأ»؟ يمكن القول بأن السؤال الثاني هو الأكثر أهمية لأنه المنوط

بتحديد أهداف ونتائج المؤلّف المستقبلي. وبما أن رايموندو سيلبا لا يستطيع ولا يود الرجوع كثيراً إلى الوراء حتى لا ينتهي به الأمر إلى كتابة التاريخ الكامل للبرتغال– وهو لحسن الحظ قصير لمضي سنوات قليلة على بدايته، ولأن حدّه القريب المتمثل في حصار لشبونة مازال في مجال الرؤية –، ونظراً لافتقار حكاية تبدأ فحسب من لحظة إجابة الصليبيين السلبية على طلب الملك إلى الإطار الروائي الكافي، عندئذ تتجلى ملامح السؤال الثاني كمرجعية سببية لا يمكن تفاديها، إنه يساوي بالضبط وبلغة العامة السؤال القائل: من أي طرف أبدأ هذا.

ومع هذا يبدو أنه من الضروري الرجوع قليلاً إلى الوراء، كالبدء مثلاً من خطبة «دون أفونسو هنريكس»، لأنه يسمح من جهة بتأمل جديد لأسلوب وكلمات الخطيب، وربما يسمح أيضاً باختراع خطبة أخرى أكثر مناسبة للزمان والمكان وشخص الملك، أو، ببساطة، لمنطقية الموقف التي قد تفيد– بجوهرها وخصوصياتها– في تبرير السلبية المشؤومة للصليبيين. وهنا تطرح نفسها مسألة لا ينبغي إغفالها: من الذين كانوا يتحاورون مع الملك في تلك المناسبة، مع من كان يتحدث، وأيّ صنف من الناس كان أمامه عندما ألقى خطبته. الأمر ليس صعباً لحسن الحظ، يكفي الرجوع إلى المنبع الصافي، إلى المؤرخين، إلى قصة حصار لشبونة ذاتها التي تعتلي بوضوح شديد

طاولة رايموندو سيلبا، وما عليه سوى التصفح والبحث والعثور على المعلومة، ومصدرها المباشر هو أوسبرنو الشهير، ومن خلالها نستطيع معرفة من كانوا حاضرين هناك: «الكونت أرنولدو دي آرشوت» الذي يقود المحاربين القادمين من أماكن متفرقة بالإمبراطورية الجرمانية، و«كريستيانو دي خيستيل» زعيم الفلامنج والبولونيين. أما ثلث القوات الصليبية فكان تحت إمرة أربعة قوّاد: «هيرفو دي جلنبيل» مع مساعديه «نورفوللك» و«سوفوللك»، و«سيمون دي دوفر» مع سفن كِنت، و«أندريه، مع اللندنيين»، و«ساهيريو دي أرشيلس» مع الباقين. لم يكن هؤلاء خاضعين لقيادة مركزية، لكنهم جميعاً كانوا يتمتعون بالسلطة والقوة الحربية والنفوذ السياسي الذي يخوّل لهم التأثير في المباحثات. كما تجدر الإشارة أيضاً إلى النورماندي «جيرمو» أو «جيين بيتولو» وإلى أخيه المدعو «رودولفو»، وكلاهما محارب عنيد.

يُؤخذ على هذه المصادر عدم دقة البيانات والتفشي الأعمى لما ورد بها من أخبار، ونحن نقصد هنا خاصية التفريخ المتناقض الذي يتم داخل الأحداث أو الرواية المقدمة عنها أو المقترحة لها والتي تتكاثر كالفئران وتؤدي بالتالي إلى توالد مصادر المستوى الثاني والثالث التي تنسخ هذه الرواية بشكل سيئ أو تكررها اعتماداً على السماع فحسب أو تعدل فيها- بحسن أو سوء نية-

أو تفسرها، وأيضاً تلك التي تقوم بتنقيحها معتبرة هذا التنقيح بمثابة الرواية الوحيدة والفريدة والخالدة علماً بأنها تحمل من الرّيبة ما يفوق الأخريات. وبالطبع فهذا يتوقف على كمّ الوثائق المطلوب مضاهاتها، وعلى مدى العناية الموجهة لهذه المهمة الدّسمة، ولكي تكون لدينا فكرة حديثة عن طبيعة المشكلة يكفي تخيل أن رايموندو سيلبا يعيش في أيامنا هذه ومطلوب منه– أو من أي فرد منا– تنقية حقيقة ما مكررة تناولتها الصحف البرتغالية بتنويعاتها المختلفة، ورغم أننا نعيش– لحسن الحظ– في بلد صغير لا يميل سكانه إلى القراءة كثيراً، إلا أن مجرد ذكر عناوين الصحف اليومية يصيبنا بالدّوار الذهني: صحيفة الأخبار، صحيفة منهاو، سيكيلو، كابيتال، ديّا، صحيفة لشبونة، جريدة الشعب، الصحيفة، تجارة بورتو، جورنال الأخبار، الأوروبي، بريميرو دي جانيرو، جريدة قلمرية، ناهيك عن الإصدارات الأسبوعية والمجلات ونقتصر منها على ما يلي: أكسبريسو، جورنال، سيماناريو، تمبو، ديابو، إندبندنت، أبانتي، أكساو سوثياليستا، بوبوليفر، ونحن لم نعدها كلها بل اقتصرنا على المؤثر منها، ويمكن أن نضيف إلى تلك القائمة العريضة كل صحيفة أو صفحة تُنشر في المحافظات البرتغالية لأن لديها الحق أيضاً في الحياة وإبداء الرأي.

من حسن الطالع أن اهتمامات المصحح تمضي في اتجاه آخر، ما يهمه هو معرفة الأجانب الذين تحاوروا مع مليكنا «أفونسو

هنريكس» في تلك الأيام الصيفية الحارة. كان يبدو أن كل شيء قد أصبح واضحاً بعد الرجوع إلى «قصة حصار لشبونة»، إلى ما هو منسوب إلى أوسبرنو والمصادر القديمة المشابهة مثل «أنولفو دي دوديكينو» و«إنديكولوم فونداثيونس موناستيري سان بيثنتي»، ولكن، لا يا سيدي، لأن هذه المصادر لا تحوي كل شيء، وعلى سبيل المثال ففي مدوّنة «خمسة ملوك برتغاليين»، التي كان لديها بالتأكيد أسبابها لقول ما تقوله– وما يُحذف منها أحياناً ويُضاف إليها أحياناً أخرى –، لا يظهر من الأجانب المهمين سوى «جيين» صاحب السهم الطويل، و«خيل دي روليم»، والمدعو «دون خيل» بدون لقب، لاحِظ جيداً خلوّ هذه المدوّنة من أيّ اسم من الأسماء المذكورة في «قصة حصار لشبونة» الوفيّة لمصدر أوسبرنو المظنون. في حالات مثل هذه يُعَوّل على الوثيقة الأقدم لشدة قربها من الحدث، بيد أننا لا نعرف ماذا سيفعل رايموندو سيلبا الذي سيعجبه– دون شك– لقب «جيين» المشبع برائحة العصور الوسطى، ونعني به «صاحب السهم الطويل»، وهذا اللقب كاف وحده لكي يكون صاحبه مطلوباً بشدة من الفرسان المغاوير. وهناك وسيلة أخرى، ألا وهي البحث عن مصدر يرجح الكفّة، وتمثله في هذه الحالة مدوّنة «دون أفونسو هنريكس» نفسه التي كتبها «فراي أنطونيو براندا و»، ولكنها– لسوء الحظ لاتفك اللغز بل تزيده تعقيداً، إذ أنها تُطلق على «جيين» صاحب السيف الطويل، وتُدرج أيضاً أسماء

كل من: «أوريكو» ملك دامية، وأسقف بريمنس «تيوديكريكو» كونت فلاندس، ودوق برجونيا، فضلاً عن أسماء أخرى محتملة التصديق: خيل دي روليم (المذكور آنفاً، والمسمى أيضاً شيلد روليم)، دون ليتشيرتس، دون ليخيل، والأخوان جييرمو ودون روبرت دي لاكورني، دون جوردان، دون ألاردو، وهؤلاء بعضهم فرنسيون، وبعضهم فلامنجيون، وآخرون نورمانديون، وفريق رابع من الإنجليز، رغم أنه من المشكوك فيه أنهم سوف يُصنفون أنفسهم هكذا حين يُسألون عن جنسياتهم، لأن أيّ رجل في تلك الأزمان- سواء كان فارساً أم من السّفْلة- لم يكن يعرف لأي وطن ينتسب أو أنه لم يكن قد اتخذ قراره النهائي بالانتساب إلى وطن ما.

بعد التدبر مليّا في هذه التناقضات، اهتدى رايموندو سيلباً أخيراً إلى أن التعمق في هذه المسألة لن يفيد القضية كثيراً، نظراً لأن هؤلاء وأولئك من الصليبيين- سواء كانوا نبلاء من الدرجة الأولى أو حثالة الطبقة الدنيا- سوف ينقطع الحديث عنهم ولن يسمع بهم أحد فور انتهاء الملك من خطبته، مادامت ستضطرهم «لا» الموجودة في النسخة الوحيدة لقصة حصار لشبونة إلى الرفض والانسحاب. ولكن، بما أننا لا نتحدث عن أناس ضئيلي الفهم، فضلاً عن كونهم في معيّة حشد كبير من القساوسة والرهبان جاء للترجمة والإرشاد الديني، فلابد إذن من أن تكون هناك دوافع قوية لرفض مساعدة

البرتغاليين في حصار لشبونة والاستيلاء عليها، وإلا ما كان مئات الرجال قد تحملوا عناء مغادرة السفن، بينما ينتظر منهم أكثر من اثني عشر ألفا الأمر بترك سفنهم والنزول إلى اليابسة مع أسلحتهم وصناديقهم وأجربتهم والنساء المصاحبات لهم، وهي صُحبة لا يُحرم منها أدنى محارب حتى لو كان يخوض حرباً مقدسة، وإلا، فبماذا يُسلي الجسد المحروم ويُخفف عنه. ما الداعي للرفض إذن، لقد آن الأوان للبحث عنه من أجل إضفاء المصداقية على الرواية الجديدة للأحداث.

هيا بنا نرى. الافتراض الأول يمكن أن يكون الطقس، لكنه سرعان ما يتهاوى من أساسه لأنه من المعروف أن الأجانب– دون استثناء– يعبدون هذه الشمس الجميلة، وهذه النسمات العليلة، وهذه الزرقة الفريدة للسماء، يكفي التذكر أننا في أواخر شهر يونيو، وأمس كان يوم سان بدرو، والمدينة والنهر كانا جنّة، دون التأكد مما إذا كانت تحت نظرة رب المسيحيين أم إله المسلمين، هذا إذا لم يكن الاثنان هناك معاً، يستمتعان بالمشهد ويتراهنان عليه. الافتراض الثاني يمكن أن يكون قحولة الأرض وجفاف الأماكن وكآبة الآفاق، ولكن هراءً كهذا لا يمكن أن تتصوره سوى رأس من لا يعرف لشبونة ونواحيها، إنها حديقة فيحاء لاستجمام النفوس الطيبة، انظروا إلى كل تلك البساتين الممتدة على ضفتي اللسان

الرمليّ المتغلغل في اليابسة، إلى «باكسيا» القابعة كالحضن بين التلّ حيث تجلس المدينة وبين الحد الآخر لجهة الغرب، إنها بمثابة تبيان خالص على عدم وجود أيادٍ أفضل من أيادي المسلمين لزراعة كافة أنواع الخضروات. الافتراض الثالث والأخير يتمثل في إمكانية ظهور وباء مشؤوم من تلك الأوبئة التي تحصد من حين إلى آخر أرواح شعوب أوروبا والشعوب المجاورة، لكن بعض الأمراض المتوطنة البسيطة لا تُفزع أحداً، ينبغي للمرء الاعتياد على كل شيء، إنه مثل العيش على سفوح بركان، وهذه في النهاية ليست سوى مقارنات حمقاء لأن هذه الأرض ليست أرض زلازل ولا براكين طبقاً لما نعرفه عنها منذ ستمائة عام ونيّف. توجد ها هنا افتراضات ثلاثة، وكلها غير معقولة. لم يبق إذن– رغم صعوبة قبوله– للبحث عن الدافع والسبب والداعي والأصل ولماذا سوى خطبة الملك نفسها. فيها فحسب.

سوف يعود رايموندو سيلبا إلى الوراء للبحث في الكتاب عن الخطبة المذكورة لكي يقرأها بتمعن وينقيها من الزوائد والحلي البلاغية والإطناب حتى يخلص إلى عمودها الفقّاري وقوائمها الأساسية، وعندما يضع نفسه– من خلال قفزة بهلوانية– مكان هؤلاء القوم بما يحملون من أسماء وألقاب وأصول ورُتَب وأفكار، سوف يتملكه الغضب والحنق والكدر ليقول في حسم: سيدي

الملك، لن نبقى ها هنا، رغم جمال شمسكم وخصوبة غوطاتكم ونظافة هوائكم، ورغم هذا النهر الرائع الذي يتقافز فيه السردين، نترك جلالتكم للاستمتاع به، وبالهناء والشفاء، ومع السلامة. بعد قراءة رايموندو سيلبا للخطبة عدة مرات بدا له أن عقدة القضية ربما تكمن في تلك العبارة التي نطقها «دون أفونسو هنريكس»- والكلام لا ينتسب إليه وحده كما لاحظنا من قبل- محاولاً إقناع الصليبيين بالاشتراك في المعركة نظير مقابل زهيد، ويقول فيها بنبرة ساذجة على الأرجح: «نحن على ثقة من أن تقواكم هي التي ستحفزكم أكثر بقبول المشاركة في هذا الحدث العظيم، لا ما يمكن أن نعدكم به من مال ومكافآت مادية». لقد سمعت هذا، أنا الصليبي رايموندو سيلبا، ووعته أذناي، وبقيت مندهشاً لعدم تعلّم الملك للمقولة الملهمة، تلك المقولة التي يجب أن تتحول- لقيمتها الكبيرة- إلى مبدأ سياسي لا تخمد جذوته: «دع ما لله لله، وما لقيصر لقيصر»، وتطبيقها على الحكاية التي بين أيدينا يعني أنه لا يجوز لملك البرتغال الخلط بين أمرين مختلفين: مساعدة الرب، والأمر الآخر هو أن تدفعوا لي جيداً في مقابل القيام بهذا العمل وللخدمات الأخرى التي تنطوي على المجازفة بفقدان الجلد، ليس الجلد وحده بل وما يحتوي عليه. لا يخفي على لبيب وجود تناقض واضح بين هذه العبارة من الخطبة الملكية وبين أخرى سابقة لها تقول: «إننا نقدر لكم- يقصد الصليبيين بالطبع- عدم الاستهانة باعتبار أن كل ما

تحويه أرضنا هو طوْع أمركم ورهْن تصرفكم»، إذ لا يستبعد أن تكون العبارة الأخيرة مجرد صيغة مجاملة شائعة الاستخدام في تلك الأزمان ولا يمكن لأي شخص حسن التربية التجرؤ على فهمها بمعناها الحرفي، وهي تشبه ما نفعله اليوم عندما نقول لشخص عرفناه حديثاً: «نحن في خدمتك»، تصوّروا لو صدّق هذا وجعلنا خدماً له.

نهض رايموندو سيلبا من أمام الطاولة، تجوّل في المساحة الصغيرة الشاغرة بالمكتب، أطلّ على الرّدهة ليسرّى عن نفسه من التوتر الجديد الذي يتملكه، وبصوت عالٍ يقول لنفسه: هذه ليست المشكلة حتى لو كانت هي سبب الخلاف بين الملك والصليبيين، والاحتمال الغالب فيها أن تكون قيمة المقابل المادي للخدمات هي التي فجرت كل ذلك الصراع وأدت إلى تبادل السُّباب والتذبذب بين نساعد أو لا نساعد، الملك يريد الادخار والصليبيون يحاولون الحصول على أكبر قدر ممكن من الأعطيات، لكن المشكلة التي ينبغي عليّ حلّها هي مشكلة أخرى، لأنني عندما كتبت «لا» غادر الصليبيون على الفور، ومن ثمّ لن يفيدني في شيء البحث عن إجابة للسؤال «لماذا» في القصة التي يقولون إنها الحقيقية، ولذا يجب عليّ اختراع قصة ثانية، اختراع أخرى لكي يمكن أن تكون مزيفة، ومزيفة لكي يمكن أن تكون أخرى. تعب من الذهاب والإياب في الرّدهة، عاد إلى غرفة المكتب، لكنه لم يجلس، نظر بتوتر عصبي

إلى الأسطر القليلة الباقية من الصفحات الممزقة، ست صفحات، صفحة بعد أخرى، وإلى التعديلات، التعديلات التي تشبه ندوباً في طريقها إلى الالتئام. كان على وعي تام بأنه إذا لم يحل المعضلة فلن يكون قادراً على التقدم، واعترته الدهشة، من جرّاء اعتياده فيما مضى على أن كل ما في الكتب يبدو سهلاً وعفوياً ومتلازماً، لا لأنه هكذا حقاً، بل لأن أيّ مؤلِّف- جيداً كان أم سيئاً- يظهر في النهاية وكأن مادته متبلورة ومحددة سلفاً، رغم أنه لا يُعلم كيف ولا متى ولا لماذا ولا مِن قِبل مَنْ، اعترته الدهشة- قلنا- لأنه لا يخطر على باله الآن ولا حتى الفكرة التالية، الفكرة التي تتولد طبيعياً من الفكرة السابقة، وعلى العكس، كانت تتأبى عليه، أو ليس هذا، لم تكن ببساطة هناك، لم تكن موجودة ولا حتى كاحتمال. تم تمزيق الصفحة السابعة، أصبحت الطاولة من جديد نظيفة وملساء، وجهاً أملس مرتين، صحراء بلقع حيث لا تنبت أية فكرة. تناول رايموندو سيلبا كتاب الشعر، ظل متذبذباً لبضع دقائق بين ذلك اللاشيء وبعض الشيء، ثم أخذ بعد ذلك يركز رويداً رويداً في العمل، مرّ الوقت، وقبل موعد الغداء كان قد انتهى من تصحيح البروفات ومراجعتها، وأصبح الكتاب جاهزاً لدار النشر. لم يرنّ الهاتف طوال الصباح، نادراً ما يأتي ساعي البريد إلى هذا البيت، لا يعكر سكون الشارع سوى المرور الحذر لسيارة من آن إلى آخر، لا تستطيع حافلات السياح الوصول إلى هنا، بل تعود أدراجها من عند «لارجو

دوس ليوس»، وإزاء المطر الذي تساقط فقليل من يغامر بالصعود إلى الأعالي لكي لا يرى سوى آفاق غائمة. نهض رايموندو سيلبا، لقد حان وقت الغداء، بيد أنه اتجه قبل ذلك إلى نافذة الحجرة، لقد أقلعت السماء، لا تمطر الآن، وبين السحب المسرعة تظهر وتختفي قطع زرقاء من السماء، سماء حيّة كما كانت بالتأكيد سماء ذلك اليوم البعيد، رغم اختلاف الفصول. وفي لحظة ما لم يرق له دخول المطبخ، لتسخين طبق الحساء السرمديّ، وللتفتيش بين علب الأتون والسردين، وللمجازفة باستخدام الحلّة أو المغرفة، ولم يكن هذا راجعاً لاستيقاظ شهيته لتناول طعام تم إعداده بعناية، بل لحالة من الضجر الذهني قد اعتورته. ولكنه لا يريد أيضاً الذهاب إلى مطعم. النظر إلى قائمة الطعام، الاختيار بين الطبق والثمن، البقاء جالساً بين الناس، استخدام السكين والشوكة، كل هذه الأشياء البسيطة والاعتيادية بدت له غير محتملة. تذكر أنه يوجد على مقربة من هنا محل حلويات «أ.جراثيوسا» وفيه يقدمون خبزاً محمصاً (توست) متعدد الأصناف، مقبولاً حتى من الأذواق الأكثر تشدداً من ذوقه، ومع كأس نبيذ وفنجان قهوة كبير سوف تقنع المعدة.

اتخذ قراره وخرج. مازال المعطف رطباً من سيول اليوم السابق، اقشعرّ حين لبسه، كأنه يرتدي جلد حيوان ميت، كانت تضايقه على وجه الخصوص رقبة المعطف وطرفا كُمَّيْه، يجب أن يكون

لديه معطف جيد لمثل هذه المناسبات، ليس هذا ترفاً بل ضرورة، وعندئذ حاول تذكر الملابس التي كانت ترتديها الدكتورة ماريا سارة، إذا كانت سترة واسعة أم معطفاً حين غادرت المصعد بصحبة المدير الأدبي، ولم يستطع تحديدها لأنه أسرع بالفرار في نفس تلك اللحظة ولم يمكنه التدقيق. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي فكر فيها في الدكتورة ماريا سارة خلال ذلك الصباح، لكن تصرفها معه كان أشبه بتصرف الحارس، تجلس في زاوية ما من ذاكرته، ملاحظة له. أصبحت الآن امرءاً يتحرك، يخرج من مصعد متحدثاً، تحت المعطف أو السُتْرة الواسعة كانت ترتدي تنّورة سميكة مضبوطة المقاس، وقميصاً أو «شيميزا»- الاسم لا يهم، نظراً لكثرة الأسماء الفرنسية المستخدمة- لونه مبهم، لا، مبهم لا، لأن رايموندو سيلبا عثر على درجة اللون المضبوطة، أبيض/ صباحي، حقاً لا يوجد هذا اللون في الطبيعة، فالأصباح المتشابهة يوجد بينها اختلاف كبير، لكن أيّ فرد يمكنه لو أراد اختراع اللون الذي يناسب استخدامه وذوقه، حتى المؤذن الأعمى إذا لم يكن قد خرج أعمى من بطن أمه المسلمة.

في محل حلويات «أ. جراثيوسا» لا يقدمون النبيذ في كأس. اضطر رايموندو سيلبا لدفع الخبز المحمص إلى جوفه بزجاجة بيرة، غير مستحبة في هذا الجو البارد، رغم أنها في الماضي البعيد كانت

تُحدث في الجسد أثراً مساوياً لأثر النبيذ: فتوراً داخلياً مريحاً. كان يجلس على مائدة قريبة منه، منهمكاً في قراءة الجريدة، رجل مسنّ، أبيض الشعر، تبدو عليه أمارات الإحالة إلى المعاش. لم يكن في عجلة من أمره، بالتأكيد تناول الغداء في البيت ثم جاء إلى هنا لاحتساء القهوة وقراءة الجريدة التي يشتريها يومياً صاحب المحل- خدمة لزبائنه- جريا على العادة القديمة التي كانت متبعة في لشبونة. كان انتباه رايموندو سيلبا مركزاً على الشعر الأبيض للرجل، ما هو الاسم المناسب لهذه الدرجة من اللون، يمكن تسميته- على سبيل التناقض- أبيض/ غسقيّ، أو مسائي، نظراً لتقدم سنّ المعني بالذكر، ولكن هذه التسمية مبالغ فيها ويناسبها أكثر أن تكون بمثابة اختراع، ولكن الاختراع لا يطلق إلا على شيء ذي شأن. وإضافة إلى ما تقدم تجدر الإشارة إلى أن اهتمام رايموندو سيلبا لم يكن مقصوراً فحسب على اللون ودرجاته، لأن ما كان يستولي على لبّه حقاً هو الانشغال الفجائي بجهله لكمّ الشعيرات البيضاء في رأسه هو، هل هي كثيرة أم جدّ كثيرة، لقد انقضت سنوات عشر على اليوم الأول الذي بدأ فيه صباغة شعره، مطارداً إيّاه في غيظ ضارٍ كأن هذه هي المعركة الوحيدة التي وُلد من أجلها. اكتشف- مشوشاً ومذهولاً- رغبته اللامعقولة في مرور الزمن بسرعة حتى يتمكن من الوقوف على صورته الحقيقية، البازغة- مثل الواصل حديثاً والمقترب ببطء- من تحت خيوط فظة بلونين مختلفين في البداية: المزيف الذي يزداد

وَهَناً وخفّة، والآخر، الأصلي من الجذور، الذي يتقدم بلا هوادة. يمكن القول أخيراً إن رايموندو سيلبا سيطرت عليه فكرة أن الزمن يسعى نحو اللون الأبيض، وبعد إطالته للتفكير رأى العالم في أيامه الأخيرة- والحياة خامدة- مثل رأس هائلة بيضاء كنستها الريح، لا شيء هنالك سوى الريح والبياض. أخذ الرجل المتقاعد جرعة من قهوته، متذوقاً إيّاها في جلبة، وبعد تناوله لنصف كوب النبيذ الذي أمامه قال: آاه ، واستمر في القراءة. أحس رايموندو سيلبا بغيظ مكتوم تجاه ذلك الرجل، بنوع من الحقد، لما يبدو عليه من سكينة تامة، ثقة مطلقة في استقرار الكون ورسوخه، صحيح أن الراحة الناجمة عن النبيذ تفوق بكثير ما يمكن أن تجود به البيرة، إذ أننا على الصعيد العملي نرى أن النبيذ يظل محتفظاً بقوامه حتى آخر نقطة، في حين أن المتبقي من البيرة سرعان ما يحتضر في قاع الكوب، ومصيره حوض النفايات كالماء العطن. طلب فنجان قهوة على جناح السرعة. لا، لا أريد «هاضماً»، والاسم الأخير يطلقه مرتادو المطاعم على قبيلة الأجوار دينتي والبراندي والأوروخو[1]، ولا يعدم المقام من يحلف منهم مؤكداً على فضائلها العلاجية لأدواء المعدة، شرب المتقاعد المتبقي في الكوب دفعة واحدة، آاآه، وأشار إلى النادل كي يملأه له من جديد. دفع رايموندو سيلبا الحساب، وفي

(1) الأجوار دينتي والبراندي والأوروخو ومشتقاتها: مشروبات كحولية، شعبية ورخيصة الثمن. (المترجم).

أثناء مغادرته للمكان لاحظ- في لفتة سريعة- وجود خصلات صفراء وسط الشعر الأشيب للمتقاعد، ربما من أثر الصباغة، وربما تكون علامة على الشيخوخة المتأخرة، كما هو الحال بالنسبة للعاج القديم: يسودّ في البداية ثم يأخذ في التشقق.

لم يدخل رايموندو سيلبا القلعة منذ بضعة أشهر، ولكنه ذاهب الآن إلى هناك فور اتخاذه للقرار، قد تكون فكرة الذهاب لم تختمر في رأسه بشكل طبيعي لكنه خرج في النهاية من بيته من أجل هذا الغرض، ويذكرنا فعله هذا بما جرى له من قبل حين سيطر على نفسه إحساس قاهر بالاشمئزاز من دخول المطبخ لكنه دخل من أجل تكذيب هذا الإحساس، ومن هنا يتضح أن مبادرته بالخروج ترجع إلى تخوفه من الإجابة على الاقتراح «هيا إلى القلعة» بالرد السلبي «وماذا سأفعل هناك»، وهذا على وجه التحديد ما لم تكن تعرفه نفسه أو لم تكن قادرة على الاعتراف به. تهب الريح في دفعات قوية تجعل شعر المصحح يموج مثل الدوّامة، وأطراف معطفه تقرقع كالملاءات المبللة. من العتة الذهاب إلى القلعة والصعود إلى أبراجها المكشوفة في جوّ مثل هذا، فمن السهل السقوط من فوق إحدى درجات السلّم الخالية من الدرابزين، الميزة الوحيدة تكمن في عدم وجود مخلوق، ومن ثمّ القدرة على الاستمتاع بالمكان دون رُقباء ورؤية المدينة، رايموندو سيلبا يريد رؤية المدينة ولا يعرف حتى الآن لماذا. الساحة

الكبيرة صحراء بلقع، وأرضيتها مليئة بمستنقعات تُحدث بها الريح موجات ضئيلة، تئز الأشجار من ريح الجنوب الشديدة التي تشبه الإعصار الحلزوني، ويجب التغاضي عن المبالغة في التشبيه في مدينة مازالت تشكو إلى الآن من الآثار المتواضعة لذيل الإعصار الاستوائي الذي ضربها في عام 1941، مثلما ستشكو من الآن وحتى مائة سنة قادمة من آثار حريق «شيادو». يقترب رايموندو سيلبا من الحائط، ينظر بعيداً إلى أسفل، إلى أسطح المنازل والأجزاء العليا للواجهات والأفاريز، إلى يساره يقع النهر الملوّث بالطمي، وقوس نصر شارع «أوجوستا»، والمربعات المتصلة للشوارع المتقاطعة، وركن وآخر لميدان، وأطلال «كارمو»، الأطلال الأصلية الناجية من الحريق. لا يمكث هناك وقتاً طويلاً، لا بسبب تضايقه من الريح، إذ أن عقله الباطن يدرك أن لهذه الفسحة الغريبة هدفاً، وأنه لم يأت إلى هنا كي يتأمل أبراج «أموريراس» فقد رأى ما يكفيه منها من قبل حين ظهرت له في كابوس أثناء النوم. دخل القلعة، يدهشه دائماً صغر حجمها، تبدو له مثل لعبة، مثل صومعة راهب خدمة أو متصوف مكّي. تحدّ الحوائط العليا من الاندفاع الكبير للريح، تشطرها إلى تيارات كثيرة متعاكسة لكي تخمدها بعد ذلك الأقواس والدهاليز الضيقة. يعرف رايموندو سيلبا الطرق عن ظهر قلب، سوف يصعد إلى السور من جهة «سان بيثنتي» وسيرى من هناك منظر الأرض. يوجد هناك تلّ «لاجارثا» في مواجهة البرج الأكثر ارتفاعاً،

وتجويف «سانتا كلارا» حيث عسكر «دون أفونسو هنريكس» مع جنوده، الذين كانوا جنودنا، الآباء الأول للقومية البرتغالية، لأن آباء هؤلاء لم يستطيعوا -لولادتهم المبكرة- أن يكونوا برتغاليين. ومسألة الخوض في الأنساب لن تقدم أو تؤخر، لأن التحقق- الذي لا أهمية له على الإطلاق- ممن كانوا السبب في إضفاء الأهمية على ما جرى لا يجب أن يشغلنا عما نقول لأنه الأهم.

لم يلتق الملك مع الصليبيين هنا، بل هنالك تحت، على الجانب الآخر من مصبّ النهر، بيد أن ما يفتش عنه رايموندو سيلبا- لو كان لهذا التعبير معنى- هو انطباع رؤية ملموسة، شيئاً لا يستطيع تحديده ويمكن أن يجعل منه- مثلاً- في هذه اللحظة جندياً مسلماً ينظر إلى أطياف الأعداء وإلى بريق سيوفهم، ولكنه في هذه الحالة يكون كمن ينتظر- من خلال طريق عقلي خفي- تلقى المعلومة التي تنقصه للحكاية، أي السبب الذي لا جدال فيه لانسحاب الصليبيين إثر كلمة «لا» الحاسمة. تدفع الريح رايموندو سيلبا وتعاود دفعه فيضطر للإمساك بالسور حتى لا يفقد توازنه. وفي لحظة ما انتاب المصحح شعور قوي مفعم بالسخرية، بعد أن تنبه إلى وضعه المماثل للمشهد التمثيلي، أو بالأحرى السينمائي، فالمعطف رداء من العصور الوسطى، والشعر ريش منكوش، والريح ليست ريحاً، بل تيار هوائي صادر عن ماكينة. وفي هذه اللحظة ذاتها، ونتيجة

لسخريته من نفسه، عاد من جديد بريئاً وأعزل، وبزغ في عقله- بوضوح في النهاية، وبسخرية أيضاً- سبب «لا»، التبرير الأخير الذي لا يمكن دحضه لاعتدائه على الحقائق التاريخية. الآن يعرف رايموندو سيلبا لماذا رفض الصليبيون مساعدة البرتغاليين في حصار المدينة والاستيلاء عليها، وسوف يرجع إلى بيته لكتابة «قصة حصار لشبونة».

* * *

تشير «قصة حصار لشبونة»، القصة الأخرى، إلى حدوث هَرَج ومَرَج شديدين بين الصليبيين حين علموا بقدوم ملك البرتغال لعرض مقترحاته التي يحاول من خلالها ترغيب المحاربين البواسل في البقاء معه والعدول عن نواياهم السابقة في الذهاب لتخليص الأراضي المقدسة. كما تفيد أيضاً- معتمدة في هذا على المصدر الأوسبورني المُلْهَم- إلى أن غالبية هؤلاء القوم، أغنياء وفقراء (يشير إليهم المصدر هكذا بوضوح)، حين سمعوا باقتراب «دون أفونسو هنريكس» ذهبوا للقائه في احتفالية (وإن كان من الأفضل القول إنهم انتظروه في مكانهم)، على أيّ حال يُفهم من النص أنهم فعلوا هذا، وهو ما كان يحدث عادة في بقية المقاطعات والدول الأوروبية حيث كانت الجموع تخفّ للقاء الملك- مقصرين عليه الطريق- وتستقبله بالهتاف والتصفيق. ومن حسن الطالع أن المصدر كان معتدلاً في الفخار والزّهو الوطني لأنه لو لم يكن كذلك لكان علينا التسليم في سذاجة بأن أوروبيين ذلك الزمان- ومثلهم في هذا

أوروبيون اليوم– كانوا سيتأثرون كثيراً، ويشغفون شغفاً جمّاً بملك برتغالي– فضلاً عن كونه ظاهراً حديثاً– قادم هناك على جواده وسط قوات جليقية مثله، بعضها شريف النسب والبعض الآخر رجال دين، وكلهم أجلاف ومحدودو الثقافة. ما يجب علينا معرفته بهذا الخصوص هو أن المؤسسة الملكية كانت ماتزال تحتفظ وقتئذ برونق كافٍ لأن يجعل الناس تخرج إلى الشوارع قائلين لبعضهم بعضاً «هيا بنا نرى الملك، هيا بنا نرى الملك»، والملك هو هذا الملتحي الذي تفوح منه رائحة العرق، بأسلحته المتسخة وجياده التي تشبه دواب حْمل مُشْعرة ومجهولة النسب، أي أن «الجنازة حارّة والميت كلب» كما يقول المثل الشعبي، ولكن لا ينبغي رغم هذا كله إضاعة الفرصة لأنه قد لا يعود قط ملك يأتي ويذهب.

هنالك إذن «دون أفونسو هنريكس» قادم، وزعماء الصليبيين– الذين أشرنا إليهم بالكامل، باستثناء من أغفلتهم المصادر– ينتظرونه مصطفين مع بعض رجالاتهم بينما كانت أغلبية الجيش قابعة في الأسطول منتظرة قرار هؤلاء الزعماء الذي سيحدد وجهتها ووجهتهم أيضاً. كان في صحبة الملك أسقف براغ «جواو بيكوليار»، وقسيس بورتو «بدرو بيتوئس»– وكلاهما ضليع في اللاتينية –، إضافة إلى جْمع من العقلاء يُكمل دائرة الحاشية الملكية: فرناو ميندث، فرناو كاتيبو، جونثالو رودريجيث، مارتيم

مونيث، بايو دلجادو، بييجاس (المسمى أيضاً بيرو باث)، جوثيلينو دي سوسا، جوثيلينو سوتيرو، ميندو أفونسو دي روفيوس، موثيو دي لاميجو، بدرو بلاخيو (أو بايس دي مايا)، جواو رائينهو (أو رانها)، فضلاً عن آخرين كانوا هناك ولم تُسجل أسماؤهم. بعد تبادل التحيات والفراغ من التقديمات التي أخذت وقتاً طويلاً، لأن كل فرد لا يقتصر على ذكر اسمه ولقبه بل يضيف إليهما أيضاً النعوت والألقاب السيادية، أعلن قسيس بورتو أن الملك سوف يُلقي على الحاضرين كلمة وأنه- أي القسيس- سيتولى الترجمة بأمانة، التزاماً بقسمه على ذلك بالقوانين الوضعية والسماوية. وفي هذه الأثناء ترجّل من كانوا فوق الجياد من على صهوات البغال، وصعد الملك إلى حجر ليكون أعلى من الجميع ولكي يتمكن أيضاً من الاستمتاع- من فوق رؤوس الصليبيين- برؤية المنظر الخلاّب للسان الرملي بكامل اتساعه، وبالبساتين المهجورة بعد تخريبها على أيدي البرتغاليين الذين سقطوا كالدواهي في اليومين السابقين على الفواكه والخضروات وقضوا عليها. في الأعالي تتراءى القلعة حيث يمكن تمييز أجساد مُصَغّرة تتحرك في شرفاتها، وإلى أسفل يمتد سور المدينة الذي يحتوي في هذه الجهة على بوّابتين: بوّابة «الفوفا» وبوّابة «فييرو» (أي الحديد)، المغلقتان بالترابيس والدعامات، وخلفهما يُستشعر عن بُعد قلق المسلمين وهم يهمهمون متسائلين عما سيسفر عنه كل هذا. النهر غاصّ بالسفن، وعلى التلّ المتاخم

ترفرف بفعل الريح الرايات والبيارق، مشهد بديع، بعض النيران مشتعلة، لا أحد يعلم لماذا لأن الجو حارّ والوقت ليس وقت طعام، يستمع المؤذن إلى شرح ابن أخت له ويطلّ الخوف برأسه مما هو أسوأ، والجملة الأخيرة هي إحدى أشكال التعبير الدّالة على أن الشيء السيئ مازال بالإمكان تحمله قدر الاستطاعة. رفع الملك صوته الجهوريّ قائلاً: «لقد سمعنا من موقعنا هنا، رغم أننا نعيش في مؤخرة العالم، بالمدائح التي تشيد بقوتكم ومهارتكم في استخدام السلاح، وما نراه الآن بأعيننا مما عليه بنيانكم من متانة يؤكد ما سمعناه، أما بالنسبة لمواهبكم في الحرب فيشهد بها سجل أعمالكم على الصعيدين: الدنيوي والديني. ونحن هنا نبذل قصارى جهدنا رغم ما نواجهه من صعوبات، سواء الناجمة عن هذه الأرض الناكرة للجميل أو من جرّاء خَوَر الروح البرتغالية التي مازالت في طَوْر التكوين، هذا بالإضافة إلى ابتلائنا بهؤلاء المسلمين محدودي الثراء إذا ما قُورنوا بأبناء جِلدتهم في غرناطة أو إشبيلية، ولذا يتحتم علينا استئصال شأفتهم إلى الأبد، وهنا تفرض نفسها قضية، أو إشكالية، أعرضها عليكم لسماع رأيكم فيها، فما يناسبنا في الواقع يتمثل في المساعدة شبه المجانية، بمعنى أننا نطمع في بقائكم معنا لفترة من أجل مدّ يد العون في مقابل أتعاب رمزية، وعندما ينتهي كل هذا تواصلون مسيرتكم إلى الأراضي المقدسة التي ستحصلون فيها على مكافأة مزدوجة: المكافأة العينية الضخمة لأن ثروات الأتراك

العظيمة لا تُقارن بالثروة الهزيلة لهؤلاء المسلمين، أما المكافأة الثانية فهي الأعظم قدراً لأنها تتعلق بالروحانيات التي ينهل منها المؤمن بلا حساب فوْر أن تطأ قدماه تلك الأرض، وأنت يا بدور بيتوئس انتبه لما تنقله عني لأنك تُدرك جيداً أن معرفتي للاتينية أكثر من كافية لتقييم ترجمتك، وأنتم، معاشر الصليبيين أرجو ألا يصيبكم الجزع من كلمة «الأتعاب الرمزية» التي وردت على لساني لأنها مجرد طريقة في الكلام، ما كنت أقصده هو أننا في أمسّ الحاجة- لكي نُؤَمّن مستقبل الوطن الوليد- إلى كل ثروات هذه المدينة، وهي بالمناسبة ليست عظيمة، وهنا يصدق المثل القائل- أو ما سيكون مثلاً ذات يوم- ما من مساعدة أفضل للفقير من تلك التي يتلقاها من فقير مثله، وعلى أي حال الكلام هو خير وسيلة للتفاهم، وبناءً عليه يجب عليكم إخبارنا بالمقابل الذي تريدونه ثمناً لهذه الخدمة، ونحن من جانبنا سننظر في الأمر، وإن كنت أنا المعني في النهاية باتخاذ القرار، وأنا لديّ من الدواعي والأسباب ما يجعلني أصرّح بأننا قادرون وحدنا- في حالة عدم التوصل إلى اتفاق- على هزيمة المسلمين والاستيلاء على المدينة، كما فعلنا منذ ثلاثة أشهر بشنترين التي اقتحمناها بسلّم نقّال وبضعة رجال، وبعد دخول الجيش أعملنا السيف في رقاب سكانها جميعاً، رجالاً كانوا أم نساءً وأطفالاً، دون تمييز بين الأعمار أو بين الأعزل ومن بيده سلاح، ولم ينجُ من المذبحة سوى من استطاعوا الفرار، وهم قليلون، وإذا كنا

قد فعلنا هذا بشنترين فنحن قادرون أيضاً على حصار لشبونة، وأنا لا أخبركم بهذا قاصداً ازدراء مساعدتكم بل لتعرفوا أننا لا تنقصنا أيضاً القوة أو الشجاعة، وفضلاً عما تقدم ذكره فإنني لم أخض حتى الآن في الأسباب الأخرى وهي أفضل بكثير من سابقتها وتتمثل في مساعدة سيدنا يسوع المسيح لنا، وشدّه لأزرنا، نحن معاشر البرتغاليين، اسكت يا أفونسو».

من غير المستبعد أن يتجرأ فرد من الحاشية أو الجمعْ الأجنبي ويأمر بإسكات الملك، متجهاً إليه باسمه مجرداً وكأنه شاركه ذات يوم قصعة الطعام، والأكثر احتمالاً أن يقوم هذا الشخص بترديد الأمر السابق بينه وبين نفسه، مثلما يتجه المرء- الذي اعتاد على الإنصات والتركيز فيما تحمله الكلمات من معانٍ- إلى نفسه قائلاً: أمسك عليك لسانك، رغم تحرقه لقول ما قرر الصمت عنه. ومع هذا يجب الأخذ في الاعتبار هنا أن حب الاستطلاع الأجنبي الرحيم قد يغير من التكتيك بحيث يكتفي في هذا المقام بمثل التعليق التالي: «حسناً، حسناً، هاتِ من الآخر، ولا تتركنا مُعَلَّقين هكذا»، وبالطبع فإن هذا التعليق يمكن أن يتم بطريقة أخرى تبعاً لطبيعة صاحب المداخلة والظروف والملابسات المحيطة به، وفي هذه الحالة يكون «جييرمو بيتيلو» (قبيح الوجه)- سواء كان سيفه طويلاً أم لا- هو الذي تجاسر في شيء من الفظاظة بالتشكيك في العبارة

ما قبل الأخيرة للملك قائلاً: «سيدنا يسوع المسيح يمد يد العون للمسيحيين جميعاً، دون تفرقة بينهم، لأنه لو تم تصنيف أتباعه على أساس أن البعض أبناء شرعيون والآخرون ربائب فلن تقوم للدين قائمة». وجّه بعض الصليبيين نظرة لوم إلى الواقف بأعلى الصخرة منفرداً، والسبب يرجع إلى مضمون الخطبة أكثر من شكلها اللغوي، فما تفوّه به الملك- إضافة إلى ما يحويه من بخل مذموم قد يفسد كل شيء- كان يحمل قدراً كبيراً من الغطرسة والخيلاء، بحيث بدا وكأنه صادر عن أسقف لاعن ملك بسيط يعوزه الحق حتى في استخدام هذا اللقب لأن البابا لم يكن قد خلعه عليه بعد وإنما تكرم عليه بلقب «دوق» فحسب منذ ثلاث سنوات. لم يستغرق الصمت سوى وقت قوله، لأن «دون أفونسو هنريكس» لم يعجبه سوء الظن وكان على وشك أن يفتح فمه- بكلمة بذيئة دون شك- لولا قيام صليبي أكثر دبلوماسية (ساهيرو دي أرشيلس).بمدّ جسور التصالح حين تدخل قائلاً: كيف نشكك في استيلاء البرتغاليين على شنترين بسلّم نقّال وبمساعدة الرب إذا كانت قدرته قد فعلت معكم أكثر من هذا حين سمحت بتهاوي أسوار «خيريكو» على قرعات بضع طبول، دون الحاجة لأن يقرعها سبعة محاربين إضافة إلى سبعة آخرين من القساوسة، ولا تدهشنا أيضاً المذبحة المشابهة التي جرت على أيديكم وطالت- فضلاً عن جميع سكان المدينة- الثيران والأغنام والحمير، لكن ما يدهشنا حقاً هو أن يقحم إنسان ما- حتى لو كان

ملكاً– اسم الرب في الموضوع، وقدرته كما نعرف جيداً تتجلى تبعاً لمشيئته هو، ولا تتوقف على الرجاء والتوسل والإلحاف في الطلب من جانبنا، أما بالنسبة لما يخص الأبناء والربائب فأنا أمسك لساني عن الكلام.

أُعجب دون أفونسو هنريكس– فضلاً عن إعجابه بالاقتباس من الإنجيل– بالنبرة المعتدلة التي تحدث بها «ساهيرو دي أرشيلس»، وإن كان مضمون حديثه رغم العناية بشكله اللغوي لا يخلو من ارتياب مثل كلام «جيبرمو» صاحب الرمح الطويل، وبعد نزوله (أي الملك) من على الصخرة للتشاور الذي استغرق عدّة دقائق مع أسقف براغ وقسيس بورتو، صعد إليها من جديد ليقول: «أتعرفون أن هذه الأرض البرتغالية التي قدمتم إليها، وبالتحديد جنوب المكان الذي تقفون عليه الآن، قد شهدت منذ ثمان سنوات فحسب معجزة ظهور سيدنا المسيح، وبما أنني لست يوسف وقومي ليسوا يهودا فقد كان ظهوره مختلفاً بالنسبة لنا، لأنه جاء لمقارعة أعداء أشد بأساً من هؤلاء الذين ترونهم يرتعدون فَرَقاً، وأنزل بهم هزيمة نكراء لا تقل عما حدث في «خيريكو» أو في مواقف أخرى مشابهة، ومادمنا قد استطعنا فعل هذا فمن غير المستبعد أن يعود «منقذ العالم» للظهور– لو أراد– أمام أسوار لشبونة، ولو حدث هذا فلن تكون لمهاراتنا القتالية أو مهاراتكم فائدة تُذكر لأننا لن نكون عندئذ سوى

شهود عيان على عظمة الرب وقدرته». وفي أثناء حديث الملك كان أسقف براغ وقسيس بورتو يؤمان برأسيهما في إشارة تعني الموافقة والاستحسان، وفور انتهائه من الخطبة التهبت أكفّهما بالتصفيق الحارّ الذي واكبه احتفال حماسيّ مماثل من قبل جميع البرتغاليين هناك. نظر الصليبيون إلى بعضهم بعضاً حائرين، غير قادرين على التعليق إلى أن أخذ الكلمة في النهاية «خيل دي روليم» ليقول: معكم الحق كله يا سيدي، لكننا لا نريد الآن معرفة ما سيفعله الرب، بل ما فعله في تلك الموقعة التي أشرتم إليها، ومن ثمّ نرجوكم أن تقصوا علينا أحداث هذا النصر المؤزر بالتفصيل المملّ لأن شغفنا بالاستماع إلى تلك الأحداث يعتبر بمثابة تعويض عن الرحلة الطويلة الشاقة التي عانينا منها للوصول إلى هذه الأرض، أرضكم التي مازالت أيضاً تحت أيدي المسلمين. تشاور الملك ثانية مع الأسقف والقسيس، وبعد اتفاق ثلاثتهم انبرى الملك قائلاً: «اسمعوا، إذن ...»

رنّ الهاتف. كان رايموندو سيلبا مركزاً بشدّة في الكتابة، وبما أن جرس الهاتف قديم ويزلزل رنينه أركان البيت فقد جعل الفزع المباغت يده تتحرك حركة لا إرادية عنيفة على الورقة وكأن العالم قد انزلق فجأة تحت سنّ القلم. رفع السماعة، سأل من المتحدث، وتعرف في الحال على صوت عاملة السويتش بدار النشر. سوف أوصلك بالدكتورة ماريا سارة– قالت. وفي أثناء انتظاره تحويل المكالمة نظر

إلى الساعة، تنقص عشر دقائق على تمام السادسة، «كيف مرّ الوقت بهذه السرعة»، لقد مضى الوقت– حقاً– بسرعة، لكن التفكير في هذا الأمر لم تكن له من فائدة سوى التدرّع بحماية مزعزعة تشبه ستارة دخان رقيقة سرعان ما تبعثرها الريح ثم تمحوها، لكنها كانت كافية للوقت الذي استغرقه رايموندو سيلبا في التفكير: «يا لسرعة فوات الزمن»، إنه الزمن الآخر، ذلك الذي اتجه نحوه فجأة وتوهّم تأخره، في وقفة مسنودة على ذبذبة، يبدو أن يده اليمنى الجاثمة على الورقة ترتجف رجفات خفيفة. عندئذ أعلنت عاملة السويتش بوضوح تام: الدكتورة ماريا سارة على الهاتف. كوّر رايموندو سيلبا قبضة يده، تعكر الزمن، تشوش، وبعد ذلك تمدد، ثم انساب أخيراً في تياره الطبيعي: مساء الخير يا سيد سيلبا. مساء الخير. كيف حالك. بخير، وكيف حال حضرتك. على ما يرام، شكراً، مازلت أعمل جاهدة في تنظيم العمل هنا، ولذا أود معرفة كيف تمضي مراجعة كتاب الشعر. لقد انتهيت من مراجعته حالاً، عملت فيه اليوم كله، سأحضره إلى دار النشر غداً. آه، قضيت فيه اليوم كله. ليس كله تماماً، لأني خصصت بضع سويعات لقراءة القصة التي أحضرها السيد كوستا من قبل. تُحسن إذن الاستفادة من وقتك. ليس لي من عمل آخر كي أستفيد بالوقت فيه. هذه الجملة مهمة للغاية. سوف تكون، لكنني قلتها دون قصد، نطقها لساني دون تفكير. من الواضح أن هذا يروقك. ماذا تقصدين بهذا. القول دون تفكير، والعمل دون

تفكير. أنا أعتبر نفسي رجلاً تأملياً، أعتقد أني هكذا، رجل ميّال إلى التأمل والتفكير. ومحكوم أيضاً بالشطحات. من فضلك يا سيدتي، إذا كنت سأظل أسمع على الدوام تلميحات إلى ما مضى فالأفضل لي البحث عن عمل في دار نشر أخرى. عفواً، لم أقصد مضايقتك، لن تخرج من فمي كلمة أخرى عن الموضوع بعد الآن. أشكرك. حسناً، أحضر لي غداً هذه البروفات، أما بالنسبة للقصة فإني آمل أن تحضرها أيضاً في القريب العاجل مادمت قادراً على قضاء اليوم كله في العمل. لن أتأخر، لا تشغلي بالك. أنا لا أشغل بالي يا سيد سيلبا لأني أعرف أنه يمكنني الاعتماد عليك. لم أخب قط ظن أحد جعلني موضع ثقته. لا تخب ظني إذن. لن أخيبه. إلى اللقاء غداً يا سيد سيلبا. إلى اللقاء يا دكتورة ماريا سارة. أنزلت يده السماعة ببطء، وبعد أن وضعتها ظلت إلى جوارها كأنها لا تريد فراقها أو لأنها مازالت تنتظر كلمة لم تُنطق. كان الأحرى بالسيد رايموندو سيلبا الانشغال بالأخريات، باللاتي تم نطقهن، وعلى سبيل المثال لا يخفي على لبيب أن الدكتورة ماريا سارة لم تصدق تصريحه الخاص بتمضيته اليوم كله في مراجعة كتاب الشعر، ولا حتى في إضافته المعقولة بتخصيص ساعتين لقراءة القصة، ولكن الدكتورة ماريا سارة لا يمكنها– وهذه النقطة في صالحه– معرفة كيف أمضى وقته في ذلك اليوم لأن ما ورد على لسانها كان محض تخمين، يندرج في نهاية المطاف تحت ما تتصف به النساء من سمات، إذ يعتقدن

أنهن عرّافات وكاهنات مدهشات، قادرات على النفاذ إلى المستور، بينما يتضح في النهاية أنهن واهمات ومخدوعات، مثلهن في هذا مثل الرجل الذي يصفنه- في سخرية وعطف شفيق- بالسذاجة والبلاهة. ما كان يعكر صفو رايموندو سيلبا بالفعل يتمثل في عبارة «لا تخب ظني إذن» التي نطقتها بجدية رغم أنها لم تضغط بشدة على النبرات، فهي بالتأكيد لم تكن تلمح بها إلى الكفاءة المهنية لشخص لم يرتكب طيلة حياته العملية- ومعذرة للتكرار لأن هذا مما يُنسى عادة- سوى خطأ واحد، تم تداركه والاعتراف به وقبول الاعتذار عنه، كما أنها لم تكن تقصد بها شيئاً يندرج تحت بند الحميمة لأن شكل العلاقة بينهما حتى تلك اللحظة لا يوحي به، لم يبق إذن سوى احتمال أخير- وهو الأقرب إلى الصواب- ألا وهو الإشارة بشكل غير مباشر إلى اقتراحها السابق بكتابة قصة جديدة لحصار لشبونة، وهو ما اضطُر فجأة وفي مواربة للكشف عنه، لا لأنه قد شرع فعلاً في كتابتها بل لأنه أجابها أيضاً وبجدية مماثلة: لن أخيبه، وفي تلك اللحظة لم يكن يعي ما ينطقه لسانه.

نظر رايموندو سيليا إلى الورقة، «اسمعوا، إذن»، أمسك بالقلم لإكمال الحكاية، تنّبه إلى أن ذهنه فارغ، صفحة بيضاء مرة أخرى، أو سوداء بالكلمات المتقاطعة والمتراكبة التي لا يمكن فك شفرتها. بعد الجملة التي نطقها «دون أفونسو هنريكس» (اسمعوا، إذن) لم

يكن أمام رايموندو سيلبا من خيار سوى حكاية معجزة «أوريكي» بكلماته هو، وفي هذه الحالة فإنه سوف يُدرج فيها بالتأكيد القسط المتوقع من الشك الفلسفي الحديث المسموح به من قِبل «أليكسندر هيركولانو»[1]، وسوف يُضفي على اللغة أيضاً بعضاً من الاسترسال والخفّة، ولكن دون تجاوز حدّ الاعتدال حتى لا يُتهم المصححون بالاعتياد على التجرؤ في مسائل تخضع في النهاية لحكم الرأي العام. لكن قوة الدفع عنده كانت قد تضعضعت، أو حلّت محلها أخرى، ربما تعود الدفعة في وقت لاحق، مع ساعات الليل، مثل إلهام جديد، وبدونه لا يمكن عمل شيء طبقاً لما يقوله أهل الاختصاص. سمع رايموندو سيلبا أن الأفضل في مثل هذه الحالة هو عدم الضغط على ما نسميه الطبيعة، أي تَرْك الجسد ينساق خلف تعب الروح، وألا يجعلهما يتصارعان حتى لو أسفر الصراع عن سيرة بطولية، وهذا رأي صائب، رغم عدم استحسانه من قِبل أولئك الذين يزعمون أن لديهم أفكاراً لما يجب على كل فرد منا عمله، في حين أن إرادتهم لا تنهض بهم لتطبيق هذه الأفكار على أنفسهم. يستمر الملك في تكرار إعلانه: «اسمعوا، إذن»، يتكرر الإعلان ويتكرر كالأسطوانة المشروخة والمنوّمة مغناطيسياً. يفرك رايموندو سيلبا عينيه المتعبتين، صفحة العقل بيضاء، مكتوبة من المنتصف، يتناول بيده اليمنى مدوّنة

(1) أليكسندر هيركولانو دي كاربايو (1810– 1877): شاعر وروائي، وأحد المنظِّرين للاتجاه الرومانسي، وصاحب المؤلف الضخم الذي يحمل عنوان «تاريخ البرتغال». (المترجم)

«دون أفونسو هنريكس» التي كتبها «فراي أنطونيو برنداو»، سوف تكون دليله الهادي عندما يعود- هذه الليلة أو غداً- إلى الكتابة، وبما أنه ليس قادراً الآن فسوف يقرأ ليكون على علم بالحدث الأسطوري الذي يحتل الفصل الثاني من المدوّنة. لم يكن ما يعوّل عليه الأمير المهموم «دون أفونسو هنريكس» في حربه الوشيكة ذا قيمة كبيرة بحيث يجعله مطمئناً، كما أن انشغال تفكيره بضخامة الحدث المقبل عليه لم يكن ليدعه يركن إلى الراحة والهدوء. وبينما هو على هذا الحال، ومن أجل التخفيف من وطأة هذا الهمّ على نفسه، مدّ يده إلى نسخة من الإنجيل المقدس كانت في خيمته، ثم فتحها بشكل عشوائي لكي يقرأ ما تيسر له منها فوقعت عيناه على خبر انتصار «جدعون»[1] (Gedeon)، القائد الشهير للشعب اليهودي الذي سحق بثلاثمائة جندي تحت إمرته جيوش الملوك الأربعة وقتل منهم مائة وعشرين ألف رجل، دون حساب كثيرين غيرهم قضوا نحبهم أيضاً في المعركة. ابتهج الأمير بهذه الصدفة السعيدة، واعتبرها بمثابة فأل حسن رسّخ لديه قراره السابق بخوض الحرب، ولهج لسانه- وهو متوهج القلب وناظراً نحو السماء- بذكر الكلمات التالية: «سيدي يسوع المسيح، تعلم جيداً أنني لم أشرع في خوض غمار هذه الحرب إلا في سبيلك ومن أجل تمجيد اسمك المقدس، ساعدني

(1) هو «جدعون بن يوآس الأبيعزرى»، وقد ألحق الهزيمة المشار إليها بالمديانيين وجيوشهم، ورغم أياديه البيضاء على بني إسرائيل إلا أنهم ألحقوا العار بأهل بيته بعد وفاته، وقصته مع بني إسرائيل موجودة في «سفر القضاة» (المترجم).

أيها القادر والقاهر، وشدّ أزر جنودي حتى ننتصر على من يكفرون باسمك المقدس». بعد فراغه من هذه الكلمات غشاه نعاس لطيف ورأى في المنام شيخاً وقوراً مهيب الطلّعة بشّره بالنصر بالمؤكد في تلك المعركة. وأخبره بحب الرب وتفضيله له، وأنه سوف ينعم عليه- كدليل على هذا الحب والإيثار- بالرؤية المباركة «لمنقذ العالم» قبل بدء المعركة. وفي أثناء استغراق الأمير في هذا الحلم السعيد دخل خيمته «جواو فرناندث دي سوسا» ليخبره بوصول رجل مسنّ يطلب المثول بين يديه ليطلعه على أمر بالغ الأهمية. أذن الأمير بإدخاله عليه لو كان مسيحياً، وحين رآه وعرف أنه نفس الشخص الذي شاهده منذ لحظات في المنام اطمأن قلبه وسكنت جوارحه. كرر الشيخ الطيب على مسامع الأمير الكلام الذي أسمعه إياه في المنام حيث بشّره بالنصر وبظهور المسيح له، وزاد عليه بأن طلب منه أن يضع ثقته الكاملة في الربّ لأنه يحبه، ومن دلائل هذا الحب أنه خصّ بعنايته ورحمته شخص الأمير وذريته وخَلَفه حتى الجيل السادس عشر الذي تضعف فيه وتخفت وشائج القُربى والنسب، ورغم هذا فإن الرب سوف يشمل هذا الجيل أيضاً بعنايته ورحمته. كما أعلمه بأنه يحمل إليه رسالة من الربّ تقول: عندما تستمع في الليلة القادمة إلى قرعات الجرس الصادرة من الصومعة التي يقطنها منذ ستين سنة- مشمولاً بالعناية الربانية- الشيخ الماثل أمامك، أترك خيمتك في الحال، واذهب إلى خارج المعسكر لأن الرب يريد أن

يريك عظمة رحمته. بعد سماع الأمير للرسالة العلوية أكرم وفادة الرسول، وشكر الرب بخشوع عميق، غادر الشيخ الطيب الخيمة عائداً إلى صومعته، أما الأمير فقد أنفق الوقت المتبقي على ظهور العلامة المرتقبة– ويمتد من ذلك الجزء من الليل حتى اللحظة الموعودة من الليلة التالية– في الصلوات الحارّة، وفور سماعه لقرعات الجرس سارع بالخروج من المعسكر مرتدياً درعه وحاملاً سيفه، وعندما رفع عينيه إلى السماء شاهد جهة الشرق هالة خلاّبة مضيئة أخذت تتمدد شيئاً فشيئاً حتى سدّت الأفق. وفي وسط الهالة رأى العلامة المبجلة للصليب المقدس، مُعَلَّقاً عليها «منقذ العالم» وحوله كوكبة ضخمة من الملائكة، في صورة غلمان رائعي الجمال يرتدون ثياباً ناصعة البياض، وتمكن الأمير من ملاحظة الضخامة غير العادية للصليب الذي كان يرتفع عن الأرض بمقدار عشرة أذرع. انبهر الأمير بالتجلّي الرائع، وسيطرت عليه الرهبة في حضرة «المنقذ»، واحتراماً منه للموقف نزع سلاحه وتجرد من حُلّته الملكية، ثم جثا على الأرض حافياً وأخذ يتوسل إلى الرب والدموع منهمرة من عينيه: «إلهي، ماذا وجدت في عاصٍ كثير الذنوب مثلي لكي تُنعم عليه بهذا الفضل العظيم، إذا كنت تفعله من أجل زيادة إيماني فلا حاجة لذلك لأنه منذ التعميد لا أعترف بسواك رباً حقيقياً، ابناً للبتول المقدسة وللأب السماوي الخالد. ليتك جعلت الكافرين يشاركونني هذه الرؤية حتى يتخلوا عن غيّهم ويؤمنوا بك». عندئذ

قال الرب بصوت ناعم عذب يمكن للأمير سماعه بوضوح: «أنا لم أظهر على هذه الكيفية بغرض زيادة إيمانك، بل لتقوية عزيمتك في هذه المهمة وتدشين أركان مملكتك الوليدة على دعائم راسخة. كن على ثقة من أنك لن تنتصر فحسب في هذه المعركة بل وفي كل المعارك التي ستخوضها ضد أعداء الدين الكاثوليكي. ستجد قومك سبّاقين إلى الحرب، وسيطلبون منك بحماس صادق خوض هذه المعركة وأنت تحمل لقب ملك، لا تتردد في القبول، وامتثل راضياً لطلبهم لأني أنا الذي أهب الإمبراطوريات وأمحوها من على ظهر المعمورة، وأنا أريد– من خلالك، أنت وجيلك الحالي– أن أنشئ لنفسي مملكة تجعل اسمي يتردد بعد ذلك بين أناس غرباء لا تعرفونهم إلى الآن. وحتى يعرف القادمون بعدك أنك أنت الذي صنعت هذه المملكة لهم فسوف تشتري سلاحك بالثمن الذي اشتريتُ به الجنس البشري، بذلك الثمن الذي باعني به اليهود، وسوف تظل هذه المملكة مقدسة وأثيرة لديّ لصفاء إيمانها وعمق تقواها».

حين سمع الأمير «دون أفونسو» الوعد الفريد جثا من جديد على الأرض وابتهل إلى الرب قائلاً: «إلهي، أنا لا أستحق هذا الفضل العظيم الذي أنعمت به عليّ، ومادمت قد منحتني إيّاه فإني أتوسل إليك بأن تحوط بعنايتك من يخلفونني، وأن تحفظ البرتغاليين من كل خطر، وإذا كنت قد قدّرت عليهم عقاباً ما في الأزل أطلب منك أن تنزله بي وبذريتي لا بهذا الشعب الذي أحبه كالابن الوحيد».

استجاب الرب لكل طلباته وأخبره أنه لن يحجب عنايته عنه ولا عن قومه لأنه اختارهم لنشر دينه في أقاليم منعزلة وبعيدة. وهنا انتهت الرؤية، وعاد الأمير «دون أفونسو» مبتهجاً قرير العين إلى المعسكر لكي ينزوى في خيمته.

أغلق رايموندو سيلبا الكتاب. كان يودّ متابعة القراءة رغم تعبه، وتتبع أحداث المعركة حتى نهايتها– أي هزيمة المسلمين–، ولكن «خيل دي روليم» أخذ الكلمة، متحدثاً باسم الصليبيين الموجودين هناك، وقال للملك إنهم بعد معرفتهم للمعجزة الخالدة التي جرت على يد الرب يسوع في أقاليم منعزلة وبعيدة أيضاً، جنوب «كاسترو بيردي»، في مكان يُدعى «أوريكي» بمحافظة «الينتيخو»، فإنهم سوف يحملون إليه ردهم صباح اليوم التالي. وبعد الفراغ من التحايا والمجاملات المعتادة، انسحبوا كذلك إلى مضاربهم.

* * *

نام الملك نوماً غير مريح، قلقاً ومتقطعاً، ثقيلاً وأسود كأنه لن يفيق منه قط، نوماً لا تتخلله أحلام ولا كوابيس ولا بشارة شيخ وقور بمعجزة حانية ولا صراخ امرأة عجوز طالبة منه الكفّ عن إيذائها لأنها أمه التي ولدته، ورغم هذا كان سواداً كثيفاً يغلف القلب ويعميه. كان يستيقظ ظمآناً فيطلب الماء الذي يشربه بنهم ثم يتجه إلى باب الخيمة ليرقب الليل، جزعاً لتأخر حركة الأفلاك. كان القمر بدراً، من تلك البدور التي يُحيل ضوؤها العالم إلى شبح تهمهم فيه الأشياء- حية كانت أم جماداً- بأسرارها المستورة الغامضة، كلٌّ بسرّه الخاص، ولذا لا نفهمها وينتابنا الضيق من البقاء في النهاية مذبذبين بين المعرفة التقريبية وعدم المعرفة. كان مصبّ النهر يلمع بين التلال، وتتلألأ المياه على صفحة النهر، والمشاعل الضخمة الموجودة على كل سفينة من السفن الصليبية كانت مثل لهب شاحب في الظلمة المنيرة. كان الملك يتنقل بنظره من جانب إلى آخر، متخيلاً الحال الذي عليه هؤلاء المسلمون وأولئك الفرنجة وهم ينظرون إلى

شُعلات المعسكر البرتغالي، تُرى، من منهم ينظر بخوف ومن ينظر بازدراء، في ماذا يفكرون، وما هي الخطط الحربية أو القرارات التي تخص هذا الجانب أو ذاك. كان الملك يعود للاستلقاء على سريره النقّال، المُغطى بجلد الدبّ المعهود، منتظراً قدوم النوم. تُسمع على مقربة أصوات وحفيف سلاح، وتتراقص الظلال في الخيمة على إيقاع هزّات القنديل المنير بداخلها، وبعد ذلك يدلف الملك إلى الصمت ثم إلى سواد لا نهائي ليستغرق في النوم.

مرّت الساعات، تابع القمر هبوطه حتى اختفى تماماً. عندئذٍ غطّت النجوم السماء كلها، متلألئة مثل انعكاسات البريق على الماء، وفاتحة فراغاً لطريق «شنت ياقب» (سنتياجو) الأبيض، بعد ذلك- كم من الوقت بعد ذلك- أخذ الضوء الأول للصباح ينفتح ببطء خلف المدينة، المعتمة من الجهة المعاكسة للضوء، ثم أخذت المسارج تخبو شيئاً فشيئاً، وعندما بزغت الشمس- اللامرئية حتى الآن من المكان الذي نحن فيه- سُمعت الأصوات المعتادة ترنّ بين التلال، إنها أصوات المؤذنين الذين ينادون للصلاة. المسيحيون أقل تبكيراً، لا يوجد حتى الآن أثر لحياة على السفن، ومازال المعسكر البرتغالي- باستثناء حراس الليل الذين يغالبون النعاس- يغط في نوم عميق، في السُّبات المتقطع بالشخير والتنهيدات والهمهمات ولا تتخلص منه الأجساد إلا بعد ذلك بكثير، بعد طلوع الشمس وارتفاعها،

لكي تنشط الأصوات من عقالها إيذاناً بالتثاؤب الصباحي المتثاقل والتمطي اللانهائي الذي يجعل العظام تقرقع، إنه يوم جديد، يوم من الأيام. تزداد الجذوات اشتعالاً، القدور على النيران، يقترب الرجال ومع كل واحد منهم صحفته، يأتي الحراس منهكين، ويجوس آخرون نُشطاء خلال المعسكر وهم يمضغون اللقيمات الأخيرة، وإلى جوار الخيام يتناول النبلاء في الوقت نفسه طعامهم الذي لا يختلف كثيراً مادام لا يحتوي على لحم. يغرف النبلاء في أطباق خشبية كبيرة، وإلى جوارهم رجال الدين الذين انتهوا من إقامة القُداس فور استيقاظهم، تتناثر التكهنات من الكل حول الرد المحتمل للصليبيين، يقول البعض إنهم سيشدون الرِّحال ما لم يتم إجزال العطاء لهم، ويقول آخرون إنهم قد يسعدون بخدمة الرب المشفوعة بمقابل رمزي. ينظرون إلى السفن البعيدة، يحاولون تفسير حركات بّحارتها، هل يناورون استعداداً للبقاء أم أنهم يخلخلون المراسي من أجل الرحيل، إنها محض تكهنات بغير أساس نابعة من شدة اللهفة، لأنه من غير المعقول أن تتحرك السفن قبل أن يأتي القادمون منها للرد على الملك، بل إنها قد لا تتحرك بعد تقديم الرد انتظاراً منها لحالة المدّ المواتية: إما لتثبيت المراسي أو للانطلاق نحو عرض البحر.

الملك ينتظر. يتململ على الكرسي الجالس عليه أمام الخيمة، إنه

في كامل عدته الحربية رغم رأسه المكشوف، لا ينطق بكلمة، ينظر وينتظر، ولا شيء أكثر. انتصف الصباح، الشمس عالية، يجري العرق بغزارة من تحت الدروع. الملك ثائر ومغتاظ ولكنه لا يظهر غيظه. أقاموا ظلّة فوقه كان النسيم يجعلها تقرقع بخفة على إيقاع قرقعة الراية الملكية. يسود الصمت، لكنه ليس مثل صمت الليل، ربما يكون أكثر قلقاً من الأخير لأن الحركة والضوضاء محلهما النهار، صمت متوجس يغطي المدينة والنهر والتلال المحيطة. بالطبع تغني زيزان البحر، لكنه غناء من عالم آخر، إنه صرير المنشار الذي ينشر قواعد عالمنا هذا. من فوق الأسوار، ومن بين الشرفات ينظر المسلمون أيضاً وينتظرون.

وأخيراً، هنالك قاربان يتحركان بين السفن الرئيسية الثلاث الرّاسيات عند مصبّ النهر، ومن كل سفينة ينزل أناس إلى القاربين، إنهما قادمان إلى هنا، تُسمع فوق صفحة الماء الملساء ضربات المجاديف وبربطة أطرافها، ينقص القليل لكي يصبح المشهد سيمفونية خالصة، سماء صافية زرقاء، قاربان يتقدمان على مهل، يحتاج المشهد لريشة فنان كي تسجل هذه الألوان الناعمة للطبيعة، المدينة المعتمة تتسلق التلّ، والقلعة هناك في الأعالي، أو– بتغيير وجهة النظر– المعسكر البرتغالي فوق قاع ذي جغرافية وعرة، وهاد ومنحدرات، حقول زيتون متناثرة، جُذامات محاصيل زراعية،

آثار نيران حديثة. لا يظهر الملك هناك، إنه محتجب في خيمته، لا يليق بشخصية ملكية- مثله- انتظار أحد، على عكس الصليبيين الذين سيتجمعون هناك للانتظار باحترام، وبعد ذلك سوف يخرج عليهم دون أفونسو هنريكس وهو مسلح من أعلى الرأس إلى القدمين لسماع الرد. تقترب ثلّة من المحاربين ذوي الشأن، من شهدوا اللقاء الأول مع الملك، إنهم قادمون بوجوه عابسة مستغلقة، نحن نعرف أنهم سيرفضون مساعدة البرتغاليين، ولكن هؤلاء مازالوا حتى الآن سادرين في جهالتهم البريئة، متمسكين بأهداب الأمل، أما ما لا يمكن تخيله فيتمثل في المبرر الذي سيقدمه الصليبيون للقرار الخطير، سيقدمون بالتأكيد مبرراً سوف يعرضهم لعَنَت تحمل الوصْم بالخفّة وقلة الاعتبار. يضم الوفد الصليبي كل من: خيل دي روليم، ليخيل، ليتشبرتس، الأخوان لاكورني، جوردان، آلاردو، وألماني لم يُذكر اسمه إلى الآن يُدعى إنريكي- من مواليد مدينة بون، وهو فارس ذائع الصيت يتسم بالطهارة والعفّة كما سيتضح فيما بعد-، ورجل دين إنجليزي شديد الورع يُدعى خيلبرتو، والمتحدث الرسمي للوفد «جييرمو بيتولو» (صاحب السيف الطويل أو الرمح الطويل)، فزع البرتغاليون وتوجسوا خيفة حين رأوا أن الأخير سيكون لسان الوفد، فهم يدركون جيداً أن الملك لا يستلطفه، توجد حالات كثيرة مثل هذه، فقد نشعر دون سبب بعدم استلطاف شخص ما بحيث لا يمكن بحال اقتلاع

هذا الإحساس غير المسبب: إنه لا يعجبني، لا يعجبني، وكفى.

خرج دون أفونسو هنريكس من خيمته بصحبة مستشاريه: «بدرو بتوئس» و«جواو بيكوليار»، وكان الأخير- بعد التشاور مع الملك- هو الذي أخذ الكلمة حيث قام بالترحيب (باللغة اللاتينية طبعاً، وإن كانت لا تختلف في السوء عن غيرها آنذاك) .بممثلي الصليبيين والتنويه إلى سعادة الملك بسماع الإجابة التي ستصب دون شك في مصلحة سيدنا الرب وفي تأكيد مجده على الأرض. الصيغة جيدة وإن كان حريّ بنا ترْك مسؤولية الاختيار لتقدير الرب ذاته مادمنا لا نستطيع- كما هو جليّ- معرفة ما هو الشيء الأكثر مناسبة له، وعلينا في النهاية الإذعان والتسليم لو كان اختياره سوف يتعارض مع مصالحنا، كما يجب ألا نسرف في المبالغة في السعادة لو كان سيؤدي- على العكس- إلى خدمة أهدافنا بشكل جيد. أما بالنسبة لفرضية تساوي الإيجاب والنفي أو الخير والشر لدى الرب، فإن عقولاً مثل عقولنا لا يمكنها استيعاب ذلك، لأن الرب بالنسبة لها يجب أن تكون له في النهاية فائدة ما. ولكن الوقت غير مناسب الآن للإبحار في منعطفات خطرة، لأن جيرمو (صاحب السيف الطويل، الذي يتصارع وضع جسده وإيماءاته مع مقامه الصغير) شرع في الكلام قائلاً: .بما إن ملك البرتغال يجيد الاستمتاع بالمعونة المجانية والفعّالة لسيدنا يسوع المسيح، وعلى

سبيل المثال ما حكاه عن المعجزة الخارقة التي جرت في أوريكي، فسوف يستاء الرب نفسه لو فكر الصليبيون– الموجودون هنا من أجل المرور فحسب– أن يحلوا محله في المعركة القادمة، ومن ثمّ فإنه ينصح– لو أرادوا قبول نصحه– بذهاب البرتغاليين وحدهم إلى المعركة ماداموا متأكدين من النصر، وسوف يشكر لهم الرب حسن صنيعهم لأنهم في هذه الحالة يكونون قد أعطوه الفرصة كاملة لإظهار قدرته في هذه كما أظهرها وسوف يظهرها في كل مرّة يكون مطلوباً فيها. ولما كان جييرمو بيتولو يتحدث بلغته الأم فقد سمعه البرتغاليون متظاهرين طوال الخطبة بالفهم، كما يحدث عادةً في مثل هذه المواقف، دون أن يدور بخلدهم أن كلامه يتعارض تماماً مع مصالحهم وأهدافهم، وهذا ما عرفوه في الدقيقة المشؤومة التالية حين ترجمه الراهب الذي كان مع صاحب السيف الطويل، ترجمة دقيقة قدر الإمكان ومخففة أيضاً لأن لسانه أحجم عن النطق ببعض الكلمات التي تحمل قدراً كبيراً من السخرية، وعن البعض الآخر الذي كان يحتاج لقراءة ثانية لما يحويه من إشارات يبدو أنها تحمل فرية الشك في القدرة الإلهية على القطع والشقّ، ومنح الانتصارات وحجبها، وجعل واحد يغلب مائة، الأمور تبدو صعبة لو كانت متعلقة بقتال مسيحيين لمسيحيين، أو مسلمين ضد مسلمين، وإن كان الأمر في الحالة الثانية يقع على عاتق إله المسلمين وهو المسؤول وحده عن فك طلاسمه.

سمع الملك في صمت، وفي صمت ظل ويده متشبثة بمقبض السيف المتدلي من على خاصرته اليمنى وطرفه تجاه الأرض، وكأن هذا هو وضعه الطبيعي والنهائي بالنسبة للأرض نفسها. كان «جواو بيكوليار»- المحمّر من الغضب- هو الذي نطلق بالجملة التي ينبغي أن تثير الخجل في نفس المُحَرِّض: لا داعي للتعريض بالرب سيدك، فهمنا جيداً ما ترمي إليه، فهمه الجميع حتى ضعاف العقيدة منهم، إنه ليس مجرد ازدراء من جانبك يا جييرمو بيتولو للبرتغاليين، بل إنه تكرار حرفي- رغم اختلاف الموقف والكلمات- للقصد الشائن للشيطان حين قال ليسوع ارم بنفسك إلى الوادي السحيق ولن يصيبك مكروه مادمت في كنف الملائكة ورعايتها، فما كان من يسوع إلا الرد عليه قائلاً: لا داعي للتعريض بالرب سيدك. كان من المفروض أن يعتري الخجل جييرمو من هذه الكلمات، لكنه لم يخجل، بل بدا وكأن ابتسامة ساخرة تتلوى في فمه. سأله عندئذٍ دون أفونسو هنريكس: هل هذا هو قرار الصليبيين. نعم، أجاب الآخر. ارحلوا إذن، ولتصحبكم عناية الرب حتى تدخلوا الأراضي المقدسة، وأتمنى- إن لم أكن أخدع نفسي- ألا تفتشوا عن مبرر آخر للفرار من المعركة هناك مثلما فعلتم هنا. في هذه اللحظة امتدت يد جييرمو إلى السيف الذي اشتهر به، وكان من الممكن أن يفضي الأمر إلى أشد النتائج شؤماً لو لم يَحُل زملاؤه بينه وبين ذلك، ولو لم تتدخل الكلمات- الأكثر فعالية من حركة الأجساد- التي نطقها

واحد منهم يُدعى خيلبرتو، إنه الوحيد من بين هذه الشرذمة- فضلاً عن المترجمين- الذي كان يستطيع استخدام اللاتينية بطلاقة، لكونه من رجالات الدين الأعلى مرتبة ولحمله شهادة الدراسات العليا في الإكليروس، هذه كانت كلماته: حقاً يا سيدي، لن يظل الصليبيون هنا كما أخبر للتوّ جيرمو بيتولو، وإن كان لم يُشر إلى الدافع المادي الذي كان وراء هذا الرفض، على أي حال هم وما يريدون، ورغم هذا فقد قرر البعض البقاء، إنهم موجودون هنا أمامكم: خيل دي روليم، ليخيل، ليتشيرتس، الأخوان لاكورني، جوردان، آلاردو، إنريكي، وشخصي المتواضع الأقل شأناً من الجميع، في خدمتك وطوْع أمرك. انشرح صدر دون أفونسو هنريكس وذهب عنه الغضب، تحلل من قيود البروتوكول واتجه نحو خيلبرتو معانقاً إياه، دون أن يلقي بالاً للشرير جيرمو، ثم قال بصوت مسموع: أعدك بأن تكون أول أسقف لمدينة لشبونة حين تصبح مسيحية، أما بالنسبة لكم أيها السادة الذين قررتم البقاء معي فأنا على يقين من أنكم لن تجدوا سبباً للشكوى من كرمي وشهامتي، وبعد نطقه لهذه الكلمات أدار ظهره ودخل خيمته. وهكذا تفرقت المياه، أي بقي جيرمو مخذولاً حتى أن راهبه قد ابتعد عنه بمقدار ثلاث خطوات فطنات، ناظراً في ارتياب مما إذا كانت هناك إشارة بقدم ماعز أو قرني تَيْس للإجهاز على المتجاسر، الذي أصبح الآن وحيداً ومهزوماً.

بالجمع بين ما تم كتابته وبين ما هو في المخيلة ولم يغادرها بعد يكون رايموندو سيلبا- بوصوله إلى هذا المنعطف الصعب- متقدماً في عمله، هذا إذا أخذنا في الاعتبار أنه- فضلاً عن الاعتراف أكثر من مرة بأنه ينقصه الإعداد في الأمور التي لا تندرج تحت مهمة مراجعة البروفات- رجل بطيء في الكتابة لعنايته المستمرة بالمسائل النحوية وعدم ميله إلى استخدام النعوت والاشتقاقات بكثرة ولتحريه الدقة في وضع النقاط والفواصل وعلامات الترقيم الأخرى في أماكنها المناسبة علماً بأن ما تمت قراءته هنا باسمه لا يخرج في نهاية المطاف عن كونه مجرد توليفة أو رواية حرّة لنص من المحتمل أنه لا يحوي سوى القليل من التشابه مع نصّه هذا الذي سيظل- كما نتوقع- محفوظاً حتى سطره الأخير وفي غير متناول المولعين بالقصة الجديدة التي شرع في كتابتها. ومن جهة أخرى، يكفي ملاحظة أن الرواية الجديدة التي بين أيدينا للأحداث تتألف حتى الآن من اثنتي عشرة صفحة مكثفة للغاية، ومن الواضح أن رايموندو سيلبا- الذي لا يمت لشخصية الكاتب بصلة، لا على مستوى الفضائل أو الدنايا- لا يستطيع في يوم ونصف كتابة كمّ كبير وشديد التنوع مثل هذا، ومن جهتنا فنحن لا نستطيع الخوض في مسألة جدارته الأدبية لأن المدوّن هنا تاريخ، أي علم، وهو يفتقد إلى الأهلية في هذا الخصوص. سوف نتذكر من جديد هذه الاحتراسات حتى تكون ماثلة أمامنا دوماً قناعة عدم الخلط بين ما هو ظاهر وبين ما هو كائن

يقيناً، وإن كنا نجهل في الوقت نفسه كيف أو لماذا نتشكك فيما كنا على يقين من أنه حقيقة، لأننا في النهاية لا نعلم إذا كان ما يظهر منها (أي الحقيقة) صائب ودقيق، أم أنه مجرد رواية (وجهة نظر) من بين أخريات، أم أنه الرواية الوحيدة المعلنة والشهيرة ولا شيء غيرها، والحالة الأخيرة هي الأسوأ من بين الجميع.

انتصف المساء، حان وقت الذهاب لمقابلة الدكتورة ماريا سارة التي تنتظر بروفات كتاب الشعر. الخادمة ترتب المطبخ أو تكوي الثياب، بالكاد يمكن ملاحظة ما تفعله، إنها كتومة في عملها، ومن المحتمل أنها تظن أن الكتابة أو مراجعة ما كُتب يندرجان تحت بند الطقوس الدينية، ورايموندو سيلبا، الذي لم يغادر مكتبه منذ الصباح، ذهب لسؤالها: «كيف حال الجو»، وبما إنه ليس لديه الكثير ليقوله فإنه ينتهز دائماً الفرص، أو يعمد إلى اختراعها، ومن ثمّ فقد اقترب– كالعادة– من النافذة، وكان لزاماً عليه القيام بهذا اليوم لأنه ليس مثل بقية الأيام، فمن دون شك قد سرى في المدينة نبأ انسحاب الصليبيين، لأن أعمال التجسس ليست حكراً على الحروب الحديثة، وتجيب السيدة ماريا: «إنه جيد»، وهذا التعبير المصطنع لا يعني سوى أنها لا تمطر، فنحن نقول عادة «إنه جيد، لكنه بارد» أو «إنه جيد، لكن الرياح نشطة» ولا نقول– ولن نقول– «إنه جيد، بيْد أنه ممطر». سوف يبحث رايموندو سيلبا عن

معلومات تكميلية: هل هنالك نذر بالمطر أو الرياح مثل يوم أمس، وما هي درجة الحرارة. يمكنه الخروج دونما دفاعات سوى المعتدل منها، المعطف جاف ومقبول الآن، لاسيما «بالكاتشيكولس» (Cachecoles) الخفيفة الملحقة به، خسارة أننا لا نستطيع تسميتها «ملحفة رقبة»، صحيح أن وقْع التسمية الأخيرة ليس جميلاً أيضاً، ولكنها في النهاية كلمات من هنا (برتغالية) وليست من الكلمات الفرنسية التي غزت أرجاء مملكة البرتغال لاسيما سواحل «الغرب». ذهب إلى المطبخ لتسليم السيدة ماريا أجرة الأسبوع، نظرت إلى النقود وتنهدت، كأن النقود تشرع في الطيران من بين يديها فور تلقيها، في البداية كان هذا يثير عصبية رايموندو سيلبا، إذ كان يتصور أنها تلجأ إلى تلك الإيماءة الموحشة تعبيراً عن تأففها من انخفاض الأجر، ولذا لم يسترح ويهنأ له بال حتى حصل على معلومات كافية عن المعدّل العام للأجور السائدة في الطبقة متوسطة الانخفاض التي ينتمي إليها، وخَلُص من تلك المعلومات إلى أنه يدفع الأجر المناسب والمعقول، ومع هذا رفع قيمة ما يدفعه- لعل وعسى- ولكنه لم يظفر في النهاية بالتخلص من التنهيدة.

تربط سكن رايموندو سيلبا بالمدينة المسيحية ثلاث طرق رئيسية: شارع «ميلاجرو دي سان أنطونيو» بتفريعاته الثلاث وهي «كالداس» و«مادالينا» و«لارجو دي روسا» الواقع على مشارف

«كوستا دي كاستيلو»، والطريق الأوسط البادئ من رصيف «سان أندريه» هو «تيريرينهو» وشارع «دوس كابابيروس» الذي يمكن أن يحمله- من خلال «لارجو دوس لويوس»- باتجاه «بوابات الشمس»، وأخيراً الطريق الأكثر شيوعاً والمتمثل في درجات سلم «سان كريسبن» التي سيهبطها ويصل بعد عدة دقائق إلى بوابة «فييرّو» (الحديد) حيث يمكنه أخذ الترام من هناك إلى «تشيادو» أو السير على قدميه حتى ميدان «فيجيرا»- كما هو الحال اليوم- لكي يستقل المترو. دار النشر ليست بعيدة عن شارع «دوكي دي لولي» لكنه لن يسلكه لشدة الزحام فيه وسوف يأخذ طريق شارع «ليبر دادي» الأطول منه، وسوف يسير- كما هي العادة- على رصيف الجانب الأيمن من الطريق لأن رصيف الجانب الآخر لم يعجبه قط دون أن يدري سبباً لذلك، ورغم أن انطباع الإعجاب أو الكدر لم يكن مستديماً (إذ كان يُعجب أحياناً بجانب، وأحياناً أخرى بالجانب المقابل) إلا أن الجانب الأيمن من الطريق هو الذي يحظى بالأفضلية في النهاية. قرر ذات يوم- متهماً نفسه بالهوس- القيام برصد اتساعات الرصيفين في مسافة معينة من المدينة، واكتشف- ويا للمفاجأة- أن رصيف الجانب الأيسر من الشارع هو الأكثر اتساعاً وراحة، ومع هذا كان يختار رصيف الجانب الأيمن للسير بينما ينظر بحسرة إلى الرصيف المقابل. وبالطبع فإنه لا يأخذ على محمل الجد مثل هذه الهواجس الهيّنة لأن اشتغاله بالتصحيح قد

عاد عليه بفائدة ما، لقد قال في حديث له منذ بضعة أيام مع مؤلف «قصة حصار لشبونة»: «إن المصححين شاهدوا أدباً كثيراً وحياة»، مع الأخذ في الاعتبار أن هؤلاء المصححين لم يعرفوا أو لم يريدوا تعلم ما يخص الأدب من الواقع الحياتي، بل إن الأدب هو الذي تكفل تقريباً بتعليمهم، لاسيما بالنسبة لما يتعلق بالهوس والوساوس. تفيد المعرفة العامة بعدم وجود «شخصيات» (فنية) طبيعية، لأنها لو كانت هكذا ستخرج عن كونها شخصيات، وأظن أن ما تقدم ذكره يعني أن رايموندو سيلبا قد اكتسب من الكتب التي راجعها بعض سمات، وأن هذه السمات قد ساهمت بمرور الوقت– وبالتعاون مع ما هو طبيعي فيه– في تشكيل هذا الكل المتماسك والمتناقض الذي اعتدنا تسميته «جبلّة». هو الآن على درجات سلم «سان كريسبن»، يحدق في الكلب الذي لا ينظر إليه، يمكن أن يتساءل شخص ما: ما هي الشخصية الفنية التي يشبهها في وقفته تلك، الكلب ليس ذئباً– للأسف– حتى يتسنى لنا تشبيهه بسان فرانثيسكو، وليس خنزيراً حتى يكون سان أنتون، ولا أسداً لكي يكون سان ماركوس، وليس ثوراً حتى يكون سان لوكاس، ولا سمكة حتى يكون شبيهاً بسان أنطونيو، ولا حَمَلاً لكي يكون سان خوان باوتيستا، ولا نسراً حتى يكون الإنجيليّ، إذ لا يكفي القول بإن الكلب هو أفضل صديق للإنسان لأن الأمر سينتهي به عندئذ– نظراً لما عليه العالم الآن– ليكون آخر الأصدقاء.

من مستلزمات الصداقة سدّ خُلّة الصديق- يحدّث رايموندو سيلبا نفسه بهذا وهو واقف أمام الحيوان الهزيل-، ولكن من الواضح أن أهالي منطقة «سان كريسبن» لا يحبون فصيلة ذوات النّاب، ربما لأنهم ينحدرون من المسلمين الكارهين للكلاب ومازالت هذه الكراهية مطمورة بدواخلهم إلى الآن، رغم أن هؤلاء وأولئك إخوان في الله. رفع الكلب- الذي لقي الهوان طيلة ثمانية قرون، سواء على صعيد النسب أو الموروثات الجينية- رأسه من بعيد لكي يشرع في العويل الطويل اليائس بصوت أجش مسموع، إن طلبه للطعام من خلال العويل أو بسط اليد إنما هو صدى للرفض النابع من الأعماق أكثر من كونه نابعاً من الهوان الذي يقاسيه في الظاهر. لا يرتبط رايموندو سيلبا بموعد محدد، لقد قالت له الدكتورة ماريا سارة «إلى اللقاء غداً» دون تحديد لساعة معينة، ورغم هذا فالوقت يتأخر، ما يزيد الطين بلّة هو عدم كفّ الكلب عن مواصلة مشواره: انتقل من العواء إلى البكاء (على عكس الإنسان الذي يبكي أولاً ثم يعوي)، ما يطلبه ويرجوه ويتوسل إليه- وكأن الشخص البسيط الماثل أمامه هو الرب ذاته- لا يزيد عن مجرد كِسْرة خبز جافة أو عظمة، إنهم يستخدمون حالياً صناديق قمامة صعبة الفتح أو الانقلاب، ومن هنا يتضح مدى شدة حاجة الكلب، يا إلهي. وبين خيار متابعة طريقه والندم على الإقدام على ذلك قرر رايموندو سيلبا الرجوع إلى البيت للبحث عن شيء لا يجرؤ الكلب الجائع على رفضه، ينظر إلى الساعة في

أثناء صعوده لدرجات السلم، الوقت يتأخر- كرر قوله السابق -، اقتحم الشقة على حين غرّة فأثار هلع الخادمة التي كانت منهمكة في مشاهدة التلفاز، ودون أن يلقي بالاً إلى هذا اتجه إلى المطبخ وأخذ يفتش بين الأدراج والأواني وفي داخل الثلاجة، لم تجرؤ السيدة ماريا على سؤاله «أتريد شيئاً» ولا حتى على إبداء دهشتها- وكأن هذا من حقها- من ضبطها متلبسة بالتكاسل عن القيام بالعمل المنوط بها، تحاول الآن إصلاح الخلل بإطفاء التلفاز والشروع في نقل قطع الأثاث من مكانها، مُحدثة جَلَبة توشي بالهمّة الزائدة، عبثاً ما تحاول إظهاره لأن رايموندو سيلبا لم يكن يكترث بالجرم الذي اقترفته نتيجة لانشغاله بفوات الوقت وبفكرة الإحسان إلى الكلب حين يضع أمامه الشيء الذي يفتش عنه ويقوم الآن بلفّه في وريقات صحيفة يومية: بقايا سجق وقطعة شحم خنزير وثلاث لقيمات جافة، من المؤسف عدم امتلاكه لعظْمة ضليعة تسيل غدد الكلب اللعابية وتقوي أسنانه. يُسمع صفْق الباب بشدة. يهبط رايموندو سيلبا الآن درجات السلّم، لاشك أن السيدة ماريا تطل الآن من النافذة، تعود بعد ذلك إلى الداخل وتفتح التلفاز من جديد، لقد أضاعت خمس دقائق من المسلسل، كفى الله القاعدين شر القادمين.

لم تكن قد صدرت عن الكلب حركة سوى تَرْكه لرأسه وخرطومه يقعان على الأرض. كانت أضلاعه البارزة تجعل فقرات

صُلْبه تهتز كالمصلوب، إنه لكلب شديد العَتَه لتمسكه بالعيش على سلم «سان كريسبن» حيث يتضور جوعاً، مستغنياً بهذا الشكل عن الخيرات العميمة في لشبونة وأوروبا وما دونهما من عوالم، ولكن هذا الحكم سطحي لأن الأمر لا يتعلق هنا بعناد من جانبه بل بحالة خجل واستحياء، وهي في حد ذاتها جديرة بالاحترام لأن المتجاسرين لا يتعرضون عادة لصعوبات، وعلى سبيل المثال لنا أن نتخيل ما سيحدث في روع هذا الكلب من زلزال لو اكتشف أن المائة وأربع وثلاثين درجة المعروفة للسلم قد أضيفت إليها فجأة درجة أخرى، إن هذا لم يحدث بالطبع وإنما هو محض افتراض، وما هو حجم التعاسة التي سيشعر بها الحيوان أمام هاوية مستحيلة الاجتياز، وعلينا أن نتذكر في هذا المقام ما تجشمه من عناء في يوم آخر عندما سار خلف هذا الرجل حتى بوّابة «فييرّو» دون طائل، من الأفضل عدم تكرار بعض الخبرات. من على بعد ثلاث خطوات يرى رايموندو سيلبا الكلب يقترب من الصحيفة المبسوطة على الأرض، يتردد الكلب ما بين النظر إليه تحسباً لركلة قدم محتملة وبين الاندفاع نحو الطعام الذي تتسبب رائحته في «كركبة» أمعائه بشدة، يغمر اللعاب أسنانه، أواه يا رب الكلاب، لم جعلت الحياة عسيرة على الكثيرين منّا، وهكذا نلقي دائماً على الأرباب تبعة ذنب ما، بينما نحن الذين يقومون باختراع وتصنيع كل شيء، بما فيه هذا الذنب وذنوب كثيرة غيره. أحس رايموندو سيلبا بخوف الكلب،

يبتعد، يتقدم الكلب على مهل، يهتز خرطومه من الجزع، وفجأة كان الطعام موجوداً ولم يعد له أثر، اختفى من جرّاء حركتين، يلعق اللسان الشاحب العريض الشحم الذي تشربته أوراق الصحيفة. يا له من مشهد بائس، هذا الذي يهديه القدر لعيني رايموندو سيلبا الذي لا يتذكر حالياً موعده مع الدكتورة ماريا سارة، ويجد نفسه فجأة مشابهاً للشخصية الخيالية التي غابت عنه سابقاً، شخصية «سان روكي» الذي مدّ له أحد الكلاب يد العون، كان زمناً يقابل فيه القديس المعروف بمعروف مثله، وهكذا لا يمكن دحض التأكيد القائل بأن كل شيء في الحياة له ما يقابله، حتى لو كان الوضع معكوساً، والأمر الأخير ينتمي لوجهة نظرنا بالطبع لأننا لا ندري شيئاً عن الكلاب، فما عساه أن يكون رايموندو سيلبا في نظر هذا الكلب، نقول نحن إنه كائن حي يحمل وجه إنسان، لكي تصبح مكتملة في النهاية السلسلة التي ذكرناها آنفاً عن الحيوانات المدرجة في سفر الرؤيا، ولكي يصبح رايموندو سيلبا أيضاً «سان ماتيو»– الناقص في تلك السلسلة–، أيستطيع تحمل هذا العبء الثقيل.

إن ثقل هذا العبء ليس كبيراً كما يتضح لنا من السرعة التي أخذ يهبط بها الدّرج حين تذكر موعده مع الدكتورة ماريا سارة. سيارة الأجرة وحدها هي التي ستجعله يصل في الوقت المناسب رغم أن الحياة لا تتحمل البذخ. ليتول أمر الكلب شيطان رجيم، لست

المسؤول عنه، من المؤكد أنه لم يكن ليذهب إلى البيت بحثاً عن طعام لو كانت الطالبة له على سلم «سان كريسبن» امرأة عجوزاً، ربما يفعل هذا مع امرأة عجوز، ولكنني أراهن على أنه لن يفعله مع رجل مسنّ، على أي حال من المهم معرفة أن الطيبة- مع قبول الزعم بأننا نتحدث عنها- تتنوع وتختلف تبعاً للظروف والملابسات والمزاج اللحظي، لأنها- رغم فارق المقارنة- مثل مطاط، تتسع وتنكمش بحيث تكون قادرة على الإحاطة بالإنسانية كلها أو الاقتصار على فرد واحد، كما أنها أيضاً أنانية لأن كرمها منعكس عليها، ورغم هذا كله فلا شك أنها فعل حسن يرطب الروح. ظل الحيوان في مكانه هناك، ممتناً، رغم أن الجراية لم تفده- نتيجة للجوع الشديد- إلا في تغطية الجير الموجود على أسنانه، يا له من حيوان مسكين، بل ويالها جميعاً من سلالة، باستثناء المحتجبين منها الذين لا ينزلون البتة إلى الشوارع، وإذا نزلوا تراهم مشدودين إلى مِقْود ومؤخراتهم مُغطاة بالحفاضات، إن هذا الكلب حرّ على الأقل، يستمتع بحرائر مثله، وإن كانت متعته محكوم عليها بالضآلة مادام مرتبطاً بدرجات سلم «سان كريسبن» ولا يغادرها. وعند هذا الحد أمسك رايموندو سيلبا عن المضي قدماً في تأملاته بينما تتهادى به سيارة الأجرة، وعندئذ لاحظ ضيقاً فجائياً يلمّ به، ليس جسمانياً، إنه أشبه بحالة من استيقظ بداخله شخص نائم زاعقاً لرؤية نفسه غارقاً في ظلمة سحيقة، ومن ثمّ فقد مهّد لإزالة الفزع بتكرار قوله السابق «مادام

مرتبطاً بدرجات سلم سان كريسبن ولا يغادرها))، عن من يتحدث- سأل، كانت سيارة الأجرة تخترق شارع ((دي براتا)) وهو بداخلها، إنه ينتمي أخيراً إلى مملكة الأسياد، لا إلى مملكة الكلاب، ويمكنه الذهاب إلى سلّم سان كريسبن وقتما يحب أو يشاء، كما هو واضح الآن، إنه ذاهب إلى دار النشر للتحدث مع الدكتورة ماريا سارة التي ترأس فريق المصححين كي يسلمها البروفات النهائية لكتاب الشعر، وبعد ذلك يمكنه أن يقرر عدم العودة الفورية إلى البيت، لقد انتهى من تصحيح كتاب، ورغم أن نحافته الشديدة لا ترقى به إلى الجرْم المعهود للكتاب إلا أنه سيفعل ما تعود عليه: تناول العشاء في مطعم ثم الذهاب إلى السينما، مع عدم استبعاد احتمال أن ما معه من نقود لا يكفي لبرنامج حافل، يحسب بينه وبين نفسه، عدّاد سيارة الأجرة، يحاول تذكر ما تحويه حافظته من نقود، وفي أثناء انهماكه في هذه العمليات الحسابية أدرك من فَوْره استحالة خروجه هذا المساء، لا يمكنه نسيان شروعه في كتاب جديد، كتاب لم يحضره كوستا، نظر إلى الساعة، إنها تقترب من الخامسة، تنطلق سيارة الأجرة في شارع ((دوكي دي لولي))، تتوقف عند إشارة مرور، تتقدم، هنا من فضلك، وعندما أخرج النقود لدفع الحساب تبين له- من خلال نظرة سريعة- أنها لا تكفي للذهاب إلى المطعم والسينما معاً، بل إلى مكان واحد منهما، ولكن المتعة لا تكتمل بأحدهما دون الآخر، سأتناول الطعام في البيت وأستمر في ذلك، وذلك يتمثل في ((قصة

حصار لشبونة»، قال هذا ذات مرة من قبل عندما كان يصحح كتاباً يحمل العنوان نفسه، في زمن البراءة.

المصعد ضيق وقديم، مناسب للعلاقات الحميمة لولا شفافية بابه وجانبيه، ورغم هذا كله يمكن (في المسافة الفاصلة بين بَسْطتين، ومع مراقبة جانبي السلّم الذي يصعد أحدهما من جهة بينما يهبط الآخر من الجهة الثانية) للأيدي أن تمتد، بل واختلاس قُبلة إذا اقتضت الحاجة. استخدم رايموندو سيلبا هذا القفص الميكانيكي طيلة سنوات عمله الكثيرة، أحياناً بمفرده وأحياناً أخرى في صحبة، ولم يحدث مطلقاً حتى اليوم– على ما يتذكر– أن هاجمته أفكار عكرة مثل هذه، لقد كان يفضل في البداية الصعود على السلّم، لفقدانه الصبر من تأخر المصعد، ولأنه أيضاً كان ما يزال يحس برشاقة في القدمين ونشاط في القلب، بوسعهما منافسة شباب هذه المكاتب كلها، بما فيها دار النشر، رغم أن متوسط الأعمار في الأخيرة ينزع دائماً نحو الكبر. المسافة قصيرة، طابقان فحسب، ولكن يجب ألا ننسى أن الطابق في المباني القديمة– مثل هذا المبنى– يزيد ارتفاعه عن طابقين في البنايات الحديثة (إن طوابق بيته العتيق بحي القلعة تشبه طوابق هذا المبنى)، وليس بغريب أن يتبع دائماً العالي الواطئ، ثم الواطئ العالي، وهكذا دواليك، من المحتمل أن يكون هذا هو أحد قوانين الحياة، فقد كان والدنا يبدو لنا أيضاً عملاقاً ذات يوم، في حين أننا

ننظر إليه الآن من فوق أكتافنا، ثم تبدأ حالته في التدهور سنة بعد أخرى، يا له من مسكين، ينبغي علينا الكفّ عن إصدار صوت حتى يتسنى للمسكين المعاناة في صمت. يبدو لرايموندو سيلبا عبثياً تذكره لوالده المتوفي في هذا المصعد، وفي الوقت الذي أخذت تتقافز عليه تلك الوساوس الجنسية، حقاً: إن من يفكر يعرف بالكاد ما يفكر فيه ولكنه لا يدري له سبباً، أعتقد أننا نزاول التفكير منذ ولادتنا ولا يمكننا الاهتداء إلى تفكيرنا الأول، هذا الذي جاءت بعده وحتى اليوم الأفكار الأخرى جميعها، وبناء على ما تقدم يمكن القول: إن السيرة الذاتية والنهائية لكل واحد منا تتمثل في إعادة نهر الأفكار إلى نبعه الأول، أما بالنسبة لاستبدال الحياة بأخرى فأظن أنه- لو كان من الممكن تكرار المشوار الذي قطعناه- يتمثل في الحيازة الفجائية لفكرة جديدة والسير خلفها، قد نصل عندئذ إلى اليوم الذي نحن فيه إذا لم نجعل الحياة الجديدة أشد قصراً لدى اختيارها- حتى لو لم تكن هذه الحياة هي حياة مصحح-، ونصعد في مصعد مختلف، ربما للحديث مع شخص آخر، وليس مع ماريا سارة. رايموندو سيلبا واقف الآن في نفس المكان الذي شاهد فيه المدير الأدبي هابطاً من المصعد برفقة الدكتورة ماريا سارة، نراه الآن ينظر إلى المكان الشاغر بازدراء صارم، كأنه يوبخ المرأة التي شهد المكان سلوكها المعيب، لأن هذه الأشياء- ولا داعي للسكوت- لا تحدث في مصعد، لا يجب أن تحدث فيه، أقول، رقم معرفتي التامة بأن هناك من يفعلها،

بل وما هو أسوأ منها. إنها مجرد مداعبة أيها المصحح، قبلة فحسب أيها المصحح. الأمر سواء، لقد تجاوزتما الحدّ، باسم حسدي الذي لا برء منه أدينكما. وقف رايموندو سيلبا وسط المصعد في السنتيمترات الأخيرة لارتقائه، الآخران لا مكان لهما، كان عليهما المغادرة، متواريين خجلاً لو كان للخجل وجود في هذا العالم، الأكثر احتمالاً أنهما يضحكان على الواعظ المنافق. إنهما بذيئان– قالت الدّاعرة.

النظر، الرؤية، وإنعام النظر، كلها أشكال مختلفة لاستخدام حاسة البصر، ولكل شكل منها كثافته الخاصة حتى لو كان انتكاساً، فهناك مثلاً النظر دون رؤية حين يكون المرء منكفئاً على ذاته، وهذا الوضع شائع في القصص القديمة، وهناك الرؤية دون دراية حين يكون الضغط شديداً على العينين نتيجة الإجهاد أو الضجر، أما إنعام النظر فهو الذي يمكن فحسب أن يصل إلى مرتبة الرؤية التامة، حيث يتم تركيز الانتباه في نقطة محددة أو نقاط متتالية، والأمر الأخير يحدث غالباً نتيجة القصد الإرادي وليس من جرّاء التداخل اللاإرادي للحواس الذي يتطلب فيه الشيء المرئي معاودة الرؤية من جديد، بالانتقال هكذا من حسّ إلى آخر، وبحجز وجرجرة النظرة كما لو كان ينبغي نسخ الصورة المرئية في مكانين مختلفين داخل العقل وبفارق زمني لا يتعدى جزءاً من الثانية، في البداية الإشارة البسيطة ثم الرسم الدقيق والتحديد الواضح، التحوّل الفوري من مقبض سميك من

نحاس أصفر لامع على باب معتم مطليّ إلى حضور مطلق. كثيراً ما انتظر رايموندو سيلبا أمام هذا الباب حتى يفتحوا له من الداخل، بضجيج طلقة القفل الإلكتروني، ولم يحدث قط قبل اليوم أن كان لديه مثل هذا الوعي الحاد- والمخيف تقريباً- بالنسبة لمادية الأشياء، يمكنه الآن استيعاب هذا الجِرْم الذي يمثله المقبض بمسطحه الضئيل اللامع، واختبار كثافته واختزانه ذهنياً وكأن حواسه جميعاً- لا النظر فحسب- قد شاركت في التدقيق والفحص. سُمعت القرقعة عندما قفزت «السوستة»، دفعت الأصابع الباب، يبدو الضوء شديداً بالداخل رغم أنه ليس هكذا، يحس رايموندو سيلبا وكأنه يطفو في فضاء بلا تخوم (مثل المشاهد الغاصّة بالوضوح التي نراها في الموضة الحالية لأفلام القوى الخارقة للطبيعة والكائنات القادمة من كواكب أخرى)، ينتظر صراخ عاملة السويتش من الرعب أو أن تخرّ مغشياً عليها حين تفطن لظهور ملامس محسوسة على جانبيها أو لتعرضها لإشعاع جمال علوي، ولكن عاملة السويتش التي تتضمن واجباتها- إضافة إلى التعامل مع مقابس ومفاتيح الجهاز الذي تجلس أمامه- فتح الباب والعناية بالقادمين، اقتصرت على عمل إشارة له بأصابعها حتى تنتهي من المكالمة، ثم قالت له بعد ذلك بالود المعتاد: أهلاً، يا سيد سيلبا. إنها تعرفه منذ سنوات طويلة، وكل مرة تراه فيها لا تجد فيه شيئاً مختلفاً عن المرة السابقة، ولو سألوها بعد لحظة كيف وجدت المصحح فسوف تجيب- وإن كان دون اقتناع

مؤكد –: لا أدري، ربما يكون عصبياً بعض الشيء. هذا ما ستقوله ولا شيء أكثر، وعندئذٍ إما أن تكون ملاحِظة غير جيدة أو يكون رايموندو سيلبا قد عاد إلى هيئته الطبيعية، إذ لا يمكن من الظاهر اكتشاف ما يحدث بالداخل حتى مع إنعام النظر. أريد التحدث مع الدكتورة ماريا سارة– قال، ترد عليه عاملة السويتش (التي تُدعى أيضاً سارة ولكن بدون ماريا، ورغم هذا فهي جدّ فخورة بنصف التطابق هذا): الدكتورة ماريا سارة في مكتب الدكتور (والدكتور هو المدير الأدبي)، فيقول لها رايموندو سيلبا وهو أكثر تجهماً من المعتاد: اسألي إن كان من الممكن أن تستقبله أم أنها تفضل أن يترك لها بروفات كتاب الشعر هنا. تستمع سارة لما تقوله لها الدكتورة ماريا سارة، تومىء برأسها علامة على الموافقة، الحوار قصير، يلاحظ رايموندو سيلبا ببقية من نظرة مكثفة– رغم الخيال الشاحب لمن كان على الجانب الآخر من الباب– الشعر الأشقر لعاملة السويتش الذي يشبه لون التبن، شعرة شعرة، لا يمكن لعاملة السويتش التكهن بما في هذه النظرة من توحش، والتوحش هنا من قبيل المبالغة في التعبير لأن الرجل لا يُضمر شراً بالمرأة، إنهما عيناه غير المسؤولتين، أما هو فينتظر فحسب ما ينبغي عليه القيام به، لقد أتى من بعيد وعلى جناح السرعة، ولا يدري إن كان عليه في نهاية المطاف ترك البروفات على طاولة المدخل مثل أي «ساعٍ» أحضر مكتوباً لا ينتظر الرد. تطلب منك الدكتورة ماريا سارة انتظارها في المكتب– رفعت عاملة

السويتش رأسها مبتسمة. شكراً ساريتا[1]. ينادونها دائماً بساريتا، ظلت هكذا رغم أنها تزوجت وترملت، يوجد أناس محظوظون، نساء بالطبع، فالرجال عامة لم يسعدوا بكونهم أطفالاً سوى وقت قصير، ومنهم من لم يحظ بكونه طفلاً على الإطلاق، ومنهم من ظل طفلاً على الدوام ولكنهم لا يجرؤون على الاعتراف بهذا.

لم يطل برايموندو سيلبا الانتظار، ثلاث أو أربع دقائق، وربما أقل. ظل واقفاً على قدميه، ينظر بانطباع من يدخل المكان لأول مرة، وهذا ليس بغريب لأن ذاكرته لا تحتفظ بأية ذكرى عن هذا المكتب، من المحتمل أن يكون انشغاله بالأمور الإدارية قد طغى على التغييرات التي طرأت مؤخراً على المكتب، ومن جهة أخرى فلم يكن قد بقي في ذاكرته أيضاً– يعي هذا الآن متعجباً– صور من الماضي حين تم استدعاؤه من قِبَل الدكتورة ماريا سارة، فهو لا يتذكر مثلاً هل كان موجود وقتها على المنضدة تلك الزهرية وبها وردة بيضاء، وعلى الحائط جدول بأسماء المصححين حيث يمكنه رؤية وقراءة اسمه في صدر الجدول، وتحته باقي الأسماء التي تعمل في الدار، وكلها مختصرة في علامات ملونة، الجدول عبارة عن بيان تنظيمي بسيط، أو إن شئت خريطة لمدينة المصححين، إنهم ستة فحسب. يمكن أن نتخيلهم جميعاً في مواقعهم بالمدينة

(1) ساريتا: تصغير للاسم العلم «سارة». (المترجم).

(في كاستيلو، في أبينيداس نويياس، ربما في ألمادا أو في أمادورا، في كامبو دي أوريكي أو جارثا) منكفئين على بروفات كتاب، يقرأون ويصححون، والدكتورة ماريا سارة تفكر فيهم، تغير تاريخاً أو لوناً أخضر بأزرق، وبعد قليل لن تعطي أهمية للأسماء بل ستكون بالنسبة لها مجرد رسومات بقلم توعز بأفكار ومقاربات وتأملات، ورغم هذا فكل اسم من هذه الأسماء مازال يمثل لها معلومة واجبة الاستيعاب، رايموندو سيلبا يحتل السطر الأول، ثم تأتي ريتا باييس، ثم رودلفو خابيير، وبما أن الأمر يتعلق ببيان تنظيمي فقد كان من المنطقي والطبيعي ترتيب هذه الأسماء ترتيباً أبجدياً، ولكنها ليست كذلك، لا يا سيدي، رايموندو سيلبا يأتي في المقدمة، وتفسير هذا سهل للغاية: ربما لأنه كان يمثل الهمّ الأكبر للدكتورة ساعة تصميم هذا البيان.

دخلت قائلة: معذرة لأني جعلتك تنتظر. أفزعت الكلمات وضجيج الباب رايموندو سيلبا الذي كان معطياً ظهره، يستدير الآن على عجل: لا أهمية لذلك– يجيب– أتيت فحسب... لم يكمل الجملة، وكأن هذا الوجه يراه لأول مرة أيضاً، لقد فكر مراراً خلال هذه الأيام في الدكتورة ماريا سارة، وفي النهاية لم تكن مطابقة لأية صورة مما وردن على ذهنه، الاسم فحسب شغل كل المساحة المتاحة من الذكرى، طغى بالتدريج على مكان الشعر والعينين والملامح وإيماءات اليدين، كان يمكنه فحسب التعرف من بعيد على نعومة

الحرير، لا لأنه لمسه من قبل- كما نعرف-، أو لأنه- وينبغي إيضاح هذا أيضاً- قد استعان بأحاسيس لكي يتخيل بطريقة مَرَضية ما يمكن أن يكون عليه الحرير، قد يبدو ضرباً من المحال لو صرحنا قائلين بأن رايموندو سيلبا كان يعرف كل شيء عن هذا الحرير رغم اختلاف لونه الحالي عن ذي قبل: اللمعان والحركة البيضاء للقماش وتموّجات الثنيّات المتراقصة كالرمال، كما أنه كان يراها أيضاً طافية على ضباب الذكرى، ولولا نقص الاحترام لقلنا مثل النشيد الوطني. أحضرت البروفات حسب الاتفاق- قال رايموندو سيلبا. تلقتها الدكتورة ماريا سارة ساهمة، إنها جالسة الآن أمام الطاولة، دعت المصحح للجلوس، ولكنه أجاب: لا داعي لذلك، ثم انحرف بصره تجاه الوردة البيضاء، شديدة القرب منه إلى الحد الذي يمكنه من رؤية قلبها الناعم، ولما كانت الكلمة تستدعي أخرى نقول إنه يتذكر الآن بيتاً من الشعر راجعه في الماضي، بيتاً يتحدث عن الحفيف الداخلي الذي يجعل الورود تتفتح، بدا له القول جميلاً، وشطحة من الشطحات التي يمكن أن ترد حتى على بال شعراء متواضعين. الحفيف الداخلي الذي يجعل الورود تتفتح- كرر بينه وبين نفسه-، وسمع- رغم بُعد هذا عن التصديق- الاحتكاك فائق الوصف للبتلات (النّوْريات)، أم أنه كان احتكاك كُمّ القميص بمنحنى النهد، رحماك يا إلهي بالرجال الذين يعيشون على التخيّل.

قالت الدكتورة ماريا سارة «حسناً». نطقت بهذه الكلمة فحسب، ورايموندو سيلبا الذي يستوعب جيداً حتى معاني أنصاف الكلمات فهم أن لا عمل له هناك، لقد أتى من أجل تسليم البروفات وها هو قد فعل، لم يبق له سوى نطق تحية الوداع «عمت مساء» أو السؤال «تريدين شيئاً مني»، وهو سؤال شائع يفيد عادة في الإعراب عن تواضع المرؤوس أو التعبير عن تململ مكظوم، ولكنه يمكن أن يتحول في الحالة الراهنة وباستخدام النبرة المناسبة إلى تلميح حاد، ما يثير الأسف هو استماع المتلقي لهذه الجملة الاستفهامية دون الانتباه في معظم الأحيان إلى مغزاها، يكفي أن يكون منهمكاً بتركيز حِرَفي في تصفح بروفات عمل أدبي يتطلب– لاسيما إذا كان متعلقاً بالشعر– المزيد من العناية. لا، لا أريد شيئاً– أجابت ثم هبّت واقفة. كان في تلك اللحظة عندما قام رايموندو سيلبا– دونما تفكير أو وعي بالفعل ونتائجه– بلمس الوردة البيضاء بإصبعين من يده، نظرت إليه الدكتورة ماريا سارة مذهولة (لن تكون أشد ذهولاً مما هي عليه الآن لو أنه استخرج هذه الوردة من الخواء المطلق أو أتى بمعجزة مماثلة)، وفي كل الأحوال لم يكن من المنتظر أن تضطرب هكذا امرأة شديدة الاعتداد بالنفس حتى يغطي الخجل وجهها، استغرق هذا ثانية واحدة ولكنها كانت مفعمة بالتوهج، من الغريب حقاً أن يخجل امرؤ هكذا في زماننا الحالي، إلى ماذا ذهب تفكيرها– لو أنها فكرت فعلاً في شيء–، كأن الرجل بلمسه للوردة

قد أيقظ في المرأة إحساساً دفيناً، من أحاسيس الروح لا الجسد بالطبع. ولكن الأكثر غرابة أن يحمر رايموندو سيلبا خجلاً هو الآخر، وأن يستمر خجله وقتاً أطول، بالتأكيد لإحساسه بالخزي. « يا للخجل»- قال أو سيقول لنفسه-، إن المنقذ في مواقف مثل هذه وحين تنقص الشجاعة (ولا داعي للسؤال: شجاعة من أجل ماذا) يتمثل في اللجوء إلى الهرب، فغريزة صيانة ماء الوجه هي خير ناصح، ولكن الأسوأ يأتي فيما بعد حين نخلو إلى أنفسنا مكررين الكلمة الرهيبة «يا للخجل». لقد مررنا جميعاً بمواقف مرعبة مثل هذه وتصدينا لها بتسديد اللكمات إلى الوسادة من جرّاء الغضب أو الازدراء قائلين «كيف أمكنني أن أكون شديد الحمق هكذا» دون أن ندري بماذا نجيب، وتعذر الإجابة قد يكون راجعاً إلى ضرورة أن يكون الواحد منا حاد الذكاء لكي يستطيع تبرير حماقته، لحسن الحظ أننا نكون متدرعين ساعتها بحماية ظلمة الغرفة حيث لا يرانا أحد. استدار رايموندو سيلبا بغتة وفي مخيلته فكرة مبهمة عن فقدانه لكل شيء في حياته وعن عدم عودته مطلقاً إلى هذه الدار. «غير معقول، غير معقول» كان يكرر في صمت وبدا له أنه كرره آلاف المرات في أثناء هروبه باتجاه الباب. «بعد ثانيتين فحسب سأكون في الخارج، بعيداً» وبينما هو في هذا أوقفه صوت ماريا سارة، هادئة على غير المتوقع وفي تناقض واضح مع ما يجري هاهنا، كأن معاني الكلمات قد تلاشت في الهواء ولا وجود لما يُشين، تصور رايموندو

سيلبا أنه لم يفهم جيداً، ولكن لم يكن أمامه من سبيل سوى الجزم بأنها قالت بالفعل: «سوف أخرج بعد تسوية أمر في الإدارة الأدبية لن يستغرق أكثر من خمس دقائق، سوف أمتطي سائقة لتوصيلك، إن شئت». كان يبحث يائساً عن التظاهر بالطبيعية بينما يده متشبثة بمقبض الباب، وفي أثناء معاناته تلك كان جزء منه يأمره بالفرار قائلاً «اذهب» بينما ينظر إليه الجزء الآخر مثل قاضٍ يصدر حكمه القاطع «لن تتاح لك فرصة أخرى». لم يعد للخجل والمفاجآت من معنى مقارنة بالخطوة الإيجابية التي أقدمت عليها ماريا سارة، ولكن في أيّ اتجاه، في أيّ اتجاه يا إلهي. من ماذا نكون مصنوعين نحن بني البشر، ومناسبة السؤال السابق تكمن فيما يلي: فرايموندو سيلبا رغم ما يضطرم به الموقف من تقاطع وبلبلة أحاسيس مازالت روحه تحتفظ بشيء من برودة تجعله يرصد الغضب الذي اعتراه من جرّاء قولها «سوف أمتطي سائقة لتوصيلك» لما فيه من سوقية وعدم مناسبة للمقام، فكلمة يمتطي تناسب دابة لا سيارة، كان بإمكانها القول «سأحملك إلى حيث تريد»، ولكن من المحتمل أن الجملة الأخيرة لم ترد بخاطرها أو أنها ارتأت ضرورة تفادي ما تحمله الجملة من إبهام: «سأحملك إلى حيث تريد، أم إلى حيث أريد أنا»[1]، حقاً: إن الأسلوب الراقي لا يؤدي عادة المعنى الذي نكون في أشد الاحتياج

(1) الجملة المدوّنة هنا بالإسبانية الفصحى تحمل هذا الإبهام، أي تفيد المعنيين. (المترجم).

إليه. استطاع رايموندو سيلبا التخلص من مقبض الباب والوقوف ثابتاً بلا حراك (وتعتبر الملاحظة الأخيرة سقيمة لو لم تكن تعبيراً عن سخرية مألوفة نسوقها هنا انتظاراً منا لإجابته)، «شكراً، ولكنني لا أريد جعلك تنحرفين عن طريقك» (من المناسب جداً القول هنا بأن هذه العبارة كانت تتطلب التعديل أيضاً، وأنه لم يبق للمصحح المنحوس بعدها سوى عضّ اللسان لو كانت المعاناة المتأخرة ستفيده في شيء)، لحسن الحظ أن ماريا سارة لم تفطن إلى مغزى العبارة أو أنها تظاهرت بعدم فهمها نظراً لمعناها المزدوج، على الأقل لم يتلجلج صوتها حين قالت «لن أتأخر، اجلس»، وهو يبذل قصارى جهده حتى لا يتلجلج صوته حين يجيب «لا داعي لذلك، أحب الوقوف»، وبالرغم من أن معاني كلماته تميل أكثر إلى رفض العرض نجده قد وافق. تخرج، تعود قبل مضي خمس دقائق، الوقت الذي يُنتظر فيه استعادتهما معاً للإيقاع الطبيعي للتنفس والنبض وتقييم المسافات، ولن يكون هذا بالشيء الهيّن بعد مسايفة بالغة الخطورة. ينظر رايموندو سيلبا إلى الوردة، ليس الآدميون وحدهم الذين لا يعرفون لماذا أتوا إلى هذه الحياة.

ربما يأتي اليوم الذي تستحضر فيه الذاكرة هذه الأمسية الباردة والصافية قائلة: أتذكر الصمت الذي كان مخيماً في البداية داخل السيارة، ثم الكلمات الصعبة، ثم النظرة المتوترة المترقبة والرفض والإلحاف. «أنزليني في بايكسا من فضلك، سأستقل الترام». «هذا

لن يكون، سأحملك حتى البيت، لن يكلفني شيئاً». «ولكنك ستخرجين بهذا الشكل عن طريقك». «أنا، لا، السيارة...». «من المتعذر الصعود إلى حيث أسكن». «تحت سفح القلعة». «تعرفين». «في شارع ميلاجرو دي سان أنطونيو، أعرفه من بياناتك الشخصية». بعد قليل من الارتياح المذبذب، روح وجسد نصف متفاهمين، ولكن الكلمات مازالت تخرج بحذر حتى الآن إلى أن جاءت اللحظة التي قالت فيها ماريا سارة «نحن في المدينة المسلمة، كما ترى»، ورايموندو سيلبا متظاهراً بعدم فهمه للمقصود «نعم، نحن فيها الآن»، في محاولة منه لتغيير مجرى الحديث، ولكنها تقول «أفكر أحياناً في ذلك الماضي الغابر، كيف كانت الحياة والبيوت والناس»، وهو صامت، متمادٍ الآن في الصمت، ينتابه إحساس بالكراهية نحوها مثل كراهية غازٍ، إلى أن يقول «سوف أنزل هنا، أنا قريب من المنزل»، ولكنها لم تتوقف ولم تجب، ليقضيا بقية الطريق هكذا: صامتين. عندما توقفت السيارة أمام الباب اعتقد رايموندو سيلبا– رغم عدم تأكده من صواب هذا التصرف– أن الواجب يقتضي دعوتها إلى الصعود، وسرعان ما اعتراه الندم «هذا غير لائق– قال لنفسه– ولا ينبغي نسيان أنني أحد مرؤوسيها»، كان عندئذ عندما قالت «يوماً آخر، أما الآن فالوقت متأخر». سوف يدور نقاش مطوّل حول هذه الجملة التاريخية، لأن رايموندو سيلبا قادر على الزعم بل وعلى الحلف أيضاً بأن الكلمات التي قيلت

آنذاك كانت مغايرة، ولا تقل عنها تاريخية. ولكن وقت هذا لم يحن بعد.

* * *

في الأيام الأخيرة، لابد أن يستفيق المؤذن من نومه حتى لو كان ثقيلاً، مادام لا يستطيع إخماد حفيف مدينة كاملة تعيش في حالة ترقب، ما بين أناس مسلحين يصعدون إلى الأبراج والدروب، وجموع متحلقة في الطرقات والأسواق لا تكف عن الكلام متسائلة إذا كان الفرنجة سيتحالفون مع الجليقيين. إنهم خائفون دون شك على أرواحهم وممتلكاتهم، وإن كان الأشد كرْباً منهم هم أولئك الذين اضطروا إلى ترك بيوتهم التي كانوا يعيشون فيها خارج الأسوار ومازالت القوات تدافع عنها حتى الآن، ولكنها ستكون لا محالة– لو أراد الله، سبحانه– مسرحاً للصدامات الأولى، وحتى لو انتصرت لشبونة على الغزاة فإنه لن يبقى من الرّبض[1] سوى الأطلال. من أعلى المئذنة أطلق المؤذن– مثل كل يوم– صوته الجهوري، متيقناً من أنه لن يوقظ أحداً، فالنائمون على أكثر تقدير هم الأطفال الأبرياء، وقبل أن يتلاشى الصدى الأخير للنداء على

(1) الرّبض: الحي الواقع خارج الكتلة السكنية للمدينة أو خارج أسوارها. (المترجم).

الصلاة سُمعت- على خلاف العادة- همهمة المدينة وهي منخرطة في الدعاء. بالتأكيد سوف يستيقظ في حالة يُرثى لها من لم يزر النوم جفنيه سوى وقت قصير. يرتدي الصباح حلّة يوليو الجميلة، بنسماته الوادعة الرقيقة، ولو صدقت الخبرة سيكون الجو حاراً اليوم. وبينما كان المؤذن يتأهب للنزول بعد فراغه من الأذان، ارتفعت من تحت فجأة ضجة عارمة متداخلة الأصوات جعلت المؤذن يرتعد فَرَقاً، إذ ظن لبرهة أن البرج يتهاوى ثم- في الوهلة الثانية- بأن المسيحيين الملاعين يهاجمون الأسوار، بَيْد أنه أدرك في النهاية أن الصيحات التي تزلزل أركان المدينة وتتجمع فوقها مثل إشراقة مضيئة إنما هي صيحات فرح، يمكنه الآن الادعاء بمعرفته للضوء، لو كان للضوء في عينيّ من يُبصر ذلك الأثر الذي تحدثه في مسمعيه تلك الأصوات المبتهجة. ولكن ما هو الداعي. ربما يكون الله قد استجاب لدعوات الشعب الحارّة وأرسل ملكي القبر (مُنكر ونكير) لاستئصال شأفة المسيحيين، وربما يكون قد سلط عليهم شواظ الجحيم التي لا تخمد، وربما يكون المدد أرضياً بشرياً ويكون ملك «يابُرة» (Evora) قد علم بالخطر المحدق بإخوانه في لشبونة فأرسل إليهم رسولاً من لَدُنه ومعه كتاب يقول: «اثبتوا في مواقعكم أمام الأشرار، فقواتي المؤلفة من التاجيين البواسل في الطريق إليكم»، ونحن نطلق عليهم هذه التسمية لأنهم قادمون من الجانب الآخر لنهر التاجُه، ولكي نثبت، من جهة أخرى، أن التاجيين كانوا موجودين قبل أن

يُوجد برتغاليون. ورغم المخاطرة بطحن السلم الحلزوني الضيق لعظامه الهشة، هبط المؤذن مسرعاً على درجاته، وفور وصوله إلى أسفل يُسقطه الدُّوار (إنه مسنّ مسكين، يريد- كما يبدو- أن يواريه التراب مرة أخرى، والتخيل الأخير من جانبنا مستقى من نماذج سابقة) بينما يسأل الظلام المحيط به: ماذا حدث، أخبروني ماذا حدث. انشقت الأرض في اللحظة التالية عن ذراعين يساعدانه على النهوض، وصوت قوي شاب يقول فيما يشبه الصياح: الصليبيون يغادرون، ينسحب الصليبيون. جثا على ركبتيه هناك من فَرْط الإيمان والانفعال (وسوف نعرض لهذا بالتفصيل في حينه). لن يتذمر الله لو تأخر الشكر الواجب تجاهه بعض الوقت، ينبغي أن تعم الفرحة أولاً. أنهض الشاب الصالح المؤذن المسنّ رافعاً إيّاه، وضعه أخيراً فوق قدميه، ألبسه العمامة التي تدحرجت من جرّاء الهبوط والسقوط، ثم قال له: دعك من هذا، وهيا بنا إلى الأسوار لمعاينة تفرق شمْل الكفار. وبما أن هذه الكلمات ليست صادرة عن سوء طويّة فإنه يمكن تفسيرها فحسب من منطلق أن عمى المؤذن من النوع الذي يُطلق عليه «كُمْنة»[1]، انتبه جيداً، إنه ينظر إلينا، أي أن عينيه مصوّبتان نحونا ولكن دون التمكن من رؤيتنا، وأسفاه، يصعب التصديق بأن شفافية ونقاء مثل هذين ليسا في النهاية سوى

(1) كمْنة: ظلمة في البصر بسبب مرض العصب البصري أو الشبكية... إلخ، دون تغير ظاهر في شكل العين. (المترجم).

جلد العتمة المطلقة. يرفع المؤذن يديه ويلمس بهما عينيه: ولكني لا أرى. وفي هذه اللحظة يتبين للشاب صدق قوله: آه، ثم صدرت عنه إيماءة تشي بالابتعاد ولكنه سرعان ما عدّلها: لا يهم، تعال معي إلى الأسوار وسوف أحكي لك كل ما يجري. نعتاد أن نطلق على سلوكيات نبيلة مثل هذه عبارة «شفقة مسيحية»، وفي هذا برهان آخر على مدى ما يمكن أن يصل إليه الضلال الأيديولوجي للكلمات.

شق الشاب طريقاً بين الجموع المتدافعة من أجل الصعود على السلم المفضي إلى الدَّرب: أفسحوا للمؤذن، أفسحوا يا إخوان. كان يطلب والناس تبتعد في سماحة أخوية وابتسامة حب صافية، ولما كان قطف الورد لا يخلو من منغّص الاصطدام بالشوك، فقد انبرى من بين الصفوف الخلفية أحد المتشككين– دون أن تواتيه الجرأة لإظهار نفسه– قائلاً: حذارِ من خالع العذار هذا، إنه يريد التسلل دون معاناة من جانبه. ولما كان المؤذن يعلم أنه ليس هكذا فقد اتجه نحو الصوت داعياً: ليجزيك الله شر الجزاء على سوء طويتك. كان على الرب أخذ هذا الطلب في الحسبان، وبناءً عليه سيكون هذا المفتري أول من يلقى حتفه في حصار لشبونة، ربما قبل أيّ مسيحي، ومن هنا نستشف بأن غضب العليّ القدير ليست له حدود. وصلا إلى أعلى، المسنّ ورفيقه، وبنفس النداء والطلب– اللذين لقيا ترحيباً شاملاً دون استثناءات– استطاعا احتلال مكان متميز في المقصورة

الأمامية التي تشرف على فضاء مصب النهر الواسع والبحر الشاسع، ولكن كلمات التعجب التي صدرت عن الرفيق لم تكن في مستوى هذه العظمة: أوه، يا للدهشة– قال من فوره– ليتني أستطيع إعارتك عينيّ أيها المؤذن لكي ترى بهما ما أرى، أسطول الصليبيين يبحر منسحباً، المياه ملساء ولامعة (لا يمكن أن يكون هكذا شيء سواها)، كل شيء أزرق بلون السماء التي تغطيه، ترتفع المجاديف وتهبط في إيقاع متجانس، تبدو السفن وكأنها سرب من الطيور يحتسي الماء بينما يطير ملامساً صفحته، مائتا سفينة ما بين قادس وغليون وفوستا[1]، ولا أدري المزيد منها، وأنّى لي الدراية وأنا من اليابسة ولست بحاراً، كم تمضي مسرعة، تحملها المجاديف والجَزْر، لقد استيقظت مبكراً مع المدّ وها هي الآن راحلة، الريح تنشر القلوع، آه، ليتها كانت بيضاء، اليوم عيد أيها المؤذن، ومن جهة أخرى هنالك على الجانب الآخر من النهر إخوتنا في «ألمادا» يلوّحون لنا بأيديهم، إنهم سعداء مثلنا، لقد أنقذتهم عناية الله أيضاً، الأحد الصمد، الرحمن الرحيم، الحي القيوم، الذي تخلصنا بفضله من التهديد المروّع لهؤلاء الكلاب الملوّثين بالطين، عليهم غضب الله وساءت خواتيمهم ليتلقفهم مالك– خازن النار– ويصبحون في حوزته إلى أبد الآبدين. صفق القريبون منهما للعنات الأخيرة، صفقوا جميعاً فيما عدا المؤذن، لا لأنه غير موافق على الدعاء، بل لأنه كان قد أدلى

(1) قادس، غليون، فوستا: أنواع قديمة من السفن الشراعية. (المترجم).

بدلوه من قبل- بصفته أميناً على الأخلاق- حين دعا على المتشكك الوقح، ومن مظاهر السوء الاعتياد على صبّ اللعنات من جانب المكلف بالنداء على المجتمع المتراحم للصلاة (ولا ندري ما إذا كان الله سوف يتحمل مثل هذه المسؤوليات الجسام على الدوام). لهذا السبب ظل المؤذن صامتاً، ولكونه أيضاً أعمى ولا يدرك بالتالي ما إذا كانت هناك دواع للفرحة السابغة. هل ذهب الجميع- سأل، والرفيق- بعد وقفة للتأكد- أجاب: السفن، نعم. أبِنْ، أوضح، ماذا غير السفن. هنالك على ضفاف مصبّ النهر حوالي مائة غادروا السفن ويتجهون نحو المعسكر الجليقي، حاملين أمتعة وأسلحة، من الصعب عدّهم من هنا، ولكنهم لا يزيدون بأي حال عن مائة. قال المؤذن: بقاء هؤلاء أو نكوصهم عن استكمال الرحلة إلى الأراضي المقدسة يعني استبدالهم لأراضيهم بهذه الأرض، أي أنهم سوف يدعمون ابن الرّنك في حصاره لنا وحربه علينا. أتظن أيها المؤذن أن ابن الرّنك- عليه لعنة الله وعلى ذريته- سوف يُقدم على حصار لشبونة برجاله القليلين وهذه الزمرة المنضمة إليه. لقد حاول مرة سابقة بمساعدة الصليبيين وخاب مسعاه، ولكنه سيحاول الآن إظهار عدم حاجته إليهم في حضور شهود عيان منهم. يقول الجواسيس إن الجليقيّ ليس في حوزته سوى اثني عشر ألف جندي، وهذا العدد غير كافٍ لتطويق المدينة وإطباق الحصار. قد يكون لديك حق لو لم يكن الجوع قد أطبق علينا الخناق. ترى المستقبل أسود أيها المؤذن.

أرى، إنني أعمى. وفي هذه اللحظة مدّ رجل من الموجودين هناك ذراعه مشيراً: يوجد اضطراب في المعسكر المسيحي، الجليقيون ينسحبون. أنت واهم– قال رفيق المؤذن. سأعرف أنني كنت واهماً حين تأتي لتخبرني بأنك لا ترى جندياً مسيحياً واحداً في كل النواحي المحيطة بك. سأظل هنا لأراقب، وسوف أذهب إلى المسجد لاحقاً لإخبارك بتفاصيل ما يجري هنا. أنت مسلم طيب، أنعم عليك الله في هذه وفي الآخرة بالثواب الذي تستحقه. وهنا نتدخل قائلين في سبق للأحداث إن الله أخذ مرة أخرى في الحسبان دعوة المؤذن، فنحن نعرف– بالنسبة للحياة الدنيا– أن هذا السامريّ الطيب سيكون المسلم قبل الأخير الذي توافيه المنيّة في الحصار، أما بالنسبة للدار الآخرة فلا نملك سوى انتظار قدوم من هو أعلم منا كي يخبرنا بالثواب الذي حصل عليه، ومن أجل ماذا. ومن جهتنا، ننتهز الفرصة لإظهار أننا لسنا أقل طيبة وشفقة ومودة الآن عند سماعنا للمؤذن وهو يسأل: من يساعدني في هبوط السلم.

يحتاج رايموندو سيلبا أيضاً لمن يساعده في شرح ما صرح به من قبل عن رفض الصليبيين المشاركة في الحصار، بينما يظهر الآن نفر غير قليل منهم وهو يغادر السفن إلى اليابسة، إنهم يقاربون المائة حسب التعداد الذي أجراه المسلمون بالعين المجردة ومن مسافة بعيدة. بالطبع فإن هذا الأمر ليس جديداً علينا تماماً، فنحن نعرف– منذ الحديث القبيح الذي وجهه «جيين» (صاحب السيف الطويل)

إلى الملك– أن نفراً من الأجانب قد أعربوا في الموقف نفسه عن إمكانية اعتمادنا عليهم. صحيح أن الكلام الذي قالوه ساعتها لم يتضمن أية إشارة إلى الداعي لبقائهم، وأن دون أفونسو هنريكس لم يبد رغبته في معرفته أو أنه لم يعلنه على الملأ، وإذا كانوا قد أسرّوا له به، ففي السرّ بقي. لا يوجد تسجيل لما جرى وقتها، ولا يهم أيضاً ما جرى بالنسبة لحبكة الرواية وجريان الأحداث. ومهما كان الأمر، فلا يمكن بأي حال المرور مرور الكرام على ما سكت عنه رايموندو سيلبا، أي إغفال ذكر أية إشارة إلى وجود صفقات ما بين أيّ صليبي من هؤلاء وبين الملك، لأن المدوّنات التاريخية المعتمدة تخبرنا بأن هؤلاء السادة نالوا حظاً وافراً من الثروة على الأراضي البرتغالية، ويكفي في هذا المقام تذكر– حتى لا يظن أحد أننا نتحدث من فراغ، وحتى لا نهدم المثل القائل: لا دخان بغير نار– أن الفرنسي «دون ألاردو» قد تلقى من مليكنا الطيب إقطاعية «بيلا بيردي»، وأن «دون جوردان»– وهو فرنسي مثله– قد فاز بإقطاعية «لورينها»، وأن الأخوين «لاكورني» (اللذين تبدل اسماهما بعد ذلك إلى «كورّيرا») قد حصلا على «أتوجا»، أما مقاطعة «أثامبوخا» فيكتنفها شيء من الغموض، إذ لا يدري أحد إن كانت قد أهديت وقتذاك إلى «خيل دي روليم» أو فيما بعد إلى واحد من أبنائه يحمل الاسم نفسه، والإبهام في الحالة الأخيرة ليس نابعاً من خطأ في التسجيل بل من عدم تحري الدقة. وبعد وصولنا

إلى هذه النقطة نقول: إن هؤلاء وآخرين غيرهم لكي يتمكنوا من الحصول على مخصصاتهم كان لزاماً علينا البدء بجعلهم يغادرون السفن، ثم بجعلهم يستخدمون السلاح في مقابل هذه الهبات، وبهذا الشكل نكون قد واءمنا بين «لا» التي كتبها المصحح وبين «نعم» أو «ربما» أو «مع هذا» اللاتي يستوطنهن التاريخ. سوف يُقال: إن هؤلاء مجتمعين- فضلاً عمن سقط ذكرهم- لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين، فماذا عن الآخرين- وهم كثر- الذين نراهم يتجهون سيراً على الأقدام نحو المعسكر الجليقي، والسؤال يفرضه حب الاستطلاع المشروع، فمن الطبيعي معرفة من يكون هؤلاء، وهل تلقوا أيضاً أراضي وهبات في نهاية خدماتهم. قد تكون هذه الاستفسارات غير جديرة بالاهتمام ولا محل لها هنا، بَيْد أن إظهار التسامح مع الجهل البريء يعتبر سمة من سمات الأخلاق الحميدة، ومن ثمّ نوضح قائلين: إن غالبية هؤلاء- فضلاً عن ثلة من المحاربين التابعين لعدد من السادة الذين يدفعون لهم أجورهم- كانوا من الخدم المكلفين بأعباء الشحن والتفريغ ومهام أخرى، وأيضاً سراري ومحظيات يتبعن ثلاثة من السادة، ونساء أخريات، بعضهن معروف الأصل، وبعضهن من اللواتي تم التقاطهن من الموانئ التي ترسو بها السفن من أجل الاسترواح والاستمتاع، إذ لا توجد فاكهة أطيب ولا أطعم من تلك في العوالم المجهولة.

وضع رايموندو سيلبا القلم، فرك أصابعه التي كان شعاع الشمس مسلطاً على ظاهرها، ثم اضطجع على الكرسي بحركة بطيئة متعبة. إنه في غرفة النوم، جالساً أمام طاولة وضعها إلى جوار النافذة، بحيث يمكنه إذا نظر إلى اليسار رؤية أسقف منازل الحي، وأيضاً- في لحظات متتابعة- النهر من بين تلك الأسقف. قرر استخدام غرفة المكتب الداخلية في تصحيح أعمال الغير، أما هذا الذي يكتبه- سواء كان أو لم يكن قصة حصار لشبونة- فإنه سوف يكتبه في النور الطبيعي، على الضوء المتساقط فوق يديه، وفوق الصفحات، وفوق الكلمات التي تولد وتبقى (إذ لا يبقى كل ما يولد) وتُلقي بضوئها هي الأخرى على فهم الأشياء والإحاطة بها (إلى أي حد يمكنها هذا، وفي أي اتجاه)، فبدون هذا الفهم لا يمكن الوصول. سجّل في ورقة منفصلة هذه الفكرة، على أمل استخدامها فيما بعد- إذا دعت الحاجة- للتأمل في سرّ الكتابة، ومن المحتمل أن يتوّج هذا التأمل بالتصريح الدقيق والبليغ القائل: إن سرّ الكتابة يكمن في عدم وجود سرّ بها على الإطلاق، وقبول هذا الإثبات يقودنا إلى نتيجة مفادها: لا يوجد في الكتابة سرّ، ولا في المؤلف أيضاً. يتسلى رايموندو سيلبا بتقلد هذا التروي العميق، ذاكرته- كمصحح- مليئة بالشعر والنثر، بقطع وأجزاء منهما، وبعبارات كاملة أيضاً، ذات معانٍ، تعلق بالذاكرة مثل خلايا خامدةٍ ومتوهجة قادمة من عوالم أخرى، وتجعله يشعر وكأنه يطفو فوق الأكوان، متعلماً المعاني الكاملة لكل شيء،

دون أسرار أو غموض. لو استطاع رايموندو سيلبا صفّ- بترتيب صحيح- كل ما تختزنه ذاكرته من كلمات وجمل، يكفيه عندئذ إملاؤها وتسجيلها على مسجل صوت لكي يحصل- دون تجشم عناء الكتابة- على قصة حصار لشبونة التي مازال يفتش عنها، ولو تغير الترتيب سيؤدي إلى قصة أخرى، وإلى حصار آخر، وإلى لشبونة أخرى... وهكذا إلى ما لا نهاية.

يتجه الصليبيون الآن نحو عرض البحر، مخففين بهذا الشكل عن كواهلنا عبء الحضور الباهظ لثلاثة عشر ألفاً من الكومبارس، بيد أن مهمة رايموندو سيلبا لم تسهل برحيلهم إلا قليلاً لوجود عدد مماثل لهم من البرتغاليين، وأعداد أكثر من هؤلاء وأولئك من المسلمين داخل المدينة، بما فيهم الهاربون من شنترين وانتهى بهم المطاف إلى هنا، اعتقاداً منهم بالتمتع بالحماية خلف هذه الأسوار، يا لهم من مساكين: ما بين جرحى وتعساء. ما هي الطريقة التي سوف يتصدى بها رايموندو سيلبا لكل هذه الجموع، إنه سؤال مهم وجاد. نظن- انطلاقاً مما جُبل عليه- أنه سيتناول كل فرد منهم على حدة، يدرس حياته، وحياة سلفه وخلفه، وتجاربه العاطفية، وخصوماته، والخبث والطيبة الكامنين فيه، وسوف يُولي عناية خاصة بمن سيموتون عما قريب، لأنه لا يُتوقع أن تسنح في القريب العاجل فرصة أخرى لتدوين أخبارهم وأعمالهم. لدى رايموندو

سيلبا وعي تام بأن مواهبه المحدودة لا يمكن أن تتمخض عن الكثير: لأنه ليس الرب (ومن يكونه)، ولأنه– من جهة ثانية– ليس مؤرخاً، ولأنه– أخيراً، وطبقاً لاعترافه في البداية– لم يتكيف قط مع الإبداع الأدبي، ونقطة الضعف الأخيرة سوف تُصعب عليه عملية التحكم المقنع في خرافة الاختراع التي نشارك فيها جميعاً بحظوظ مختلفة. كل ما استطاع التوصل إليه حتى الآن من جانب المسلمين يتمثل في المؤذن الذي يظهر من حين إلى آخر وفي وضعية غير مرضية تماماً، فهو شيء يفوق الكومبارس ولكن وضعه غير كافٍ للتحول إلى شخصية. أما على الجانب البرتغالي، وباستثناء الملك والأسقف والقسيس وحفنة الفرسان المعروفين، فلا تتجلى سوى فوضى عارمة لوجوه لا يُعرف لمن تنتسب، ثلاثة عشر ألف رجل يتحدثون– يعلم الله كيف وماذا–، لديهم أحاسيس (من يشك في هذا) يعبرون عنها بشكل يختلف كثيراً عن فهمنا وأقرب إلى أعدائهم المسلمين منا، نحن السلائل أصحاب العَلَم والعنوان.

ينهض رايموندو سيلبا من على الكرسي ثم يفتح النافذة. لو صدقت البيانات التي راجعها في «قصة حصار لشبونة» فإنه يمكن من هنا رؤية المكان الذي عسكر فيه الإنجليز والأكيتانيون والبريتونيون، ويقع بالقرب من الجهة الجنوبية لمنحدر «ترينيداد» حتى وَهْدة «لاكلشادا دي سان فرانثيسكو»، قد تزيد المسافة متراً

أو تقل عدة أمتار، لا أكثر، وكنيسة الشهداء التي شيدت في المكان نفسه هي خير دليل. أما الآن، في القصة الجديدة، فالمكان يخص المعسكر المؤقت للبرتغاليين الذين تجمعوا فيه انتظاراً لقرار الملك: البقاء أو الرحيل. وبين المدينة ومعسكر البرتغاليين (ونحن نطلق عليهم هذه التسمية التي لم يكونوا قد أطلقوها على أنفسهم آنذاك) نشاهد المصبّ شديد الاتساع للنهر، المتغلغل في اليابسة، ولو أردنا الالتفاف حوله سيراً على الأقدام كان لزاماً علينا المرور– من عند لسانه الشرقي– بمطلع شارع «بالما»، وعند لسانه الغربي بمرتفعات شارع «داس بريتاس»، إنها لرحلة جدّ طويلة بين الحقول التي كانت تُعامل بدلال حتى الأمس القريب، أما الآن فإنها– فضلاً عن نهب كل ما يمكن أكله فيها– تُداس بالأقدام ومحروقة وكأن فرسان «سفر الرؤيا» قد مروا من عليها بخوذاتهم النارية. وطبقاً لما أخبر به المسلم سلفاً فإن المعسكر البرتغالي يضطرم بالحركة، وقد كان هكذا فعلاً، ولكن الهدوء سوف يخيم عليه بعد قليل من الآن، لقد أراد دون أفونسو هنريكس تكريم السادة الصليبيين الذين يقتربون مع القوة الصغيرة التي غادرت السفن بالخروج إليهم على رأس جيشه كاملاً. ولما كنا على دراية تامة بلقاءات ومداخلات أولئك الرجال المستغنين بالدم والسلطة عن التعريف، فقد حان الوقت للتعرف على غيرهم: من هم هؤلاء الجند المنتشرين بين «الكارمو» وبين «ترينيداد» منتظرين الأوامر دون التبلّغ ولو بسيجارة، إنهم هنالك

تحت ظلال أشجار الزيتون (إذ لم تُضرب سوى خيام قليلة نظراً لاعتدال الجو) جالسين أو واقفين أو يمشون الهوينى بين الأصدقاء، لقد نام معظمهم في العراء متوسداً الدرع، وشاعراً- في الليل، ولبعض الوقت- بحرارة الأرض، لكي يدفئها بعد ذلك بجسده، إلى أن يأتي اليوم الموعود الذي تجتمع فيه البرودتان معاً: برودة الأرض وبرودة الجسد. لدينا سبب قوي يجعلنا ننعم النظر في هؤلاء الرجال المسلحين بأسلحة بدائية خشنة- مقارنة بترسانات الأسلحة الحديثة-، والسبب يكمن في البحث عن أحد نقدمه لرايموندو سيلبا كي يجعل منه شخصية من شخصيات قصته الجديدة، لأن رايموندو سيلبا- الخجول بطبعه، والنافر من التجمعات- ظل واقفاً أمام نافذته دون التجروء على النزول إلى الشارع، بئس ما فعل، لو لم يكن قادراً على الذهاب بمفرده طالباً صُحبة الدكتورة ماريا سارة، إنها امرأة شغوفة- كما رأينا- بالقرارات النهائية الحاسمة، أو- إذا لم تكن هكذا- ربما تكون مُغرقة في الرومانسية ويناسبها أن يحضر معه كلب سان كريسبن، يا لها من لوحة رائعة: قارب بمجدافين يخترق المصب الوادع- في مياه لا تنتمي إلى أحد-، ومصحح يجدف بكلتا يديه، بينما يُقعي الكلب على المقدمة محتسياً الهواء، وبين الفينة والفينة يعض في حصافة الهوام التي تُنشب زُبانيّها في أعضائه الحسّاسة. لنترك إذن رايموندو سيلبا هادئاً حيث يقبع لأنه مازال حتى الآن غير مستعد للرؤية (إنه رغم اتخاذه لإعادة النظر

مهنة، إلا أن لحظات إنعامه للنظر مؤقتة ومحكومة بالاضطراب النفسي)، وهيا بنا نبحث له عن أحد- لا من منطلق ما يتمتع به من مؤهلات بقدر ما هو استجابة لإملاءات القدر- كي يأخذ مكانه في القصة بشكل طبيعي بحيث يمكن القول إنه وُلد من أجلها مثلما هي مولودة من أجله. الأمر ليس سهلاً كما يبدو. فأخذ رجل ودسّه بين الجموع يختلف تماماً عن البحث بين الجموع عن رجل لا نملك حين نراه سوى أن نهتف قائلين: هذا هو. لا يوجد تقريباً مسنّون، فنحن في زمن يموت فيه الناس صغاراً وبكثرة، إضافة إلى أن الحرب لا تحتاج إلى من وهنت أذرعتهم وثقلت عليهم أرجلهم، لأنهم ليسوا مثل «جونثالو ميندث دي مايا» (الملقب بالمحارب) الذي يبدو وكأنه في ريعان الشباب رغم بلوغه السبعين، وسوف يظل حتى التسعين حاملاً سيفه الضخم في صولات وجولات ضد ملك «طنجة»، إلى أن توافيه المنيّة أخيراً. هيا بنا نبحث ونستمع. يا لها من لغة غريبة، تلك التي يتحدث بها رجالنا، وهي ليست غريبة بالنسبة لنا فحسب، إذ يصعب علينا فهمهم كما هو صعب عليهم فهمنا، رغم انتمائنا جميعاً إلى الوطن البرتغالي نفسه، ومن هنا يتضح أن ما نطلق عليه اليوم «صراع الأجيال» ربما يكون وثيق الصلة بمسألة الاختلاف اللغوي، وهذا مجرد ظن. ها هي حلقة من الرجال الجالسين على الأرض تحت شجرة زيتون مورفة، لاشك أن عمرها- نظراً لجذعها الملتوي وشكلها المغرق في القدم- يصل

إلى ضعف عمر «المحارب»، وإذا كان هو يجرح ويقتل، فإن هذه الشجرة قانعة بإنتاج الزيت، يقولون: كل ميسر لما خلق له، ولكن اختراع المقولة الأخيرة كان من أجل أشجار الزيتون لا من أجل الرجال. لا يفعل الموجودون هنا سوى إصاخة السمع لشاب طويل، ذي لحية قصيرة وشعر أسود. يظهر على وجوه البعض منهم انطباع من استمع إلى الحكاية آلاف المرات، ولكن في غير ملل أو ضجر لأنهم كانوا ممن شهدوا واقعة الاستيلاء الشهيرة على «شنترين»، أما بالنسبة للبعض الآخر فسرعان ما يُلاحظ– نتيجة للاهتمام البادي على وجوههم– أنهم من الملتحقين حديثاً بالجيش، المنضمين إليه في الطريق نظير راتب ثلاثة أشهر مقدماً، والراتب في تلك العصور هو الذي كان يصنع الجندية، وإلى الجندية ينتمي الجندي. ولما كانت الحرب لم تبدأ بعد، فإنهم كانوا يسلّون تعطشهم للأمجاد الشخصية بإصاخة السمع إلى بطولات الغير. لا مفر من الإشارة إلى هذا الشاب باسم ما، ولكن المشكلة تكمن في أنه يجب علينا الاختيار بين ما يظن أنه اسمه (موجيمي) وبين الاسم الذي سيطلقونه عليه فيما بعد (مويخيما)، لا يذهبن الظن بأحد إلى أن هذا الخلط كان حكراً على العصور المتوحشة القديمة، فنحن نعرف في القرن الحالي (القرن العشرين) شخصاً قضى ثلاثين سنة من عمره معتقداً أن اسمه «دييجو لوثيانو» وعندما جاء اليوم الذي تعين عليه فيه استخراج بعض الأوراق الرسمية اكتشف أن اسمه «ديو كليثيانو»، ولم يستفد

شيئاً من اسمه الجديد رغم أنه كان اسماً لإمبراطور. ولا ينبغي التقليل من أهمية مسألة الأسماء هذه، فرايموندو سيلبا لا يمكن أن يكون خوسيه، وماريا سارة لا تقبل أن تكون كارلوتا، ولا يستحق موجيمي أن نطلق عليه مويخيما. ولما كان باستطاعتنا الآن الاقتراب، فهيا بنا نشاركهم الجلوس على الأرض وإحسان الاستماع.

يقول موجيمي: حدث هذا في جوف الليل، ظللنا كامنين حتى السحر في وادٍ خالٍ مستور، وشديد القرب من المدينة حتى أننا كنا نسمع صيحات الحراس فوق السور، كنا نمسك ألجمة الخيل بأيدينا خوفاً من صهيلها، وعندما أوشك القمر على الاختفاء، وتبين لقادتنا أن الحراس نصف نائمين، غادرنا الوادي تاركين وراءنا الغلمان مع الخيول، وزمراً وفرادى تسللنا إلى عين «أتامارما» (وهم يسمونها هكذا لعذوبة مائها) ثم تركناها خلفنا واقتربنا من السور فوجدنا حراساً يسيرون فوقه، ومن ثمّ اضطررنا إلى الاختباء مرة أخرى في حقل قمح، يخيم علينا الصمت، ولما ارتأى قائد كتيبتي (ميم راميريس) أن الفرصة سانحة شرعنا في صعود المنحدر بسرعة، كنا نريد تعليق سلم من الحبال في أعلى السور من خلال رفعه برمح، ولكن شاء الحظ العاثر أن يصطدم الرمح بآنية فخّار فسقطت على الأرض محدثة دويّاً شديداً، انتابنا الذعر لأن استيقاظ الحراس يعني فشل المهمة، وعندما تأكد «ميم راميريس» من عدم صدور أي رد

فعل من جانب المسلمين إزاء ما حدث نادى عليّ، لأني الأطول قامة بين أفراد الكتيبة، وأمرني بالصعود على كتفيه، قمت بتعليق السلم في أعلى السور، ثم صعد، وأنا معه، وآخر معي، وفي أثناء انتظارنا لصعود الآخرين استيقظ الحارسان ونادى واحد منهما: «من هناك فوق»، فرد عليه «ميم راميريس» الذي يتقن العربية كواحد من أهلها: نحن من العسس، وقد صدرت إلينا الأوامر بالرجوع إلى الوراء. وفور نزول المسلم من البرج باغته «ميم راميريس» بقطع رأسه التي ألقيناها خارج السور، وبهذا الشكل أصبح زملاؤنا الذين أنزلناهم إلى داخل المدينة في مأمن، ولكن الحارس الثاني اكتشف هويتنا وشرع في الصراخ بأعلى صوته: «كمين مسيحي»، كان تعدادنا قد وصل عندئذ إلى عشرة فوق السور، جرى العسس نحونا وبدأ الاشتباك بالسكاكين، كان «ميم راميريس» يصيح طالباً عون «سنتياجو» (حامي حمى إسبانيا) فيرد عليه الملك- الرابض خارج السور- بصوت عالٍ قائلاً: عونك يا سنتياجو ويا سيدتنا مريم العذراء، كما كان يقول أيضاً: اقتلوهم جميعاً، لا تتركوا أحداً يهرب... إلى آخر الكلام المعروف في مثل هذه المواقف. وفي هذه الأثناء كان قد صعد إلينا خمسة وعشرون من رجالنا، اتجهنا جميعاً إلى الباب محاولين فتحه ولكن دون جدوى، إلى أن جاءنا المدد من الخارج إذ قام إخواننا بدفع الباب بقضيب حديدي ضخم عدة دفعات تهشمت على إثرها الأقفال والترابيس، وعندئذ دخل الملك

مع حاشيته، وقبل تجاوزه للباب جثا على ركبتيه في منتصفه وتوجه بالشكر إلى الرب، ولكنه سرعان ما نهض حين شاهد المسلمين يجرون نحو الباب للدفاع عنه، ولكنهم كانوا يجرون إلى حتفهم إذ تلقتهم سيوف رجالنا ومزقتهم إرباً، كما مزقت نساء كثيرات وأطفالاً، فضلاً عن الماشية والأغنام، كان الدم يجري في الشوارع كالأنهار، وبهذه الطريقة سقطت شنترين، لقد شاركت، أنا، وبعض الجالسين معنا هنا في الاستيلاء عليها. أومأ الذين أشار إليهم في نهاية حديثه برؤوسهم علامة على الموافقة، بالتأكيد لدى كل منهم ما يحكيه عن مشاركته في تلك الواقعة، ولكن يبدو أنهم من أولئك الذين تعوزهم الكلمات دائماً (لقلّتها في البداية، ثم لتأبيها عليهم بعد ذلك حين يستدعونها)، ومن ثمّ ظلوا كما كانوا: صامتين في الحلقة ومكتفين بسماع ذلك الفصيح والماهر في فن الحديث بالبرتغالية الأولى، ومعذرة للمبالغة لو قلنا هنا إنه كانت لدينا اللغة الأكثر تقدماً في العالم، ولم لا، إذا كان جندي بسيط لم ينل حظاً من التعليم يستطيع أن يُنشئ بها نصاً واضحاً مثل هذا، لا تعوزه جماليات القصّ، ولا المزاوجة بين الجمل القصيرة والطويلة، ولا الوقفات الفجائية، ولا التنوع في مستوى الحكي، ولا حتى التهكم المشوب بالسخرية الحقيقية حين جعل الملك يجثو على ركبتيه لأداء صلاة الشكر مع احتمال أن يصل إليه حسام قبل نطقه لكلمة «آمين»، كما لا ينقصه أيضاً الاعتراف من البحر الخضم للمعارف الشعبية: ثق في العذراء،

ولا تول الأدبار، سوف ترى النتيجة (وأغلب الظن أنها ستكون وخيمة). حين فهم جندي من الملتحقين حديثاً بالخدمة العسكرية (يتمتع بفطنة وألمعية، رغم أن خبرته بالحروب لا تزيد عن مشاهدته للقوات تمر) أن لا أحد من الجنود القدامى يريد الإدلاء بدلوه، نطق لسانه بما كان يجول في خاطر الجميع (دون شك): لشبونة بالنسبة لي عظمة يصعب قرضها. يا لها من استعارة مهمة جعلت الكلب والكلاب يعودون إلى الحكاية، وإن كان من الضروري أن يكونوا كثيرين وكثيرين حتى يستطيعوا غرس أسنانهم في الأسوار العالية المترفعة التي تتحدانا من هناك، وحيث تلمع البرانس فوقها وتبرق الأسلحة. كانت كلماته بمثابة التطير الذي جلل أفئدة الزملاء بالسواد، ففي الحرب لا يعلم أحد من الذي سيهلك فيها، بالطبع «كل مرّة لا تسلم الجرّة». مسلمو لشبونة مجانين لو زار النوم مرقدهم في أثناء انتظارهم للساعة المشؤومة، نراهن هذه المرة أنه لا ضرورة لصياح أحد الحراس منادياً: «من هناك فوق» لأنهم يعرفون بما فيه الكفاية من الذين يعسكرون هناك، وماذا يريدون. لحسن الحظ أن غلامين من الغلمان الذين بقوا في الوادي الخالي المستور بنواحي شنترين لرعاية الخيل كانا موجودين في تلك اللحظة التي خيّمت فيها الكآبة على المتحلقين، شرع الغلامان في ضحكات مجلجلة وهما يتذكران ما فعلاه– ومعهما الآخرون– بسرب من النساء المسلمات الهاربات من المدينة، واللاتي ساقهن القدر إلى هناك، قدر أسود،

فبعد أن قاموا باغتصابهن عدة مرات قتلوهن دون رحمة لكونهن كافرات. انبرى «موجيمي»- من منطلق سلطته كمحارب في الصفوف الأولى- معارضاً الغلامين: يمكن قبول القتل دون تمييز في البداية، أما وقد استمتعتم بأجسادهن فكان من واجبكم كمسيحيين إطلاق سراحهن. علّق الغلامان على هذا التصريح الإنساني بقولهما: كان ينبغي قتلهن في جميع الأحوال، سواء استمتعنا بأجسادهن أم لا، حتى لا يلدن في المستقبل مسلمين أشراراً مناكيد. بدا وكأن «موجيمي» لن يستطيع الرد على السبب الوجيه الذي قدماه، ولكنه استطاع استخراج بضع كلمات من تلافيف عقله أفحمت الغلامين وأخرست لسانيهما: ربما تكونون قد قتلتم فيهن أبناء ينتمون لآباء مسيحيين. كان يمكن للغلامين الرد عليه قائلين: إن الابن المسيحي هو الذي ينتمي لأب مسيحي وأم مسيحية. لو أن قسيساً كان يمر من هناك بالصدفة لأمكنه وضع النقاط على الحروف بطريقة تذهب الشك من النفوس وتدعم الإيمان في القلوب، ولكن رجال الدين كانوا جميعاً مع الملك، في انتظار قدوم السادة الأجانب، ولاشك أنهم وصلوا في التوّ بدليل الهتاف المتصاعد من هنا وهناك، كل واحد يحتفل بطريقته وعلى قدر المستطاع، في حدود الواجب، لأن الأمر في النهاية لا يستحق الضجيج.

ما يهم رايموندو سيلبا في المقام الأول هو الدفاع بأفضل ما لديه

من وسائل عن وجهة نظره الراسخة والمتعلقة برفض الصليبيين المشاركة في احتلال لشبونة، أما بالنسبة للشخصيات فلا فرق عنده بين شخصية وأخرى، وهذا مع الأخذ في الاعتبار أنه شخص مزاجي ولا يمكنه تفادي الميل والنفور المؤقتين، المتاخمين- على أي حال- للبّ القضايا، واللذين يفضيان به عادة إلى إدراج الهوى الشخصي وغير الموضوعي في القرارات التي يجب أن تُتخذ انطلاقاً من المعايير العقلية (التاريخية في هذه الحالة). ما يجذبه إلى الشاب «موجيمي» يكمن- فضلاً عن زلاقة اللسان التي حكى بها أحداث الهجوم على شنترين- في حسّه الإنساني، الذي ينمّ عن نفس طيبة أو غير راضية عن التأثيرات السلبية للوسط المحيط بها، هذا الحسّ الذي جعله يشفق على المسلمات التعيسات، رغم أن شفقته تلك لا تنبع من فقدانه الإعجاب ببنات حواء حتى لو كن كافرات (لأنه لو كان في الوادي وقتها، بدلاً من انشغاله بالالتحام بالسلاح الأبيض مع أزواجهن، لما فاتته فرصة الاستمتاع الطويل والمتمهل باللحم مثل الآخرين)، بل من النفور بالقيام بقطع الرقاب التي انتهى قبل لحظات من تقبيلها وعضّها بتلذذ. ومن هذا المنطلق لا يمانع رايموندو سيلبا في ضم «موجيمي» إلى شخصياته، بيد أنه يرى ضرورة إيضاح بعض النقاط مقدماً حتى لا يبقى سوء فهم يمكن أن يضير بعد ذلك (أي بعد أن تتوثق عرى الود الحتمي بين المؤلف وعوالمه وتصبح غير قابلة للانفصام) بعبء التحمل الكامل للأسباب والمسببات التي

سوف تُحكم وثاق هذه العرى بالقوة المزدوجة: الحاجة والقدرية. من الضروري معرفة من يكذب هنا ومن ينطق بالحقيقة، ولا نقصد بهذا قضية الأسماء (هل كان يُدعى موجيمي أو موكيمي أو حتى مويخيما)، صحيح أن الأسماء مهمة، ولكنها لا تصبح هكذا إلا بعد معرفتها، أما قبل هذا فالشخص ليس إلا شخصاً، وكفى، ننظر إليه، إنه هنا، يمكننا التعرف عليه في مكان آخر، أعرفه– نقول –، وكفى. وحتى لو توصلنا في النهاية لمعرفة اسم هذا الشخص[1] فمن المؤكد أننا سوف نُقصر استخدامنا على جزء منه، وهذا دليل على أن أجزاء الاسم ليست كلها على نفس القدر من الأهمية، إذ لا يهمنا إذا كان «ألبرتو» هو أحد أجزاء اسم العالم أينشتاين، أو أن لاسم «هوميروس» بقية. ما يريد أن يتحقق منه رايموندو سيلبا فعلاً يتمثل في الإجابة على السؤال التالي: هل كانت مياه عين «أتامارما» عذبة حقاً كما أعلن «موجيمي» بوضوح تام (وإعلانه هذا يسبق بكثير ما سوف توردِه مدونة «خمسة ملوك برتغاليين») أم أنها كانت– على خلاف هذا– مريرة، طبقاً لما ذكره صراحة «فراي أنطونيو براندا و» في «مدوّنة دون أفونسو هنريكس» المحترمة والشهيرة، حيث يقول فيها: إنهم يطلقون عليها «أتامارما» لمرارة مياهها. ورغم أن القضية لا تنطوي على أهمية خاصة إلا أن رايموندو سيلبا فكر

(1) أسماء الأشخاص في اسبانيا، والمجتمع الغربي عامة، تتألف من الأجزاء التالية: الاسم الذي يطلق على المولود (وهو المعروف عندنا بالاسم العلم)، ثم يأتي بعده لقب الأب، ثم لقب الأم. (المترجم).

فيها مليّاً وبشكل منطقي (وإن كنا نعلم أن الواقع لا يتنكب دوماً الطريق المستقيم للمنطق) وخلُص إلى ما يلي: إذا كانت مياه الأرض عذبة بصفة عامة، فمن العبث تمييز عين ما بشيء تشترك فيه العيون جميعاً، وهذا يساوي بالضبط إطلاقنا مسمى «عين نباتية» على إحدى العيون لكونها محاطة بالنباتات. هذا ما هداه إليه تفكيره في البداية إلى أن تحقق بعد ذلك من مصادر أخرى- تاريخية ووثائقية- أن مياه عين «أتامارما» مريرة بالفعل، ولم يكتف بما سبق بل قرر بينه وبين نفسه أن يقوم ذات يوم بالتأكد من هذه المعلومة بطريقة عملية- أي بالشرب من مياه تلك العين-، ومن المحتمل أن يصل بعد التجريب إلى النتيجة النهائية والمتمثلة في: أن مياه العين مالحة، ويكون قد أرضى بهذا الشكل جميع الأطراف، لأن الملوحة هي حالة وسط بين العذوبة والمرارة.

لا يعني الجدل المطوّل السابق، حول سبب تسمية العين بأتامارما، أن رايموندو سيلبا يهتم كثيراً بالأسماء، لأن هذا الجدل قد يكون ناجماً عن «الزيغ في التفكير» الذي لاحظته فيه الدكتورة ماريا سارة من قبل. ما يشغل المصحح في الواقع هو ضبطه لموجيمي- بعد قبوله إيّاه شخصية من شخصياته- متلبساً بالتناقض، إن لم يكن بالكذب الصُّراح، وفي وضع مثل هذا ليس أمامه من سبيل سوى إماطة اللثام عن الحقيقة، حيث لا يتسع المقام لعين «أتامارما» جديدة

تقدم مياهاً- بشكل تصالحي يُرضي جميع الأطراف- لا هي بالعذبة ولا هي بالمريرة. لقد صرح موجيمي بوضوح لا لَبْس فيه أنه صعد على كتفي «ميم راميريس» لكي يُعلّق السلم في أعلى السور المسلم، وفي هذا الكثير من التجني على المفاهيم والعادات السائدة في ذلك العصر، والعصر الذهبي المتاخم له، إذ لا يُعقل- انطلاقاً من تلك المفاهيم والعادات- أن يتخلى شريف من بلاط الملك أفونسو عن صفته تلك ويسمح بتقديم جسده الرائع «مَدَاساً» وموطئاً لقدمين منحطتين لجنديّ نكرة ليست له من مؤهلات سوى ارتفاع قامته عن الآخرين. ومن جهة أخرى، فإن ما ذهب إليه موجيمي في هذا الخصوص وتم التأكيد عليه من قِبَل «فراي أنطونيو برانداو» (صاحب «مدوّنة دون أفونسو هنريكس»)، تكذبه صراحة مدونة «خمسة ملوك برتغاليين» الأقدم، حيث نجد فيها مكتوباً وبالحرف الواحد أن «موجيمي قد انحنى، بأمر من «ميم راميريس»، حتى يصعد الأخير فوق ظهره». لا يوجد في هذا ما يسمح بقراءة مغايرة. يضع رايموندو سيلبا النصين أمامه، يُقارن بينهما، لا يوجد فيهما ما يثير الرّيبة. موجيمي كذّاب بلا جدال، لأنه جندي والآخر قائد ومن المستحيل أن تتلاشى- هكذا فجأة- الفوارق الطبقية بينهما، ومن جهة أخرى لأن نص مدوّنة «خمسة ملوك برتغاليين» هو الأقدم. بالتأكيد سوف ينظر المهتمون بالفحاوى والخلاصات التاريخية الثمينة إلى مثل هذه القضايا شزراً وباستخفاف، ومع هذا

فنحن نساند وندعم رايموندو سيلبا في موقفه لأنه يحمل على عاتقه مهمة جليلة ينبغي عليه إتمامها ولكنه يجد نفسه فجأة– وهو مازال في بدايتها– في مواجهة صعوبة التعايش مع شخصية ليست محلاً للثقة، فهذا الموجيمي أو الموكيمي أو المويخيما، فضلاً عن جهله من يكون، يسيء إلى الحقيقة التي كان من واجبه– كشاهد عيان– احترامها وإيصالها بأمانة إلى القادمين بعده: نحن.

ومع هذا، فقد قال الآخر: ليرم الحجر الأول من لم يكن منكم بلا خطيئة. من السهل جداً بالفعل توجيه الاتهامات، يكذب موجيمي، موجيمي كذب، بينما نحن هنا قد ترعرعنا ثقافياً ونفسياً على أكاذيب وحقائق القرون العشرين الأخيرة، بل إن الأكاذيب هي التي فازت بالنصيب الأكبر في صياغة أفئدتنا، ولا يتسع المقام لذكر عناوين بعضها فحسب لأننا لن نفرغ منها قبل خمسين صفحة، ومن ثمّ لا ينبغي الهجوم بسيف بتّار لا يرحم على أخطاء الآخرين مادمنا نتساهل إلى أقصى حد مع أخطائنا الشخصية، وخير دليل على هذا أنه لم يُعرف حتى الآن أن أحداً من أولئك الصارمين والقساة في إطلاق الأحكام قد أنّبه ضميره ذات مرة وحاول التكفير عن ذنبه برجم جسده. ومن جهة أخرى– وانطلاقاً من المشهد الإنجيلي– فمن حقنا المشروع الشك في أن العالم كان خلال ذلك العصر منغمساً في الرذائل والمعاصي وأنه كان– بالتالي– في حاجة إلى ابن الربّ لكي

ينتشله من وَهْدته، إذ أن مشهد الزانية في حد ذاته يبين لنا أن الأمور لم تكن سيئة للغاية في فلسطين آنذاك (أما الآن فإنها ليست سيئة فحسب، بل مأساوية)، ولنتأمل جيداً كيف توقف- في ذلك اليوم السحيق- رمي تلك المرأة التعيسة بالحجارة، لقد كانت الكلمات المهيبة ليسوع كافية لكي تتراجع الأيدي المعتدية وكأن لسان حالها يقول: نعم يا سيدي، لديك الحق كله، فنحن في الخطايا غارقون. حسناً، هؤلاء القوم كانت لديهم الشجاعة على الاعتراف- وإن كان ضمنياً- بالذنب وعلى رؤوس الأشهاد، لم يكونوا إذن ضائعين تماماً، بل إن جوانحهم كانت تنطوي على سرائر نقية. ومما سبق نصل- بأقل قدر من احتمال الوقوع في أخطاء- إلى استنتاج مفاده: لقد كان هناك تسرع في مجيء «المنقذ». أما اليوم، فالأمر يستحق العناء دون شك، لا لأن الفاسدين يتمادون في غيّهم فحسب، بل لأنه قد أصبح من الصعوبة بمكان الاهتداء إلى أسباب تُوقف عملية رجْم بعدما بدأت.

قد لا يبدو للوهلة الأولى أن لتلك الاستطرادات الأخلاقية علاقة كافية بالتأبّي الذي أظهره رايموندو سيلبا لقبول موجيمي شخصية من شخصياته، ولكن سرعان ما سوف يتبين فائدتها حين نُذكّر بأن رايموندو سيلبا- انطلاقاً من الظن بخلوّه من المعاصي المغلظة- غير مُبرأ من اقتراف أخرى، لا تقل عن السابقات دون شك وإن كانت

مما يُتساهل فيه دنيوياً لكونها شائعة ومتاحة للجميع، ونعني بها: التصنع أو الادعاء. إنه يعرف بما فيه الكفاية عدم وجود فارق واضح تماماً بين الكذب حول من الذي صعد فوق ظهر من (سواء كنت أنا الذي صعدت على ظهر «ميم راميريس»، أم أنه الذي صعد على ظهري) وبين فعل تافه مثل صباغة شعر الرأس، فكلاهما لا يخرج في نهاية المطاف عن كونه تصنعاً وتظاهراً، سواء بالنسبة لما هو جسماني أو لما هو غير أخلاقي، وبهذا الشكل يمكن من الآن تصور زمن يصبح فيه السلوك الإنساني مصطنعاً كله، مما يعني إهمال شأن الصراحة والعفوية والبساطة، تلك الصفات المضيئة والجميلة التي احتاجت إلى مجهود ضخم للوقوف على معانيها الدقيقة ومحاولة ممارستها في عصور جد بعيدة، والتي كنا مانزال نعتقد فيها –رغم وعينا بابتداعها للكذب أيضاً– أننا قادرون على عيش الحقيقة.

مع انتصاف المساء، في وقفة، بين صعوبات الحصار وبين تُرّهات القصة (وبالتحديد القصة التي تنتظرها دار النشر) خرج رايموندو سيلبا إلى الشارع بحثاً عن الاجتلاء قليلاً. لم يكن يفكر إلا في هذا: التمشية والتسلية وترتيب الأفكار. وبما أنه مرّ من أمام باب محل لبيع الزهور، فقد دخل واشترى وردة بيضاء. يعود الآن إلى البيت، خجولاً بعض الشيء، من حمله وردة في يده.

* * *

في الخفاء، ودون تحذير أو سابق إنذار، هاجمت الطائرات اليابانية الأسطول الأمريكي الذي كان قابعاً في «بيرل هاربور» لإجراء بعض الإصلاحات والتجديدات، وحدث الدمار المعروف، والذي يعتبر عادياً بالنسبة للخسارة في الأرواح إذا ما قورنت بما حدث في هيروشيما ونجازاكي، أما على صعيد الممتلكات المادية فكانت النتائج كارثية: تدمير مدرعات وحاملات طائرات ومدمرات... ناهيك عن الأضرار الجسيمة التي لحقت بأسواق المال وتداعياتها، والحصيلة النهائية ثلاث عشرة سفينة هَوَت إلى القاع دون التمكن من الدفاع عن نفسها ولو بطلقة واحدة. ومن أسباب حدوث هذه الكارثة عدم التحلي بأخلاق الفروسية القديمة والمتمثلة في الإعلان عن الحرب قبل اندلاعها بأيام ثلاثة، حتى يتسنى للعدو الاستعداد أو الفرار بجلده إن أراد، وأيضاً لكي لا يُوصم من قرر خرق الهدنة بخيانة الشرف العسكري. مُحال عودة تلك الأزمان. المهم أن هناك بوناً شاسعاً بين الهجوم الذي يتم في جوف الليل

دون طبول أو أبواق ولكنه مسبوق برسالة تحذير، وبين التسلل دون سابق إنذار كالقط– والسلاح مُشرعاً– حتى الأبواب الداخلية غير الموصدة، تهاوناً، والقتل غيلة. نعرف جيداً أنه لا يستطيع أحد الفرار من قدره، ومما لا شك فيه أن نساء وأطفال شنترين كان مقدراً عليهم الموت في تلك الليلة (بموجب الاتفاق الذي تم التوصل إليه بين إله المسلمين ورب المسيحيين) ولكن دون أن يكون لهم الحق في الشكوى من عدم إبلاغهم مقدماً، فبقاؤهم إذن كان بمحض إرادتهم، لقد أرسل مليكنا الصالح «ماريم موآب» مع زميلين له لإبلاغ المسلمين باندلاع الحرب بعد ثلاثة أيام، وبهذا الشكل لم يرتكب دون أفونسو هنريكس جرماً أخلاقياً ولم يلوّث الشرف الملكي حين صاح قبل المعركة قائلاً: لا تفرقوا بين عمر وجنس، اقتلوا الطفل الرضيع والشيخ الهرم والشابة اليافعة والعجوز الفانية. لقد قال هذا اعتقاداً منه أنه التزم بالقانون المتعارف عليه وحذّر، وأنه لن يكون في انتظاره سوى المقاتلين المسلمين، كلهم من الرجال وفي عنفوان العمر.

أما بالنسبة للموضوع الذي نحن بصدده، حصار لشبونة، فالتحذير فيه لم يكن له معنى على الإطلاق، لا لأن الهدنة قد انهارت منذ الاستيلاء على شنترين فحسب، بل أيضاً لوضوح الهدف من تجمع هذا الجيش في البطاح المجاورة، وكان من الممكن أن يزداد

عدداً لولا الخطأ الطباعي الذي تمادى فيه رايموندو سيلبا من جرّاء الضغينة التي تتملكه ولإحساسه بعد ذلك بالإهانة. ومع هذا، قرر الملك- مراعاة منه للشكليات- إرسال «دون جواو بيكوليار» و«دون بدرو بيتوئس» على رأس وفد من الأشراف للحوار مع حاكم المدينة. كان الوفد معززاً بقوة مدججة بالسلاح المناسب، لإظهار العضلات- من جهة -، وتوخياً للحذر من جهة أخرى. ولتفادي الوقوع في شَرَك غير متوقع ولا يمكن دفعه، لم يعبر الوفد مياه المصب، فليس من الضروري أن يكون الواحد خبيراً في الاستراتيجية- مثل نابليون أو كلاويسوتز- حتى يفطن إلى أن المسلمين لو فكروا في الاعتداء على الرُّسل وحاول هؤلاء الهرب فإن مياه المصب ستحول بينهم وبين الانسحاب السريع، هذا لو لم تكن قوات المسلمين الخاصة قد دمرت في مناورة خاطفة الزوارق التي استخدموها في العبور. ومن ثمّ فقد دارت رسلنا حول المصب- متتبعين الطريق الذي أشرنا إليه آنفاً- حيث انطلقوا من شارع «داس تايباس» حتى «ساليتري»، وبعد ذلك- مصحوبين بالخوف الطبيعي للسير في أرض الأعداء- خاضوا في الطين باتجاه شارع «داس بريتاس»، وبين صعود وهبوط اجتازوا أولاً جبل «سانتا آنا» ثم شارع «سان لاثارو»، مروراً بالجدول القادم من «ألميرانتي رييس»، ثم استأنفوا الصعود ثانية بتسلق شارع «دوس كاباييروس» وطريق «سان أندريه» حتى مشارف البوابة التي يطلقون عليها حالياً- ودون

مبرر– «مارتيم مونيث». من ذا الذي يفكر في احتلال مدينة موزعة هكذا بين مرتفعات ومنخفضات. كانت الرحلة طويلة، وشاقة أيضاً نتيجة لارتفاع الحرارة– رغم خروجهم في الصباح الباكر– وكان شعر البغال غارقاً في الزّبد، وأيضاً الخيول القليلة، وإن كانت الأخيرة في حالة أشد سوءاً لأن قدراتها على التحمل أقل من الهجناء، ولكونها حيوانات حساسة ورقيقة الطباع. أما المشاة فلم يضجوا بالشكوى رغم استحمامهم بالعرق، ولكن سرعان ما تملكهم القلق في أثناء انتظار فتح البوّابة حين جال بخواطرهم أنهم قد يضطرون لخوض معركة بعد هذا المشوار الصعب الذي قطعوه في أرض وعرة. موجيمي هنا، حالفه الحظ بالذهاب مع الفيلق، كما نشاهد أيضاً «ميم راميريس» في المقدمة بالقرب من الأسقف، إنها مصادفة عجيبة حقاً أن تجمع هذه اللحظة التاريخية بين بطلين أساسيين لموقعة شنترين، ولكل واحد منهما تأثير مماثل في خاتمة الأحداث، مادمنا على الأقل لم نتحقق بشكل قطعي من هوية الذي اضطلع منهما بدور الحمار للآخر. كان أعضاء الوفد برتغاليين لأن الملك لم يفضل الاستعانة بأجانب لتوجيه الإنذار الأخير، علماً بأن شكوكاً كثيرة تدور حول انتماء أسقف براغ إلى الدم البرتغالي، فمن المعروف أنه كانت قد بدأت في تلك الأزمان الغابرة تشيع شهرتنا– التي مازلنا نحتفظ بها حتى اليوم– في إحسان وفادة الأجانب وتوزيع المناصب والهبات عليهم، وإذا كان «دون جواو بيكوليار»

قد نال حظاً وفيراً منها فمن الواجب الاعتراف بأنه سدّد لنا بخدماته الوطنية المقابل مُضاعفاً. كما يُقال أيضاً إنه برتغالي قلباً وقالباً ومن «قُلمرية» (Coimbra) رغم قضائه لشطر كبير من حياته في فرنسا، وفي هذا المقام يجدر التنويه إلى الفرق الواضح بين اتجاه الهجرة المثمرة قديماً وبين هجرتنا الحديثة إلى ذلك البلد للقيام في النهاية بالأعمال الشاقة والمنحطة. أما الذي كان أجنبياً في الوفد دون شك، ولم يكن قادماً للمشاركة في الحوار أو للتأمين العسكري، بل لمهمة من نوع خاص، فهو ذلك الراهب ذو الشعر المنكوش والوجه الأنمش، ذلك الذي ينادون عليه الآن بـ «روخيرو» رغم أن اسمه الحقيقي هو «روجير»، والاسم الأخير يفتح الباب- إن لم تكن هذه المسألة تافهة بالنسبة للموضوع الذي نحن بصدده- أمام السؤال عن جنسيته: هل كان إنجليزياً أم نورماندياً. لقد كلّفه قسيس «بورتو» بأن يكون قريباً منهم لتسجيل كل ما يسمعه، بما يعني أن «روخيرو» أو «روجير» هذا كان مؤرخاً، وصفته تلك تتضح جلياً الآن بقيامه باستخراج أدوات الكتابة من الخُرْج، وهي عبارة عن مراقم[1] وعدة ألواح، لأن اهتزاز البغلة سوف يريق الحبر ويبعثر الحروف ولن يتمكن بالتالي من التدوين، والتعليل الأخير هو من بنات أفكار الرّاوي الذي يهتم باحتمال الأحداث للتصديق أكثر

(1) مراقم (جمع مِرْقم)، وهو القلم، (وفي الرسم والتصوير): إصبع كأصابع الطباشير مصنوعة من أصباغ ترابية أو شمعية لتلوين المصورات والرسوم على الألواح والورق الخشن. (المترجم).

من اهتمامه بالحقيقة ذاتها لأنها بعيدة المنال. لا يعرف «روخيرو» هذا كلمة برتغالية واحدة أو عربية، ولكن الجهل هنا لن يمثل عائقاً لأن الحوار كله- أينما تشعب- سوف يتم من خلال اللغة اللاتينية وفي حضور المترجمين الفوريين. سيتحدث أسقف براغ باللاتينية وسوف يترجم عنه إلى العربية (إذا لم تتم الاستعانة بميم راميريس، الذي أظهر كفاءة أكثر من كافية في هذا المجال، لكونه أحد أفراد القوة العسكرية) واحد من هؤلاء الرهبان المصاحبين للوفد، وبعد ذلك سوف يجيب الحاكم المسلم بلغته لكي ينقلها راهب آخر إلى اللاتينية، وهكذا دواليك. ما لا نعرفه حتى الآن يتمثل في الإجابة على السؤال التالي: هل يوجد هنا أحد مُكلَّف بنقل ملخص لما يدور إلى الجليقية حتى يتسنى للبرتغاليين الذين لا يعرفون سوى لغة واحدة الوقوف على حقيقة ما يجري. ونتيجة لكل هذا التأخير في النقل من لغة إلى أخرى، فإننا سنقضي هنا بقية المساء بالتأكيد لو طال الحوار.

كانت الشرفات والشوارع المؤدية إلى القصر مكتظة عن آخرها بمسلمين سود ملتحين، يصدرون إيماءات تهديد، ولكن في صمت، مدخرين الكلام، لاحتمال انسحاب المسيحيين مثلما فعلوا منذ سنوات خمس، وفي هذه الحالة تكون شتائمهم قد ضاعت سدى. انفتحت على مصراعيهما ضلفتا الباب المدعومتان بمسامير

وترابيس حديدية، وخرج من بينهما نفر من المسلمين، أحدهم طاعن في السن، ربما يكون الحاكم، ولقب الحاكم يصلح لكل من لم يُتمكن من تحديد هويته، ونحن لم نصرح بها هنا لأنه من المشكوك فيه إصابة كبد الحقيقة عند الاختيار بين احتمالين أو ثلاثة، ناهيك عن احتمال أن يكون الذين بالداخل قد أرسلوا للتفاوض فقيهاً أو قاضياً أو أميراً أو حتى مفتياً، أما أغلبية القادمين فهم موظفون أو رجال حرب، وكانوا في عدد مساوٍ بالضبط لعدد البرتغاليين المنتظرين في الخارج، ومن ثمّ فقد استغرق خروجهم وقتاً طويلاً لاسيما إذا كانوا قد أنفقوا بعضه في تنظيم الفيلق قبيل الخروج. يدّعي البعض أن السلطات المدنية والعسكرية والدينية في الأزمان القديمة كانت– بوجه عام– مُزَوّدة بأحبال صوتية جهورية، قادرة على جعل الأصوات مسموعة من مسافات بعيدة، وبهذا الشكل فعندما يتعين على قائد ما التوجه– في الحكايات التاريخية– بكلمة إلى القوات أو إلى حشود أخرى كبيرة، فلا يتعجبن أحد من وصول صوته إلى مئات وآلاف السامعين رغم اللغط والجلبة التي يصدرونها في معظم الأحيان، ولم لا نتعجب ونحن ندرك حالياً مدى الجهد الذي يستلزمه تركيب وضبط الإليكترونيات لكي يصل الصوت إلى جمهور الصفوف الخلفية دون وَهَن أو شوائب تؤثر حتماً في المعاني وتغير في المضامين. أما من جهتنا، فإن حبنا للحقيقة يضطرنا– في مخالفة منا لما جرت عليه العادة، وتكذيباً للتقاليد المتبعة

والمحتفى بها في وصف وتصوير المشاهد التاريخية- إلى التصريح قائلين بأن رُسل الطرفين تقابلوا على بعد خطوات قليلة لأن هذه هي الطريقة الوحيدة لسماع كل طرف منهما لما يقوله الطرف الآخر، أما المحيطون بهما- سواء مسلمو المدينة أو برتغاليو الحملة- فقد بقوا منتظرين انتهاء الحوار الدبلوماسي أو مجيء المبشرين بالأخبار لإبلاغهم، في أثناء سير الحوار، بمقتطفات منه أو نقل انطباعاتهم الشخصية عما يدور فيه، سواء كانت متفائلة أو متشائمة. وهذا حتى نكون على بيّنة في النهاية من أن أصداء الحوار لم ترن فوق الوديان أو تتقافز من جبل إلى جبل، وأن السماء لم تنفطر، ولم ترتعد الأرض، ولم ترجع القهقهرى مياه النهر، وهذا لأن كلمات أولئك الرجال لم تبلغ من القوة مبلغاً يجعلها تصل إلى يومنا هذا، رغم أنها كلمات حرب ووعيد، وهذا يتناقض مع مبالغات مؤلفو الملاحم الذين كنا نثق فيهم ثقة عمياء.

قال الأسقف، كي يسجل ما يقوله باختصار «روخيرو»، تاركاً إضفاء اللمسات الجمالية على الخطبة للمرسل إليه، ونعني به المدعو «أوسبرنو»، أيّاً كانت هويته أو موطنه، ولكنه يُدرج فيها الآن إضافات من عمل يده ومن ثمار إلهامه المتقد: جئنا إليكم للتفاوض- شرع الأسقف في الكلام، واستمر- انطلاقاً من قناعتنا بأننا جميعاً، نحن وأنتم، أبناء طبيعة واحدة وأصحاب معتقد واحد، ومن السوء

إذن الاستمرار في هذا الصراع الكريه، يسعدنا لو أنكم تصدقون بأننا لم نأت إلى هنا من أجل الاستيلاء على المدينة أو تجريدكم منها، ويا ليتكم تقدرون هذه السماحة المسيحية التي تميز المسيحيين عامة، فهم رغم طلبهم لما ينتمي إليهم لا يسرقون الغير، ولو سألتمونا لماذا جئتم إذن سنقول من أجل المطالبة فحسب بحقنا في ملكية المدينة، ولو كانت لديكم المبادئ الكاملة للعدل الطبيعي وليس نتفاً منها لقمتم على الفور– ودون رجاء منا– بلملمة حاجياتكم وأموالكم ونسائكم وأطفالكم وشحنهم جميعاً إلى أراضي المسلمين التي قدمتم منها للبغي علينا، تاركين لنا ما ينتمي إلينا، لا تقاطع، دعني أكمل حديثي، أرى بوضوح هزّات رؤوسكم جهة اليمين وجهة اليسار، مظهرين بالإيماءات الرفض الذي لم تنطقه أفواهكم بعد، ألا تقرون بأن ما تملكونه الآن قد سرقتموه منا من قبل، وسرقتم معه مملكتنا، مملكة «لوسيتانيا» (البرتغال حالياً)، وأنكم دمرتم– ومازلتم– المدن والقرى والكنائس، لقد مرت حتى اليوم ثلاثمائة وثمان وخمسون سنة على احتلالكم الظالم لأراضينا ومدننا، ورغم هذا– ومراعاةً منا لوجودكم في لشبونة منذ أمد بعيد ولولادتكم أيضاً بين ظهرانيها– فإننا نريد استخدام كرمنا المعهود معكم ونطالبكم فحسب بتسليم المدينة مع السماح لكم بالبقاء فيها أحراراً كما كنتم، فنحن لا نريد طردكم من منازلكم أو إجباركم على التخلي عن عاداتكم وعقيدتكم، اللهم إلا إذا كنتم تفضلون الردّة بمحض إرادتكم وزيادة

أعداد رعايا كنيسة الرب، لاشك أن مثل هذا العرض لا يقدمه إلا صديق لأن مدينة لشبونة عُرضة لأطماع الكثيرين نظراً لغناها الذي نعرفه وللنعيم الذي يرفل فيه قاطنوها حسبما نرى، انظروا إلى هناك وسوف ترون معسكرات وسفناً ورجالاً كثيرين متعطشين لقتالكم، ولذا أتوسل إليكم بتفادي خراب الحقول ودمار الثمار، ولتأخذكم الرحمة بثرواتكم ودمائكم، اقبلوا السلام المعروض عليكم من موقع القوة، فأنتم تدركون بلا شك أن السلام المتحصل عليه دون حرب أفضل بكثير من السلام المفروض بقوة السلاح وإراقة الدماء، وأن الصحة المُعفاة من المخاطر أهنأ كثيراً من الصحة المستنقذة من بين براثن الآلام الخطيرة وشبه المميتة، ولا يعتبر استغلال للتنويه السابق إن قلت فكروا جيداً في الآلام الخطيرة والفتاكة المحدقة بكم، إذا لم تتخذوا القرار الصائب المفيد لكم فلن يكون أمامكم سوى أحد احتمالين: إما أن تستطيعوا درء المصيبة الوشيكة أو السقوط صرعى بين مخالبها، إياكم والبحث عن احتمال ثالث لأنكم وصلتم إلى النهاية، وعليكم استحضار القانون الروماني الذي يقول: فوق الرمال لا يُستشار غير الجلاد، ولا تقولوا لي إنكم مسلمون ولستم جلادين لأن هذا القانون يسري عليهم كما يسري عليكم مادمتم ستواجهون الموت، وإلى هنا ينتهي حديثي، إذا كنتم تريدون الرد، فهيا وبإيجاز.

لا يتناسب الكلام السابق مع رجل دين مهمته رعاية الأنفس وإرشادها إلى الطريق القويم، هذا الكلام الجاف البارد المغلف بالطلاوة والمختوم بإنذار نهائي فظ ومريع، ولكننا نريد قبل الاسترسال في سرد الأحداث التوقف عند إشارة جديدة وغير متوقعة وردت على لسان ذلك الأسقف، ونعني بها اعترافه بأن المجتمعين هنا- مسيحيون ومسلمون- هم أبناء طبيعة واحدة وأصحاب معتقد واحد، وعلى هذا نعتقد أن الرب- في طبيعته الأبوية وبصفته الصانع الأوحد للمعتقد الذي تولدت عنه المعتقدات- هو دون جدال أب وصانع هؤلاء الأبناء المغرورين، وأنهم بقتالهم لبعضهم بعضاً يهينون هذه الأبوة المشتركة إهانة بالغة، بل إنه يمكن القول حتى- ودون مبالغة- إن هؤلاء الأبناء يتصارعون حتى الموت فوق الجسد الخامل للربّ المثقل بالسنين. لقد قدّم أسقف براغ بكلماته تلك الدليل الواضح على عدم وجود فوارق البتّة بين رب المسيحيين وإله المسلمين (أي أن الاسمين هما لمسمى واحد)، ولو عدنا إلى الزمن الذي لم يكن فيه لمخلوق اسم لتبين لنا أنه لم تكن هناك فوارق بين مسلم ومسيحي سوى الموجود منها بين إنسان وآخر: اللون، الطول، الهيئة، الضخامة، النحافة...، ومن المحتمل أن الأسقف لم يهدِه تفكيره (ولا نعيب عليه هذا، واضعين في الاعتبار شيوع الأميّة والتخلف الثقافي في ذلك العصر) إلى أن المشاكل تبدأ دوماً حين يظهر في المشهد وسطاء الرب، سواء كانت أسماؤهم يسوع

أو محمداً أو موسى، مكتفين بهؤلاء عن ذكر أنبياء ومبلّغين آخرين أقل منهم رتبة. وعلى أي حال فنحن ندين بالشكر لأسقف براغ، المسلح والجاهز للحرب (بدرعه، وسيفه الضخم المغمد في قربوس البغلة، وخوذته التي تغطي الرأس والأنف) على تعمقه في التأمل اللاهوتي، وربما كانت الأسلحة التي يحملها هي السبب في عدم تمكنه من الوصول إلى نتائج تستند إلى منطق إنساني، وعلى هذا فلنا أن نتصور إلى أي مدى كانت المعدات الحربية– حتى في ذلك العصر الغابر– قادرة على حمل رجل مثله على التفكير بطريقة مختلفة، نعرف هذا بشكل أفضل اليوم وإن كانت هذه المعرفة غير كافية لنزع السلاح ممن يعتبرونه عقلهم الوحيد. ليست لدينا أدنى نيّة لإهانة هؤلاء الرجال– الذين لم يكن فيهم من البرتغالية إلا النزر اليسير– وكانوا يحاربون من أجل إنشاء وطن لهم في ميدان مفتوح على كل الأساليب المتاحة، بما فيها الخيانة لو دعت الحاجة إليها، لأن الأوطان جميعهاً ودون استثناء وُلدت هكذا، أما بالنسبة للسقطات التي وقعوا فيها فسوف يتم التجاوز عنها بل وستتحول مع الزمن إلى نياشين.

لقد أضاع منا– ويا للأسف– الشرود في هذه الاعتبارات المحفوفة بالمخاطر الافتتاحية المهمة لخطبة الحاكم المسلم والذي أثار فيها الشكوك– طبقاً لما استطاع التقاطه ونقله إلينا باختصار

المبشر بالأخبار- حول مجرد الانتماء الجغرافي إلى ما يدّعون أنه مملكة «لوسيتانيا» (البرتغال). ونكرر الأسف لأن قضية الحدود المثار حولها الجدل تلقي بظلالها على سؤال مهم: هل نحن جميعاً ننتمي تاريخياً إلى سلالة وذراري اللوسيتانيين المشهورين، وكان من الممكن الوقوف على إجابة هذا السؤال من الكلام الذي فاتنا وجاء على لسان مستنيري ذلك العصر (ونقصد بهم- طبعاً- المثقفين المسلمين)، رغم أن إجابتهم السلبية ستقابل بالإنكار من قِبَل أولئك المكابرين ومُدّعي الوطنية الذين لا يعترفون بأنهم في عِداد الأحياء ما لم يكن كل واحد منهم يحمل في دمه قطرتين أو ثلاثاً من دم «بيرياتو». ومع هذا فقد ظل الشك قائماً، مما جعل «أندريه دي ريسيند» لا يميل كثيراً إلى اشتقاق كلمة «لوسيادا» من «لوسيو»، إلى أن جاء «كامونس» واهتدى بضربة حظ- فيها الكثير من التوفيق- إلى اختيار لفظة «البرتغاليين» عنواناً لكتابه. أما الآن، فهيا بنا نصيخ السمع للحاكم المسلم قبل أن تضيع علينا أيضاً بقية الخطبة، ولاحظوا معي كيف يخرج صوته هادئاً مطمئناً، في نغمة من يتروى في سرد الحقائق الناصعة التي لا يود فراقها: كيف تطلبون منا- يتساءل- تصديق ما قلتموه عن رغبتكم في وضع أيديكم على المدينة فحسب مع بقائنا أحراراً ودون مغادرة منازلنا، إذا كان ما تعدون به يكذّبه مثال شنترين الصارخ، حيث أسرفتم في القتل المريع إلى حد سلبكم من الشيوخ والمسنين ما بقي لهم من حياة قليلة،

وذبحكم للنساء كالخراف البريئة، وتقطيعكم للأطفال إرباً دون أن تأخذكم الرحمة بصراخهم الواهن، لا تقولوا لي إن هذه الأحداث المأساوية قد انمحت من ذاكرتكم، لو كنتم نسيتموها فنحن لم ولن ننسى، وإذا كنا لا نستطيع حقاً إحضار شهدائنا في شنترين إلى هنا كي يذكرونكم بها فهاهم مبتورو الأطراف الذين فروا من المذبحة الرهيبة بما تبقى لديهم من قوة واستطاعوا الوصول إلينا للاحتماء بمدينتنا، هؤلاء الذين تريدون استئصال شأفتهم ونحن معهم، ألم تكفكم الجريمة الأولى، أنتم واهمون لو تصورتم للحظة أننا يمكن أن نفكر في تسليم لشبونة لكم، هكذا دون حرب، أو إخضاعها لسيطرتكم حتى مع الوعد بتركنا نعيش فيها، هل ذهب بكم الشطط إلى الحد الذي تتخيلون فيه أن سذاجتنا بالغة بحيث نُقدم على مقايضة المؤكد بالمظنون، واثقين فحسب في تلك الكلمة التي لا تساوي خردلة، كلمتكم. صدرت عن قسيس بورتو إيماءة توحي بمقاطعته للمسلم، ولكن الأسقف وأد محاولته في المهد قائلاً: اصبر حتى نسمع الباقي، والكلمة الختامية ستكون من نصيبك. استمر المسلم: لقد كانت هذه المدينة في حوزتكم ذات يوم، وربما تعود إليكم مستقبلاً، فهذا الأمر لا يعلمه إلا علاّم الغيوب، الذي أعطاها لنا حين أراد وسوف ينزعها منا وقتما يشاء، فأمام قضائه لا توجد عوائق ولا مَنَعة لأسوار، وهذا ما تمليه علينا عقيدتنا ونحن لا نفعل قط ما يغضب الرب، فهو الذي أنقذ دماءنا مرات عديدة من بين

أيديكم، ومن ثمّ فنحن نعبده بحق ولا نتخلى عن تقديسه، لا لأن بيده الخير والشر فحسب، بل لأنه أيضاً يلهمنا الصبر على الشدائد والمحن، وفي النهاية أقول لكم انقشعوا من هنا لأن أبواب لشبونة لن تُفتح إلا على أسنّة الرماح، أما بالنسبة للكوارث التي تتوعدوننا بها فإنها لو حدثت فسوف تحدث في المستقبل، وتهديدنا بما لم يأت بعد ضَرْب من القِحة والعَتَه. أمسك المسلم عن الكلام وكأنه يبحث عن أسباب أخرى يسوقها، ولكن يبدو أنه وجدها لن تقدم ولن تؤخر، ومن ثمّ فقد هزّ كتفيه واختتم قائلاً: لا تضيعوا وقتاً أكثر، افعلوا ما في وسعكم ولنفعل نحن ما قضت به مشيئة الله.

وقعت هذه الكلمات المتعقلة موقعاً حسنا من نفس رايموندو سيلبا، لا لأنها توكل إلى الله حلّ الخلافات- المعقودة باسمه وسببه- التي تدفع الرجال لقتال بعضهم بعضاً، بل لما تنطوي عليه من سكينة رائعة أمام الموت المتوقع، فالموت لكونه معلوماً على الدوام يصبح حتمياً حين يأتي في هيئة المحتمل، والتناقض الظاهري في العبارة الأخيرة يتبدد بقليل من التأمل. بعد المقارنة بين الخطبتين حزّ في نفس المصحح رؤية كيف أن مسلماً بسيطاً تعوزه إشراقات الدين الحق- وإن كان مزيناً بشارة الحكم- قد استطاع، بلاغة وفطنة، التحليق عالياً، متجاوزاً بكثير أسقف براغ رغم دراساته العليا في مجامع الأساقفة والمجامع اللاهوتية والعقائدية. من الطبيعي أن تنزع

النفس إلى الرغبة في انتصار جماعتنا في كل شيء، وبالنسبة لرايموندو سيلبا، فإنه- رغم شكوكه في أن جسد الأمة التي ينتمي إليها يحوي دماً موريسكياً أكثر من الدم اللوسيتاني- كان يفضل الإشادة بجدلية «دون جواو بيكوليار» بدلاً من إهانتها ثقافياً أمام الخطبة النموذجية لكافر لم يحتفظ التاريخ حتى باسمه. ومع هذا فما زال هناك متسع لاحتمال تفوقنا في النهاية على العدو في هذا التراشق الخطابي بعد أن جاء الدور على قسيس بورتو للإدلاء بدلوه. إنه مسلح أيضاً. يضع يده على مقبض السيف الضخم المزدان بعلامة الصليب ليقول: تحدثنا إليكم برفق على أمل سماعنا بآذان رفيقة، لكنكم استمعتم إلينا بغيظ وسخط، ومن ثمّ فقد آن الأوان لنلقي عليكم بكلمات ساخطة مغتاظة للتعبير عما نكنّه من ازدراء تجاه عادتكم المتخاذلة في الوقوف مكتوفي الأيدي انتظاراً لجريان الأحداث ولما تسفر عنه من رزايا، إن تعلقكم بأمل هش وضعيف- لكونه لا يعتمد على الثقة بالقدرات الذاتية، بل على انتظار ما يمكن أن يحلّ بالغريم من أرزاء- يعني اعترافكم بالهزيمة مقدماً، وبما أنكم تحدثتم عن المظنون والمستقبل أقول لكم انظروا إلينا وتعلموا منا، فنحن لو أخفقنا في تنفيذ مهمة ما نعاود الكرة مرة ومرات حتى نحقق ما نصبو إليه، وإذا كانت محاولاتنا السابقة ضدكم قد باءت حتى اليوم بالفشل فها نحن أولاء نحاول من جديد، لكي نجعلكم تتجرعون في النهاية كأس المصير الذي ينتظركم عندما ندق هذه الأبواب التي

لا تريدون فتحها لنا، استمروا في انتظار ما تقضي به إرادة الرب لأن هذه الإرادة هي التي ستجعلنا ننتصر عليكم، انتهى الكلام، وسوف نغادر المكان دون توجيه التحية إليكم لأننا لا ننتظر منكم تحية. وفور فراغه من إلقاء كلمات الوداع المهينة هذه لوى عنان راحلته، مدفوعاً بتهوره الغضوب، ورغم أن رتبته لا تؤهله لاتخاذ مثل هذه المبادرات فقد أعطاهم ظهره منسحباً، ومن ورائه الحملة عن بكرة أبيها. ارتفع في تلك الأثناء صوت الحاكم المسلم، دون أن يكون به أيّ أثر للتخاذل الغريب الذي أفقد الحَبْر صوابه، ليقول في جسارة وكبرياء مماثلين: ترتكبون خطأ فادحاً لو خلطتم بين الصبر والخَوَر أو الخوف من الموت، لم يرتكب خطأ مثل هذا آباؤكم ولا أجدادكم الذين هزمناهم بقوة السلاح مرة وآلاف المرات في طول إسبانيا وعرضها، تحت الأرض التي تمشون عليها الآن تثوي جثامين بعض الذين تصوروا أن بإمكانهم التصدي لهيمنتنا، إياكم والاعتقاد إذن بأن مسلسل الهزائم قد انتهى بالنسبة لكم، سوف تتهشم عظامكم على هذه الأسوار وتُقطع أياديكم النّهمة، ارحلوا لتجهزوا أنفسكم للموت، فنحن لكم، وعلى الدوام، الموت الزّؤام.

لا توجد في السماء سحابة واحدة، تلمع الشمس عالية وحارقة، يحلق سرب من طيور الخُطّاف فوق رؤوس العَدُوَّيْن صارخاً بحدة. ينظر موجيمي إلى السماء، تأخذه رعْدة، ربما يكمن السبب في

الصياح المجنون للطيور، ربما في تهديدات المسلم، حرارة الشمس غير ذات فائدة، تصطك الأسنان من جرّاء برودة مفاجئة، عارٌ على رجل أسقط شنترين بمجرد سلم بسيط في يده.

سُمع صوت أسقف براغ في الصمت بأمر مُوَجَّه إلى الكاتب: لا تسجل يا فراي روخيرو ما قاله المسلم، كلمات وذهبت أدراج الرياح ولم نكن موجودين وقتها، كنا نهبط منحدر «سان أندريه» متجهين إلى حيث ينتظرنا الملك، سوف يشاهد سيوفنا المستلّة تلمع في ضوء الشمس ويعرف أن الحرب قد بدأت، يمكنك– نعم– تسجيل الكلام الأخير.

* * *

في الأيام الأولى بعد تخلصه من الصبغة التي غطّت خلال سنوات طويلة على تصاريف الدهر، كان رايموندو سيلبا يلاحظ بهوس، ومن الصباح إلى المساء (مثل مزارع ينتظر بزوغ النبتة التي غرس حبتها في الأرض) جذور شعره، مستمرئاً لهفة توقع الصدمة التي سيسببها له بالتأكيد بزوغ شعره الحقيقي، العاري عن الصنعة. ولأن الشعر يكون متكاسلاً في النمو بعد سنّ معينة، أو لأن الصبغة ربما تكون قد تسللت إلى الطبقة الواقعة تحت الجلد وصبغتها أيضاً (وهذا كله محض افتراض اضطرتنا إليه الحاجة لشرح ما ليس له من الأهمية سوى النزر اليسير) فقد انتهى الحال برايموندو سيلبا لإضفاء أهمية أقل على الموضوع- تدريجياً- حتى أنه كان يضع مؤخراً المشط على شعره دونما اكتراث وكأنه في مقتبل العمر، ورغم هذا فمن الواجب الإشارة إلى ما ينطوي عليه هذا السلوك من سوء نية وزيف يمكن ترجمتهما في مقولة لم تخطر على بال أحد من قبل: «لا أرى لأنني قادر على التظاهر بأني لا أرى»، وما لبث أن تحول

مضمون هذه المقولة إلى قناعة ظاهرية– وإن كانت مخالفة للعقل والواقع– برسوخ وثبات مفعول الصبغة وكأنها شيء هكذا مثل جائزة منحها له القدر إزاء رفضه الشجاع لسخافات الزمن. ورغم ما تقدم ذكره، ففي هذا اليوم الذي سيتوجه فيه إلى دار النشر لتسليم بروفات القصة التي انتهى من قراءتها ومراجعتها، دخل رايموندو سيلبا الحمّام، قرّب وجهه ببطء من المرآة، ثم دفع إلى أعلى وبأصابع متوجسة خصلة الشعر الموجودة في مقدمة الرأس وهاله ما رأته عيناه: الجذور البازغة لونها أبيض، بل إن التناقض بينها وبين بقية الشعر الذي مازال عليه أثر الصبغة يجعل بياضها ناصعاً ويُضفي عليها سمت المباغتة وكأنها نبتت بين عشية وضحاها في أثناء غفوة ألمت بالزارع من جرّاء تعب الانتظار. اعتراه عندئذ الندم على القرار الذي اتخذه، أو بمعنى أصح لم يصل إلى الندم، ولكنه فكر في أنه كان بإمكانه تأخير القرار لبعض الوقت، وفي أنه اختار بغَتَه اللحظة الأقل مناسبة. بلغ التناقض الذي أحس به مبلغاً جعله يتصور أن بإمكانه– اليوم على الأقل– العثور على قنينة منسية بها فُضالة من السائل المُراق، سأعود غداً إلى قراري الصارم الذي اتخذته من قبل. ومع هذا كله لم يفتش، لأنه يعرف– من جهة– أنه تخلص من السائل كله، ومن جهة أخرى لأن احتمال عثوره على شيء سيضطره إلى اتخاذ قرار جديد قد يكون مناقضاً لقراره السابق، وبهذا الشكل يظل متأرجحا بين الإبرام والنقض، طالما أن إرادته الضعيفة– طبقاً

لاعترافه- غير قادرة على الحسم.

منذ سنوات جدّ بعيدة، وعندما زيّن رايموندو سيلبا- وهو في معية الشباب- معصمه بساعة يد، أراد الحظ تملق غروره العريض- في أثناء تجواله بشوارع لشبونة والطرفة الجميلة حول معصمه- بأن وضع في طريقه أربعة أشخاص متحرقين شوقاً لمعرفة الوقت: كم الساعة- كانوا يسألون- فيرد عليهم بكرم وسخاء. لقد كانت حركة مدّ الذراع لإرجاع كُمّ القميص إلى الوراء وإظهار التحفة البرّاقة للناظرين تُضفي عليه إحساساً بالأهمية، قلما يتكرر، لاسيما الآن، وهو يشق طريقه من البيت إلى دار النشر، محاولاً التواري عن العيون، في الشارع أو بين ركاب الحافلة، وكاظماً أية إيماءة يمكن أن تجذب انتباه أحد، مثل هذا الذي يريد أيضاً معرفة الوقت، ويظل محدقاً بسخرية في الخط الأبيض الناصع لمفرق الشعر في أثناء انتظاره لقيام رايموندو سيلبا بتخليص الساعة بعصبية من الأكمام الثلاثة التي تغطيها اليوم (كم القميص، ثم الجاكت، ثم المعطف) لكي يجيب بغضب وكدر في النهاية: إنها العاشرة والنصف. يمكن أن تكون القبعة ذات نفع، ولكن رايموندو سيلبا لم يستخدمها من قبل، وحتى لو استخدمها فإنها لن تذلل إلا جانباً من الصعوبات، إذ ليس من المعقول دخوله دار النشر وهي مستوية فوق رأسه. «أهلاً، كيف الحال» ثم يدلف بعد ذلك إلى مكتب الدكتورة ماريا سارة: «ها هي

القصة»، الأفضل دون شك أن يعتبر أن كل شيء طبيعي، أبيض أو أسود أو مصبوغ، فالناس تنظر مرة، ولا تدقق في الثانية، وفي المرة الثالثة لا يهتم أحد. ولكن هناك بوناً شاسعاً بين اعتبارات المثقف الذي يحاول المواءمة بين الاختلافات بطرحه- مثلاً- السؤال التالي على نفسه: «هل تحفل فينوس بوجود أشيب آخر على ظهر البسيطة»، وبين شيء آخر رهيب، ألا وهو: مواجهة عاملة السويتش وتحمل نظراتها المستنكرة، وتخيل الضحكات والهمهمات التي ستتغذى عليها أوقات الفراغ في الأيام القادمة. كان «كوستا» هدفاً للسخرية عند صباغته لشعره، ولم يسلم من القيل والقال بعد إقلاعه، يوجد أناس لا يعدمون سبباً للتندر والتسلية. فجأة، ذهبت كل هذه الاهتمامات الفارغة أدراج الرياح حين قالت له عاملة السويتش: الدكتورة ماريا سارة غير موجودة، إنها مريضة ولا تأتي إلى العمل منذ يومين. وبهذه الكلمات اليسيرة وجد رايموندو سيلبا نفسه موزعاً بين إحساسين مختلفين: السعادة لعدم تمكنها من رؤية الشعر الأبيض البازغ، وغمّ لا حدود له، ليس مبعثه المرض الذي لا يُعلم كنهه حتى الآن، فربما يكون نزلة برد بسيطة أو أمراً عرضيّاً من الأمور الخاصة بالنساء، بل من حالة الضياع التي وجد نفسه فيها، لقد خاطر كثيراً وتعرض لإهانات من أجل أن يقوم بتسليم أصول القصة يداً بيد، ولكن اليد الأخرى غائبة، ربما تكون مستريحة فوق الوسادة إلى جوار الوجه الشاحب، أين، وإلى متى. تبين لرايموندو

سيلبا أن تعمده تأخير تسليم العمل بقصد الاستمتاع بانتظار اللحظة التي يسلمه فيها لم تعد له فائدة الآن، «الدكتورة ماريا سارة غير موجودة»- قالت عاملة السويتش -، همّ عندئذ بالانسحاب، ولكنه سرعان ما تذكر أنه يجب تسليم العمل لشخص ما، إلى كوستا بالطبع: والسيد كوستا موجود- سأل، وفي هذه اللحظة أدرك أن وقفته تتقاطع جانبياً مع عاملة السويتش الجالسة، بغرض اختلاس بعض النظرات، ومغتاظاً من هذا الضعف البشري دار قليلاً على عقبيه ليصبح في مواجهة كل طرائف العالم، ولكن ساريتا لم تنظر إليه، ظلت منهمكة في إدخال وسحب المفاتيح من جهاز السويتش العتيق، واقتصرت على إصدار إيماءة إثبات، مع الإشارة في الوقت نفسه بحركة مبهمة من رأسها تجاه ممر المدخل، وهذا كله يعني أن كوستا موجود هناك وأنه لا حاجة لإعلامه مسبقاً بقدوم الزائر، وهذا ما يعلمه رايموندو سيلبا جيداً، فهو قبل قدوم الدكتورة ماريا سارة لم يكن عليه سوى الدخول ثم الشروع في البحث عن كوستا، الذي يمكن أن يكون موجوداً- لطبيعة عمله- في المكاتب الأخرى، سواء للمطالبة بشيء أو للاحتجاج أو- ببساطة- للاعتذار للإدارة عند حدوث خلل في سير البرنامج، حتى وإن كان غير مسؤول عنه.

مكتب الدكتورة ماريا سارة مغلق. فتح رايموندو سيلبا الباب ونظر إلى داخله فأحس بضغْطة على الحجاب الحاجز، ليست

بسبب الغياب في حد ذاته بل نتيجة لانطباع موحش بالفراغ، بالهجر الأخير البادي من الترتيب الصارم للأشياء، والذي جعله يتذكر فكرة جالت بخاطره ذات يوم، مفادها: إن الترتيب الصارم للأشياء يمكن تحمله فحسب لو كان يُعَكّره حضور إنساني. فوق الطاولة كانت تنحني- مغشياً عليها- وردة بيضاء، سقطت منها نوريّتان. أغلق الباب في عصبية، لا يمكنه الاستمرار هناك لاحتمال ظهور أحد، ولكن منظر المكتب الخالي- حيث تذبل ببطء الحياة الوحيدة فيه، حياة الوردة، في طريقها إلى الموت من خلال الاضمحلال الطويل للخلايا- غمره بهواجس سيئة، بفأل أسود، ولكنه سيفكر قليلاً في هذا، بعيداً عن المكان، «ما شأني أنا بهذه السيدة»، ولكن التظاهر بالتنزه عن الغرض لن يُهَدِّئ من روعه. رحّب به كوستا، «نعم، الدكتورة ماريا سارة مريضة»، لماذا تخبرني بهذه الكلمات التي لا تفيد، رايموندو سيلبا يعرف أنها مريضة، وأن استلام كوستا لبروفات القصة أمر أكثر من متوقع، أما بالنسبة للباقي فلا يهمه كثيراً المصير القريب أو البعيد للقصة، ما يهمه هو الحصول على معلومات، ولن يعطيها له أحد بالطبع مادام لم يسأل، مَرَض موظف بالدار ليس مبرراً لنشر التقارير الطبية عن حالته أولاً بأول. وفي مجازفة منه، لاحتمال تعجب كوستا من اهتمامه الزائد، تجرأ وسأل: هل هو خطير. خطير ماذا- سأل الآخر لعدم فهمه المقصود بالسؤال. مرض الدكتورة ماريا سارة، (ضيق رايموندو سيلبا الآن

مبعثه احتمال تورد محياه خجلاً في هذه اللحظة). آه، لا أعتقد، وفي محاولة منه لسَوْق الموضوع نحو اهتماماته المهنية أضاف بلمحة سخرية خفيفة، موجهة إلى الدكتورة الغائبة وإلى المصحح الحاضر: لا تشغل بالك، وحتى لو طال المرض فإن عمل الدار لن يتوقف. وفي هذه اللحظة انحرف كوستا بنظره قليلاً واستضاء وجهه بنور ابتسامة خبيثة. قطّب رايموندو سيلبا جبينه في انتظار التعليق، ولكن كوستا كان قد عاد إلى القصة، يتصفحها وكأنه يبحث عن شيء لا يستطيع تحديده، وعندئذ كان المصحح هو الذي ابتسم متذكراً ذلك اليوم الذي تصفح فيه كوستا كتاباً آخر، قصة حصار لشبونة، التي تمخض التزييف فيها- رغم اكتشافه وتداركه- عن كل هذه التحولات والتغييرات السّارة: حصار جديد، ولقاء لم يتوقعه أحد، ومشاعر آخذة في التحرك ببطء مثل الموجات الثقيلة لبحر من الزئبق. أحس كوستا على الفور أنه هدف للملاحظة، اعتقد أنه فهم السبب، ومثل من يُقدم على الانتقام المتأخر سأل: ألم تسجل هنا أية «لا» أخرى. أجاب رايموندو سيلبا بتهكم: اطمئن، وضعت هذه المرة «نعم». ترك كوستا ربْطة الأوراق فجأة ليقول بجفاف: إذا لم يكن هناك شيء آخر تريده مني...، وترك الجملة مبتورة، ولم يكن رايموندو سيلبا- وبفضل خبرته الطويلة في التصحيح- في حاجة إلى التكملة ليعرف أن عليه الانسحاب.

انتهزت «ساريتا» فرصة توقف قصيرة لكي تنهمك في تسوية ظفر انكسر منذ دقائق من جرّاء التعامل الخشن مع مفاتيح وكابلات السويتش، ها هي قد سوّت الظفر وشرعت في صقله بالمبرد، إنها مركزة بشدة في عملها، وبالتأكيد لن تقدم لرايموندو سيلبا الإجابة المبتغاة التي صاغ سؤالها على ضوء فكرة واتته في أثناء قدومه من الممر، وربما يكون النزال الدياليكتيكي مع كوستا قد ساهم في تكوينها، ولكن سنرى الآن مدى فائدة هذه الفكرة، السؤال هو: «أتعرفين إذا كان بإمكان الدكتورة ماريا سارة تلقي مكالمات هاتفية، لديّ موضوع...» (جملة أخرى مبتورة)، النظرة الآن متحرقة شوقاً للإجابة، لا توجد حقاً لحظة أسوأ من هذه، إزاء الغضب الذي لا يمكن تفاديه لمن انقصف لها حديثاً ظفر طويل بيضاوي، وينبغي عليها– فوق هذا– البحث في قائمة طويلة عن رقم هاتف، وهذا مع الزعم بأنها على استعداد لتقديمه، لقد شاء حظي العاثر– قال رايموندو سيلبا لنفسه– أن يوقعني في مواجهة مع الظفر والمبرد. آي، يا سيد سيلبا، لا تدري ما تتطلبه مني هذه الأظفار من جهد، متى يزيحون من هنا هذا الجهاز الخردة ويستبدلونه بجهاز حديث، مريح وآمن، من تلك الأجهزة المزوّدة بأزرار اليكترونية، سأعطيك على أي حال الرقم، سجّل عندك. إنها تحفظه، فمن دواعي زهوها حفظ أكبر عدد ممكن من أرقام الهواتف واستعراض قوة ذاكرتها أمام الغير. ولحسن الحظ أنها تتمتع فعلاً بذاكرة مدهشة لأنها كررت الرقم مرتين إزاء

حالة الارتباك التي كان عليها رايموندو سيلبا: فهو– بداية– لم يجد شيئاً يكتب فيه الرقم، ثم لخلطه بعد ذلك بين الأرقام (إذ كان يسمع ستة بدلاً من ثلاثة)، ناهيك عن أن ذهنه كان مشتبكاً في الوقت نفسه مع اختبار شك: إذا كانوا لم يتصلوا بها من هنا، فهذا يعني أنها لا تتلقى مكالمات هاتفية، ولكنهم قد يكونون فعلوا هذا في الإدارة من خلال الهاتف المباشر الذي لا تمر مكالماته على السويتش، لاسيما أنه يتذكر وجود هاتف من هذا النوع في مكتب المدير الأدبي. انتهت ساريتا من ترميم الظفر، ثم شرعت في ملاحظة النتيجة بعين ناقدة، واضعة في الاعتبار أنها فعلت ما في وسعها لتدارك الضرر، يبدو عليها الرضا القنوع، وربما كان توجيهها للسؤال التالي نابعاً من هذا الإحساس بالرضا: لو شئت، أطلبها لك من هنا. ظل رايموندو سيلبا دون إجابة، هزّ رأسه بقوة رافضاً، وفي هذه اللحظة أنقذته العناية الإلهية برنين السويتش باتصالين شبه متزامنين، وعندئذ عاد العالم إلى مجرّته الروتينية، وما لا يعلمه أحد هو أن رايموندو سيلبا غادر المكان ورقم هاتف ماريا سارة في جيب سترته.

وفي مخالفة منه لعادته في الادخار، رجع رايموندو سيلبا إلى البيت في سيارة أجرة، ولم يكن الأمر يستدعي لأن الوقت الذي وفّرته سيارة الأجرة يساوي بالكاد الوقت الذي كان سيستغرقه في الجلوس إلى الطاولة، وأخذ الهاتف، وطلب رقم ماريا سارة ليقول:

«علمت أنك مريضة، آمل أن تكون وعكة بسيطة، سلّمت القصة لكوستا، لا، لم يعطني كوستا عملاً جديداً، الأمر سواء، لا أهمية له على الإطلاق، سوف أنتهز الفرصة للاستجمام، نعم، الاستجمام، أرتب أوراقاً، أتأمل حياتي المنصرمة، لا عليك إنه شكل من أشكال التعبير، ما أفعله هو التفكير بأنني أفكر في الحياة بينما لا أفكر في شيء، ولكنني لم أطلبك لأصدع رأسك بمشاكلي وأزماتي، مشاكل الحياة بالطبع، دعواتي بالشفاء العاجل وأتمنى رؤيتك قريباً في دار النشر، مع السلامة». ولكن السيدة ماريا، رغم أن هذا اليوم ليس يومها، جاءت للعمل، تشرح السبب قائلة: إنها سوف تصحب ابن أختها إلى الطبيب غداً (لم يكن رايموندو سيلبا يعلم أن للخادمة ابن أخت)، وبما أن الغد هو موعد زيارتها الأسبوعية فقد ارتأت استبداله بهذا اليوم لأن أختها لا تستطيع التغيب عن العمل. «حسناً، الأمر سواء»- قال- ثم أغلق على نفسه حجرة المكتب لكي يتحدث في الهاتف. ولكن القرار لم يتجاوز النية إلى الفعل. خلاصة القول إنه أحس- رغم الباب المغلق- بأنه لن يكون على راحته حتى وهو يجري محادثة بسيطة للاستفسار عن الحالة الصحية لمن هي أعلى منه رتبة: «كيف الحال يا دكتورة»، ربما كان مختلفاً وأكثر سهولة بالتأكيد لو كان الحديث مع دكتور، لا دكتورة، وإن كان الواجب يحتم على رايموندو سيلبا الاعتراف (لو تم استدعاؤه لمحاكمة وطلب منه ذلك) بأنه لم يتصل قط في سنوات عمله الطويلة بواحد من المُدراء

الذين مرضوا للاطمئنان على صحته الغالية. وباختصار، يبدو أن ما لا يريده رايموندو سيلبا (لسبب غامض، أو على العكس شديد الوضوح إذا ما أخذنا في الاعتبار سماته الشخصية التي تبلورت أمامنا شيئاً فشيئاً، ومن بينها: الحيرة والعزلة) هو أن تعرف السيدة ماريا أن صاحب البيت (والعمل أيضاً) يتحدث هاتفياً مع امرأة. تمخض هذا الصراع اللامعقول عن طلبه تناول العشاء في المطبخ ثم الخروج بعد ذلك لكي يتحرر من هذين الحضورين الباهظين: حضور الهاتف، وحضور السيدة ماريا، رغم أن الحضورين بريئان ولا يدريان شيئاً عن الحرب التي ألقيا به في أتونها. كان رايموندو سيلبا يتناول حساء الفاصوليا والبقوليات المعهود- بينما تنتظر حلّة البطاطس باللحم دورها- حين سمع صوت السيدة ماريا يسأل من الداخل: «يمكنني إلقاء هذه الوردة الذابلة»، فأجابها بنبرة رعب تقريباً: « لا ، لا، اتركيها، سأفعل هذا بنفسي»، ولم يستطع سماع التعليق الذي أنهت به الخادمة الحوار، ولكنها قالت شيئاً، كلمات وإن لم تكن كلمات غيظ إلا أنها تحاكيها قطعاً، وعلينا ألا ننسى، مرة أخرى، أنه من المستحيل فعلاً خداع امرأة- حتى لو كانت خادمة- لم تشاهد من قبل في بيت رجل إصيصاً به نبتة زَرْع وترى الآن وردة، وبيضاء، من المحتمل أن السيدة ماريا قالت: «يوجد مسلمون على الساحل»، وهي مقولة تاريخية وشعبية تعبر عن عدم الثقة، ومصدرها يعود إلى تلك الأزمان التي كان فيها المسلمون-

بعد طردهم من الأراضي البرتغالية- يأتون للإغارة على شواطئنا ومدننا الساحلية، أما الآن فلم يبق من المقولة سوى وجهها البلاغي، ومع هذا فإنه لا يخلو من فائدة، كما رأينا.

تخفف رايموندو سيلبا بانسحاب الصليبيين- المتجهين الآن نحو عرض البحر- من العبء الحربي للاثني عشر ألف رجل الذين أودعنا فيهم آمالاً عريضة، ولم يبق له سوى عدد مساوٍ تقريباً من البرتغاليين، وهو عدد غير كافٍ لإطباق الحصار على جبهة طويلة لا تفارقها عيون المسلمين. لا يمكن أن يتحرك هذا العدد دفعة واحدة لمهاجمة إحدى البوابات دون أن ينتبه على الفور الموجودون بالداخل الذين سيجدون أمامهم الوقت الكافي لتعزيز المواقع المستهدفة، والتي يتعين على المهاجمين للوصول إليها قطع مشوار طويل بين الجبال والوديان، فضلاً عن الخوض في مياه كثيرة. من الضروري إذن إعادة النظر في كل الخطط الاستراتيجية المتاحة، ولدراسة مسرح العمليات عن كثب، عاد رايموندو سيلبا للصعود إلى القلعة حيث تستطيع عيناه- من فوق أبراجها العالية- الإحاطة بالمساحة الشاسعة، برقعة الشطرنج التي سيدور فوقها القتال بين المشاة والفرسان، على مرأى من الملك ورجال الدين، وربما بمساعدة أبراج أخرى يتم تشييدها، لو صَلُح اقتراح أحد هؤلاء الجنود الأجانب الذين بقوا معنا: «سوف نشيدها على نفس ارتفاع الأسوار، ثم ندفعها حتى تصبح

ملاصقة لها، وبعد ذلك لا يبقى فحسب سوى القفز إلى الداخل والإجهاز على الكفار». «الكلام سهل- رد الملك- ولكن يجب التأكد أولاً من أن لدينا العدد الكافي من النجارين». «ليس في هذا أدنى شك»- أجاب الآخر، المدعو إنريكي -، ولحسن الحظ فنحن نعيش في زمن يستطيع فيه أي رجل القيام بأي شيء: بذر القمح، حصْده، طحن الحبوب ثم عجنها ووضعها في الفرن، وأكل الخبز في النهاية، إذا لم يكن قد مات قبلها، أو- كما في هذه الحالة- قبل تشييد البرج الخشبي والصعود فوقه، رافعاً السيف، لقتل المسلمين أو للسقوط قتيلاً.

ولما كان الحوار مستمراً ولم ينته بقرار، أخذ رايموندو سيلبا يراجع- ذهنياً- مواقع البوابات: بوابة «الفوفا»- التي يعيش فوق سورها -، بوابة فييرّو، و«الفاما»، و«السّول»، والمفضية جميعها إلى المدينة مباشرة، أما البوابة المسماة «مارتيم مونيث» فهي الوحيدة التي تنفتح على الخلاء. يتضح إذن أن الاثني عشر ألف جندي للملك ألفونسو سوف يتم تقسيمهم إلى مجموعات مساوية لعدد البوابات الخمس، ومن يقول خمساً ينبغي أن يقول ستاً، لأنه لا يمكن إغفال البحر (وهو ليس بحراً في الحقيقة، بل نهر، ولكن كثرة الاستخدام تكتسب قوة القانون، والمسلمون كانوا يسمونه بحراً، ومازلنا حتى اليوم نستخدم تسميتهم)، وماذا سنجد في النهاية:

شيئاً يُزدرى، أي ألفي جندي لكل جبهة قتال، دون حساب- وكان الله في عوننا- المشكلة العويصة التي يمثلها المصب. ألا تكفي وعورة مداخل البوابات- باستثناء بوابة «الفاما» الواقعة في أرض منبسطة -، فيأتي المصب ليزيد الطين بلّة ويعقّد أكثر من وضع القوات، المنتشرة حالياً فوق مرتفعات ومنحدرات جبل «سان فرانثيسكو» حتى «سان روكيه»، مستريحة ومدخرة قواها تحت الظلال الناعمة للأشجار، ولكنها لا تستطيع شن هجوم من هذه المسافة البعيدة، ولا حتى استخدام أسلحة الرماية. إن هذا الوضع ليس جديراً حتى بإطلاق لفظة «حصار» عليه، مادام ذلك المصب الواقع هناك تحت مفتوحاً على مصراعيه أمام التعزيزات والإمدادات التي تصل من الجانب الآخر، ولا يمكن منعها بالحصار البحري الهش إذا تم اللجوء إليه. إذن، لا يوجد حلّ آخر سوى قيام أربعة آلاف رجل بالتسلل إلى هناك، بينما يقوم آخرون بالسير في نفس الطريق الذي سلكه وفد التفاوض برئاسة «جواو بيكوليار» و«بدرو بيتوئس»، والتمركز أخيراً أمام البوابات الثلاث الموجودة في ناحيتي الشمال والشرق (وهي بوابات: السّول، الفاما، ومارتيم مونيث). ويذكرنا هذا الاقتراح بالجملة الحذرة المتشككة للملك (الكلام سهل)، لأنه بمجرد إلقاء نظرة خاطفة على الخريطة سوف يتبين لنا على الفور أن هناك كَمّاً كبيراً من المشاكل اللوجستية ومشاكل الإمداد والتموين التي تقف بمثابة حجر عثرة أمام تنفيذ الاقتراح، ومن ثمّ يجب وضعها

على بساط البحث ومحاولة إيجاد الحلول لها. المشكلة الأولى تتعلق بوسائل النقل البحري المتاحة، وهي جدّ قليلة، وفي هذا المقام ندرك مدى الخسارة التي مُنينا بها لرحيل الصليبيين بأسطولهم الضخم الذي يضم مئات السفن من مختلف الأحجام والمهام، لأنها لو كانت موجودة لاستطعنا في طرفة عين نقل الجنود وتوزيعهم على جبهة عريضة، تضطر المسلمين لتشتيت قواهم، وبالتالي إضعاف دفاعاتهم. المشكلة الثانية، والحاسمة في الوقت نفسه، تتجلى في اختيار نقطة أو نقاط الإنزال البحري، وهي مسألة ذات أهمية محورية، لأنها لا تتطلب فحسب مراعاة القُرب أو البُعد عن البوابات، بل أيضاً صعوبة التضاريس: من بداية الفم الموحل للمصب حتى المنحدرات الوعرة التي تحمي بوابة «ألفوفا» من الجهة الجنوبية. والمشكلة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة...، ويمكن أن نستمر في العدّ إلى ما لا نهاية لو لم تكن جميعها متمخضة عن المشكلتين الأوليين، ومن ثمّ سوف نقتصر على ذكر جزئية واحدة (وإن كانت حُبلى بالنتائج وثيقة الصلة بمصداقية هذه الرواية، ومن نواحٍ عدّة، كما سيتضح فيما بعد)، وتتمثل هذه الجزئية في قصر المسافة الفاصلة بين المصب وبين بوابة «فييرو»، إنها لا تزيد عن مائة خطوة، أو ثمانين متراً بحساباتنا الحديثة، وهو ما ينسف من الأساس فكرة الإنزال في هذه النقطة، لأن المسلمين المنتظرين اقتراب أسطول القوارب– المثقل بالعتاد والرجال ويشق مياه المصب في جهد جهيد– سوف

يغربلون بسهامهم البرتغاليين القادمين. ولذا سيقول الملك لرئيس أركان حربه: «حقاً، المسألة ليست هينة». لنتركهم يتناقشون في بدائل تكتيكية جديدة، وهيا بنا نعود إلى الوراء، لنتذكر ما صرحت به– في بداية هذه الأحداث– تلك المرأة السمينة في محل حلويات «أ. جراثيوسا». لقد قالت إنها شاهدت أناساً يفرون أمام الزحف المسيحي ويدخلون من بوابة «فييرو» وهم يقطرون دماً. لم يشكك أحد من الموجودين ساعتها في الخبر لأنه جاء على لسان شاهد عيان. ورغم هذا، علينا أن نفكر بشيء من المنطقية. من الواضح أن بوابة «فييرو» كانت تستخدم بصفة خاصة– لقربها الشديد من ساحل المصبّ– لاستقبال ما تحمله وسائل النقل النهري من أفراد وبضائع، ولا يُعتبر هذا في حد ذاته سبباً في ألا يدخل منها لاجئون لو لم تكن واقعة في الطرف الجنوبي من السور، أَمَا وأنها تحتل هذا الموقع فهي بالتالي الأكثر بُعداً– من بين كل المداخل– بالنسبة لمن يصل هارباً من الشمال ومن جهة شنترين. أما أن يكون نفر من التعساء، الذين تفرقت بهم السُّبل بين «كاسكايس» و«سينترا»، قد وصلوا إلى المدينة من خلال طرق أفضت بهم إلى المصبّ، ووجدوا هناك من ينقلهم على متن القوارب إلى الشاطئ هنا، فهو افتراض مقبول. ومع هذا، فمثل هذه الحالات ليست بالكثرة التي تجعل المرأة السمينة تخص بوابة «فييرو» بالذكر، علماً بأنها– أي المرأة– على مقربة من بوابة «ألفوفا»، حتى أن الأقل وعياً بالخرائط والطبوغرافيا قادر على

الإدراك بسهولة أن بوابة «ألفوفا»- إضافة إلى بوابتي «السّول» و«ألفاما»- هي الأكثر مناسبة لاستقبال الهروب الجماعي الحزين. ولكن الشيء الأكثر غرابة هو عدم قيام أحد من الموجودين هناك بالاحتجاج على الرواية المغلوطة للأحداث، وكان يكفيه لتوثيق احتجاجه مجرد السير لبضع خطوات، ومن هنا يتضح كيف يمكن للكسل الذهني وغياب حب الاستطلاع أن يُقعدا صاحبهما عن التحقق من صحة تأكيد قاطع، أيّاً كان مصدره، وأيّاً كانت السلطة المعلنة له، سواء كان الرب أو المرأة السمينة، حتى لا نذكر مصادر أخرى معروفة.

قال الملك: بعد سماعي لمقترحاتكم القيمة، وبعد إنعامي للنظر في سلبيات وإيجابيات الخطط العديدة المعروضة، اتخذت قراراً ملكياً بتحرك الجيش كله من هنا لفرض الحصار على المدينة من مسافة قريبة، فنحن لو ظللنا هاهنا إلى أبد الدهر لن نبلغ النصر المنشود، وسوف يكون التحرك على النحو التالي: سيذهب ألف رجل من المتمرسين على ركوب البحر في قوارب الاستكشاف لقطع الاتصال بين المدينة والبحر، بحيث لا يتمكن أحد من الدخول إليها أو الخروج منها، وقد حددت عدد هؤلاء الرجال بألف لأن القوارب التي لدينا- بما فيها القوارب التي سقطت في أيدينا ولم يستطع المسلمون تدميرها وحملها إلى داخل المدينة- لا تكفي للمزيد، أما بالنسبة للقوة الباقية

التي تمثل معظم قوام الجيش فسوف تتمركز على جبل «دي جارثا» بحيث ينتشر خمساها في الجهة الغربية، وتُخصص الأخماس الثلاثة الباقية لحراسة الجهة الشرقية. طلب الكلمة عندئذ «ميم راميريس» ليقول: نظراً لصعوبة وخطورة مهمة الجنود المكلفين بالهجوم على بوابتي «ألفوفا» و«فييرو»، لكونهم مكشوفين للعدو ومحصورين بين المدينة والمصب، فإن الفطنة تقتضي- على الأقل في أثناء الوقت الذي سيستغرقونه في تعزيز مواقعهم- شد أزرهم بقوات إضافية، لتفادي حدوث كارثة، لأن المسلمين لو خرجوا إليهم سريعاً وتمكنوا من ردهم على أعقابهم حتى مياه المصب فلن يكون أمام جنودنا سوى الاختيار بين الموت غرقى أو ممزقين بالسيوف، أي الاختيار بين النِّطع والسيف كما يقولون. أعجب الملك بالنصيحة، وقام على الفور بتنصيب «ميم راميريس» قائداً للجبهة الغربية، تاركاً لما بعد تعيين القيادات الأخرى. أما بالنسبة لي- قال الملك- وبصفتي قائدكم العام، فإنني سأحتفظ تحت إمرتي المباشرة بجزء من الجيش، وتحديداً بالجزء الذي سيظل في جبل «دي جارثا» حيث مقر القيادة العامة المُزْمع إنشاؤه. جاء الدور على «دون جواو بيكوليار» ليتدخل قائلاً: لن يُرضى الرب أن يكون مصير قتلى احتلال لشبونة هو الدفن كيفما اتفق في هذه الجبال والوديان، وإنما يرضيه أن يُدفنوا على الطريقة المسيحية وفي مقابر كاثوليكية، ومادام قد مات من بيننا نفر قليل- بسبب المرض أو الشجار- وتم دفنهم هاهنا،

فإني أطمع في قرار ملكي يسمح بإقامة مُجَمَّع للمقابر حيث يرقد هؤلاء. تحدث عندئذ الإنجليزي «خيلبرتو» نيابة عن الأجانب قائلاً: إنه من غير اللائق الجمع بين البرتغاليين والصليبيين في مقابر واحدة، لأن الصليبيين لو قضوا نحبهم في هذه الأماكن يجب اعتبارهم شهداء، مساواة بإخوانهم الموعودين بالشهادة لو قُتلوا في الأراضي المقدسة التي يتجهون إليها الآن، ومن ثم- أرى تخصيص مكانين للمقابر بدلاً من مكان واحد. استحسن الملك الفكرة، رغم صدور همهمات سخط من البرتغاليين الحاضرين لاستكثار شرف الشهادة عليهم حتى بعد موتهم. ولكنهم خرجوا جميعاً في اللحظة التالية لترسيم الحدود المؤقتة الفاصلة بين مُجَمَّع مقابر البرتغاليين ومجمع مقابر الصليبيين، تاركين التخصيص النهائي لما بعد فراغ الموقع من شاغليه، كما صدرت الأوامر بانتهاز الفرصة المناسبة لنبش قبور المتوفين سلفاً– وللصدفة الغريبة، فكلهم برتغاليون– ونقل رُفاتهم إلى المقابر المخصصة لهم. وبعد الانتهاء من تقسيم الأراضي فضّ الملك الجلسة، ليعود رايموندو سيلبا إلى بيته بعد انتصاف المساء بكثير.

اعترى رايموندو سيلبا الغضب حين لم يجد السيدة ماريا، لا بسبب أنها اختصرت عملها– لو كانت قد فعلت –، بل لانتفاء ما يحول بينه الآن وبين الهاتف، لعدم وجود شاهد متطفل يمكن

أن يُعفيه- بحضوره- من تهمة الجبن أو الخجل التي خذلته عند مواجهته لشخصيته الأخرى التي انتزعت بخبث مُحكم رقم هاتف الدكتورة ماريا سارة من عاملة السويتش، وهو- كما لاحظنا- من أشد الأسرار تكتماً في العالم. ولكن حضور شخصيته الأخرى ليس مؤكداً، بل لها أيامها، أو بالأحرى القول ساعاتها ولحظاتها، أحياناً تقتحم بقوة وكأنها قادرة على تحريك عوالم- داخلية وخارجية -، ولكنها لا تستمر، فسرعان ما يأتي نصفه الثاني وتنطفئ النيران التي اشتعلت بالكاد. رايموندو سيلبا الموجود هنا الآن أمام الهاتف غير قادر على رفع السمّاعة وطلب رقم، وعندما كان فوق القلعة وتحت قدميه المدينة كان رجلاً قادراً على الموازنة بين التكتيكات الحربية الأكثر مناسبة للمهمة الجبارة، مهمة حصار واحتلال لشبونة، أما الآن فينقصه القليل للندم على لحظة الشجاعة المجنونة التي استسلم فيها لإرادة شخصيته الأخرى، ووصل به الأمر إلى حد التفتيش في جيوبه عن الورقة المسجل فيها رقم الهاتف، لا من أجل استخدامها، بل على أمل أن تكون قد ضاعت منه. لم يفقدها، إنها هنا، في يده المبسوطة، مجعّدة ومكرمشة، وكأنه- وهذا ما حدث، رغم عدم تذكره- ظل طوال الوقت يفتش عنها ويلمسها، يلمسها ويفتش عنها، خوفاً من ضياعها. يتخيل الآن- وهو جالس أمام الطاولة والهاتف إلى جواره- ما يمكن أن يحدث لو اتخذ قراره بطلب الرقم، هل ستكون المحادثة مختلفة عن التي اخترعها من قبل. وفي

أثناء تفقده لأشكال الحوار المختلفة يخطر بباله- ومن الغريب أن يخطر هذا بباله للمرة الأولى- أنه لا يعرف شيئاً عن الحياة الخاصة لماريا سارة: متزوجة، أرملة، عزباء، مطلقة، لديها أولاد، تعيش مع أبويها أو أحدهما أو بدونهما ... تحولت هذه الحقائق المجهولة إلى نُذر تهديد، تزلزل وتطيح بعمائر الخيال الهشّة والآمال الحمقاء التي ظل يشيدها منذ بضعة أسابيع فوق أرضية من الرمال المتحركة. ماذا لو أنني طلبت الرقم وسمعت على الطرف الآخر صوت رجل يخبرني أنها في السرير ولا تستطيع التحدث في الهاتف، لو كنت تريد شيئاً أو ترك رسالة لها أعلمني بها وسوف أنقلها لها، كنتُ أود فحسب الاطمئنان على صحة الدكتورة ماريا سارة، نعم، أنا زميل (وبينما أقول له أنا زميل سوف أسأل نفسي إذا كانت الكلمة تنطبق حقاً على هذه الحالة: الصلة المهنية بين مصحح ورئيسته)، وعندما يصل الحوار إلى نهايته سوف أسأل: مع من أتحدث، فيجيب: أنا زوجها، ورغم أنها لا تضع دبلة في أصابع يديها إلا أن هذا لا يعني شيئاً، فهناك أزواج وزوجات لا يستخدمون الدبلة ولا يُعتبرون لهذا السبب أقل سعادة، أو يُعتبرون، ما شأني أنا، ومن جهة أخرى فإن إجابة الرجل ستكون هي نفسها مهما اختلفت الأحوال، يقول «أنا الزوج» رغم أنه ليس كذلك، بالتأكيد لن يجيبني قائلاً «أنا صاحبها» لأن كلمة «صاحب» أصبحت خارج الخدمة في هذا الخصوص، ومن باب أولى لا تُستخدم عبارة «أنا الرجل الذي يعيش

معها» لفظاظتها، ولكن هناك شيئاً ما في ماريا سارة يقول لي إنها ليست متزوجة، لا يتعلق الأمر فحسب بخلو أصابعها من الدّبلة، إنه شيء لا يمكن تحديده، طريقتها في الكلام، إنها طريقة من يودّ في كل لحظة الهروب إلى مكان آخر، ومثلما أقول متزوجة يمكنني أيضاً القول إنها تعيش مع رجل، أو لديها رجل حتى ولو لم تكن تعيش معه، وهذا ما يُطلق عليه الآن «علاقة» أو «اقتران» (Ligue)، ويقصد بالاقتران العيش معاً تحت سقف واحد دون التزام أو تحمل للنتائج، والأمر الأخير (الاقتران) هو الشائع حالياً، ولا تتصورأنني خبير في هذه الفردوسيات لأن معلوماتي عنها استقيتها من منبعين: الملاحظة، ومعارف الخُبراء بأحوالها، وتسعون بالمائة من المعارف التي نعتقد أنها لدينا تأتينا من هذين المصدرين وليس مما نعيشه، هذا بالإضافة إلى رهافة الإحساس بما يحدث، تلك المعلومة الضبابية التي ينشق عنها صُدفة لمعان ضوء مباغت، أو ما نطلق عليه لفظة «حَدْس»، ومن ثمّ أقول الآن: يحدثني إحساسي بعدم وجود رجل في حياة ماريا سارة، رغم أن هذا قد يبدو مستحيلاً، لكونها جميلة، ليس جمالاً أخّاذاً، ولكنها جميلة على أي حال، جميلة الوجه والهيئة، أما بالنسبة للجسد، فيبدو للعين حسناً.

لا شك أن قوة الخيال لا حدود لها، وقد برهنت عليه مرة أخرى هذه الحالة، عندما أخذ رايموندو سيلبا يستشعر جسده ذاته، بما كان

يحدث فيه، في البداية زلزلة، غير ملموسة تقريباً، وبعد ذلك الخفقان الشديد، السريع والمتكرر. كان رايموندو سيلبا يتابع ما يجري وكأنه يطّلع- ذهنياً- على صفحة معروفة، وبقي هامداً، منتظراً، حتى تدفق الدم شيئاً فشيئاً مثل مدّ البحر الذي يغادر كهفاً، ببطء، قاذفاً من لحظة إلى أخرى موجات هجوم جديدة، ولكن دون جدوى، يهبط المدّ، إنه الارتياع الأخير، وفي النهاية لا يوجد سوى التدفق الوادع لخيوط من الماء، الطحالب تهبط متفرقة على الحجارة التي ستتوارى تحتها سرطانات الماء[1]، تاركة على الرمال المبتلة علامات ملحوظة بالكاد. الآن، وهو في حالة خُدار إراديّ، يتساءل رايموندو سيلبا من أين تأتي وماذا تريد أن تقول له هذه الحيوانات القبيحة، بسيرها المضطرب وغير المحتشم، كأن الطبيعة قد بدأت بها مشوار حيرتها العامة المتوقعة. «سنكون جميعاً سرطانات في المستقبل»- قال لنفسه- وسرعان ما أظهرت له مخيلته صورة الجندي «موجيمي» على شاطئ المصب يراقب سرطانات ذلك الزمان وهي تفر مباشرة نحو الأعماق السحيقة، مازجة لونها الأرضي بظلال الماء. تلاشت الصورة سريعاً وظهرت أخرى (مثلما يحدث تماماً مع شرائح جهاز العرض الفوتوغرافي)، لشاطئ المصب أيضاً، ولكن عليه الآن امرأة تغسل ثياباً، يعرف رايموندو سيلبا وموجيمي من تكون،

(1) السرطان: حيوان بحري من القشريات العشريات الأرجل، ويشبه الخنفساء. (المترجم).

لقد أخبروهما بأنها محظية الفارسي «إنريكي»، ألماني من بون، تم اختطافها من جليقية[1] بواسطة بعض الصليبيين الذين نزلوا إلى هناك للتزود بالماء، سرقها خادم له، لكن الفارس والخادم ماتا في هجوم، والمرأة تتسكع هنا الآن، تقريباً مع من يريد، والاحتراس بكلمة «تقريباً سببه أنهم واقعوها في بعض المرات رغم أنفها، تم العثور بعدها على جثتي اثنين ممن فعلوا هذا بها، ممزقتين بالسكين، لم يُعرف القاتل أو القتلة، في تجمعات كبيرة مثل هذه لا يمكن تفادي الفوضى والاعتداءات، ناهيك عن احتمال نسبة الجريمة إلى المسلمين الذين يتسللون إلى المعسكر ليلاً ويجرحون دون تمييز. اقترب «موجيمي» حتى أصبح على بعد خطوات قليلة من المرأة، ثم جلس على حجر قُبالتها. لم تلتفت إليه، وإن كانت قد لمحته بطرف عينها في أثناء اقترابه، وتعرفت عليه من الهيئة والشعر وطريقة المشي، ولكنها لم تكن تعرف اسمه حتى الآن، تعرف فحسب أنه برتغالي، لسماعها له ذات مرة يتحدث الجليقية. كان الاهتزاز الإيقاعي لردفي المرأة يطير صواب موجيمي. هذا بالإضافة إلى أنه لم يرفع عينيه عنها منذ موت الفارس، بل حتى قبلها، ولكن جندياً عادياً مثله— ومن العصر

(1) «جليقية» (GALICIA) : إقليم إسباني يقع في شمال غرب إسبانيا، عاصمته مدينة «سنتياجو» (شانت ياقب) التي توجد بها كنيسة الحواري «سنتياجو»، قبلة ومزار الأوروبيين منذ القرن الثاني عشر الميلادي. والجليقيون هم الذين أسسوا البرتغال، واللغة الجليقية هي أساس اللغة البرتغالية ولا تكاد تختلف عنها إلا في تفصيلات صغيرة. (المترجم).

الوسيط- لم يكن ليجرؤ على معاكسة امرأة تنتمي إلى الغير، حتى لو كانت محظية. ألمّ به الحزن والغضب حين رأى آخرين يجبرونها على المضي معهم، ولكنها لم تبق مع واحد منهم، رغم حب البعض لها، مثل القتيلين اللذين حاولا- لشدة شغفهما بها- إجبارها. ومن ثمّ لا يحبذ موجيمي فكرة الإجبار هذه، لاسيما في هذا المكان المكشوف الذي لا يخلو من وجود آخرين، فهناك بعض الجنود الذين يتريضون مثله، وغلمان يحممون بغال سادتهم، إنه لمشهد وديع حقاً، بعيد كل البعد عن مشهد حصار ومحاولة احتلال، لاسيما إذا أدرنا ظهورنا إلى المدينة والقلعة ونظرنا أمامنا إلى صفحة مياه المصبّ، الذي تتخلله اليابسة من هذه الناحية بحيث لا تصل إليه التموجات العريضة للنهر، وإلى المنحدرات في المواجهة بالأشجار المتناثرة فوق الأرضية التي تبدو حيناً ضاربة إلى الاصفرار، وإلى الخُضرة الغامقة حيناً آخر، تبعاً لنوعية الغطاء: الغطاء الأزلي للشمس أو غطاء الأعشاب الذابلة من جرّاء حرارة الصيف. الجو حار، انتصف النهار، يجب أن تبتعد العيون عن التحديق المباشر في الماء حتى لا يُبهرها أو يعميها انعكاس الضوء الساطع للشمس، باستثناء عيني موجيمي بالطبع، اللتين لا تفارقان المرأة. انتصبت الآن، ترفع ذراعها وتهوي به على الثياب بقوة، تجري جَلَبة الضربة على صفحة الماء، إنه صوت متميز لا يختلط بغيره من الأصوات، وضربة أخرى وأخرى، ثم يسود الصمت. تريح المرأة يديها على الحجر الأبيض، إنه نصب تذكاري جنائزي

من عهد الرومان، ينظر موجيمي ولا يتحرك، كان عندئذ عندما حملت الريح الصوت الحاد للمؤذن، غارقاً في بُعد المسافة، ومع هذا فهو واضح تماماً بالنسبة لمن- رغم عدم معرفته للغة العربية- اعتاد سماعه خمس مرات في اليوم[1] منذ قُرابة الشهر. تُميل المرأة رأسها ببطء ناحية اليسار، وكأنها تريد الاستماع بشكل أفضل للأذان، ولما كان موجيمي في تلك الجهة، إلى الوراء قليلاً، كان من المستحيل ألا تلتقي عيناه بعينيها. انطفأت في ثانية رغبة موجيمي الجسدية، انفلت القلب من عقاله فحسب في قفزات شبه مرعبة، من الصعب الذهاب إلى أبعد من هذا الحد في وصف المشهد لأنه من الواجب مراعاة بدائية الأزمان والأحاسيس، ومن ثمّ فإننا نمسك عن التمادي الذي يمكن أن يوقعنا في المزالق الدائمة للمفارقات الزمنية، ومنها- على سبيل المثال- وضع ماسات على تيجان من حديد أو اختراع لطائف غزلية حالمة في أجساد تكتفي بالذهاب من أقصر الطرق إلى النهاية، بادئة سريعاً بالبداية. ولكن موجيمي هذا قد أظهر (من خلال مداخلته في الحوار الذي كان موضوعه احتلال شنترين، وتطرق الحديث فيه إلى اغتصاب وذبح النساء المسلمات) أنه مختلف إلى حد ما عن باقي زملائه الجنود، ومن واجبنا هنا بيان وجه هذا الاختلاف مادمنا حريصين على التمسك بالحقيقة ودفعها قُدُماً إلى الأمام، ومن ثمّ نقول إن الاختلاف يكمن- رغم التناقض- فيما

(1) في النص الأصلي «ثلاث» بدلاً من «خمس» التي أثبتناها في الترجمة. (المترجم).

أظهره عندئذ من ميل إلى مغريات جامحة الخيال، أي– وبكلمات أخرى– في الشك، في إعادة الترتيب اللاحق لحدث ما والتحقق من دواعيه، وفي السؤال الساذج والعفوي حول ما يملكه كل فرد منا من تأثير في أنشطة الأغيار. بقدمين حافيتين على الرمال الثخينة والرطبة يحس موجيمي بالثقل الكامل لجسده، كأنه أصبح جزءاً لا يتجزأ من الحجر الجالس عليه، لو دقت طبول الملك الآن إيذاناً بشن الهجوم فلن يسمعها بالتأكيد، ما يطنّ في رأسه هو صوت المؤذن، يستمر في سماعه بينما ينظر إلى المرأة، وعندما تشيح في النهاية ببصرها يطبق الصمت، بالطبع توجد ضوضاء على مقربة، ولكنها تنتمي إلى عالم آخر، تصهل البغال وتشرب من مياه الجدول المنصرفة في المصب، وبما أنه من المحتمل عدم وجود طريقة أفضل للشروع فيما ينبغي عمله يسأل موجيمي المرأة: «ما اسمك»، كم من المرات سأل فيها بعضنا بعضاً منذ بدء الخليقة «ما اسمك»، مع إضافة اسمنا نفسه بعد ذلك «أنا اسمي موجيمي»، لفتح الطريق، ولكي يُعطي قبل أن يأخذ، ونظل منتظرين سماع الإجابة، عندما تأتي، عندما لا تكون صمتاً مثل هذا الذي يردون به علينا، ولكن الحالة الراهنة لم تكن كذلك، لم تكن صمتاً لأن المرأة أجابت: «أنا اسمي أوروانا».

مازالت الورقة التي عليها رقم الهاتف قابعة هناك، فوق الطاولة، لا يوجد شيء أسهل من تسجيل الأرقام الستة لكي يُسمع من

الطرف الآخر– من مسافة عدة كيلو مترات– صوت، لا يهمنا إذا كان صوت ماريا سارة أو الزوج، ما يجب عمله هو إدراك الفارق بين ذلك العصر وبين أيامنا هذه، سواء بالنسبة لما يتعلق بالحديث أو القتل، من الضروري الاقتراب، مثلما فعل «موجيمي» و«أوروانا»، جاءت هي قسراً من جليقية إلى هذا الحصار، محظية لصليبي مات، وبعد ذلك غسّالة للرجال من أجل لقمة العيش، وجاء هو– بعد احتلاله لشنترين– بحثاً عن مجد أعرض أمام أسوار لشبونة المدهشة. يسجل رايموندو سيلبا خمسة أرقام، لا ينقصه سوى رقم واحد، ولكنه يُحجم مهمهماً «لا أستطيع»، ثم يضع السماعة وكأنه يُنزل من على كاهله فجأة حملاً ثقيلاً كاد أن يسحقه. ينهض، «أنا عطشان»– يقول لنفسه– ثم يتجه إلى المطبخ. يملأ كوباً من الصنبور، يشرب على مهل، مستمتعاً بعذوبة الماء، إنها متعة بسيطة، ربما تكون هي الأشد بساطة من بين الأخريات، كوب ماء حين يشعر المرء بالعطش، وفي أثناء احتسائه للماء يتخيل الجدول وهو يجري، منذ سبعمائة وأربعين سنة– نحو المصب، والبغال وهي تلامس بأفواهها شعاع التيار، بينما يستحثها الغلمان بالصفير، حقاً إنه لا جديد تحت قرص الشمس، ولا حتى الملك «سالومون» كان قادراً على تخيل كم تحمله مقولته من حقيقة. وضع رايموندو سيلبا الكوب، استدار، توجد ورقة فوق مائدة المطبخ، إنها الكلمات غير الضرورية التي اعتادت أن تتركها له الخادمة قُبيل مغادرتها البيت:

«مشيت بعد ترتيب كل شيء»، ولكن هذه المرة مختلفة، إنها كلمات أخرى: «اتصلت بك سيدة، وتطلب الاتصال على الرقم الذي دوّنته لك في الورقة»، ولم يكن رايموندو سيلبا في حاجة إلى الذهاب إلى غرفة المكتب ليعرف أنه نفس الرقم الموجود في الورقة المكرمشة، ذلك الرقم الذي تكبد الكثير من أجل الحصول عليه أو لحفظه من الضياع.

* * *

يرجع عدم اتصال رايموندو سيلبا بماريا سارة إلى سبب جد بسيط وجد ملتوٍ، وهذا ضرب من القول لا يحوي سوى القليل من الدقّة، لأن هاتين اللفظتين (بسيط وملتوٍ) تنطبقان بصرامة مغايرة على العقلانية المرتبطة بحتمية تشكل السبب. يكمن لبّ القضية- وعلى غرار الموجود في القصص البوليسية الكلاسيكية- في عامل الوقت، أي في الظرف الذي جرت فيه مكالمة ماريا سارة أثناء غياب رايموندو سيلبا، وهو وقت غير معلوم، قد يكون الدقيقة التالية لخروجه من البيت أو الدقيقة السابقة لانصراف الخادمة، مكتفين فحسب بذكر هذين الوقتين المتطرفين. في الحالة الأولى تكون قد مضت ساعات أربع قبل عثور رايموندو سيلبا على الرسالة، وفي الحالة الثانية (وانطلاقاً مما تستغرقه الخادمة عادة في عملها) تكون قد مضت ثلاث ساعات. وباستقراء الحالتين نخلص إلى أن ماريا سارة ظلت منتظرة الرد على مكالمتها الوقت الكافي لكي تعلم أن رايموندو سيلبا سيعود متأخراً، أي في ساعة لا يُستحب فيها الاتصال

ببيت أحد، لاسيما إذا كان مريضاً، وإن كان المرض- وهذا تعبير حصري لا تهكمي- ليس خطيراً، بدليل استخدامها ليدها وصوتها لمهاتفة هذا البيت القريب من القلعة، حيث يبحث رايموندو سيلبا ولا يجد إجابة للسؤال الذي لا يمكن تفاديه: «لماذا تريدني». أمضى بقية المساء والجزء السابق من الليل على استغراقه في النوم في تصور احتمالات متعددة، منطلقاً من البسيط إلى المعقد، ومن العام إلى الخاص، من مجرد طلب عادي للاستفسار عن شيء (وإن كان هذا محالاً، نظراً للملابسات) إلى المحال الأكبر المتمثل في كونها تريد البوْح بحبها له، هكذا، عن طريق الهاتف، مثل من لم يعد يقوى على مقاومة تباريح الهوى. بلغ غيظه من نفسه- لاستسلامه لهذا الافتراض المجنون- مبلغاً كبيراً بحيث جعله يذهب مغاضباً إلى الوردة البيضاء، التي كانت تواصل الذبول في عزلتها، ليلقيها في صندوق القمامة ثم يصفق غطاءه بشدة وكأنه يُلقي بالحكم النهائي. «لقد أصابني الخبل»- قال بصوت عالٍ- ولكنه لم يشرح السبب: هل لإطلاق العنان لأفكاره أم لإساءته معاملة وردة بريئة، حافظت على نضارتها بضعة أيام وكانت تستحق تركها تواصل مشوار الفناء، بنعومة حالمة، ببقية عطر وبياض أخير مستكن في سويداء قلبها. ومع هذا فمن الواجب الإشارة إلى أن رايموندو سيلبا بعد أن ظل يتقلب في الفراش حتى ساعة متأخرة من الليل، نهض من السرير وذهب إلى المطبخ، فتح صندوق القمامة وأخرج الوردة الملوّثة،

نظفها بعناية وغسلها بعد ذلك بخيط من الماء حتى لا يُلحق الأذى ببتلاتها الهشّة، وبعد فراغه من عمله أعادها إلى مكانها في الزهريّة، حامياً تويجاتها المتهدّلة بحوض من الكتب المرصوصة بعضها فوق بعض، وكان آخر كتاب فيها- ويا للصدفة- هو «قصة حصار لشبونة»، النسخة التي لم تنزل السوق. وقبل أن يدلف إلى النوم قال لنفسه «سوف أتصل غداً»، وهذا بالطبع تصريح حاسم يصدر عادة من شخص ثابت العزم، ويمكن- رغم شخصيته المتذبذبة- اعتباره هكذا، انطلاقاً من عدم إمكانية عمل شيء اليوم، ولإرجائه الفعل إلى الغد وليس إلى بعد غد.

استيقظ رايموندو سيلبا صباح اليوم التالي ورأسه عامرة بأفكار واضحة عن التمركز الأمثل للقوات، مُدرجاً في الخطة تفصيلات تكتيكية من عمل يده. تمخض النوم العميق عن أحلام تكميلية بددت الشكوك التي كانت تضعضع قواه، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لشخص لم تصهره أخطار ونكبات حرب حقيقية في بوتقتها، وتقع على عاتقه- فوق هذا- مسؤوليات قيادية ليست بالهيّنة. كما كان من البديهي أيضاً أنه لا يمكن في حالة الحصار هذه التعويل على ما يُسمى بأثر المفاجأة، تلك التي تدع الرجال دون فعل أو رد فعل، لأن المسلمين يعرفون تمام المعرفة- أمام هذا الاستعراض المتواصل للقوة، وهذا الذهاب والإياب للرسل والمبعوثين، ومناورات

الالتفاف التي تجرى على قدم وساق- ما ينتظرهم، وخير دليل على هذا تلك الشرفات المغطاة بالمحاربين، وتلك الأسوار المزروعة بالحراب وكأنها جلد قنفذ. ما يثير الاهتمام هو المأزق الصعب الذي يجد نفسه فيه رايموندو سيلبا، مأزق من يلعب مع نفسه مباراة شطرنج وهو يعرف مقدماً نهايتها، وعليه في الوقت نفسه بذل قصارى جهده حتى يبدو لعبه وكأنه يجهل النتيجة، فضلاً عن عدم الانحياز الواعي لأي فريق من الفريقين المتنافسين، للقطع السوداء أو البيضاء، وفي هذه الحالة المسلمون أو المسيحيون، تبعاً للألوان. ولكن ما قصّه علينا رايموندو سيلبا حتى الآن لا يفصح فحسب عن تعاطفه مع المسلمين، بل عن تقديره أيضاً لهم، لاسيما المؤذن، ولا داعي للإشارة هنا إلى الاحترام الذي غلّف به حديثه عن حاكم لشبونة المسلم (بنبرات صوته الواثقة، ونبالته الأخّاذة)، وهذا على عكس الجفاف ونفاد الصبر، وحتى التهكم، الذي يوحي به النص حين يكون الأمر متعلقاً بالمسيحيين. ومع هذا لا يجب أن نستخلص مما سبق أن ميول رايموندو سيلبا تصب كلها في صالح المسلمين، بل ينبغي تقييم موقفه على أساس أنه رد فعل لشفقة عفوية، إذ ليس بوسعه في النهاية- ومهما حاول- نسيان أن هزيمة المسلمين حتمية، وأيضاً- وبصفة خاصة- على أساس انفعاله وغضبه من بعض التصرفات القميئة والمخزية التي يبدو أنها كانت مباحة ومستباحة في عصرها. وعلى أي حال فمازالت المباراة على

المائدة، لم يتحرك حتى الآن سوى المشاة وبعض الفرسان، وطبقاً لرأي رايموندو سيلبا الثاقب، ينبغي القيام بهجوم شامل ومتزامن على البوابات الخمس (ولم لا، ولشبونة تقل بوابتين عن «طيبة»)، بهدف اختبار قوة المحاصَرين، ولو أسعفنا الحظ بخَوَر المدافعين عن إحداهما فسوف تنتهي المعركة في وقت قصير، وتُسفر عن ضياع عدد أقل من الأرواح البريئة، سواء من هذا الفريق أو ذاك.

من الواجب إجراء الاتصال الهاتفي قبل خوض المهمة الجبّارة. لاشك أن إطالة الصمت، فضلاً عن كونه سوء أدب، يمكن أن يتسبب في إثارة المتاعب مستقبلاً في العلاقات المهنية. إذن سيتصل رايموندو سيلبا. سيتصل أولاً بدار النشر، لأنه من المحتمل أن تكون ماريا سارة قد تعافت من وعكتها الصحية وذهبت اليوم إلى العمل، وكانت تريد باتصالها- الذي تلقته الخادمة- التنبيه عليه بالذهاب في اليوم التالي إلى دار النشر لاستلام بروفات لا تحتمل التأخير لكتاب جديد. يعتقد رايموندو سيلبا أن الأمر لن يخرج عن هذا، ومن ثمّ لم يصدق عندما ردت عليه عاملة السويتش قائلة: «إنها مريضة، يا سيد سيلبا، أنسيت ما ذكرته لك بالأمس»، فبادرها بالسؤال التالي: «هل أنت متأكدة من أنها لم تذهب اليوم إلى العمل، تحققي من الأمر»، فما كان منها إلا أن ردت عليه غاضبة- وكأنه قد داس لها على طرف -: «أعرف تمام المعرفة من هو موجود ومن ليس موجوداً»، ولكنه

لم يقتنع: «يمكن أن تكون قد دخلت على حين غفلة منكِ»، وعندئذ أجابته بجفاء: «أنا لا تفوتني شاردة ولا واردة، يا سيد سيلبا، لا تفوتني شاردة ولا واردة». اقشعر بدن رايموندو سيلبا لدى سماعه لهذه الكلمات القابلة للتأويل والتي رنّت في أذنيه رنين تهديد، وبمعانٍ مساوية لما يلي: «أتظن أنني بلهاء أو من ذوات الأربع»، ولم يرد التحقق مما يرمي إليه التعريض فألقى مرتبكاً بجملة مهدئة وأغلق الخط. يخطب دون أفونسو هنريكس في قواته المتجمعة بجبل «جارثا»، يحدثهم عن الوطن، عن مسقط رؤوسهم، عن المستقبل الذي ينتظرنا، لم يتحدث عن الأسلاف لكونهم غير موجودين وقتئذ، ولكنه قال: «ضعوا في اعتباركم أننا إذا لم ننتصر في هذه المعركة فسوف تنتهي البرتغال قبل أن تبدأ، وبهذا الشكل لن يصبح برتغاليون كثر ملوكاً في سبيلهم إلى القدوم، ورؤساء كثيرون، وعسكريون، وقديسون وشعراء، ووزراء ومزارعون، وقساوسة وبحّارة، وفنانون، وعمّال، وموظفون، ورهبان، ومديرون...، وإذا كنت أتحدث بصيغة المذكر فلأنها الأكثر راحة في التعبير، إذ لا يمكنني نسيان البرتغاليات، الملكات، والقديسات، والشاعرات، والوزيرات والمزارعات، والموظفات، والراهبات، والمديرات...، ولكي يضم تاريخنا هؤلاء جميعاً– ولم أتطرق إلى ذكر آخرين حتى لا أطيل عليكم، وللجهل الآن بمن سيكونون– ينبغي البدء باحتلال لشبونة، ومن ثمّ هيا بنا إليها». صفقت القوات للملك، ثم توجهت

بعد ذلك- تحت إمرة القادة والضباط- لاحتلال المواقع المخصصة لها، ولدى الرؤساء أوامر محددة وصريحة ببدء الهجوم الشامل والمتزامن على الجبهات الخمس ظهر اليوم التالي، في أثناء تأدية المسلمين للصلاة، وليحفظنا الرب جميعاً لأننا في سبيله ماضون.

بابتهال مشابه ربما يكون قد همهم رايموندو سيلبا في أثناء تسجيله لأرقام المصير، وإن كان ابتهاله خافتاً جداً بحيث لم يُسمع خارج فمه، المرتعش مثل فم مراهق، في جعبته الآن أشياء كثيرة تستحق التأمل لو استطاع، ولو لم يكن قد تحوّل كله إلى طبلة أذن شاسعة حيث يرنّ ويعاود الرنين جرس الهاتف (إنه ليس جرساً، بل إشارات إليكترونية)، في انتظار أن يوقف الرنين فجأة صوت يقول: «أخبرني» أو «نعم» أو «تحدث» أو ربما «هاللو» أو على الأرجح «من يتحدث»، إذ تتعدد الاحتمالات ما بين الصيغ المعهودة ومشتقاتها الحديثة، ولكنه كان فاقداً للوعي إلى درجة لم يسمع معها ما قالوه. ما عرفه فحسب أنه كان صوتاً نسائياً، وعندئذ سأل في أدب: «حضرتك الدكتورة ماريا سارة»، لا، لم تكن هي، «من طرف من»، هذا ما أراد الصوت معرفته، «من طرف رايموندو سيلبا، من دار النشر»، لم تكن هذه حقيقة لا تقبل الأخذ والرد، ولكنها كانت بمثابة وسيلة لتبسيط الهوية، بالتأكيد لم يكن يتوقع أحد أنه سوف يقدم نفسه هكذا: أنا رايموندو بينبينيدو سيلبا، مصحح

طباعي، أعمل تحت إمرتها في دار النشر. وحتى لو قدّم نفسه هكذا فإن الإجابة لن تتغير: «انتظر لحظة من فضلك، سأرى إذا كان بإمكان الدكتورة ماريا سارة أخذ الهاتف»، لم تمر قط لحظة أقصر من هذه، «لا تُغلق الخط، سوف أحمل الهاتف إليها». صمت. يتخيل رايموندو سيلبا المشهد: تحمل المرأة الجهاز على ساعديها، ساندة إيّاه بصدرها (يراها بصبيانية هكذا) ثم تدخل غرفة شبه مظلمة وتنحني لتضع القابس في فيشة قريبة من المستلقية على السرير. «كيف حالك»، رنّ الصوت بغتة، اعتقد رايموندو سيلبا أنه سمع المرأة تضيف شيئاً مثل «سوف أوصلك بالسيدة الدكتورة»، ثلاث أو أربع ثوان أخرى للانتظار، ولكن جاء بدلاً منها الصوت المباشر: «كيف حالك»، في تغيير للوضع، إذ أن واجب الاستفسار عن صحة المريضة يقع على عاتقه هو أولاً، «بخير، شكراً»، ثم أضاف بسرعة: «أردت أن أعرف إذا كنتِ الآن أفضل». وكيف علمت بمرضي. من دار النشر. متى. صباح أمس. وعندئذ قررت الاتصال للاطمئنان على صحتي. نعم. شكراً على اهتمامك، كنت المصحح الوحيد الذي أبدى اهتمامه بمرضي. حسناً، اعتقدت أن هذا ما يمليه عليّ الواجب، أرجو ألا أكون قد ضايقتك. بالعكس، أنا ممتنة لذلك، أنا الآن أفضل، أظن أن بإمكاني الذهاب غداً أو بعد غد إلى دار النشر. لا أريد مضايقتك أكثر من هذا، تمنياتي لكِ بالشفاء. قبل أن تُغلق الخط، كيف حصلت على رقم هاتفي. أعطتني إيّاه ساريتا.

الأخرى. نعم، عاملة السويتش. متى. صباح أمس، كما أخبرتكِ. ولم تكلمني حتى اليوم. خفت أن أضايقك. وانتصرت الآن على الخوف. هذا ما حدث، والدليل حديثي الآن مع حضرتكِ. أخبروك بالتأكيد أنني حاولت الاتصال أيضاً بحضرتك. فكر رايموندو سيلبا لبضع ثوان في التظاهر بعدم تلقيه الرسالة، ولكنه أجاب أخيراً بعد الثانية الثالثة: نعم. يمكنني إذن السماح لنفسي بالظن في أن مبادرتي هي التي جعلتك تتصل بي، لأنها لم تترك لك خياراً آخر. اسمحي لنفسك بما تشائين، فأنت في كامل حقلك، ولكن يجب أن تضعي في الاعتبار أيضاً أنني لم أطلب الرقم من عاملة السويتش للاحتفاظ به في جيبي، انتظاراً لما لا أعرف ماذا. لم يكن هذا هو السبب. ما هو إذن. السبب يكمن ببساطة في نقص الإرادة، يبدو أن إرادتك تكاد تقتصر على ذلك الموقف الخاص بالمراجعة، ولا أريد الرجوع إليه ثانية. أنا أتصل بكِ من أجل الاطمئنان حقاً على صحتك، ولتمني الشفاء لك. ألا تعتقد أن الوقت قد حان لتسأل عن سبب اتصالي بك. لماذا اتصلت بي. لا أدري ما إذا كانت نغمة الصوت هذه تعجبني. المهم الكلمات، لا النغمة. ظننت أن خبرتك الطويلة في التصحيح علمتك أن الكلمات بدون النغمات لا تساوي شيئاً. الكلمة المكتوبة خرساء. القراءة تُضفي النغمة عليها. باستثناء القراءة الذهنية. وحتى هذه أيضاً، فلا أظنك تجهل أن العقل ليس جهازاً صامتاً. أنا مجرد مصحح، يفعل ما يفعله الإسكافي الذي يكتفي

بالحذاء الذي بين يديه، عقلي يعرف عني، ولا أعرف شيئاً عنه. ملاحظة ممتازة. لم تجيبي حتى الآن على سؤالي. أيّ سؤال. لماذا اتصلت بي. لست واثقة مما إذا كان يعجبني الآن ذكر السبب. لست أنا الجبان وحدي. لا أذكر أنني تحدثت عن جبن. تحدثتِ عن نقص الإرادة. الأمر مختلف. وجها العملة مختلفان، والعملة واحدة. القيمة تكمن في جانب منها فحسب. لا أفهم هذا الحوار، وأعتقد أنه من الواجب انهاؤه، فليس من الحكمة المضي فيه قُدُماً دون مراعاة لحالتك الصحية. لا تروقك المراوغة. لست مراوغاً. أعرف، ومن ثمّ لا داعي للتظاهر. أعتقد أننا لا ندري حقاً ما نقوله. أنا على دراية تامة به. اشرحي لي إذن. لا يحتاج إلى شرح. تتفادين الدخول في صلب القضية. بل حضرتك الذي يتفادها، وتتخفى وراء نفسك، طالباً مني إخبارك بما تعرفه. من فضلك. من فضلك ماذا. أعتقد أنه من الصواب تجنب هذا الحوار المثقل بالتورية والمعاني المزدوجة. لأنك أنت الذي تدفعه في هذا الاتجاه. أنا. نعم أنت. لم يحالفك الصواب لأني أحب الأشياء الواضحة. كن واضحاً إذن وأخبرني بسرّ هذه العدوانية حين تتحدث معي. لست عدوانياً مع أحد، تنقصني هذه الموهبة الحديثة. أنت عدواني معي، لماذا. لا أدري. أنت معي هكذا منذ اليوم الأول لتعارفنا، ولا داعي لتذكيرك بما مضى. كانت ظروفاً طارئة. ولكن الظروف تغيرت بعد ذلك، ورغم هذا لم تنته العدوانية. عفواً، لم أقصد هذا مطلقاً. من فضلك أنا التي أطلب منك

الآن عدم استخدام كلمات غير ذات فائدة. ألوذ بالصمت. اسمع إذن، اتصلت بك لأنني كنت أحس بالوحدة، ولأنني كنت أود معرفة ماذا تعمل، ولأنني كنت أود أن تتمنى لي الشفاء، ولأنني... ماريا سارة. لا تنطق اسمي هكذا. ماريا سارة، أنا معجب بكِ. (وقفة طويلة). حقاً. حقاً. لقد عانيت كثيراً لقول ما قلته. وربما ما كنت لأقوله أبداً. لماذا. لأننا مختلفان، ننتمي إلى عالمين مختلفين. ماذا تعرف أنت عن هذه الاختلافات، بيننا وبين عالمينا. أتخيل، أرى، أستخلص النتائج. العمليات الثلاث التي ذكرتها يمكن أن تفضي إلى الصواب كما يمكن أن تفضي إلى الخطأ. أقبل هذا، ولكن الخطأ الأكبر في هذه اللحظة ربما يكمن في التصريح بإعجابي بك. ولماذا. لأنني لا أعرف شيئاً عنك، إذا كنت ... متزوجة. نعم. أو مخطوبة. نعم. لنفرض أنني حقاً متزوجة أو مرتبطة بأي شكل من الأشكال، فهل يمنع هذا من إبداء إعجابك بي. لا. وإذا كنتُ حقاً متزوجة أو مرتبطة بأي شكل من الأشكال، أتعتقد أن هذا يمنع من إبداء إعجابي بحضرتك، لو حدث. لا أدري. عندئذ سجّل عندك، أنا معجبة بك. حقاً. حقاً. اسمعي، يا ماريا سارة. قل يا رايموندو، ولكن قبل أن تتكلم يجب أن تعرف أنني مطلقة منذ ثلاث سنوات، ومنذ ثلاثة أشهر أنهيت علاقة ولم أشرع في أخرى، ليس لدي أولاد، أعيش في بيت أخي، والسيدة التي تلقت مكالمتك هي زوجة أخي، ولستُ في حاجة لأن تخبرني من هي المرأة التي تلقت مكالمتي لأني

أعرف أنها الخادمة، والآن الكلمة لك، ولا تعجب إن قلت إنني أكاد أطير من الفرحة. لماذا أنت معجبة بي، أخبريني. لا أدري. ألا تخافين من أن يبدأ الإعجاب في التلاشي عندما تبدئين في معرفة السبب. يحدث هذا أحياناً، بل وفي مرات كثيرة. وعندئذ. وعندئذ لا شيء، ما يُعرف فيما بعد يظل إلى ما بعد. هل أنت معجبة بي. أعتقد أنني معجبة بك. متى نلتقي. فور نهوضي من سرير الألم هذا. ماذا يؤلمك. جسدي كله. أيمكنني السؤال عن كُنْه هذا المرض. لا شيء ذا أهمية، أو بالأحرى القول، إنها نزلة البرد الأكثر أهمية في حياتي. من مكانك لا تستطيعين رؤيتي، ولكني أبتسم. شيء طريف، لأن الابتسامة هي الشيء الوحيد الذي لم أره على فمك. باستطاعتي القول إنني أحبك. لا، قل فحسب إنك معجب بي. لقد قلته. احتفظ إذن بالباقي إلى اليوم الذي يصبح فيه الأمر حقيقة، لو جاء هذا اليوم. سوف يأتي. لا ينبغي الحلف على أمر مستقبلي، بل يجب انتظاره، والآن تطلب هذه المرأة المنهكة والمحمومة أن يتركوها لتنال قسطاً من الراحة، لتستعيد قواها تحسباً لاتصال هاتفي يأتي اليوم. اتصال لحضرتكِ. أو لحضرتك، لأن معنى الجملة ينسحب على كلا الاحتمالين. ازدواجية المعاني ليست عيباً على الدوام. إلى اللقاء. أتسمحين لي أن أودعك بقبلة. سنجد عما قريب متسعاً لها. لقد تأخر هذا الوقت بالنسبة لي. سؤال أخير. اسألي. هل بدأت في كتابة «قصة حصار لشبونة». نعم. لا أدري إن كنت سأظل معجبة

بك لو كانت الإجابة بالنفي، مع السلامة.

انتهت المحادثة بكلمتي «مع السلامة». تضع ماريا سارة- المستلقية في غرفتها- سماعة الهاتف ببطء، ورايموندو سيلبا- الجالس أمام الطاولة- يضع سماعة الهاتف ببطء. بحركة متموجة تغوص ماريا سارة- متكاسلة- بين الملاءات، ورايموندو سيلبا يضطجع- ذاهلاً- على مسند الكرسي. إنهما سعيدان، كلاهما، ومن الظلم في هذه الحالة ترك أحدهما لكي نتفرغ للحديث عن الآخر، ولكن ما باليد حيلة، لقد تبين من قصة أخرى، أشد إغراقاً في الخيال، أنه من المستحيل- ذهنياً ومادياً- وصف النشاط المتزامن لشخصيتين، لا سيما إذا كانتا متباعدتين، رغم حرص الرّاوي واهتمامه بما يعتقد أنه يصب في مصلحة موضوعية الحكي ويُرضي الطموحات المشروعة لهذه الشخصية أو تلك- رغم كونها ثانوية- بتفضيل أقوالها المتواضعة وأعمالها القليلة على الكلمات والأعمال المهمة للشخصيات الرئيسية أو الأبطال. وما دمنا قد ذكرنا «الأبطال» أناشدكم بأن تستحضروا معي- كمثال توضيحي- تلك اللقاءات المدهشة بين فرسان «المائدة المستديرة» أو «ديماندا دل جرال» وبين صومعيين علماء أو فتيات غامضات ألقى بهن القدر في طريق هؤلاء الفرسان، وبعد انتهاء اللقاء يرحل الفرسان في اتجاه مغامرات ولقاءات جديدة، بينما نظل نحن،

مع الصومعيّ والفتاة، مُهملين إلى الأبد على صفحة الكتاب، في حين أننا كنا متشوقين لمعرفة مصير الصومعيّ والفتاة: هل شُغفت إحدى الملكات حباً بالصومعيّ فذهبت إليه وأخرجته من صومعته، أم أن الفتاة قد انطلقت إلى العالم بحثاً عن رجل بدلاً من بقائها في الغابة منتظرة قدوم الفارس التائه. أما بالنسبة لرايموندو سيلبا وماريا سارة فإن المسألة جد معقدة، لأنهما شخصيتان رئيسيتان، وسيظلان هكذا حتى النهاية، إن إيماءاتهما وحركاتهما وأفكارهما المتزامنة تمثل في نهاية المطاف صعوبة لا يمكن التغلب عليها، ومن ثمّ فليس أمامنا من خيار سوى اللجوء إلى حلّ منطقي لا يتنافى مع معيار القارئ ويتمثل في الانتقال على التوالي من شخصية إلى أخرى، وعلى سبيل المثال فقد لاحظنا وجود نوع من الغبطة في الحركة التي صدرت عن ماريا سارة واقتصرنا على الإشارة إليها بلفظة «التكاسل»، أما رايموندو سيلبا فكانت شفتاه جافتين وكأن حمى مفاجئة قد دخلت جسده فشرع في الانتفاض بكامله، وهذا لأن أعصابه المتوترة في أثناء الحوار قد اعترتها السكينة الظاهرية في لحظة الوداع، ولكنها أخذت تئز بعد ذلك مثل أسلاك مشدودة أو– مراعاة لجمال التعبير– مثل أوتار مِعْزف تهزها ريح إعصارية. ونضيف إلى ما تقدم قائلين إن استمرار البسمة طويلاً على شفتي ماريا سارة، وحالة السعادة الطفولية التي تبدو عليها، جعلا زوجة أخيها تسألها متعجبة: «من يكون رايموندو سيلبا هذا الذي جعلك

في هذه الحالة»، فتجيب ماريا سارة والابتسامة لم تفارق شفتيها: «لا أعرفه حتى الآن». أما رايموندو سيلبا فلا يجد من يحادثه، يبتسم الآن فحسب بعد أن عاد إليه الهدوء رويداً رويداً، ينهض أخيراً، إنه رجل جديد، هذا الذي يغادر المكتب ويتجه إلى غرفة النوم ولا يتعرف على نفسه حين ينظر في المرآة، رغم أنه على وعي تام بكونه هذا الكائن الموجود هنا، والذي يكتفي بهزّ كتفيه عند إمعانه للنظر في المفرق الأبيض للشعر، بعدم اكتراث حقيقي، ربما مع قليل من نفاد الصبر لأن خطوات التقدم نحو الحقيقة مازالت ثقيلة. تنظر ماريا سارة إلى الساعة في معصمها، مازال الوقت مبكراً لعودة الهاتف إلى الرنين أو لاتخاذ قرار بالاتصال (من دلائل الحكمة قدرة الأحاسيس على تسييس الوقت والتحكم فيه). ينظر رايموندو سيلبا إلى الساعة ثم يخرج. أمضي في الشارع وقتاً أكثر من اللازم للذهاب إلى محل للزهور وابتياع أربع وردات، الأنصع بياضاً من بين الموجودات هناك. تبادل مع البائعة حواراً حماسياً قبل شرائه لما يريد، وأظهر في سبيل الحوار -بما قدمه من بقشيش- كرماً زائداً عن الشائع المعتاد ومغايراً للمعهود فيه، وهذا لأن المضامين المتنوعة التي حملتها كلماته لم تكن مقنعة بما فيه الكفاية للبائعة: من اجتهاده بداية في بيان أن الفارق بين وردتين وبين اثنتي عشرة إنما هو فارق حسابي محض ولا ينسحب على القيمة، حتى الوصول في النهاية إلى تلميحاته الغامضة حول تنفيذه بما فعل لوعد يمنعه قسم

مهيب من الخوض فيه، رغم أنه كان توّاقاً للكشف عنه إزاء اللطف والصبر الكبيرين اللذين تحلت بهما البائعة. وفي مقابل الإكراميّة القابعة في جيب معطف العمل، تظاهرت البائعة بالاقتناع بكلامه، ولم تمانع في استمرار الحوار الطويل الذي انتهى بالطلب غير المعتاد للزبون، نعم غير معتاد، لأنه ليس معقولاً– ومهما قلبنا الأمر على جميع الوجوه– أن وردتين مثل اثنتي عشرة ولا حتى مثل باقة من الأوراق الرخيصة. ولكي لا يُضبط متلبساً بالزيف– لمخالفة الأقوال الأفعال– عاد رايموندو سيلبا إلى البيت في سيارة أجرة. صعد درجات السلّم الطويل ركضاً، في مأثرة رياضية أعاقت تنفسه لبضع دقائق. عدم تبصّر– قال لنفسه–، في مثل هذه السنّ لا ينبغي الصعود بهذا الشكل سلالم شارع «جلوريا»، نطق «جلوريا»[1] بطريقة عفوية، وفي أثناء تسليته بعد ذلك بمبالغاته– الجسدية واللفظية– اتجه إلى الزهرية وأخرج منها الوردة الذابلة، غيّر الماء، ثم وضع فيها– بأناة وفن رجل ياباني– الوردتين اللتين أحضرهما.

تُشاهد من نافذة حجرة النوم سحابات ثقيلة وسوداء تمر مبطئة، في سماء المغيب البنفسجية. لم يقرر الربيع حتى الآن– رغم انقضاء معظمه– فتح أبوابه للحرارة التي تسمح برفع الأكمام، وللرقاب

(1) كلمة «جلوريا» (Gloria) هنا اسم علم، ولها معانٍ كثيرة، نشير من بينها فيما يلي إلى ما يتناسب مع عبارة المؤلف: مجد، جنّة، نعيم.... (المترجم).

بتنفس الصعداء. يعيش رايموندو سيلبا بطريقة ما في زمنين وفصلين مختلفين: في يوليو شديد الحرارة الذي يجعل الأسلحة المحاصرة للشبونة تلمع وتتلألأ، وفي أبريل هذا، الرطب والرمادي، بشمس تلمع أحياناً بحيث تضفي على الضوء نوعاً من القسوة، مثل قطعة ماس مقفولة وملساء. فتح النافذة، اعتمد بمرفقيه على حاجزها، كان يحس- رغم رداءة الجو- بالراحة والسعادة. البيت يعطي ظهره لجهة الشمال التي تهب منها في هذه اللحظة ريح متقطعة ومباغتة تطوف بالناصية القريبة ثم تلامس الوجه بعد ذلك في ملاطفة باردة. ما لبث أن اعتراه إحساس بالتجمد عندما تذكر أنه لا يستطيع من موقعه هذا سماع رنين الهاتف، لو رنّ. دخل مسرعاً، اتجه بلهفة نحو غرفة المكتب وكأنه يريد التقاط الذبذبات الأخيرة للهاتف. كان الهاتف قابعاً هناك، ساكناً وأسود، شأنه على الدوام، لكنه لم يعد الآن حيواناً مهدداً، حشرة متدرعة بالأشواك والأذناب، بل يمكن حتى مقارنته بقط أليف نائم، متكوراً على حرارته ذاتها، وإذا استيقظ فلن يشكل تهديداً بأظفاره الصغيرة والمميتة أحياناً (مثل مخالب حيوان ضارٍ)، بل يظل منتظراً اليد التي تقترب ليحتك بها في شهوانية وتواطؤ. رجع رايموندو سيلبا إلى غرفة النوم، جلس أمام الطاولة الصغيرة، القريبة من النافذة، دون إضاءة المصباح، منتظراً. أسند جبهته على كفّيه، في وضعية ينفرد بها: ملامسة أطراف أصابعه في شرود لمنبت الشعر، حيث توجد

قصة أخرى مكتوبة، القصة المبدوءة منذ وقت قريب ولا يستطيع قراءتها سوى من يتمتع بعينين بصيرتين ومفتوحتين، وليس الأعمى، لأن أصابعه لن تخبره- مهما كانت عليه حاسة اللمس من رهافة- بهذا اللون الجديد لمنبت الشعر. رغم سقوط المساء، ما كانت ظلمة الغرفة ستصل إلى هذه الكثافة لو لم تكن الظلّة موجودة، تلك الظلّة التي تسدّ الطريق- حتى في الأنهر[1] الواضحة -.

أمام ضوء السَّمْت، وجعلت الليل ينبت هنا الآن، بينما في الخارج- بين الفجوات البطيئة للسحب- مازالت السماء القريبة مستسلمة لاختراقات الأشعة الأخيرة التي تُلقي بها الشمس- من خلف ظهر البحر- نحو المناطق العليا للفضاء. تومض الوردتان المنتصبتان في ركن ضيق منعزل ومضات خافتة في الظلمة الزرقاء للغرفة، تجثم يدا رايموندو سيلبا على الصفحة الأخيرة المكتوبة، على السطور السوداء مستغلقة الشفرة، ربما تكون باللغة العربية، لم نكن منتبهين لصوت المؤذن الذي ارتفع بلا طائل، تأخرت الشمس لحظة طويلة، رابضة فوق الأفق الناصع، منتظرة، ثم تركت نفسها تغرق بعد ذلك، لقد فات الأوان بالنسبة لأية كلمة تصل الآن. يمتزج خيال رايموندو سيلبا شيئاً فشيئاً بكثافة الظلال، تستمد الوردتان من النافذة الضوء غير المحسوس تقريباً والعالق بالزجاج كي تستحمان

(1) الأنْهُر (جمع نهار)، وهو الوقت ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس. (المترجم).

فيه، في الوقت الذي ينساب فيه من سويداء قلب التّوَيْجات عطر غير متوقع. ترتفع ببطء يدا رايموندو سيلبا لكي تلمسا الوردتين- واحدة بعد الأخرى- وكأنهما تلمسان خدّين، وهذا بمثابة تمهيد لما يلي: لهاتين الشفتين اللتين تقتربان أيضاً ببطء كي تلثما البتلات ثم الفم المتعدد للزهرة. الآن لا يرن الهاتف، لا يوجد ما يبدد اللحظة قبل تبددها بنفسها. غداً، سيتقدم الجنود المتجمعون بجبل «جارثا» على شكل كماشة (أحد طرفيها جهة الشرق، والآخر جهة الغرب) حتى شاطئ النهر، وسوف يمرون من أمام عيني رايموندو سيلبا، الذي يقطن البرج الشمالي لبوّابة «ألفوفا»، وعندما يطلّ من الشرفة، حاملاً في يده وردة أو اثنتين، سوف يصرخون فيه من هناك، تحت: فات الأوان، الوقت ليس وقت ورود، بل دم أخير وموت. من هذا الجانب، وباتجاه بوابة «فييرّو»، سوف تهبط الفرقة التي يقودها «ميم راميريس»، وحيث يمضي مع الجموع «موجيمي»، الذي نادى عليه قائده بابتسامة صريحة من ابتسامات العصر الوسيط عندما رآه وتعرف عليه (بالتأكيد عرفه من القامة الطويلة، لأن الوجه ملتح مثل وجوه الباقين): «مرحى يا رجل، هذه الأسوار أعلى بكثير بحيث لا ينفع معها الصعود ثانية على كتفيك لتعليق السلّم، كما فعلنا في شنترين وكان بمثابة الخير العميم لنا، ولسيدنا الملك». أجاب «موجيمي»، دون أن يجرؤ على تكذيب رواية قائده عن تركيبة أجزاء ذلك السلم البشري الشهير، وبفلسفة ذلك الجندي

الذاهب إلى الحرب ويجيب على الجنرال المارّ عليه في سيارة الجيب: «إلى اللقاء، هناك في الداخل»، بما يعني أننا سنكسب الحرب، أما إذا تخلف أحدنا عن اللقاء فلا تفسير له سوى أنه مات، هيا يا سيدي ارفع الدرع لأن سحابة من السهام قادمة. أضاء رايموندو سيلبا مصباح الطاولة، بدا وكأن الضوء السريع قد أطفأ الوردتين للحظة، ولكنهما عادتا إلى الظهور وكأنهما أعادتا تركيب نفسيهما بنفسيهما، ولكن دون هالة أو غموض، على عكس ما يعتقد عالم نباتي، وصاحب الجملة المشهورة التي تقول: «الوردة هي وردة»، ولو كان شاعر هو الذي يعبر عن هذا لقال: «وردة»، تاركاً الباقي لأن صمت تأملها يشمله.

أخيراً، الهاتف. نهض رايموندو سيلبا قفزا من على الكرسيّ الذي انقلب من الدَّفْعة، يهرول الآن في الرّدهة متقدماً قليلاً على أحد ما، يرمقه بابتسامة مصحوبة بمسحة سخرية: من كان يظن، يا صديقي، أن مثل هذه الأشياء سوف تحدث لنا، لا، لا تجبني، إنها مضيعة للوقت الإجابة على أسئلة بلاغية، تحدثنا في هذا الشأن من قبل، اذهب، اذهب، أنا أتبعك، ليس من طبعي التسرع، وما سوف تحصل عليه ذات يوم، سوف أحصل عليه، أنا دائماً ذلك الذي يصل فيما بعد، أعيش كل لحظة عشتها أنت وكأنني أستنشق عبير ورود مختزن في الذاكرة، أو بتعبير أقل شاعرية، أستنشق رائحة بقوليات

وفاصوليا طبقك، حيث تنهض من رُفاتها في كل لحظة طفولتك، طفولتك التي لا تراها ولا تصدقني إن حدثتك عنها. ألقى رايموندو سيلبا بنفسه على الهاتف، وفي لحظة شك قال لنفسه: «وإذا لم تكن هي»، إنها هي، ماريا سارة التي تقول له: ما كان عليك فعل هذا. لماذا– سأل مرتبكاً. لأنني لا أستطيع من اليوم تلقي وروداً كل يوم. لن أتأخر عن إرسالها يومياً. لا أقصد وروداً، وروداً. ماذا إذن. لا يجدر بأحد أن يُعطي أقل مما أعطاه ذات مرة، إذ لا ينبغي تقديم الورود اليوم من أجل تقديم الخُواء غداً. لن يكون هناك خُواء. إنه مجرد وعْد، ولا ندري ما يخبئه لنا القدر. حقاً إننا لا ندري، ولكنني لم أكن أدري أيضاً أنني سأرسل لك وردتين، ولا كنت تدرين أن وردتين مماثلتين موجودتان هنا، في عزلة، فوق طاولة عليها وريقات تحكي قصة حصار لم يحدث قط، وإلى جوار نافذة تطلّ على مدينة غير التي أراها. أريد التعرف على هذا البيت. قد لا يعجبك. لماذا. لا أدري ما أقوله لك، إنه بيت بسيط، أو بالأحرى ينقصه الجمال، تشاركني سكناه قطع أثاث متنافرة، وبه كتب كثيرة، أعيش منها، وإن كنت أنتمي دائماً إلى العالم الخارجي لدفّاتها، حتى لو كنت أصحح خطأ مطبعياً أو للمؤلف، أنا فحسب مثل ذلك الذي يتريض في حديقة ويحمله هَوَس النظافة إلى التقاط ورقة من على أرضيتها، وعندما لا يعرف أين يلقيها، يحتفظ بها في جيبه، وهذا كل ما أحمله معي، وريقات جافة ذابلة، لا توجد من بينها فاكهة واحدة سليمة

تصلح للفم. سوف أزورك. إنها الأمنية الأغلى في العالم بالنسبة لي– ثم يتوقف برهة ليضيف–: ولكنك قد تندمين على ما قلتيه أو تكتشفين عدم مناسبته– ولكنه صحح الجملة السابقة بقوله –: عفواً، لم يكن هذا قصدي. (وبما أنها واصلت الصمت، فقد نطق بكلمات لم يكن يتصور أنه قادر على التفوّه بها ذات مرة، كلمات صريحة ومباشرة، لا تحتاج إلى شرح لأنها ليست مغلفة بالتلميحات الاحتراسية). بالطبع كانت مقصودة، ولا أعتذر عنها. انفجرت ضاحكة، سعلت قليلاً ثم قالت: مشكلتي في هذه المسألة تكمن في عدم معرفة ما إذا كان من الواجب الاحمرار خجلاً من قبل، أم الآن عند سحبك للاعتذار. أذكر أنني شاهدتك خجلة ذات مرة. متى. عندما لمست الوردة التي كانت في مكتبك. نحن معاشر النساء أشد خجلاً من الرجال، فنحن الجنس الضعيف. الجنسان ضعيفان، لأن الخجل اعتراني أيضاً وقتها. تعرف الكثير عن ضعف الجنسين. أعرف ضعفي، وشيئاً عن ضعف الآخرين، لو كانت الكتب لا تهرف بما لا تعرف. رايموندو. نعم. سوف أذهب لرؤيتك عندما أستطيع، ولكن... سأكون في انتظارك. كلمات جميلة. لست أفهم. عندما أكون عندك هناك، ينبغي أن تستمر في انتظارك لي، مثلما سأواصل أيضاً الانتظار، لأننا لا نعرف متى سنصل. سوف أنتظر. إلى اللقاء، يا رايموندو. لا تتأخري. ماذا ستفعل عندما نغلق الهاتف. سوف أعسكر أمام بوابة «فييرّو» وأبتهل إلى العذراء المقدسة بألا يداهمنا

المسلمون في جوف الليل. أخائف أنت. أرتعد فَرَقاً. إلى هذا الحد. قبل قدومي إلى هذه الحرب كنت مجرد مصحح بروفات، مبلغ همّه تتبع أخطاء المؤلفين وتصحيحها... يبدو أن هناك تداخلاً في الخط. إنها صيحات التهديد التي يطلقها المسلمون من الشرفات. احترس. لم أقطع كل هذه المسافة البعيدة كي أقضي نحبي أمام أسوار لشبونة.

* * *

لو سلمنا بصدق الأحداث التي حكاها لنا «فراي روخيرو» من خلال خطابه الموجَّه إلى «أوسبرنو» سيكون من الضروري التنبيه على رايموندو سيلبا بألا يركن إلى فرضية سهولة العَسْكرة أمام بوابة «فييرو» المذكورة أو أمام أية بوابة أخرى، لأن سلالة المسلمين ليست رعديدة بحيث تكتفي بغلق الأبواب على نفسها بالضبّة والمفتاح في انتظار معجزة إلهية تصرف عنها كيد الجليقيين وتغيّر نواياهم المشؤومة. لقد أشرنا آنفاً إلى أن عُمران لشبونة يمتد خارج أسوارها، وأن هذا الامتداد لا يقتصر على عدد من البيوت المقامة من أجل التصييف أو الاستمتاع بخضرة الحدائق، بل إنه يعتبر بمثابة مدينة أخرى تطوق لشبونة. وإذا كان من المعروف أن مراكز القيادة العامة سوف تنتقل خلال بضعة أيام إلى تلك الأرباض، كما ستنتقل إليها الشخصيات المهمة- سواء كانت حربية أو دينية- طلباً للراحة التي لا تجدها في سكنى الخيام، فهذا يعني أن قتالاً ضارياً قد جرى في هذه الأرباض- من شارع إلى شارع، ومن فناء إلى فناء، ومن سطح

إلى سطح- لطرد المسلمين منها، واستمر ما لا يقل عن أسبوع، وكان النصر فيه حليفاً للبرتغاليين لأنهم الأكثر عدداً فحسب، لأن المسلمين لم يدفعوا إلى المعركة بكل فيالقهم الموجودة داخل المدينة، ولم يستطيعوا في الوقت نفسه استخدام المقاليع والسهام بعيدة المدى خوفاً من قتل أو جرح إخوانهم الذين آثروا التضحية بأنفسهم على الخط الأمامي لجبهة القتال. ومع هذا، لا يجدر بنا توجيه اللوم إلى رايموندو سيلبا، على اعتبار أنه مجرد مصحح معفيّ من الخدمة العسكرية ولا دراية له بمثل هذه الفنون (وهو لا يملّ من تذكيرنا بهذا)، رغم أن مكتبته تضم طبعة موجزة لأعمال «كلاوسويتز» الكاملة، اشتراها منذ أعوام طويلة ولم يتصفحها قط. ربما يكون قد أراد اختصار حكايته، واضعاً في الحسبان- لاسيما بعد مضي هذه القرون العديدة- أن المهم هو ذكر الأحداث الرئيسية. ليس لدى الناس حالياً وقت أو صبر لحشو رؤوسها بتفصيلات وجزئيات تاريخية، على عكس معاصري مليكنا دون أفونسو الأول، الذين كان لديهم بالتأكيد تاريخ مقتضب (يقل عن تاريخنا بحوالي ثمانية قرون، وهي ميزة لا ينبغي الاستهانة بها) يسهل عليهم استيعابه كله. أما ما يسعفنا في العصر الحالي فيتمثل في تلك الحاسبات الآلية التي نختزن فيها كل ما يعنّ لنا من موسوعات وقواميس، في تنازل صريح منا عن الذاكرة الشخصية، ولكن هذا النوع من فهم الأمور- وينبغي التصريح به قبل أن يقوله لنا آخر- ليس إلا

بمثابة الرجعية المطلقة، المحسوبة علينا لا لنا، إذ لا فارق بينه وبين ما كانت تُستخدم من أجله مكتبات آبائنا وأجدادنا، من أجل تخفيف الحمولة عن المخيخ الضئيل القابع في أعماق المخ، والمحاط بالدوائر من جميع الاتجاهات. قد لا يصدق البعض أن الجملة التي قالها «ميم راميريس» للجندي «موجيمي» (قف هنا حتى أصعد فوقك) هي من عمل المخيخ، ومن جهتنا نقول إنها من صميم عمله، لأنها تتضمن أشياء كثيرة متعلقة بالذكاء والفهم، مثل: إدراك القائل للهدف منها، وإدراكه أيضاً بضرورة طاعة الجندي لقائده، والالتقاء بين فكر القائل والمستمع، وارتباط الأثر بالسبب...، وهذه أمور لا يمكن للحاسب الآلي الازدهاء بها، لأن معرفته لكل شيء تعني– كما يقولون– أنه لا يفهم شيئاً.

لشبونة خاضعة للحصار في النهاية. تم إجلاء القتلى والجرحى على متن قوارب اتجهت بهم إلى الشاطئ الآخر للمصبّ، ومن هنالك، وإلى أعالي الجبل، تم حمل الجرحى إلى مستشفيات الدم، وتوزيع القتلى على المقابر: كلٌّ بحسب صفته وجنسيته. لو نحينا جانباً مشهد حزن البعض وبكائهم على الأرواح الضائعة، فلن نعثر في المعسكر البرتغالي على مبالغات من أي نوع، لأن هؤلاء القوم قُساة الأحاسيس ولا يميلون إلى الإسراف في ذرف الدموع، بل إننا نلاحظ هيمنة ثقة كبيرة في المستقبل عليه، وسريان روح إيمانية لا

حدود لها، مستبشرة بمساعدة سيدنا يسوع، الذي لم يُجهد نفسه هذه المرة بالتجلّي مثلما فعل في «أوريكي»، ولكنه أدّى ما عليه وزيادة حين جعل المسلمين يتركون وراءهم- في الانسحاب المتسرع- لذائقة الأعداء (نحن) كميات ضخمة من القمح والشعير والدُخْن والبقوليات كانوا يحتفظون بها كمخزون احتياطي في صوامع لا تتسع لها المدينة، وفي سراديب بين بّوابتي «فييرو» و«ألفوفا». كان عندئذ، وبمناسبة هذا الاكتشاف السعيد، عندما ألقى الملك بالمقولة الشهيرة التي أصبحت مثلاً (وتنم عن حكمة غير متوقعة ممن هو في مثل سنّه: إذ لم يكن قد أكمل وقتها ثمانية وثلاثين عاماً) وصادفت هوى في نفوس البرتغاليين: «تحتفظ اللقمة بنفسها، انتظاراً لمن يستحق التبلّغ بها»، وفي الحال أصدر الأمر بجمع الأغذية المكتشفة حتى لا يُضطر إلى إصدار أمر آخر في التوّ مفاده: «لو امتلأت بطن الفقير تنفجر، أفضل وقت لتوزيع الجراية هو وقت الوفرة»- ختم كلامه.

مضى أسبوع على التوقع الخاطئ لرايموندو سيلبا، على استراتيجيته الأولى، عندما فكر في شن هجوم شامل ومتزامن على بوابات المدينة ظهر اليوم التالي لتحرك القوات من جبل «جارثا»، على أمل العثور على نقطة ضعف في الدفاعات يمكن التسلل من خلالها، أو على أمل قيام المسلمين بإرسال التعزيزات إلى البّوابات

وترْك جبهات أخرى دون حماية، وعندئذ... ولا داعي لإكمال الجملة، لأن الخطط كلها تقريباً جيدة مادات على الورق، بينما تنزع أرض الواقع دائماً إلى تغيير المشاريع وتمزيق الخطط. لا تكمن المشكلة الآن في الأرباض التي اتخذها المسلمون بمثابة طلائع دفاعية، لأنه قد تم التغلب عليها رغم سقوط عدد كبير من الضحايا، وإنما تكمن في الاهتداء إلى وسيلة ناجعة للدخول من أبواب محكمة الغلْق وتحت رقابة محاربين متمركزين في حماية شرفات عالية، أو لاجتياز أسوار شديدة الارتفاع لا تُجدي معها سلالم ولا يغفل عنها الحرّاس. وعلى أي حال فإن رايموندو سيلبا في وضع أكثر من ممتاز يمكنه من الإحاطة بالصعوبات التي تكتنف المهمة، إذ يدرك من موقعه الحالي في شرفة بيته أن قتل أو جرح أي عدد من المسيحيين الذين يحاولون الاقتراب من بّوابة «ألفوفا» إنما هو أمر هيّن ولا يحتاج إلى مهارة في التنشين. تجري في المعسكر إشاعات عن وجود خلافات حادة في وجهات النظر بين القيادات العليا التي انقسمت إلى فريقين: فريق يرى ضرورة شنّ الهجوم الفوري بكل الوسائل المتاحة، يتم التمهيد له بإطلاق ستارة كثيفة من السهام والقذائف على طول الجبهة لإجبار المسلمين على ترك الشرفات، وينتهي بدعس الأبواب وتحطيمها بواسطة كباش[1] عملاقة.

أما النظرية الثانية فهي أقل اندفاعاً ومغامرة، ويرى أصحابها

(1) كِباش أو أكباش (مفردها: كبش)، وهي آلة حربية قديمة لدك الأسوار. (المترجم).

العمل على تشديد الحصار بحيث لا تستطيع الفئران دخول لشبونة أو الخروج منها، أو بمعنى أدق السماح لمن يريد بمغادرتها ومنع أي كائن من التسلل إليها، وسوف يتكفل الجوع في النهاية باستسلام المدينة. يقول أصحاب النظرية الثانية إن النتيجة التي يطمح إليها أصحاب الرأي الأول- الدخول المظفر إلى لشبونة- مبنية على مقدمة زائفة، وهي الاعتقاد بأن ستارة القذائف والسهام سوف تجبر المسلمون على إخلاء الشرفات (إن هذا- أيها السادة الأعزاء- مثل بيع البيضة وهي مازالت في جوف الدجاجة) في حين أنهم- أي المسلمين- سوف يحتمون بالسواتر والمظلات التي يستطيعون تركيبها بسهولة ثم يقومون بكل هدوء، وهم في مأمن، بالإجهاز علينا من مواقعهم العالية أو يلجأون إلى عادتهم السيئة بصبّ الزيت المغلي فوق ظهورنا. فيرد عليهم عندئذ المدافعون عن فكرة الهجوم الفوري قائلين: لا يليق بسمعة محاربين أصائل وشرفاء مثل الموجودين هنا انتظار استسلام المسلمين من جرّاء الجوع، فهم ليسوا أهلاً للشفقة التي أظهرناها لهم من قبل حين عرضنا عليهم الانسحاب من المدينة في سلام ومعهم أمتعتهم وثرواتهم، الدم وحده الآن هو الذي يستطيع غسل أسوار لشبونة من الدنس الذي ظل يلوثها أكثر من ثلاثمائة وخمسين عاماً، وإعادتها طاهرة نقية للمسيح. استمع الملك لوجهتي النظر وأثنى عليهما، ولكنه رفضهما بقوله: حقاً لا يليق بالسمعة والكرامة انتظار سقوط الفاكهة من على الشجرة بعد

نضوجها، ومن جهة أخرى فإن الهجوم الشامل والعشوائي لن يؤدي إلى نتيجة حتى لو أحضرنا كباش[1] البرتغال كلها من أجل تحطيم الأبواب. عندئذ طلب الكلمة الفارس «إنريكي» ليقول: أثبتت الأبراج الخشبية المتحركة جدواها في كل حالات الحصار التي حدثت في أوروبا، إنها ليست متحركة تماماً لأن تحريك البرج الواحد يحتاج إلى جمع كبير من الناس والدواب، المهم أنه يمكن في أعلى البرج- حين يصل إلى الارتفاع المناسب- بناء ممر مُحاط بسواتر لحماية الجنود الذين سيندفعون من خلاله- حين يقترب من السور- كالسيل العرمرم ليجرف المسلمين أمامه، ثم أنهى شرحه قائلاً: فوائد جمّة ستعود على البرتغال لو أنها أخذت في هذا الأمر- وفي غيره- بالأساليب الحديثة المتبعة في أوروبا، وإن كان هذا يتطلب منكم في البداية تجشم الصعاب من أجل استيعاب التكنولوجيا المتطورة، أنا خبير في هذا المجال وعلى استعداد لتعليم أبناء البلد الأصليين، ليس على جلالتكم سوى التصريح لي بالبدء، وأنا على ثقة من أنكم لن تنسوا يوم توزيع الجوائز إدراج مساهمتي المهمة ضمن المساعدات التي اعتمدت عليها البرتغال- رغم نكوص البعض على أعقابهم- في هذه الساعة المصيرية من تاريخها.

---

(1) كباش (مفردها كبش) وتعني في الجملة: فحل الضأن في أي سنّ كان. وقد استخدمت الكلمة هنا- من قبل الملك- بمعناها الحقيقي بقصد التهكم. (المترجم).

كان الملك يتهيأ لإعلان قراره بعد سماع النصائح القيمة عندما نهض صليبيان آخران- أحدهما فرنسي والثاني نورماندي- وطلبا الكلمة ليعلنا أنهما أيضاً خبيران فريدان في بناء الأبراج، وأنهما يتبعان منهجاً اقتصادياً يختصر النفقات سواء الخاصة بالتصميم أو التشييد، ومن ثمّ فإنهما على ثقة من أنه سيحظى بالقبول. أما بالنسبة للمكافأة فقد تركاها لسخاء وكرم الملك، مثلما فعل الفارس «إنريكي»، بل إنهما تبنيا كلماته بهذا الخصوص. لم يرق للبرتغاليين الوجهة الجديدة للحوار، سواء كانوا من الفريق المناصر لفكرة الانتظار أو من الفريق الداعم لفكرة الطرق على الحديد وهو ساخن. كان لكل فريق أسبابه التي تختلف عن أسباب الفريق الآخر، ومع هذا فقد وحّدت بينهما الأنفة من حيازة الأجانب لقصب السبق دون أن يكون لأهل البلد من نفع سوى كونهم مجرد أيد عاملة مجهولة، غير جديرة بترك أسمائها مدوّنة على العمل أو في كشوف الأعطيات. لم يكن أصحاب فكرة الحصار السلبي غير راضين تماماً عن مشروع الأبراج، لكونه يتناسب في النهاية مع رأيهم، من حيث عدم إمكانية تشييد هذه الأبراج في ظل الفوضى العارمة للهجوم الشامل، ولكن العنجهية الوطنية يجب أن تسود فوق أي اعتبار، ومن ثمّ فقد انحازوا لأولئك المتعجلين للهجوم الفوري ليشكلوا معهم جبهة واحدة للمعارضة، في محاولة منهم لإرجاء مجرد قبول الاقتراحات الأجنبية. ومرة أخرى يثبت دون أفونسو هنريكس أنه

كان يستحق فعلاً أن يكون ملكاً، وليس أيّ ملك، بل ملكاً علينا، لأنه استطاع مثل سالومون– نموذج آخر للاستبداد الألمعي– اتخاذ القرار المناسب، عندما صهر النظريات المختلفة في خطة استراتيجية واحدة، متناغمة ومنطقية. أشاد أولاً بجسارة أصحاب فكرة الهجوم الفوري، ثم هنأ مهندسي الأبراج على حسهم الواقعيّ المزدان بمواهب الإبداع والاختراع الحديثة، وأبدى إعجابه في النهاية بما يتحلى به الفريق الثالث من فطنة وصبر، وهما صفتان جديرتان بالإشادة لكونهما على طرفي نقيض من الأخطار غير الضرورية. وبعد استرضائه للأطراف الثلاثة قال: لقد اتخذت القرار بترتيب العمليات على النحو التالي: الهجوم الشامل في البداية، وإذا فشل نستعين بالأبراج الألمانية والفرنسية والنورماندية، وإذا فشل ما تقدم سنواصل الحصار إلى أن يؤتي ثماره ذات يوم. كان التصفيق جماعياً، إما لأن المتكلم هو الملك ويجب أن يكون التصفيق على هذا النحو، وإما لرضا الجميع بالقرار المتخذ، وكأن لسان حالهم ينطق بما يناسبه من الأمثال التالية: «القنديل في المقدمة ينير مرتين»– يقول أصحاب الرأي الأول، فيرد أصحاب الرأي الثاني «الرغيف الأول المدخّن من أجل الفلاح الجلف»، لكي يُنهي أصحاب الرأي الثالث هذا التراشق بقولهم الساخر «من يضحك أخيراً، يضحك كثيراً».

يتضح بجلاء من معظم الأحداث التي تشكل حتى الآن جوهر هذه القصة ولُحمة نسيجها، أن محاولة رايموندو سيلبا الاعتماد على وجهة نظره الخاصة لم تفده في شيء، ولا حتى في أثناء تشكلها من خلال النفي المدرج في قصة ظلت أسيرة لهذا النوع من القدرية التي نطلق عليها مصطلح «أحداث»، سواء كانت هذه الأحداث تستمد معناها من العلاقة التي تربطها بأحداث أخرى أو تستقيها- بشكل لا يمكن تفسيره- من حالتنا المعرفية في لحظة معينة. لقد أدرك مؤخراً أن حريته بدأت وانتهت لحظة كتابته لكلمة «لا» التي أفسحت المجال لدوران قدرية ملحة جديدة، ولم يبق له الآن سوى محاولة فهم أن ما ظهر له في البداية على أنه نتيجة لمبادرته وتأمله، إنما هو نتيجة لآلية كانت ومازالت خارجة عن نطاق سيطرته، وليست لديه سوى فكرة غامضة عن تشغيلها الذي يتوقف فحسب على الإدارة التصادفية لرافعات وأزرار مجهولة الوظيفة، وأن دوره يقتصر على هذا فحسب، لأن الرافعات والأزرار تتحرك بدورها صدفة من جرّاء دفعات طارئة غير متوقعة، وعلى فرض أنها متوقعة أو حتى مزودة بمحفزات ذاتية فإن نتائجها القريبة أو البعيدة خارج التوقعات. ومما تقدم يمكن إثبات أن عدم توقعه لسرد القصة الجديدة لحصار لشبونة بالشكل الذي تُحكى به الآن قد جعله يصطدم سريعاً بنتيجة ملحة مثل النتيجة الأخرى التي أراد تفاديها من خلال تغيير بسيط في كلمة، ولكنه ما لبث أن عاد إليها الآن وبشكل سلبي، بحيث يمكن تشبيهه-

مستخدمين مصطلحات أقل راديكالية- بمن أعاد كتابة نفس النوتة الموسيقية ولكن بخفض نصف «تون» (نغمة) من السلّم الموسيقي. يفكر رايموندو سيلبا بجدية في وضع نقطة النهاية لحكايته، في جعل الصليبيين الذين لم يبتعدوا كثيراً- لأنهم لابد أن يكونوا الآن في المنطقة الواقعة بين الغرب وجبل طارق- يعودون إلى نهر «تاجُه»، جاعلاً بهذا الشكل القصة تتم دون تعديلات، وكأنها تكرار حرفيّ للأحداث المروية في الكتب وفي «قصة حصار لشبونة». يعتقد أن شجرة «علم الأخطاء» الصغيرة التي زرعها بيده قد قدمت ثمرتها الحقيقية- أو أنها تَعِد بها- حين وضعت هذا الرجل أمام تلك المرأة، ومادام قد تم هذا بالفعل، فليبدأ فصلاً جديداً، مثل الذي يُمسك عن كتابة يومياته البحرية لحظة اكتشافه لأرض جديدة، صحيح أنه لا يوجد ما يمنعه من الاستمرار في كتابة اليوميات من على متن السفينة ولكنها ستكون حكاية أخرى، مخالفة لحكاية الرحلة المنتهية الآن: حكاية الاكتشاف وما وراء الاكتشاف. ومع هذا يساور رايموندو سيلبا الشك في غضب ماريا سارة لو أنه اتخذ هذا القرار، سوف تنظر إليه بغيظ، وربما بخيبة أمل لا تُطاق. لن يكون هنالك إذن نقطة نهاية، بل توقف حتى موعد الزيارة المعلن عنها، لاسيما وأن رايموندو سيلبا لا يقوى في اللحظة التي نحن فيها على إضافة كلمة أخرى، لأنه فقد الاتزان تماماً حين تخيل أن «موجيمي» ربما يفكر في الليلة السابقة على الهجوم الشامل، وأمامه أسوار لشبونة التي

تتلألأ الشعلات في شرفاتها، في امرأة لاحت له من بعيد عدة مرات خلال هذه الأيام، أوروانا، محظية الصليبي الألماني الذي تنام معه الآن في جبل «جارثا»، بأحد البيوت المسقوفة دون شك، فوق حصيرة مفروشة على البلاطات الرطبة التي لن يعود إليها المسلم قط لينام فوقها. شعر «موجيمي» بالاختناق داخل الخيمة، وخرج ليطفئ عطشه، أسوار لشبونة المضاءة بالشعلات تبدو كأنها من نحاس، «لا تُمتني يا إلهي قبل تذوقي لمتعة الحياة». يتساءل رايموندو سيلبا ما وجه الشبه بين هذه اللوحة وبين ماريا سارة. ماريا سارة ليست محظية لأحد– ومعذرة لاستخدام هذه الكلمة النابية التي لم يعد لها مكان بين مفردات قاموس عاداتنا الحالية–، وإذا كانت قد قالت «أنهيت منذ ثلاثة أشهر علاقة ولم أشرع في أخرى» فإن الموقفين مختلفان بشكل واضح، مع الزعم بأن الشيء الوحيد المشترك بينهما يتمثل في «الرغبة» التي كان يشعر بها «موجيمي» ذلك العصر كما يشعر بها رايموندو الحالي، إن الاختلاف– لو كان موجوداً– هو اختلاف ثقافي فحسب، نعم يا سيدي.

وفي أثناء تقليب رايموندو سيلبا للأفكار، استرعى انتباهه أن ماريا سارة لم تبد اهتمامها في أية مناسبة لمعرفة «علاقاته العاطفية» (وقد اخترنا هاتين الكلمتين لأنهما تتسعان لكل شيء). أثار عدم اكتراثها هذا– الظاهري على الأقل– حفيظته: «أنا لست رجلاً منتهياً

على أي حال، ماذا تظن»، وسرعان ما أدرك أنه يتحدث بلسان نوع من الغضب الطفولي (متناسياً أن الرجال كلهم مجرد أطفال) ما لبث أن تفاقم من جرّاء انفعاله للذكورية المُهانة وعندئذ دمدم: «كبرياء الذكر، كبرياء بهيميّ» واستحسن وفاء الصيغة بالمعنى المراد. بالطبع يمكن تفسير تصرف ماريا سارة من منطلق طبيعتها الأنثوية المتحفظة، إذ يوجد كثير من الأشخاص لا يقدرون على اقتحام أبواب خصوصيات الآخرين عنوة، ولكننا إذا أمعنا النظر قليلاً سنجد أن ماريا سارة ليست من بين هؤلاء، لأنها هي التي تمسك من البداية– ودون هوادة– بزمام المبادرة في جميع المواقف. يجب البحث إذن عن تفسير آخر، وعلى سبيل المثال أنها كانت تنتظر منه مقابلة صراحتها بصراحة مماثلة، وفي هذه الحالة لا يُستبعد أن تكون أفكار سيئة تدور بخلدها الآن، أفكار من نوع: «حذار من رجل لا يتكلم، وكلب لا ينبح». لا يمكن أيضاً استبعاد احتمال ثالث يتواءم كثيراً مع أخلاقيات الأزمنة الحديثة، ألا وهو عدم الاهتمام بالعلاقات الخاصة للطرف الآخر، على غِرار: «ما يجب عليّ فعله هو التعبير عن مشاعري الخاصة، ولا يخصني التحقق أولاً مما إذا كان الرجل خالياً أم لا، ليقل هو إن أراد». وعلى أي حال، فإن من وردت بذهنها فكرة الرجوع إلى أرشيف العاملين لمعرفة محل إقامة مصحح، بوسعها أيضاً انتهاز الفرصة للتأكد من حالته الاجتماعية، وإن كان التأكد مظنوناً لقدم المعلومات التي تم الرجوع إليها.

مكتوب في بيانات رايموندو سيلبا أنه أعزب، ولكن ماذا لو كان قد تزوج فيما بعد، بالتأكيد لن يهتم أحد بإضافة المستجدات إلى صفحة بياناته وبالإضافة إلى ما تقدم فإن الأوضاع الممكنة لحالات العزوبية والزواج أو الطلاق أو الترمل تفوق الحصر، لاسيما إذا كانت مصحوبة بكلمات مثل: قبل، وبعد، وفي خلال، وإيجابي، وسلبي...

في اليومين التاليين، تحدث رايموندو سيلبا مرات كثيرة مع ماريا سارة عبر الهاتف، مكررين بعض ما قالاه من قبل، ومندهشين أحياناً من عثورهما على جديد فيه، ومجتهدين في البحث عن أفضل الكلمات للتعبير عنه بشكل مختلف، وتلك مأثرة مستحيلة- عملياً- كما هو معروف. كان في مساء اليوم الثاني عندما أعلنت ماريا سارة: «سأذهب غداً إلى العمل، وسوف أغادر المكتب قبل موعدي بساعة لزيارة بيتك». ومنذ هذه اللحظة شرع رايموندو سيلبا بالتأكيد على المؤكدات كلها المتعلقة بالطابع الطفولي للرجال: إنه متوتر وكأنه يحس بالحاجة إلى إفراغ شحنة طاقة زائدة، وجزع من المرور البطيء للوقت، ومتقلب الأطوار أيضاً، أو مثيراً للنفور كما نعتته- ذهنياً- السيدة ماريا حين أدركت التقاطع البيّن بين خدماتها الروتينية في التنظيف والترتيب وبين المتطلبات المستحيلة لرجل من المفروض أنه سهل القياد. اعتراها الشك أولاً بوجود مسلمين على

الساحل عندما شاهدت وردة يتيمة، ثم تحول الشك إلى ما يشبه اليقين- وإن كان يقينا بلا هدف- عندما أصبحت الوردة اثنتين، وما لبث أن تحول الشك إلى اقتناع جازم أمام لغط من يصل به الأمر إلى حدّ إشهار إصبعه السبّابة المتسخ بالتراب العالق على حِلية الباب الخشبية، مكرراً بهذا الصنيع العادة النكراء لربات البيوت المهووسات بالنظافة. أحس رايموندو سيلبا بضرورة السيطرة على أعصابه عندما سألته السيدة ماريا باستفزاز: هل تريد تغيير الملاءات اليوم أم أتركها إلى يوم الجمعة، كما هي العادة. الرجال شفّافون أيضاً كالأطفال. من حسن حظه أنه لم يكن موجوداً بغرفة النوم في تلك اللحظة، لأن هذا قد أزاح عن كاهله عبء ملاحظة السيدة ماريا لذهوله، وإن كان يكفيها كي تعرف أنها أصابت الهدف جلجلة الصوت التي التقطتها أذناها المرهفتان من ردّه التالي: لا أرى داعياً لتغيير نظام البيت. لم يفلح هذا الرد في خداعها، بل إنه أيقظ فيه قلقاً مبهماً ومعوجاً، حاول التنفيس عنه بكلمات قصاص غليظة لا يناسبها سوى الحوار الداخلي: «ستكون الملاءات نظيفة بما فيه الكفاية لو انتهى بنا الحال لنكون في السرير معاً»، ولا يدري بماذا يجيب، يسمع السيدة ماريا هي التي تقول: اعتقدت أنك تريد تغييرها»، وعندئذ صمت جُبْناً، قائلاً لنفسه لتفعل ما تريد، القدر هو صاحب القرار. وبعد مغادرة الخادمة للبيت، ذهب للتحقق واكتشف أنها وضعت ملاءات نظيفة. السيدة ماريا امرأة رحيمة

رغم كل شيء، ولكنه لم يقرر في النهاية إلى أي الشعورين ينحاز: إلى السرور أم إلى الغيظ. يا لها من حياة معقدة.

كان بعد الخامسة بقليل حين رنّ الجرس رنّة خفيفة جعلت رايموندو سيلبا يجري نحو الباب، وكأنه خائف من أن تكون الرنّة لمرة واحدة دون عودة. في سيمفونية «بيتهوفن» فحسب ينادي القدر ويعاود النداء، أما في الحياة فلا، كم من المواقف أحسسنا فيها أن أحداً هناك بالخارج، وعندما نذهب لا نجد شيئاً، وفي مواقف أخرى نصل متأخرين ثانية واحدة، والفارق في الحالات الأخيرة أنه كان مازال بوسعنا السؤال حينها «من كان يا تُرى على الباب»، ونمضي ما بقي لنا من حياة في التخمين. لن يحتاج رايموندو سيلبا للتخمين. ماريا سارة هناك، على عتبة الباب، «أهلاً»– قالت، فأجاب «أهلاً»، وظل الاثنان في الممر الضيق، والمعتم قليلاً بعد غلق الباب. أضاء رايموندو سيلبا مصباح الممر مهمهماً: «معذرة»، وكأنه قرأ فكرة سيئة الظن وخاطئة دارت بخلد ماريا سارة: «ما تريده هو انتهاز فرصة الظلام، أتظن أنني مغفلة»، لاشك أن الزيارة المرتقبة قد بدأت بداية سيئة، فهذان اللذان أبديا ذكاءً وألمعية منقطعتي النظير في أحاديثهما المتكررة عبر الهاتف لم ينطقا حتى الآن سوى بكلمة «أهلاً»، شيء لا يصدق، بعد تلك الوعود المضمرة، والورود، وتلك الخطوات الشجاعة التي أقدمت عليها، من يدري أن أملها

لن يخيب بعد هذا الاستقبال الفاتر. لحسن الحظ أنه في مواقف صعبة مثل تلك، سرعان ما يدرك الجسد عجز العقل عن إصدار الأوامر، ويشرع عندئذ في التصرف بمفرده، بفعل ما يناسبه عادة، وفي الممر القصير جداً، دون كلمات، أو باستخدام السطحي منها، ظلا على هذا الحال حتى وجدا نفسيهما داخل غرفة المكتب. لم تجلس إلى الآن، كانت يدها في يده، ربما دون وعي من كليهما أن يديهما متشابكتان هكذا منذ دخولها، يعرفان فحسب أن يده اليمنى ممسكة بيدها اليسرى، تجول عينا ماريا سارة بالغرفة بحثاً عن كرسي، وعندئذ قام رايموندو سيلبا- وكأن ليس أمامه وسيلة أخرى للاحتفاظ بيدها أطول وقت ممكن- برفع يدها إلى شفتيه، وأسفر تصرفه هذا عن نتيجة، لأن ماريا سارة في اللحظة التالية كانت في مواجهته تنظر إليه، وكان بإمكانه جذبها نحوه قليلاً، وطبع قبلة خفيفة على الجبهة، بالقرب من منبت الشعر. كانت الجبهة قريبة جداً ولكنها سرعان ما ابتعدت بعد ذلك، لأنها تقهقرت- وإن لم يكن بجفاء- لتقول في الوقت ذاته: إنها مجرد زيارة، لا تنسَ. تركها برقة: لم أنس- قال وهو يشير إلى كرسي- توجد في الجوار صالة صغيرة بها كراسٍ أكثر راحة، ولكني اعتقدت أنكِ ستكونين أفضل هنا، وبعد نطقه بهذا استوى جالساً على الكرسي الوحيد الباقي، والمنضدة بينهما، كأنهما في عيادة طبية: «ماذا يؤلمك»، ولكن ماريا سارة كانت صامتة، كلاهما كان يعرف أن مسؤولية

الكلام تقع على عاتقه هو، حتى وإن كان من أجل الترحيب بمن وصلت. تكلم أخيراً، بطريقة عادية، خالية من تموّجات الإقناع أو التلميح، قاصداً أن تكون كل كلمة مكتفية بنفسها، بمعناها العاري المناسب لتلك اللحظة ولذلك الموقف: أعيش وحيداً في هذا البيت منذ سنين طويلة، ليست لدىّ امرأة، باستثناء الحالات الملحة، وأستمر في العيش بدونها، أنا شخص تعوزه المؤهلات الخاصة، شخص عادي حتى بالنسبة للعيوب، طموحاتي في الحياة لم تكن كبيرة، تقتصر في نهاية المطاف على أمرين- وإن كانا غير قليلين-: الحفاظ على الصحة، لأنها تجلب الراحة، وألا أكون بلا عمل، أتمنى أن تهبني الحياة الآن ما لا أتذكر أنني ملكته، الطعم الذي يميزها. سمعته ماريا سارة دون إبعاد نظرها عنه، باستثناء لفتة سريعة حلّ فيها حب استطلاع مفاجئ محل الاهتمام المركّز، وقالت عندما وصل رايموندو سيلبا إلى النهاية: لسنا على ما أعتقد بصدد الحديث عن مواصفات تعاقد، ولا داعي لإخباري بما كنت أعرفه. إنها المرة الأولى التي أحدثكِ فيها عن أمور خاصة بحياتي. الأمور التي نعتقد في معظم الأحيان أنها خاصة تنتمي إلى المعارف العامة، لك أن تتخيل كمّ المعلومات التي يمكن للواحدة الحصول عليها في نهاية حوارين عاديين أو ثلاثة. أسألتِ عني. سألت عن المصححين العاملين بدار النشر من أجل تكوين فكرة، ولكن الناس مستعدون دائماً لقول أكثر من المطلوب، ويكفي لهذا تحفيزهم بعض الشيء

أو الأخذ بأيديهم دون أن يشعروا. لاحظت منذ البداية تمتعك بهذه المهارة. أستخدمها فحسب من أجل أهداف نبيلة. لست أشكو. يلمس رايموندو سيلبا جبهته بكفّه، يتردد لحظة ثم يقول: كنت أصبغ شعري، وأقلعت الآن عن الصباغة، منظر الجذور البيضاء لا يُسعد، سأعود عما قريب إلى شعري الطبيعي. لم يعد شعري طبيعياً، ذهبت اليوم إلى الكوافير لصباغة الخصلات الموقرة. كانت نادرة ولا أعتقد أنها كانت تستحق العناء. دققت النظر إليها، إذن. نظرت إليها من مسافة قريبة جداً، مثلما تكونين قد نظرت إليّ متسائلة، كيف لا يوجد شعر أشيب في رأس رجل في مثل سنّي. لم أوجه لنفسي قط سؤالاً مثل هذا، يتضح من النظرة الأولى أنك تصبغه، من تظن أنك خادع. ربما نفسي فحسب. مثلما قررت أنا خداع نفسي الآن. إنه الشيء نفسه. ماذا. السبب الذي جعلك تصبغين شعرك وجعلني أقلع عن الصباغة. ما تقوله يحتاج إلى إيضاح. أنا تركت الصباغة لأظل كما كنت. ولماذا صبغته أنا. من أجل الاستمرار مثلما كنتِ. منطقية لا بأس بها، سوف أتمرن ذهنياً كل يوم لأرتقي إلى مستواك. أنا لست الأعلى مستوى بين الاثنين، بل الأعلى سنّاً فحسب. ابتسمت ماريا سارة ابتسامة رقيقة: إنها بديهية راسخة، تؤرقك كثيراً حسبما أرى. لم تؤرقني، لأن حساب عمر الفرد يكتسب معناه الحقيقي عند القياس بعمر شخص آخر، ومن ثمّ أظن أنني سأكون شاباً قياساً برجل في السبعين، وسأكون طاعناً في السنّ-

دون أدنى شك- مقارنة بشاب في العشرين. وكيف ترى نفسك بالنسبة لي. الآن، وبعد صباغتك للشعرات القليلة جداً وبعد تركي لشعري الأشيب في الظهور، أنا رجل في السبعين أمام امرأة في العشرين. حساباتك مغلوطة لأن الفارق بيننا لا يتعدى خمسة عشر عاماً. أنا إذن في الخامسة والثلاثين. ضحك الاثنان وقالت ماريا سارة: سنعقد اتفاقاً. أيّ اتفاق. أن يكون هذا هو آخر حديث بيننا عن العمر والأعمار. سأحاول ألا أعود إليه. من المناسب أن تفعل شيئاً أكثر من المحاولة، لأنني لن أكون الطرف الثاني في الحوار. سوف أوجه حديثي إلى المرآة. تحدث مع نفسك كما تريد، ولكني لم أزرك في بيتك من أجل هذا. سيكون ازدهاءً من جانبي لو سألتك عن السبب. ليس ازدهاءً فحسب بل صفاقة. لا ينطق لساني بما ينبغي قوله، تخرج منه كلمات على حين غرّة لتهدم كل شيء. لا تخف، إنك لم تهدم شيئاً، كلانا متوتر. ماذا لو نهضت من مكاني واقتربت لأعطيك قبلة، ربما ... لا تفعل، وإذا كنت تريد فلا تُعلن مسبقاً عن نيتك. كل مرة أسوأ من سابقتها، لو أن أحداً آخر مكاني لعرف كيف يحسن التصرف. لو كان أحد غيرك، لكانت أمامه هنا امرأة أخرى. أستسلم. قلت لك إنها محض زيارة، وطلبت منك التريث. وهذا ما أفعله، وإن كنت أعرف الآن ماذا أريد. من المهم فعلاً أن يعرف الواحد ماذا يريد، الناس جميعاً يلوكون عبارات مثل هذه، ولكني أعتقد أنه من الأفضل أن يريد الواحد ما يعرف،

صحيح أن الأمر الثاني يحتاج إلى وقت والناس أصبحت فارغة الصبر. أعلن استسلامي مرة أخرى، ماذا يمكنني عمله عندئذ. أرني بيتك، البداية تكون هكذا عادة. أخبرني كيف تعيش، أقول لك من أنت. على العكس، أقول لك لا ينبغي أن تعيش هكذا لو أخبرتني من أنت. إنني أحاول إخبارك من أنا. وأنا أحاول اكتشاف كيف سنعيش. نهض رايموندو سيلبا، ونهضت ماريا سارة، وعندما غيّر وضع الطاولة اقترب منها قليلاً، لمس ذراعها فحسب، في إشارة لبدء الزيارة، تأخرت قليلاً، كانت تنظر إلى الطاولة وإلى الأشياء الموجودة فوقها: مصباح، وأوراق، وقاموسان. تعمل هنا– سألت. نعم أعمل هنا. لا أرى أية آثار لحصار. سوف ترينها، ليست القلعة هذا المكتب فحسب.

نحن نعرف أنه يوجد الكثير غيره: الحمام الذي كان أيضاً معملاً لمستحضرات التجميل منذ بضعة أسابيع، ومطبخ الخبز المحمص والأكلات الساخنة المكرورة، والمكتب حيث نوجد الآن، والصالة المهجورة، وهذا الباب المفضي إلى غرفة النوم. ويده على المقبض، يبدو رايموندو سيلبا متردداً قبل فتحها، يمنعه نوع من الاحترام الخرافي، إنه رجل من أزمان أخرى، يخاف من جرح خفر امرأة بوضع منظر سرير شبق أمام عينيها، رغم أنها هي التي طلبت (أرني بيتك)، وهذا ما يسمح لنا بالظن في أنها كانت تعلم جيداً ما ينتظرها.

ينفتح الباب أخيراً، إنها غرفة النوم بكرسييها الخشبيين الزائدين، وفي الواجهة، السرير بعرضه كله، المفرش الأبيض السميك، وتحت الوسادة طيّة الملاءة الطاهرة، يتسلل من النافذة ضوء يُضفي نعومة على حواف الأشياء، وصمت يبدو أنه يتنفس. مازلنا في شهر ابريل، بأمسياته الطويلة وأنهره الممتدة، أمن أجل هذا لا يضيء رايموندو سيلبا النور، وأيضاً من أجل عدم تبديد أشباه الظلال هذه البادئة بالكاد، والتي جلبت له عدم الارتياح، لن تظن ماريا سارة سوءاً بنواياه، نعرف هذا جيداً، من الخبرة ومن الحكايات التي نسمعها، مثلما يتم الوصول في مرات كثيرة إلى الانبهار من خلال السير في طريق العتمة أو سويداء قلب العتمة. شاهدت ماريا سارة على الفور الوردتين في الزهرية الجاثمة فوق المائدة الصغيرة المجاورة للنافذة، وبضع ورقات، نصف إحداها مكتوب، وعلى هامشها الأيسر بيت من الشعر، كان حريّا برايموندو سيلبا إضاءة ذلك المصباح لإضفاء الجوّ الشاعري على المكان، ولكنه لم يفعل، اقترب من قاعدة السرير، كأنه يريد إخفاءه، كان ينتظر الكلمات، مرتجفاً لعدم استطاعته التكهن بها، لم يكن يفكر في إيماءات ولا أفعال، بل في الكلمات وحسب، هنا، في هذه الغرفة.

اقتربت ماريا سارة من المائدة. ظلت هنالك بضع ثوان، واقفة، كأنها تنتظر الشرح التالي للمرشد السياحي، الذي يمكنه القول– على

سبيل المثال- «تأملي الوردتين»، وعليها عندئذ الانحراف بعينيها تجاه الزهرتين، الموجود مثلهما في بيتها، وبعد ذلك تصدر عنه إيماءة متواطئة وتعبير متحفظ لإحساس قد يكون لحب «وردتاننا» (مع تفخيم ضمير المتكلم الجمع)، ولكنه استمر في صمته، بينما لا تفعل هي سوى النظر إلى نصف الصفحة المكتوب، ولا تحتاج للسؤال كي تعرف أن آثار الحصار موجودة هنا، آثار غير مقروءة في الضوء الخافت، رغم الخط الكبير والواضح للمؤرخ. لديها إحساس بأن رايموندو سيلبا لن يتكلم، ولا تريد منه في الوقت نفسه أن يتكلم، لا تريد أن يحدث شيء يعكر هذا الصمت الخيالي، وإذا حدث فليكن عائقاً يمنع اقتحام عالم آخر لهذه اللحظة التي نحن فيها، ربما يكون الموت ذاته، فهو العالم الآخر الحقيقي الوحيد، لأن الحياة هي دائماً القاسم المشترك بين الكائنات الفضائية- لو كانت موجودة- وبين الكائنات الأرضية. وفي اللحظة المناسبة تزيح الكرسي قليلاً ثم تجلس، تضيء المصباح بيدها اليسرى، يغطي النور المائدة وينشر على الغرفة هالة تشبه الضباب الدقيق غير الملموس. لم يتحرك رايموندو سيلبا، يحاول تفسير انطباع مبهم، مفاده: أن ماريا سارة قد انتهت بحركتها تلك من تحويل فكرة أثيرية كانت لديه في الذاكرة إلى وضعية مادية، وما لبث أن فكر في أنه لو عاش سنوات طويلة فلن تمر عليه لحظة مثل هذه، حتى لو عادت ماريا سارة إلى هذا البيت وإلى هذه الغرفة مرات أخرى عديدة، وحتى لو انتهى بهما الأمر- وهذه

فكرة مستحيلة- إلى العيش معاً، هنا، ما تبقى لهما من لحظات الحياة. لم تلمس ماريا سارة الورقة، تقرأ- ويداها في حجرها متجاورتان- من السطر الأول، لا تعرف ما هو مكتوب في الورقة السابقة، ولا ما هو مكتوب في الأخريات منذ بداية الحكاية، تقرأ وكأن هذه الأسطر العشرة تحتوي على كل ما يهمها معرفته عن الحياة، أو كأنها بمثابة حكم نهائي، أو ملخص ختاميّ، أو- على العكس- خطاب مغلق يحمل على وجهه فحسب العنوان الجديد لهذه الرحلة البحرية. انتهت من قراءتها، ودون أن تلتفت سألت: من تكون «أوروانا» هذه، ومن هو «موجيمي» هذا. كان الاسمان مسجلين، فضلاً عن أشياء أخرى، نعرفها نحن من قبل. خطا رايموندو سيلبا خطوتين قصيرتين نحو المائدة، توقف: لا أعرف تماماً حتى الآن- قال، ثم سكت، لأنه بالتأكيد تكهن أن كلمات ماريا سارة كانت من أجل السؤال عمن هما، هذين، ذيكما، أيّا من كانا، وأخيراً: نحن. بدا وكأن ماريا سارة اكتفت بالإجابة، خبرتها الطويلة بالقراءة تجعلها تدرك أن المؤلف يعرف فحسب ماضي شخصياته، وليس الماضي كله، والقليل جداً عن مستقبل هذه الشخصيات. قال رايموندو سيلبا وكأنه يجيب عن ملاحظة منطوقة بصوت مسموع: لا أعتقد أننا يمكن أن نطلق عليهما مصطلح «شخصية». الشخص في الكتاب يعتبر «شخصية»- ردت ماريا سارة. أراهما ينتميان إلى درجة وسط، ومن ثمّ فلا داعي للحديث عن منطقية الشخصية أو الحاجة العارضة

بالنسبة للشخص. إذا لم تستطع إخباري من هما، أخبرني على الأقل ماذا يصنعان. هو جندي، شارك في الاستيلاء على شنترين، وهي فتاة قروية اختطفوها من جليقية لتصبح محظية لأحد الصليبيين. هناك إذن قصة حب. لو كان من الممكن تسميتها هكذا. أتشك في هذا. لست أدري كيف كان الحب وقتئذ، بمعنى أنني قد أكون قادراً على تخيل الشعور، ولكن ليست لديّ فكرة أو معلومات عن كيفية التعبير عن هذا الشعور من جانب رجل وامرأة قروية، اللغة في هذه الحالة ليست عائقاً، لأن الاثنين يتحدثان الجليقية. اخترع قصة حب دون كلمات عاطفية، أظن أنها قد تكون حدثت ذات مرة. أشك في هذا، على الأقل بالنسبة للحياة الواقعية، وطبقاً لما أعرفه عن هذه الحياة فإنه يعتبر ضرباً من ضروب المستحيل. وإذا كانت «أوروانا» هذه محظية لأحد الصليبيين، وأظنه فارساً، فكيف سينتهي بها الحال لتصبح في حوزة موجيمي. الدنيا تدور، وتدور بنا أكثر وأكثر، وفي النهاية الموت، الصليبي إنريكي– وهذا اسمه– سيوافيه الأجل عما قريب. آه، إنه الصليبي نفسه الموجود في «قصة حصار لشبونة»، الأخرى. بالضبط. ستحكي عندئذ المعجزات التي قام بها بعد موته. لن أضيع الفرصة. معجزة الأخرسين. نعم، ولكن بتعديل طفيف (جاءت إجابة رايموندو سيلبا مصحوبة بابتسامة). وضعت ماريا سارة يدها على رزمة الأوراق: يمكن أن أقرأها– سألت. لا أظنك تريدين قراءتها الآن، أنا مازلت بعيداً عن النهاية، والقصة

غير مكتملة. ليس عندي صبر الانتظار، كما أن الصفحات ليست بالكثيرة. من فضلك، اليوم لا. أنا جدّ متشوقة لمعرفة كيف تغلبت على مشكلة رفض الصليبيين. سأصور منها نسخة غداً، وأحملها إليك في دار النشر. حسناً، اتفقنا، مادمت غير قادرة على إقناعك. نهضت، واقتربت بنهوضها كثيراً من رايموندو سيلبا. الوقت تأخر– قالت ماريا سارة ثم نظرت إلى النافذة: يمكنني فتحها. لا تخافي، لن ألتهمك– رد رايموندو سيلبا– لم أنس أنكِ أتيت للزيارة فحسب. ولا تنس أيضاً أن ما تقوله ترهات، كل ما في الأمر أنني أريد استنشاق الهواء ورؤية المدينة من هنا.

كان الشفق بديعاً، وبرودة المساء محسوسة بالكاد. يد إلى جوار يد، والمرفقان مرتكزان على إفريز النافذة، كانت ماريا سارة ورايموندو سيلبا ينظران في صمت، وفي إحساس متبادل بوجود الآخر، يحس ذراع كل منهما بالذراع الآخر، ويحس شيئاً فشيئاً بالحرارة الفاترة للدم. كان قلب رايموندو سيلبا يخفق بشدة، بينما يريد قلب ماريا سارة اجتثاثها من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين. اقترب ذراعه أكثر، وظل ذراعها حيث كان، مرتقباً، ولكن رايموندو سيلبا لم يجروْ على الذهاب إلى أبعد من هذا، لأن الخوف أخذ يتملكه رويداً رويداً. يمكن أن أفشل– كان يقول لنفسه–، لم يكن يرى بوضوح أو لم يكن يريد أن يرى، في ماذا سيفشل، وزاد

عدم إمكانية تحديد موضع الفشل من فزعه. أحست ماريا سارة أنه يتقهقر بكامله، مثل حلزون[1] يلملم نفسه للاحتماء بالصَدَفة، كل مرة أكثر من سابقتها، وقال بحذر: المنظر رائع. كانت الأنوار الأولى تطل من النوافذ مخلوطة ببقايا ضوء المساء، وتُرسل أعمدة الشوارع بأنوارها التي أضيئت في التوّ، وبالقرب من شارع «لارجو دوس ليوس» تحدث شخص بصوت عالٍ وردّ عليه آخر، ولكن كلماتهما لم تكن واضحة. سأل رايموندو سيلبا: أسمعتِ. نعم سمعت. لم أفهم كلامهما. ولا أنا. لن نعرف قط إلى أيّ مدى كانت ستتغير حيواتنا لو أننا فهمنا بعض العبارات التي سمعناها ولم نفهمها. الأفضل على ما أعتقد البدء بالتخلي عن التظاهر بفهم الأخريات، الواضحة والمباشرة، رغم عدم فهمنا لها. لديك الحق كله، ولكن هناك أُناساً يستهويهم المظنون أكثر من المؤكد، وبقية الشيء أكثر من الشيء نفسه، والأثر على الرمال أكثر من الحيوان الذي تركه، وهؤلاء هم الحالمون. وهذا هو حالك بالضبط. إلى حد ما، لا تنسى أن كتابة القصة الجديدة للحصار لم تكن فكرتي. لنقل إنني أحسست بأنني أمام الرجل المناسب للقيام بهذا العمل. أو أنك تفضلين التخفف بذكاء من تبعات أحلامك. سأكون هكذا لو كان كلامك صحيحاً. أليس صحيحاً. الفرق يكمن في أنني لا أبحث عن آثار في الرمال. كان رايموندو سيلبا يعرف بحيث أنه لم يكن بحاجة لطرح سؤال عن

(1) حلزون: حيوان بحري رخو يعيش في صدّفة أو قوقعة، وبعضه يُؤكل. (المترجم).

كنه ما كانت تبحث عنه وقتئذ ماريا سارة. يمكنه الآن وضع ذراعه على كتفها، كأنه دون قصد، مجرد إيماءة أخوية، وتَرْك رد الفعل لها: ربما يتنفس الجسد الصعداء، وتلتفت- كيف يمكن التعبير- متكوّرة، ورأسها مائلة قليلاً إلى جانب، في انتظار الحركة التالية، أو ربما تبقى متخشبة، محتجة في صمت، لعله يدرك أن الوقت غير مناسب لهذا. كان رايموندو سيلبا سيسأل نفسه عندئذ، متناسياً الخوف الذي اعتراه: بعد كل ما قلناه، وما تواعدنا عليه صراحة، من المنطقي أن نكون قد تعانقنا وتبادلنا القبلات على الأقل، نعم على الأقل. انتصب واقفاً، وكأنه يقترح الانسحاب إلى الداخل، ولكنها استمرت في انحنائها على الإفريز، وعندئذ سأل: ألا تشعرين بالبرد. لا، إطلاقاً. وبعد كظمه لإيماءة جزع، عاد إلى وضعه السابق، دون أن يعرف في ماذا يتكلم الآن، متخيلاً- في سوء ظن منه- أنها تتسلى على حسابه، كان الحديث معها عبر الهاتف أسهل بكثير، ولكنه لا يستطيع أن يقول لها «ارجعي إلى بيتك، لأني سأتصل بك». وللخروج من هذا المأزق الصعب خطرت بباله عندئذ فكرة البحث عن موضوع محايد: البيت الذي أمامنا يحتل مكان برج من البرجين اللذين كانا يدافعان عن البوابة التي كانت موجودة في هذا المكان، ومازالت آثار البرج ظاهرة في أساسات البيت. وأين موقع البرج الآخر. هنا، حيث نقف. هل أنت متأكد. ليس تأكيداً جازماً، ولكن هناك الكثير من الشواهد على ذلك، ومنها الخريطة المعروفة لهذا الجزء من السور.

ومادمنا نقف الآن مكان البرج الثاني، فهل نحن من المسلمين أم من المسيحيين. من المسلمين مؤقتاً، لأننا موجودون هنا لكي نمنع المسيحيين من الدخول. لن نستطيع، ومن ثمّ فلا داعي للانتظار حتى نهاية الحصار، ألا ترى تلك الزليجات الموجودة عند مدخل شارع «أبو مينابلس» وعليها معجزات «سان أنطونيو». أتقصدين المعجزات. لا، بل الزليجات. لماذا يُسمى هذا الشارع «ميلاجرو[1] دي سان أنطونيو» في حين أن المعجزات المرسومة على الزليجات عددها ثلاث. لا أدري، ربما يكون القديس قد صنع معجزة خاصة بموظفي البلدية، كانت هذه المعجزة ستعتبر دون شك أفضل المعجزات الثلاث لو أن «سان أنطونيو» كان قد شارك عسكرياً في احتلال لشبونة، وهذا بالطبع مستحيل لأنه لم يكن قد وُلد حينئذ. أعرف فحوى معجزتين من الثلاث المرسومات على الزليجات: معجزة ظهور الطفل يسوع، ومعجزة الجرّة المكسورة، أما الثالثة فلا أدري عنها شيئاً، يوجد حصان أو بغلة، لم أدقق النظر. إنها بغلة. وما فحوى هذه المعجزة. لديّ كتاب من القرن الثامن عشر اشتريته منذ فترة طويلة يحكي كل معجزات القديس، بما فيها هذه المعجزة. وماذا يقول. الأفضل أن تقرأه بنفسك، سأحضره لك المرة القادمة. متى. لا أدري، غداً أو بعد غد، أو ذات يوم. تنفس رايموندو سيلبا

(1) «ميلاجرو» (Milagro): تعني معجزة (في صيغة المفرد) وعلى هذا يكون اسم الشارع المقصود «معجزة القديس أنطونيو» (المترجم).

بعمق، كان من المستحيل التظاهر بعدم فهمه للكلمات، ومن ثمّ فقد أقسم بينه وبين نفسه على أن يذكر ماريا سارة بها، لأنها تعتبر بمثابة وعد قطعته على نفسها ومن حقه مطالبتها بالوفاء به. أسعده هذا، وأحس بالتحرر والانطلاق مما جعله يضع يده– دون تفكير– على كتفها ويقول: لا، بل سأكون أنا الذي يقرأ عليك حكاية البغلة، هيا بنا إلى الداخل. إنها حكاية طويلة. مثل كل الحكايات، يمكن قصّها في عشر كلمات أو مائة أو ألف أو فيما لا نهاية له من الكلمات.

أغلق رايموندو سيلبا النافذة وذهب إلى غرفة المكتب. سمعته ماريا سارة يدمدم: «إنه غير موجود، أين وضعته»، دخل بعد ذلك الصالة وأخذ يفتح ويغلق أبواب المكتبة، وأخيراً: «ها هو». عاد إلى الظهور ومعه كتاب صغير الحجم، بغلاف جلدي شكله مغرق في القدم، وعليه شهادة ضمان المصدر. كان يبدو عليه سرور من بحث عن شيء وعثر عليه– ليس الكتاب بالطبع–، «اجلسي»– قال، فجلست على الكرسي الموجود بجوار المائدة ووضعت يدها على الورقة المدوّن فيها اسما «أوروانا» و«موجيمي»، بينما ظل واقفاً، كان يبدو أكثر شباباً وسعادة. أصيخي السمع جيداً فالأمر يستحق، سوف أبدأ بالعنوان وهو كما يلي: الشمس المشرقة على الغرب والغائبة عند مطلع الشمس، سان أنطونيو البرتغالي الساطع بشدة في سماء الكنيسة بين الكواكب الأقل منه في مجرّة فرانثيسكو،

موجز تاريخي وإطرائي لحياته الموقرة وأفعاله المدهشة، المقدم للعائلة الملكية البرتغالية الرفيعة والسامية والمهيبة، التي تسعد أسماؤها وألقابها لكونها مطلية ومزدانة بالأسماء المقدسة لفرانثيسكوس وأنطونيوس، من يد المحترم «أنطونيو تكسيرا أليرس» عضو مجلس صاحب الجلالة، والمستشار الأعلى للمجلس الملكي، ولمجلس محاكم التفتيش العام، ودكتور اللاهوت في كاتدرائية قلمرية، وإمام صلوات الصباح السابق في كليتي الشريعة والقانون، والمعاصر للراهب وعضو محاكم التفتيش «براس لويس دي أبريو»، أُفّ [1].

ضحكت ماريا سارة وقالت: آمل أن يكون استنتاجي في محلّه وأن يكون مؤلف هذا العمل العجيب هو «براس لويس دي أبريو».

أهنئك على هذه المقدرة الفذّة، ولكن اسمعي ما هو مكتوب في الصفحة رقم مائة وثلاث وعشرين، انتبهي جيداً لأني سوف أبدأ: حين تناهى إلى علمه أن بعض محافظات تلك المملكة- يقصد فرنسا- ملوثة بهذه العدوى (التمادي في الإلحاد، كما يتضح من الأسطر السابقة) شدّ «أنطونيو دي ليمونخيس» الرّحال إلى تولوز (كانت هذه المدينة تشهد رواجاً تجارياً كبيراً في ذلك الزمن، كما كانت غنية أيضاً بالمعاصي والآثام، والأهم مما تقدم أنها كانت المعقل الوبائي للمدارس السكرمنترية التي تنكر وجود المسيح في القربان المقدس). لم يكد القديس يصل إلى موئل الشر حتى نزل إلى ميدان

(1) أُفّ (Uf): صوت يدل على الضجر. (المترجم).

الصراع لكي يستقل من فوره عربة الانتصارات. ومدفوعاً بالغيرة المتوقدة على مجد الرب وبالحقائق الدامغة لإيمانه الراسخ، وضع في رايات الإحسان أعلام العقيدة، وأشهر أسلحة الصليب على معسكرات التكفير، وجعل من الكلمة المقدسة بوقا إنجيليّا، وبالنفخ فيه جيّش الأصوات لذبح الآثام. ومثلما كانت نيران أحقاد الإلحاد متأججة، كان النشاط المتوهج لغيرته لا ينطفئ أواره. أهلك نفسه في سبيل العقيدة، مثل من يتجشم دوماً المصداقية في الحياة ملتمساً بها الموت، أو من يتحمل العلل والأدواء طمعاً في الشهادة. لم تفطن تلك الدواهي سيئة الطالع إلى أنها بالعيش في ليل ذنوبها البهيم لا تُسلِّم فحسب مقاليد كبريائها العنيد إلى أسلحة النور، بل إنها تقضي أيضاً على حيواتها بما تدسّه من سمّ زعاف، وتكيد لشرفها بنفس أحابيلها الشيطانية، وتلوّث سمعتها الجهنمية بأدوات الشر التي اخترعتها، ولن تستطيع مهما أوتيت من قوة تبديد أو إظلام الأضواء الباهرة للعقيدة أو النَّيْل من الإنعامات الهائلة للقداسة. شرع أنطونيو في التبشير والوعظ وسط حفاوة وتصفيق الكاثوليكيين جميعاً، وزاد من إعجابهم به وحبهم له أنه كان يتحدث إليهم بلغتهم- رغم أنه أجنبي- في طلاقة وبيان وكأنه نشأ وترعرع في كنف هذه اللغة التي تستمد مشروعيتها- مثله- من نبع الود والمحبة. طارت شهرة فعالية كلماته في الأرواح حتى طبقت الآفاق، أما الملاحدة السفسطائيون فبعد أن أصابهم الضرّ العميم من جرّاء ملاحقة المبشر

الجديد، وبعد أن أحسوا بفقدان المصداقية نتيجة للعجرفة والصلف والادعاء الكاذب– وهي رزائل تتسم بها هذه الفئة المارقة– قرروا عندئذ عمل مناظرة زئبقية مع أنطونيو، في ثقة منهم بأن ترهاتهم المعقدة سوف تعينهم على الظفر بانتصار مدوٍّ.

لا أرى حتى الآن أثراً لبغلة– قالت ماريا سارة. لم تكن دروب العالم مريحة في تلك الأزمان، ولم تكن دروب الكتابة بأيسر منها– أبدى رايموندو سيلبا ملاحظته كي يتابع القراءة: عهدوا بالمهمة لأشهر عالم لاهوت في تولوز، صاحب المقام الرفيع والاسم المعروف «جيالدو»، وهو رجل شديد الاعتداد بالنفس، غير هيّاب، ضليع في الكتب المقدسة، وحبر في اللغة العبرية، وعبقري لا يُشق له غبار، وأهل لأي نوع من أنواع النزال الفكري. لم يرفض القديس يافطة التحدي، انطلاقاً من حبه للعقيدة ومن ثقته في الرب ا لذي لن يخذله في مسعاه. تم تحديد موعد ومكان النزال. احتشد جمهور لا يُعد ولا يُحصى، بعضه كاثوليكي من شيعته والبعض الآخر من شيع مناوئة. بدأ الملحد المناظرة– شأنه في هذا شأن الشر الذي يلعب دوماً دور البداية على مسرح العالم– سادراً في عنجهية ومباهاة مخزون دراساته الملتوية، ومدرجاً كلمات رنّانة وطنّانة وجوفاء، مموّهة بحلي بلاغية واهمة. تحمل القديس مرور عاصفة تلك الكلمات المصطنعة العارية عن الحقائق وأدلى بدلوه بعد ذلك، مفنداً

ادعاءاتها الفاجرة، ومستشهداً بفقرات عديدة من الكتب المقدسة، المزدانة بالأسباب الوجيهة والمعاني العميقة والأسلوب الملائم، الذي تفوّق على نصوص الملحد المستغلقة والنابعة من أهوائه الشيطانية. لن أتطرق إلى المسائل العويصة والدقيقة التي تحدث فيها أنطونيو، مسألة مسألة، لأنها أسمى من أن تُحكى، وأفضل مكان لها هو صمت التاريخ، ويكفي القول إنه تصرف بمهارة وحنكة وكياسة تعتمد على علم لّدُنّي مجّد الحدث بنصر مستحيل. (تسمع ماريا سارة الآن قرقعة جلاجل البغلة). ارتبك الشرير واعتراه الخزي حين رأى نفسه مهزوماً أمام الجمهور الذي كان يأمل في الفخر بانتصار خدعه. ولما وجد أن شباكه المصطنعة لسفسطائيته المخادعة قد تبددت، شرع في التعدي على تواضع القديس بهذا الاقتراح سيئ النية: أيها الأب أنطونيو، لندع المفاهيم والتصورات الجدلية جانباً، وهيا بنا إلى الأفعال لأنه لم يبق أمامنا غيرها، بما أنك كاثوليكي معتبر وابن للكنيسة الرومانية لاشك أنك تؤمن بالمعجزات التي كانت السبب في تثبيت دعائم العقيدة في العصور المسيحية الأولى، وأنا من جهتي سوف أعترف بالهزيمة لو قدمت برهاناً عملياً تثبت من خلاله حضور جسد المسيح في القربان المقدس. وعندئذ أجاب أنطونيو، الذي يوكل أمره إلى الرب قبل الخوض في أي صراع: أنا سعيد بهذا العرض، لأنني على ثقة من أن سيدي يسوع المسيح– الذي يهمه الفوز بروحك وأرواح الذين يتبعون بعمى المعتقدات

الكافرة لشطحاتك- لن يتقاعس عن إظهار قدرته اللا محدودة من أجل ترسيخ هذه الحقيقة الكاثوليكية. قال الملحد: سأقوم أنا باختيار المعجزة، في بيتي بغلة لم تتناول الطعام والشراب منذ ثلاثة أيام، لو لم تأكل في حضرة القربان المقدس سأعتقد اعتقاداً جازماً بحلول يسوع فيه. قبل القديس التحدي وسط لغط الجموع المحتشدة، واستبشر بالنصر المبين، لأن الأمر برمته في سبيل خدمة الرب، واحتاط للمعركة بكل أسلحة التواضع وباستحكامات الصلاة.

جسدي ينتفض- قالت ماريا سارة- من مهابة الموقف ومن النسمات الربيعية، ولكن هذه الاستحكامات تبدو لي اقتباسات فرنسية فاضحة. نعم، حتى لا ننسى أن القِماط الأكثر بشاعة لا يخلو أيضاً من البقع، سوف أستمر في القراءة: جاء اليوم الموعود، وحضر جمهور غفير من كلا الفريقين، من الكاثوليكيين ومن الملاحدة. صلى أنطونيو صلاة القدّاس في أقرب معبد، تلقى بيديه- في خشوع ومهابة- القربان المقدس، ثم حمله وذهب إلى حيث ينتظر الحيوان الجائع. وضعوا على مرأى من الحيوان، أو بمعنى أدق، بجوار فمه كمية كبيرة من الشعير، وقام القديس في الوقت نفسه بالصياح فيه بصوت جهوري: باسم يسوع المسيح الذي أحمله بين يدىّ غير الجديرتين بحمله، آمرك أيتها الخليقة غير العاقلة بترْك الطعام الذي أمامك وعبادة خالقك أولاً، حتى يقتنع الرجال المتمادون في

الباطل بصدق الدين الكاثوليكي الروماني. لم يكد أنطونيو يفرغ من نطق هذه الكلمات حتى ترك الحيوان الطعام الذي كان قد شرع في التهامه، كاظماً بهذا الشكل الإلحاح الشديد لفطرة الشهية، ثم اقترب من القديس وجثا على ركبتيه الأماميتين وأخذ يعبد المسيح الماثل في القربان المقدس، وسط ذهول وإعجاب الحاضرين. تساقطت دموع الجميع أمام هذا المشهد العجيب، وتأثروا به تأثيرات متباينة، لأن دموع الكاثوليكيين تساقطت ورعاً وحناناً، أما دموع الملاحدة فكانت ندماً وتوبة. احتفل الكاثوليكيون بالنصر المبين للدين، وزاد مقت الملاحدة لأباطيل مذهبهم. بدا أن بعض العُصاة فحسب مازالوا سادرين في أوهامهم المتعجرفة رغم نصاعة المعجزة، ولكنهم لم يجرؤوا على إنكارها وظلوا مرتبكين، بلا حراك، وبهذا الشكل فإن من كانوا يستعدون قبل المعركة للتصفيق احتفالاً بنصرهم تحوّلوا بعدها- بسكونهم وتخشبهم- إلى أول التماثيل البشرية المقدمة قرباناً لانتصار العقيدة.

أمسك رايموندو سيلبا عن القراءة ليقول: سأترك الفقرة التالية التي تتحدث عن عودة «جيالدو» وعشيرته وأصدقائه إلى حظيرة الدين الحق، ولكن لا ينبغي أن تفوتنا قراءة هذه الجعجعة الفارغة: أوه، يا لمأثرة أنطونيو الخالدة على مرّ الزمان. لقد جعلت البهائم تتحول إلى بشر وسط ذهول الرجال، وأنست الرجال وحشيتهم

بعد الدرس الذي لقنته لهم البهائم. كان دافيد يشكو من اقتصار إدراك الحيوانات الداجنة غير العاقلة على معرفة الاصطبلات حيث يوجد الطعام، دون مراعاة من جانبها إلى يد الرب المبسوطة لرعايتها، ولكن في هذه المناسبة، وبفضل ما أوتي أنطونيو من هيمنة وسلطات، تخلّت تلك الحيوانات عن جحود طبيعتها عندما قامت إحداها بازدراء الطعام والاصطبل من أجل التوجه بالعبادة إلى الربّ الذي صوّرها وأمدّها بالرزق. أوه، أيها الحيوان المحظوظ. من خلالك يُعرف الآن أن هناك بهائم فطنة، ورجالاً بعقول ولكنهم في مصاف البهائم. لقد تركت– أيها الحيوان– ذات مرة في بيت لحم التبن لإكرام وفادة الرب الوليد، والآن في تولوز تترك تناول الشعير لعبادة الرب الماثل في القربان المقدس. نسيت التبن في المذود كي تعبد «الطفل» الموجود في بيت الخبز، ونسيت الشعير في حلبة الصراع لتوقير يسوع الماثل في صنف من أصناف القمح. ليتك كنت جديراً بالعقل، كما أنت جدير الآن بالتصفيق. ما قلته بغريزتك يبدو وكأنه خطبة عصماء. إدراكك– وإن لم يكن عاقلاً– إلا أنه يبدو فهماً. ليست لديك ذاكرة، ويبدو أنك بصير. دون أن تكون لديك إرادة، يبدو تأثرك العميق بمن تتجه إليه بالعبادة. دون أن يكون لديك فهم، يبدو أنك تصدر الأحكام الثاقبة. أجرى من خلالك أنطونيو معجزتين في واحدة. جعل غريزتك الخام تبدو بمثابة فكر راشد لأنك عبدت، وجعل شراهتك الحيوانية تبدو امتناعاً تكفيرياً

لأنك لم تأكل. لا يحتوي المشهد على معجزتين فحسب، بل على أكثر منهما بكثير. كان «جيالدو» أعمى عن الاعتقاد في ذلك السرّ المكين، وأكتع عن الإيمان بذلك الحلول، ولكن إيمان أنطونيو أعطاه البصر لرؤية تلك المعجزة التي لم يحدث مثلها من قبل، وعندئذ تحرك إيمان جيالدو على الفور برافعة جديدة لم يُشاهد مثلها قط. ومن هنا نرى كيف تمخض الفعل الواحد لأنطونيو الرائد عن ثلاث معجزات رائعات، وهذا لأن الفضيلة لا تصل إلى ثلاثة أضعافها إلا فيه، ولا مكان للمبالغات عند أحد سواه. آمين.

أغلق رايموندو سيلبا الكتاب بإيماءة مهابة ساخرة، وكرر «آمين». هل كلمة «آمين» موجودة في نص المؤلف أم أنها من عندياتك- سألت ماريا سارة. إنها ليست بالكثير على انتفاخ خطابي مثل هذا. كم هو غريب هذا العالم الذي كانت تُكتب فيه هذه الأشياء ويصدقها الناس. لو كنت مكانكِ لقلت: في عالمنا الذي لا تُكتب فيه هذه الأشياء ومازال الاعتقاد فيها قائماً حتى يومنا هذا. إذن، نحن مجانين. نحن الاثنان. بل أقصد الأشخاص بوجه عام. أنا من هؤلاء الذين يرون أن الكائن البشري مريض عقلياً. التعميم هنا مقبول. ربما لا يعجبك افتراضي القائل بأن الجنون في الإنسان ناجم عن اصطدام الإنسان بذكائه ذاته، وأننا لم نتعاف حتى الآن من الارتجاج الذي حدث منذ ثلاثة ملايين سنة. وطبقاً لما تقول، فإننا نمضي من

سيئ إلى سيئ. لست عرّافاً، ولكني أصدقك القول. ذهب لوضع الكتاب في نفس اللحظة التي نهضت فيها ماريا سارة، أصبحا وجهاً لوجه، لا يستطيع أحد منهما تفادي الآخر، أو لا يريد. أمسكها من كتفيها، (هذه هي المرة الأولى التي يمسكها هكذا)، رفعت رأسها، كانت عيناها- الممسوستان بالضوء السفلي للمصباح- تلمعان بشدة، ثم دمدمت: لا تقل شيئاً، ولا حتى كلمة، لا تقل إني معجب بك أو أنك تحبني، أعطني قبلة فحسب. جذبها قليلاً نحوه، لم يتلامس الجسدان، ثم انحنى ببطء حتى لمس شفتيها بشفتيه، كانت لثمة خفيفة في البداية، ثم- وبعد تردد- انفتح الفاهان قليلاً، وسرعان ما انطبعت القبلة الكاملة، المكثفة والشغوفة. ماريا سارة، ماريا سارة- غمغم دون أن يجرؤ على إضافة كلمة أخرى -، لم ترد عليه، ربما نسيت اسمه في تلك اللحظة، واهم ذلك الذي يعتقد سهولة نطق اسم في لقاء غرامي يحدث لأول مرة. حاولت التملص منه، أراد احتضانها، ولكنها أبعدت رأسها، ثم انسلّت بنعومة من بين ذراعيه. يجب أن أغادر- قالت- ناولني الجاكت من غرفة المكتب وحقيبة اليد، من فضلك. عندما رجع رايموندو سيلبا كانت تضحك وبيدها الورقة: العالم مليء بمجانين مثل هذين. رد رايموندو سيلبا بقوله: أرى موجيمي واقفاً تحت عند بوابة «فييرو» في انتظار الأمر بالهجوم، وأوروانا سوف تذهب عندما يحلّ الظلام إلى خيمة الفارس إنريكي كي يستمتع بها، أما بالنسبة لنا، نحن المسلمان،

فمازلنا نعتقد أن باستطاعتنا القيام من فوق أحد الأبراج بحراسة تقدم المصير. تلقت ماريا سارة الجاكت ولم ترتده، وحقيبة اليد، ثم مشت نحو باب الغرفة. كان في صحبتها رايموندو الذي حاول إيقافها. لا، وفي لحظة كانت قد فتحت باب السلم، ومن هنالك أدلت بالتصريح التالي: سأعود غداً، لست بحاجة للذهاب إلى دار النشر لتسلمني صور الأوراق، وأرجو ألا تطلبني في الهاتف.

تناول رايموندو سيلبا وجبة خفيفة للعشاء، وظل يكتب حتى ساعة متأخرة من الليل، وعندما حلّ موعد الذهاب إلى السرير أدرك أنه لن يكون قادراً على اقتحامه، على النوم فوق الملاءات النظيفة، ولا حتى على إفساد تناغم وضع الوسادة على رأس السرير. أخرج من الدولاب بطانيتين احتياطيتين وحملهما إلى الصالة، ارتجل سريراً على الكنبة الضيقة، ونام هناك.

* * *

إنها حقاً لشجاعة منقطعة النظير أن يقوم المحكوم عليه بالإعدام بالنداء على الكتيبة المكلفة بتنفيذ الحكم كي تطلق النار عليه. ربما يكون أشد المسالمين أو الجبناء من بيننا قد حلموا ذات مرة بهذه النهاية المجيدة، وخاصة إذا كان سيبقى منهم واحد لحكاية ما حدث، فالأمجاد التي لا تجد لساناً يلهج بها تفقد الكثير من الدوافع إليها. لاشك أن من يقدم على هذا يجب أن يتمتع بأعصاب فولاذية، وإذا لم يكن يتمتع بها فلابد أن يكون تحت سيطرة انفعال جيّاش- وطني أو ما يشبهه- بحيث يمكنه الصراخ، بصوته الأجش في البداية ثم الخامد إلى الأبد بعد ذلك، «أطلقوا النار»، مخففاً بهذا الشكل- وإلى حد ما- من على كاهل القتلة عبء تأنيب الضمير، ورافعاً اسمه وروحه في الوقت نفسه- عند اللمعان الأخير للبارود- إلى أعلى عليين. من المحتمل أن يساهم مسرح أحداث هذه المشاهد- لاسيما السينمائي منها- في إذكاء الانفعال القادر على تحويل شخص نكرة إلى بطل هُمام، من خلال رؤيته في السينما للموت الزائف للمثل

المشهور، أو الموت الحقيقي- في فيلم وثائقي- لشخص مغمور يُنفذ فيه حكم الإعدام. لا يخالط شكّنا التالي سوء نية لو قلنا إننا لا نظن أن محكوماً عليه بالإعدام، سواء بالكرسي الكهربائي أو المشنقة أو المقصلة أو الحرق، قد صاح حتى الآن طالباً توصيل الكهرباء أو جرّ غطاء الحفرة من تحته أو إنزال السكين الحاد أو إشعال عود الثقاب، ربما لأن هذه الميتات لم تكن تندرج تحت الميتات الكريمة، وربما لافتقادها للبعد الحربي وثقافة السلاح. فمن المعروف أن البطولة تعشش عادة في المواقف الحربية، حتى لو كان المحكوم عليه بالإعدام مواطناً وضيعاً، لأن الرصاصات التي يتلقاها صدره تفتديه من ضعة الشأن أو تكون له بمثابة جواز مرور، يُسمح له بمقتضاه- حين تأتي الساعة- دخول جنة الأبطال، حيث ينتفي فيها النزاع حول الاختلافات التي كانت موجودة على الأرض.

لم يكن لكل هذا اللفّ والدوران حول الموضوع المثار أعلاه من مبرر سوى بيان كيف يمكن أن يقوم أحد ما- وفي براءة خالصة- بإصدار الأمر لقتل نفسه، حتى وإن لم يأت الموت في الحال، وكيف يمكن أن تتحول بضع كلمات منطوقة لغرض سام إلى أفاعي هائجة لا يستطيع شيء إيقافها أو ردّها على أعقابها. كان الوقت ظهراً، والمؤذنون قد صعدوا لتوّهم إلى شرفات المآذن للنداء على الصلاة، إذ لا يصح أن يعطلهم حصار المدينة أو تأهبها للقتال عن أداء شعائر الدين، ورغم أن مؤذن المسجد الجامع كان يعرف أن

الجنود المسيحيين يلمحونه من كل الجوانب، وعلى وجه الخصوص من يحاصرون بوابة «فييرو» القريبة، إلا أنه كان خالي البال، من جهة لأن المسافة ليست من القرب بحيث تسمح بأن يطاله سهم طائش، ومن جهة أخرى لأن كلماته نفسها سوف تتكفل بحفظه من الأخطار، لا إله إلا الله، (وماذا سيعود عليه في النهاية إن لم يكن كذلك). والآن، حسناً، لم يكن الجيش البرتغالي المحتشد أمام البوابات الخمس ينتظر سوى سماع هذا الآذان حتى يبدأ الهجوم الفوري والشامل، تنفيذاً للمرحلة الأولى من الخطة الأخيرة للحرب التي أقرّها- كما نعرف- مليكنا الصالح بعد سماعه لآراء أركان حربه. تتنازعنا الأهواء هنا لإطلاق كلمة «ميكافيللية» على هذا الحرص الساخر في وضْع أمر الهجوم على لسان المسلمين الغافلين، ولكن يجب علينا مقاومة هذه الغواية- رغم أنها من شيمتنا- لأن «ميكافيللي»[1] لم يكن قد جاء إلى الحياة وقتها، ولم يكن أحد من أسلافه- المعاصرين أو السابقين على فتح لشبونة- قد تميز عالمياً في فن الخداع. من الضروري مراعاة الدقة في استخدام الكلمات، وعدم استخدامها قط قبل العصر الذي دخلت فيه حيّز الأفكار المتداولة، حتى لا يخرج علينا أحد ويتهمنا بالخلط في الاستخدام بين الأزمان، وهو من الأخطاء المذمومة في ميدان الكتابة ويحتل

(1) «ميكافيللي»: كاتب إيطالي من القرن السادس عشر، وصاحب المبدأ السياسي الشهير الذي يمكن تلخيصه في عبارته القائلة «الغاية تبرر الوسيلة». (المترجم).

المرتبة الثانية بعد الانتحال. بالطبع لو كنا وقتئذ أمّة مهمة- مثلما نحن الآن- لما كان من الضروري انتظار «ميكافيللي» ثلاثة قرون لكي نثري مفردات وطرائق الدهاء السياسي، وكنا أطلقنا دون تردد مصطلح «أفونسينو»[1] على هذه الخبطة العبقرية. لا إله إلا الله، يصيح المؤذن، ليتقدم البرتغاليون على قلب رجل واحد محمسين أنفسهم بالصراخ في مواجهة أبواب المدينة، وإن كان ملاحِظ نصف خبير- شريطة أن يكون محايداً- لا يفوته ملاحظة مسحة عدم اقتناع على وجوه القوات الغازية المتسابقة، مثل من يعتقد أنه لن يصل بالقليل إلى الكثير. بالطبع كانت الأقواس والمقاليع تطلق سحابة حقيقية من السهام والقذائف المذنّبة بالشهب على الشرفات، لإبعاد الحرّاس المسلمين وفتح ثغرة أمام قوات الخط الأمامي، التي يحمل بعضها الفؤوس والمطارق لتهشيم الأبواب، ويحمل البعض الآخر الكباش التي ستطرحها أرضاً، ولكن المسلمين لا يتزحزحون، لكونهم محتمين في البداية بالسواتر التي نصبوها، ولقيامهم بعد ذلك بإلقاء السواتر المشتعلة فوق رؤوس البرتغاليين الذين تراجعوا مُشَيَّطين[2] مثل خنازير بعد الذبح. ولإطفاء النيران الحيّة اضطر جنود من كتيبة

(1) «أفونسينو»: نسبة إلى «أفونسو» ملك البرتغال الذي استولى على لشبونة من أيدي المسلمين، ويُعرف في المدونات التاريخية البرتغالية بأفونسو هنريكس، وفي المدونات الإسبانية بألفونسو إنريكيث، وفي المدونات العربية بابن الرّنك أو ابن الرّنق. (المترجم).

(2) شيّط الشيء: جعله يشيط، شيّط الجلد: أحرق ما عليه من شعر أو صوف، شيط اللحم: عرّضه للنار ولم ينضجه. والكلمة الموجودة في النص تفيد كل ما تقدم. (المترجم).

«ميم راميريس» إلى الإلقاء بأنفسهم في مياه المصب، التي خرجوا منها يصوّتون مطالبين بدهانات الحروق. أرسلت المدفعية وابلاً جديداً من القذائف، أكثر دقّة، وإن كان معظمها (أي القذائف) هذه المرة من الحجارة وكرات الطين الصلبة، لأن المسلمين كانوا يردون لنا الباقي[1]- في شيطانية خبيثة- من ذخيرتنا ذاتها، ومن عجائب القدر أن برتغالياً قد لقي حتفه (وإن كان لا يستطيع أحد الفرار من قدره) بذات السهم الذي أطلقه من قبل. تحدث أشياء مثل هذه- رغم ندرتها- في أثناء سير المعارك الحربية، وبصفة أساسية في أعمال الحصار التي يتم الاستفادة فيها من كل شيء، سهم يذهب، سهم يعود، ولولا النقص الحتمي في القيمة من جرّاء التحويل الذي لا ينقطع[2] لما انتهت معركة مثل هذه على الإطلاق (ودون الاستعانة حتى بالإنتاج المستمر لمصانع «براثو دي بلاتا») ولوصل الأمر في نهاية المطاف إلى وجود ناجٍ واحد أمام ترسانة كاملة: سلاح لا حصر له، دون وجودٍ لمن يُقتل به.

من أعلى المئذنة، كان المؤذن يسمع الجلبة المشؤومة، ولم يهتم

(1) كلمة (Cambio) الواردة بالنص لها معنيان: باقي النقود بعد الدفع، سعر تحويل أو صرف العملة. والكلمة مستخدمة هنا بمعناها الأول. (المترجم).

(2) استعار المؤلف في هذه الجملة المعنى الثاني لكلمة (Cambio) لبيان حتمية تناقص السلاح من جرّاء تبادله بين الأطراف المتحاربة، فهو مثل العملة التي تفقد جزءاً من قيمتها عند التحويل في البنوك والمصارف، ولو استمر هذا التحويل إلى ما لا نهاية فسوف تتلاشى العملة تماماً في يوم من الأيام. (المترجم)

كثيراً بزعيق الأصوات المبتهجة التي وصلت إليه حيث يقف، عندما تراجع الصليبيون. لم يكن الآن بحاجة إلى الهبوط بسرعة، فقد كان يدرك بما فيه الكفاية أن المعركة التي توقفت بعد ضياع الأرباض دارت رحاها من جديد، لم يكن يشعر بالقلق، لأن صراخ إخوانه الذي كان يسمعه لا ينمّ عن هزيمة ويأس، بل حماس وأمل، هكذا كان يبدو له، وكان دون شك هكذا، إذ كان يتمتع– عوضاً عن العمى– بحاسة سمع مرهفة، رغم تقدم العمر. من المحتمل أن المؤذنين فوق المآذن الأخرى كانوا يسمعون أيضاً الجلبة، ستة، ثمانة، عشرة... عميان لمساجد أخرى كثيرة، معلقين بين السماء والأرض، في ظلمة سوداء. كلهم كانوا مسؤولين عن هذا الهجوم، لأنهم الذين أصدروا الأمر به، وإن كانوا في غفلة عن الصلة بين كلماتهم وبين أثرها البيّن، بالتأكيد كان كل واحد منهم يقول لنفسه «يا لها من مصادفة»، ويتجه تفكيرهم إلى أن أصداء النداء المقدس الذي مازالت آثاره عالقة بالهواء– وإن كانت مختلطة بصراخ ووعيد المقاتلين– كانت بمثابة الحضور الملموس لله الحارس للمدينة، في شكل قبة ضخمة مرتكزة على آلاف مؤلفة من القباب الصغيرة تهبط من القلعة إلى المنحدرات حتى النهر، بينما رب المسيحيين تعوزه بالتأكيد التروس الكافية لحماية جنوده المتشككين من القذائف المتساقطة عليهم. ومفزوعة من الجلبة، كانت الكلاب تنبح في هذه المنحدرات باحثة فيها عن أركان معزولة لدفن العظام، فلابد أن

تنفعها غرائزها بشيء في وقت يسيطر فيه- حتى على الأشخاص المزودين بالعقل- هاجس اقتراب الأيام السوداء.

هذه الإشارة إلى الكلاب المسلمة- أي الكلاب التي كانت تتعايش مع المسلمين وقتها، علماً بأنها، ورغم نجاستها، سوف تشرع بعد قليل من الآن في إطعام مخلوقات الله البشرية من لحمها الدنس- جعلت رايموندو سيلبا يتذكر كلب سلالم «سان كريسبن». وبالرغم من أن هذه الذكرى لم تكن واعية إلا أنها فتحت الباب لتلك الصورة المجازية، لذلك التعليق الوجيز حول العقل والغريزة. لكي يستقل الترام كان رايموندو سيلبا- رغم طول هذا الطريق- يسير على قدميه حتى بوابة «سول»، ويعود أيضاً من عندها. ولو سألناه لماذا يفعل هذا لأجاب قائلاً إن مهنته الملازمة للقعود يناسبها المشي من حين إلى آخر، ولكن هذا التبرير ليس حقيقياً، فهو من الناحية العملية لا يهمه كثيراً هبوط الدرجات المائة والأربع وثلاثين للسلالم، لأنه في هذه الحالة يكون قد ضرب عصفورين بحجر واحد: توفير الوقت والاستفادة من الانثناءات السبع وستين لكل ركبة، لاسيما وأنه ليس مضطراً- حتى ولو من منطلق الزّهو الذكوري- لصعودها، وإن كان كل شيء وارداً قياساً بغرائب متسلقي الجبال. الحل الأوسط يتمثل عندئذ في هبوط تلك السلالم حتى بوابة «فييرو» وأن يسلك في العودة الطريق الأطول والأيسر، ولكنه لو فعل هذا سيكون بمثابة

اعتراف ضمني منه بأن الساقين والرئتين ليستا على نفس الحالة التي كانتا عليه من قبل، وهذا التقدير هو محض توقع لأن زمن الحياة العفيّة لرايموندو سيلبا لا يدخل في نطاق قصة حصار لشبونة التي بين أيدينا. لم يقابل رايموندو سيلبا الكلب في المرتين أو الثلاث التي سلك فيها ذلك الطريق خلال الأسابيع الأخيرة، وظن أنه قد يكون أصابه السأم من انتظار تلقي الفتات من شح سكان المنطقة وعندئذ ولّى وجهه شطر أماكن أخرى أكثر سعة في الفضلات، أو أنه ببساطة مات من جرّاء طول الانتظار. تذكر صنيعه في الإحسان إليه، وقال لنفسه ليتني أعدّت الكرّة، ولكن هؤلاء الكلاب ينزعون دوماً– كما هو معروف– إلى الارتباط بصاحب يعطيهم الثقة والطعام ويعاملهم كالملوك، ولو تكرر الإحسان إليهم لظلوا يرمقوننا بذلك الجزع العصبي، وساعتها سنضطر لوضع الأطواق في رقابهم ودفع رسوم الترخيص وحملهم في النهاية إلى البيت. أما الحلّ الآخر فهو تركهم يموتون جوعاً، ببطء حتى لا يكون هناك أثر لتأنيب الضمير، وإن أمكن على سلالم «سان كريسبن» حيث لا يمرّ أحد.

شاع خبر إقامة مدافن جديدة بأحد السهول المتاخمة للحصن الصغير، تحت السفح الموجود على يسار المعسكر الملكي، والسبب يكمن في المشقة التي يتطلبها نقل الموتى عَبْر وهاد ومستنقعات حتى جبل سان فرانثيسكو، الذي سيصلون إليه (أي الأموات) مطحونين

وتفوح منهم- نتيجة للحرارة الشديدة التي عليها الجو- رائحة أسوأ من رائحة الأحياء. ومثل المدافن القديمة فإن مقابر سان بيثنتي مقسمة أيضاً إلى قسمين: قسم للبرتغاليين وآخر للأجانب. وما يبدو أنه إسراف وتبديد للأراضي يتسق في نهاية المطاف مع رغبة الاحتلال الملازمة للطبيعة البشرية، والتي لا يختلف فيها الأموات عن الأحياء. هنا سوف يرقد- عندما تحلّ ساعته- الفارس إنريكي، الذي أصبح يشعر بدنوّ أجله فور حلول الدور على التقنية الرائعة لأبراج الهجوم الخشبية بعد الفشل الذريع للمرحلة الأولى من الخطة العسكرية والمتمثلة في الهجوم المباشر على الأبواب والأسوار. أما ما لا يعرفه، ولا يمكن لأحد أن يخبره به، فهو أن اللحظة التي ستتعلق فيها آمال الجيش به (باستثناء الحاقدين، وكانوا موجودين أيضاً وقتها) ستكون هي نفسها لحظة ميتته المشؤومة، بالطبع مشؤومة عسكرياً، لأن أكاليل المجد كانت موقوفة على هذا القادم من أراضٍ جدّ بعيدة. ولكن علينا ألا نستبق الأحداث، لأننا مشغولون الآن بدفن الثلاثين برتغالياً الذين قضوا في محاولة الهجوم على بوابة «فيرو»، سوف تحملهم القوارب على متنها حتى الجهة الأخرى للمصبّ، ولصعود المنحدر سوف تحملهم نقّالات بدائية من أغصان الشجر. وعندما يصبحون على حافة الحفرة الكبيرة سوف يجردهم الأحياء من ثيابهم، إن لم تكن هذه الثياب ملطخة بطبقات سميكة من الدم المتجلط، وحتى لو كانت هكذا، فلن يعدم المقام وجود من هم أقل

تأففاً ورهافة ولا يمانعون في الاستيلاء عليها وغسلها، وبهذا الشكل يتم دفن الموتى- في أغلب الأحيان- عرايا تماماً مثل الأرض التي تتلقفهم.

تحت سخريات المسلمين المنتصرين ونظراتهم المصوّبة من أعلى الدروب ينتظر الموتى- المصفوفون وأرجلهم الحافية ملامسة للشريط الأول من الطين الذي يحتفظ به المدّ العالي والأمواج طريّاً ورطباً- النقل إلى الجهة الأخرى من المصبّ. يرجع التأخير لكثرة عدد المتطوعين عما تقتضيه الحاجة، وهذا أمر يثير العجب والدهشة بالنسبة لمهمة جنائزية تكتنفها صعوبات جمّة، حتى مع الأخذ في الحسبان لحافز الاستيلاء على ملابس القتلى. ولكن إذا عُرف السبب بطل العجب: يتكالب الجميع على الذهاب للعمل مراكبية أو حمّالين للنقّالات لأنه قد تم في الأيام الأخيرة، وبجوار المدافن الجديدة، إقامة حي للبغايا اللاتي كن منتشرات بين الوِهاد والحواجز الوقائية المسموح بالمرور منها، في انتظار ما تسفر عنه الحرب، هل ستنقضي سريعاً ومن ثمّ فإن أية تجهيزات ولو بدائية تفي بالغرض، أم أن الحصار سيطول- كما تدل جميع المؤشرات- وفي هذه الحالة من المناسب العناية أكثر بوسائل الراحة التي لا تتطلب أكثر من اختيار رقعة ظليلة من الأرض- نظراً لما عليه الجو من حرارة- لإقامة عشش فوقها، حوائطها من الأعمدة الخشبية وأسقفها من

الأغصان المورقة، أما بالنسبة للسرير فتكفي مصطبة من الطين أو كوْمة أعشاب طرية ستتحول بمرور الوقت إلى تراب يمتزج برفات الموتى. لا يحتاج الأمر إلى تبحر في العلم لملاحظة كيف كان «إيروس» و«تاناتو»، ومعهما «هرمس»[1] وسيطاً، يمرحون بحرية تامة في العصور الوسطى ويتبادلون الأدوار رغم أنف الكنيسة، وهذا لأن ملابس الموتى كانت تُقدم بمثابة أتعاب للنساء اللاتي كن يبذلن ما في وسعهن- لكونهن في طفولة فن البغاء، وفي بلد في مرحلة التكوين- لإشباع نهم الزبائن والتسرية عنهم بإخلاص وحبور. وإزاء ما تقدم فلا عجب من صياح المتسابقين «أنا ذاهب، أنا أريد الذهاب». إن حرصهم على الذهاب ليس نابعاً من الشفقة على الزملاء القتلى أو بمثابة ذريعة للهروب بضع ساعات من جبهة القتال، بل تلبية لشهوة اللحم التي لا تُحتمل، وتتحكم فيها الآن أهواء أيّ جاويش من حقه التصريح لهذا أو منع ذاك.

والآن هيا بنا لنتوقف قليلاً عند هذا الصفّ من الجثث المتسخة

(1) - «إيروس» (Eros): هو إله الحب في الميثولوجيا الإغريقية، وكانوا يصورونه في العصر الإسكندري بطفل مجنح يحمل شعلة وسهاماً لإشعال القلوب، وهو يماثل «كيوبيد» في روما الوثنية. (المترجم)

- «تاناتو» (Tanato): ابن الليل وتوأم النوم عند الإغريق، ويتقمص شخصية جني (ملك) الموت في المسرحيات المأساوية. (المترجم).

- «هرمس» (Hermes): إله الخصوبة والنماء عند الإغريق، ومشهور بعلاقاته العاطفية مع عدد كبير من النساء، ومن بينهن «أفروديت» (المترجم).

والمغطاة بالدماء، المرصوصة كتفاً إلى كتف في انتظار ساعة الإبحار، ومازالت أعين بعضها مفتوحة وجاحظة نحو السماء، وبعضها الآخر بجفون مطبقة وكأنها تقاوم رغبة عارمة في الضحك، إنه معرض للقروح، والجروح المفتوحة التي يلتهمها الذباب. لا نعرف شيئاً عن هؤلاء الرجال، لا يعرف أسماءهم سوى أصدقائهم المقربين أو الذين خرجوا معهم من نفس الأماكن أو الذين جمعهم بهم الخطر نفسه. «ماتوا في سبيل الوطن»، كان سيقول الملك لو جاء لتكريم الأبطال، ولكن دون أفونسو هنريكس مشغول أيضاً بمعسكره وأمواته، ولا يمكنه المجيء من بعيد، ومن ثمّ يجب أن تُفهم خطبته القصيرة– لو ألقاها– على أنها موجهة بالتساوي لكل من ينتظر الدفن في تلك الساعة التي تشهد أيضاً نقاشاً حاداً في مسائل خطيرة تتعلق بتحديد من يذهب مراكبياً أو للعمل في شق الحفر بالمقابر. لم يكن الجيش منوطاً بإرسال برقيات إلى الأسر: «سقط في ميدان الشرف وهو يؤدي واجبه»، بالطبع هذه الصيغة أكثر أناقة من الشرح التوضيحي: «مات محطّم الرأس من جرّاء حجر ألقاه عليه من علٍ ابن مسلم». لم تكن هذه الجيوش تعرف السجلات العسكرية، كل ما كان يعرفه القادة– وعلى أكثر تقدير– أن لديهم في البداية اثني عشر ألف رجل، وأن عليهم من الآن فصاعداً خصم بعض الأعداد يومياً من هذا الرقم، فالجندي على الجبهة لم يكن يحتاج لاسم: «أنت، أيها البهيم، لو تراجعت خطوة سأطيح برأسك»، ولم

يتراجع، وسقط الحجر، وقتله. كانوا يطلقون عليه «جاليندو»، ولا تستطيع أمه التي ولدته التعرف عليه الآن، برأسه المهشمة وجسده الملطخ بالدم الجاف، على يمينه يرقد «ريميخيو» مخترقاً بسهمين، وكأن المسلميْن اللذين اختاراه في الوقت نفسه هدفاً يتمتعان بعينيّ صقر ويديّ شمشون، ولكنهما لن يعيشا طويلاً، ففي خلال بضعة أيام سيحلّ عليهما الدّور، وسيظلان مثل هؤلاء مستلقين في الشمس انتظاراً للدفن داخل المدينة، لأن الحصار يقطع الطريق إلى المقابر الموجودة خارجها، والتي دنّسها البرتغاليون ببشاعة وانتهكوا حُرماتها. لدى المسلمين ميزة- لو صحّ هذا القول- وداع الأهل وعويل النساء، ولكنها قد تعود بالسلب عليهم لأن مشهد دموع الألم والحسرة، والحداد الذي لا عزاء له (آه يا بني، يا بني آه) يضعف معنويات القوات. أما في المعسكر المسيحي فإن هذه الأمور تحدث بين الرجال فحسب، صحيح أن فيه أيضاً نساء، ولكنهن من أجل أغراض أخرى: جنسية، جندي ميت، جندي قائم، ولا فرق- في ظل العادة- بين الطول أو الثخانة إلا في بعض الحالات النادرة. سوف يعبر «جاليندو» و«ريميخيو» المصبّ لآخر مرة، لو أنهما قد اجتازاه من قبل في هذا الاتجاه، إذ أن الحصار مازال في بدايته ولم يجد بعض الرجال فسحة من الوقت للتخفيف من وطأة رغباتهم المكبوتة، ومن ثمّ فقد دلفوا إلى الموت مترعين بالصحة التي لم تُفد أحداً. سيذهب معهما أيضاً، ممدين في القوارب ومكدسين بعضهم

فوق بعض لضيق المساحة، كل من: دييجو، جونثالو، فرنان، مارتينهو، ميندو، جارثيا، لورينثو، بيرو، سانتشو، ألبارو، موثو، جودينهو، فواس، أرنالدو، سويرو، أما بقية الأسماء فهي مماثلة لأسماء بعض هؤلاء، ومن ثمّ لم نقم بذكرها حتى لا يحتج أحد قائلاً: «لقد ذكرت هذا الاسم مرتين أو ثلاثاً» مع أن الأمر ليس كذلك، كنا نتمنى كتابة «في القوارب يمضي برناردو» لأن الموتى الثلاثين يحملون الاسم نفسه، ولذا لن نتعب من التكرار: الاسم ليس له وزن على الإطلاق.

موجيمي ذاهب في القوارب، ولكنه حي. خرج من الهجوم سليماً، لم يصبه خدش واحد، ولم يكن هذا بسبب خوفه على نفسه أو توخيه الحذر، بل على العكس يمكن الحلف بأغلظ الأيمان أنه لم يفارق الخط الأول للنار، كان من المكلفين بحمل الكباش مثل جاليندو الذي لم يحالفه الحظ. إن تلقيه الأمر بالذهاب إلى الجنازة يساوي ورود اسمه بكشف الإشادة بالأداء بعد توقف المعركة. سوف يحظى بيوم للراحة والكسل، ولما كان الجاويش يدرك جيداً كيف سيستغل رجاله الوقت الفاصل بين الذهاب والإياب فقد اعتراه الغمّ لعدم تمكنه من الذهاب معهم، سوف يذهب مع قائده «ميم راميريس» إلى المعسكر الملكي، حيث تم استدعاء القيادات لتقييم الموقف– السلبي بالطبع –، ومن هنا يتضح أن حياة أصحاب

المناصب العليا ليست كلها وروداً، ناهيك عن احتمال قيام الملك بإلقاء تبعة الفشل على القادة، لكي يقوموا بدورهم بإلقائها على الجاويشية المساكين الذين لا يستطيعون التعلل بجبن الجنود، فمن المعروف أن ما يساويه الجندي يدين به لجاويشه. ولو حدث الاحتمال الأخير فمن المتوقع إلغاء تصاريح المشاركين في الدفن، ويبحر الأموات وحدهم، ولم لا ووجهتهم معروفة، وتبدأ بهذا الشكل حكاية القوارب الأشباح. من على الشاطئ المقابل، تنظر النساء الجالسات على عتبات العشش إلى القوارب التي تقترب بحمولة الأموات والرغبات، بل إن إحداهن كانت في الداخل مع رجل وشرعت في الاهتزاز المزيف لتتخلص منه بسرعة، وهذا لأن جنود الزوارق الجنائزية يكونون- ربما لحاجتهم غير الواعية إلى إحداث توازن بين الموت الحتمي والحق في الحياة- أشد تحرقاً ممن يشتغلون بالأعمال الروتينية سواء كانوا عسكراً أم مدنيين، ومن جهة أخرى لأن حصة الكرم تزداد- كما هو معروف- بنسبة ملائمة لنسبة إطفاء جذوة الرغبات. ورغم ضآلة قيمة الاسم، فقد كان لهؤلاء أيضاً أسماء- فضلاً عن الاسم الشائع للمومس الذي يُعرفن به، وهي: تاريخاس (مثل أم الملك)، أو مافلداس (مثل الملكة التي زارت سابويا العام الماضي)، أو سانتشاس، أو مايوريس، أو إلبيراس، أو دورياس، أو إندركيناس، أو أورّاكاس، أو ليونورس. واثنتان منهن تحملان اسمين رائعين: إحداهما تُدعى «شاموءا»

والثانية «مونينها»، اسمان يجعلان المرء راغباً في انتزاعهما من هذه الحياة وحملهما إلى البيت، ليس كما كان يمكن أن يفعل رايموندو سيلبا مع كلب سلالم سان كريسبن، بدافع الشفقة، بل لمحاولة الوقوف على سرّ صلة الاسم بالمرأة التي تحمله، حتى لو كانت تبدو أنها أقل منه بكثير.

هناك أسباب ثلاثة وراء مجيء «موجيمي»، اثنان منهما عامّان، والثالث خاص به. تحدثنا بما فيه الكفاية عن السببين اللذين يشترك فيهما طاقم المهمة الجنائزية: ها هي الحفر مفتوحة لتلقي الأموات، وها هي النساء موجودات لتلقي الأحياء. سوف يفكّ موجيمي سرواله، ومازال التراب الأسود الرطب عالقاً بيديه، ويرفع فحسب قميصه الطويل، سيقترب من المرأة التي اختارها. مازال فن الحب في طور الاختراع بأرض محتلة منذ أيام قليلة. لقد حمل المسلمون معهم الكثير مما يعرفونه عنه، لو كانت إحدى هؤلاء المومسات من أصل مسلم وألقت بها الأرزاء والمقادير إلى ساحة التعامل الدولي، فإنها لن تُفصح الآن عن أسرار سلالتها كي تتمكن فيما بعد من بيع المستجدات بسعر أعلى. بالطبع ليس البرتغاليون أجلافاً تماماً في هذه المسألة، فالطرائق متاحة لكل الناس تقريباً، ولكن ينقصهم الخيال والتفنن، موهبة الحركة الدقيقة، دهاء التشويق، أي تنقصهم في نهاية المطاف الحضارة والثقافة. ولكونه بطلاً لهذه القصة، لا

يعتقدن أحد أن موجيمي أكثر كفاءة وأهلية من زملائه، إذا كان قد هدر على مقربة «لورينثو» وتأوّهت صارخة «إلبيرا»، فسوف يرد بحميّة مماثلة هذان، بل إن «دوروتيا» تبذل ما في وسعها حتى لا تكون أقل من زميلتها، ولا يجد موجيمي سبباً للصمت. بينما لم يصبح الشاعر «دون دينيس» ملكاً، علينا أن نقنع بما هو موجود.

عندما تعود القوارب– وهي أكثر خفّة– إلى الضفة الأخرى للمصب، لن يذهب فيها موجيمي، ليس لأنه قرر الفرار من الجندية، لا يمكن أن ترد هذه الفكرة بخاطر شخص في مثل صيته ويحتل مكاناً راسخاً في التاريخ العظيم للبرتغال، إذ لا يصح أن يودي أمر تافه أو عارض جنوني بصرح هذه القيم الجليلة، إنه موجيمي الذي شهد واقعة الاستيلاء على شنترين، وكفى. السبب الذي يحتفظ به لنفسه، ولا يبوح به ولا حتى لجاليندو، هو الذهاب من هنا– من خلال الطرق التي أوضحناها عند انتقال الجيش من جبل سان فرانثيسكو إلى جبل جارثا– حتى المعسكر الملكي (وخيام الصليبيين فيه منفصلة عن بعضها، كما يعرف جيداً) لرؤية محظية الفارس الألماني، لو أسعفه الحظ وقابلها لدى مروره بإحدى نواصي المخيم. إنها أوروانا، التي لا تغيب عن تفكيره قط، رغم أن خياله لم يصوّر له أبداً أنها لقمة سائغة لفمه، لأن طموح جندي بلا رُتْبة لن يذهب إلى أبعد من المومسات، أما المحظيات فهن حكر على السادة، ولو

حدث وأراد هؤلاء السادة الاستغناء عنهن فإنهم يستبدلونهن مع نظرائهم. لا يعتقد أن الحظ سيحالفه، ولكن يستهويه العودة لسماع تلك الضربة التي جربها مرتين في فم المعدة، وفي كل الأحوال لا يحق له التذمر. في وسط جَمْع من الذكور الحانقين في دورة النزوة تتحفظ الإناث عادة ويتمسكن بأهداب الحذر، لاسيما إذا خرجن لاستنشاق الهواء، والدليل على هذا خادم الفارس إنريكي الذي تصحبه أوروانا، إنه في كامل عدّته الحربية وكأنه ذاهب إلى المعركة، رغم أنه ينتمي إلى قسم الخدمات الداخلية.

كثيرة هي الاختلافات بين الحرب والسلام. عندما كانت القوات معسكرة هنا، وفي أثناء اتخاذ الصليبيين لقرار البقاء أو الرحيل، لم يكن الصراع قد تعدى المناوشات الخاطفة أو التراشق الجوّي بالسهام والشُّباب الناريّ الدوّار، وكانت لشبونة تبدو كجوهرة مائلة على السفح، مستسلمة لشهوانية الشمس، مكسوّة باللمعان، وفي ذُراها مسجد القلعة حيث تبرق الزليجات الخضراء والزرقاء، وعلى المنحدر المتجه إلى هذه الناحية، الرَّبض، الذي لم يكن المسلمون قد انسحبوا منه آنذاك، ولو أمكن تشبيهه بشيء فسيكون بمدخل الجنة. أما الآن، فالبيوت محروقة خارج الأسوار والحوائط مهدّمة، ومن مسافة بعيدة يتضح تقدم الدمار، كما لو كان الجيش البرتغالي جيشاً من النمل الأبيض، القادر على قرض الحجارة مثل قرضه للخشب،

حتى لو تخلّعت أسنانه وتمزق حبل حياته الواهن في العمل الشاق. لا يدري «موجيمي» ما إذا كان خائفاً من الموت أم لا. يرى أن موت آخرين أمر طبيعي، يحدث دائماً في الحرب، أو أن الحرب مخترعة خصيصاً من أجل أن يحدث، ولكنه لو كان قادراً على سؤال نفسه عما يخافه حقاً في هذه الأيام، فربما يجيب بأن احتمال الموت لا يخيفه كثيراً (من يدري، قد يحدث في الهجوم القادم) ولكنه يخاف من شيء آخر، يمكن أن نسميه ببساطة «الخسارة»، ليست خسارة الحياة في حد ذاتها، بل ما يحدث فيها، وعلى سبيل المثال لو كان مُقدراً– عن طريق الحظ أو الرب– تملكه لأوروانا بعد غد، فإنه يخاف ألا يأتي بعد غد لكونه سيموت غداً. نعرف أن أفكاراً من هذا القبيل لا يمكن أن تدور بخلد موجيمي، لأن طريقه مباشر وأكثر استقامة: ليأت الموت متأخراً، ولتأت أوروانا سريعاً، فالوقت ما بين وصولها ورحيله هو الحياة، ولكن هذه الفكرة معقدة أيضاً، ومن ثمّ نعترف بفشلنا في الوقوف على ما يفكر فيه موجيمي، وعلينا الاقتصار إذن على الأحداث الواضحة لأنها الترجمة للأفكار، رغم أنه تُضاف دائماً أشياء وتُحذف أشياء في الفترة الفاصلة بين تحوّل الأفكار إلى أحداث، مما يعني في النهاية أننا لا نعرف سوى القليل عما نفعله أو نفكر فيه. الشمس مرتفعة، اقترب انتصاف النهار، بالتأكيد يراقب المسلمون التحركات في المعسكر، لرؤية ما إذا كان الجليقيون سوف يعيدون الكرّة عندما ينادي المؤذن للصلاة، لا يكنّ

هؤلاء المتوحشون أيّ احترام لعقائد الآخرين. لكي يختصر موجيمي الطريق، يعبر المصبّ من المخاضة الموجودة بمحاذاة ميدان «دوس ريستورادوس»، منتهزاً فرصة انحسار المدّ. يوجد هناك جنود من جبهة بوابة «ألفوفا» يحاولون بالصيد إخماد جذوة الخوف. جاءوا من بعيد دون شك، ينطبق عليهم المثل القائل: «عينان لا تريان، قلب لا يحس»، وإن كان الأمر في هذه الحالة لا يتعلق بإخماد الانفعال، بل بالبحث عن ملطفات بعيداً عن مسرح الحرب، إذ لا يقوى مرهفو الحسّ على مشاهدته بعد حُمّى المعركة. ولتفادي هروب هؤلاء، يمضي هنالك بعض «الأونباشيّة» (1)، مثل رُعاة أو كلاب لحراسة القطيع، لا توجد وسيلة أخرى، فالقوات قد تلقت رواتبها حتى شهر أغسطس، وعليها تقديم الأجساد لما يُطلب منها، يوماً بعد آخر، إلى أن يُستوفى الأجل، باستثناء الذي استوفى قبل الموعد أجلاً آخر: أجل الحياة. لا يمكن لموجيمي عبور الذراع الآخر للمصب لأنه أعمق بكثير، ولذا يأخذ طريق الشاطئ حتى يصل إلى جداول المياه العذبة، حيث سيرى في يوم من هذه الأيام «أوروانا» تغسل الثياب وسوف يسألها «ما اسمك»، متخذاً السؤال تعلّة للشروع معها في حوار، لو يوجد شيء في هذه المرأة ليس سراً على موجيمي سيكون اسمها، لقد كرره مرات ومرات، الأيام ليست هي الوحيدة التي تتكرر، بل يماثلها أيضاً: «ما اسمك»- سأل رايموندو سيلبا

(1) الأونباشيّ أو نائب العرّيف هو الذي يقود عشرة رجال في الجيش (المترجم).

أوروانا، فأجابت: «ماريا سارة».

كانت الساعة تشير إلى السابعة مساء عندما وصلت ماريا سارة. ظل رايموندو سيلبا يكتب- دون تركيز- حتى الخامسة، كان يكتب سطرين أو ثلاثة ثم ينظر عبر زجاج النافذة، سحب، وحمامة تدور في الفضاء ثم تحط على درابزين الشرفة لترمقه بعين محمرّة قاسية، محركة رأسها حركات سريعة ومتدفقة في الوقت نفسه. كانت سلّة المهملات التي أحضرها من غرفة المكتب مملوءة بالأوراق الممزقة، تخريب، لو استمرت الأيام- بدءاً من الآن- على هذا المنوال فلن يفرغ قط من قصته، وسيظل البرتغاليون إلى نهاية الدهر معسكرين أمام مدينة لشبونة، دون همّة لاحتلالها أو إرادة للتخلي عنها. قاوم طيلة اليوم رغبته في الاتصال الهاتفي آلاف المرات، مما ساهم في انصراف ذهنه عن الواجب كتابته، والنتيجة أنه لم يتقدم في العمل المفيد أكثر من صفحة، بل إن كتابة الصفحة اليتيمة كان بفضل ذلك الحُلْم الذي يجعلنا نتساهل فيما ليس له من قيمة سوى كونه غير محتمل. أمضى نصف الساعة الأخير- وهو معتمد على الإفريز الداخلي للنافذة، ومظهراً نصفه العلوي، ونصفه الآخر مستتر- في التلصص على جهة «لارجو دوس ليوس» حيث تترك ماريا سارة سيارتها. لمحها تمر من عند معرض لوحات شارع «سان أنطونيو» بخطوات هادئة، لا هي بالسريعة ولا بالبطيئة. كانت ترتدي الجاكت

والتنورة التي يعرفها، على كتفها حقيبة معلقة، الشعر مسترسل، يتراقص، وعندئذ أحس بعقدة في فم المعدة، كان موجيمي قد أحس بضربات في المكان ذاته. أدرك أن العقدة من عمل الرغبة الحقيقية، بالأمس كانت ذبذبة متشنجة ومستمرة هزّت كيانه كله، لا يمكن إخمادها إلا باتصال جسدي خالٍ من العراقيل، قد يترك بعد الفراغ منه علامات إحباط وقد يصل إلى ما هو أسوأ : أي إلى الكدر. فتح الباب وخرج إلى بَسْطة السلم، كانت ماريا سارة تصعد في تلك الأثناء وتنظر مبتسمة إلى أعلى، ابتسم هو الآخر: يا له من تأخير. الشوارع مزدحمة، لم تكن هكذا بالأمس عندما خرجت من دار النشر- أجابت، وطبعت في أثناء تقدمها قبلة على خدّه، ثم دخلت. الباب الأكثر قرباً من مدخل الشقة هو- كما نعرف- باب غرفة النوم، ولا معنى على الإطلاق في ظل الظروف الرّاهنة البحث عن باب آخر، لاسيما وأن غرفة النوم ليست هكذا فحسب، وإنما هي أيضاً- وإن كان لفترة مؤقتة- مكان عمل، ومن ثمّ- نكرر- فهي مكان محايد إلى حد ما. أنزل رايموندو سيلبا الحقيبة من على كتفها ببطء، وكأنه يعرّيها، لم يكن فعله هذا متعمداً ففي بعض الحالات يساعد الحدْس فيما ينساه العلم أحياناً. استخدمتِ بالأمس ضمير المخاطب[1] عند إلقائك بتحية الوداع. لم أتعود بعد على استخدام

(1) توجد في اللغة الإسبانية وسيلتان للتخاطب: استخدام ضمير المخاطب أو ضمير الغائب. واستخدام الوسيلة الأولى يكون في الحديث بين الأهل والأصدقاء والعشّاق أو إذا كان المتكلم أكبر سنّاً أو أعلى قدراً من المخاطب (أي عندما يكون الكلام

ضمير الغائب- أجابت ماريا سارة. ألا تريدين الذهاب إلى غرفة المكتب. لا، هنا أفضل، ولكن لا يوجد لك كرسيّ. سأحضر واحداً. عندما رجع بالكرسي كانت ماريا سارة تقرأ الصفحة الأخيرة من المخطوط: لم تتقدم سوى القليل- قالت. أتدرين لماذا- سأل رايموندو سيلبا. لماذا- كررت السؤال، ولكن دون ابتسام هذه المرّة، وظلت تنظر إليه كأنها في انتظار الإجابة. انظري حضرتك إلى السرير. ماذا في السرير- وفي نبرة أخرى أضافت: أنا وحدي التي تستخدم ضمير المخاطب. ربما تكتنف اعتيادي على الحديث بضمير المخاطب بعض الصعوبات، ولكنني سأكرر السؤال مستخدماً إيّاه: انظري إلى السرير. وأنا أجيب: ماذات جرى له. هل تلاحظين عليه اختلافاً عن يوم أمس. إنه السرير نفسه. بالطبع هو، ما أقصده هو أن تخبريني إذا كان قد استُخدم، لاشك أنك ستلاحظين- بصفتك امرأة- أن ثنيّات الملاءات وطيّاتها العلوية لم يلحقها أي تغيير، وأنه لا توجد طيّة واحدة في الوسادة، وأن المفرش

موجهاً من الأعلى إلى الأدنى)؛ وتستخدم الوسيلة الثانية حين تنتفي صلة القرابة أو الصداقة أو إذا كان الكلام موجهاً من الأدنى إلى الأعلى، وفي هذه الحالة يفيد الأسلوب صيغة الاحترام «حضرتك» سواء تم التصريح بها أو لم يتم. وماريا سارة ورايموندو سيلبا يستخدمان منذ بداية تحاورهما- باستثناء الحالة التي تستفسر عنها هذه الجملة الواردة بالنص- ضمير الغائب، ولكنهما سوف يشرعان من الآن في استخدام ضمير المخاطب. ويستحيل ترجمة الوسيلة الأسلوبية الثانية إلى اللغة العربية ترجمة حرفية، لأنه لا يصح توجيه الحديث إلى شخص حاضر وغائب في الوقت نفسه، كأن نقول مثلاً: ذهب حضرتك. (المترجم).

مازال أمْلَسَ وحوافه مثلما كانت. نعم، هذا حق. إنه على الحالة التي تركته عليه الخادمة يوم أمس. لم تنم هنا، إذن. لا. لماذا، وأين نمت. سأجيب أولاً على الشق الثاني من السؤال، نمت على كنبة الصالة. ولماذا. لأنني صبي، مراهق غزاه الشيب قبل الأوان، لأني لم أستطع النوم هنا وحدي. هل هذا هو السبب فحسب. تركت ماريا سارة الورقة على الطاولة، اقتربت منه وعانقته: لستَ مضطراً لتقول لي إنك معجب بي. سوف أقوله. ولكن ليس بهذا الشكل. سأستخدم كلمات. وأنا أريد سماعها، وأعرف أنني سوف أنسى الكثير منها، اللحظة، المكان، الزمان، ولكن ما لا يمكنني نسيانه هو هذا، فضلاً عن لمسك للوردة. كان كل منهما بين ذراعيّ الآخر، ولكن دون قبلات حتى الآن، يتبادلان النظرات ويبتسمان كثيراً، مسروري الوجه، وبعد ذلك انحسرت الابتسامة ببطء مثلما تتشرب الأرض المياه مستطعمة إيّاها، إلى أن ارتسمت عليهما مؤخراً علامات الجديّة، كل منهما ينظر إلى الآخر، رفرف بالغرفة خيال سريع ورقيق، جاء وذهب في الحال، وعندئذ لفلفت أجنحة شاسعة وقاهرة كل من ماريا سارة ورايموندو سيلبا، ضاغطة عليهما بشدة وكأنهما جسد واحد، وبدأت القبلة، المختلفة كثيراً عن قبلة الأمس، كانا الشخصين نفسيهما، كانا آخرين، ولكن قول ما تقدم يساوي عدم قول شيء، إذ لا يعرف أحد على وجه الحقيقة ماهية القبلة: ربما تكون الالتهام المستحيل أو التوحّد الشيطاني أو مقدمة الموت.

لم يكن رايموندو سيلبا هو الذي اقتاد ماريا سارة إلى السرير، ولم تكن هي التي دفعته إليه بخفة تبدو وكأنها غير مقصودة، كانا موجودين هناك، جالسين في البداية على حافته، مكرمشين المفرش الأبيض، وبعد ذلك دفعها إلى الخلف واستمرا في تبادل القبلات، كانت تحيط قفاه بذراعيها، وتتوسد ذراعه الأيمن، أما الأيسر فكان يبدو متحيراً، لا يدري ماذا يفعل أو يدري ولكنه لا يجرؤ، كأن جداراً خفياً يحول بينه في اللحظة الأخيرة وبين ما يريد، وأخيراً أرشدته اليد العليمة، حطّت على خاصرة ماريا سارة ثم هبطت حتى المؤخرة لتستقر- دون ضغط تقريباً- على استدارات الفخذ، لكي تصعد ببطء بعد ذلك حتى الصدر، تستطيع ذاكرة الأصابع التعرف الآن على نعومة البلوزة التي تلمسها لأول مرة، واعتراه إحساس سريع مذاب في تلافيف الوعي بوجود أعجوبة النهد تحت اليد المبتذلة. ومرتبكاً من لمسه رفع رايموندو سيلبا رأسه، كان يريد أن ينظر، يرى، يعلم، يتأكد من أن يده ذاتها هى التي هناك، والآن- نعم- يتهاوى الجدار اللا مرئي لتظهر مدينة الجسد، شوارع وميادين، ظلال وأضواء، أنشودة قادمة لا يعلم أحد من أين، النوافذ اللانهائية، الترحال الذي لا ينتهي. استضاءت عتمة الغرفة فجأة، انفتحت بالتأكيد من جهة الحاجز الرملي سحابات الغروب كي تتسلل الأشعة الأخيرة للشمس من النافذة، ملقية على هذا الجانب من الحائط ذبذبة ضوئية بلون الكريز، نثرت بدورها في الغرفة خفقاناً غير منظور، رجفة

شجية لذرّات مستيقظة من الضوء الآخذ في التلاشي، كأن هذا العالم مولود بالكاد ومازال عارياً عن القوة، أو مسنّ اعتراه الضعف من جرّاء العيش الطويل. لم يكونا قد تعريا تماماً، مازالا يحتفظان بقطعة الثياب الأخيرة، فضلاً عن السوتيان الذي لم تخلعه. كانا مستلقيين، يرتجفان وعليهما الغطاء. أخذ يديها وقبلهما، وفعلت مثله، اقتربا بحركة متموجة للجسد لتمتزج الأنفاس، وبعد ذلك تلامس الفاهان وتحوّلت القبلة إلى التهام للشفتين واللسان، بينما كانت يدا كل واحد منهما تبحثان عن جسد الآخر لمداعبته والعبث فيه، وعندئذ سُمعت كلمات متفرقات ومتقطعات ولاهثات: يا حبي، أحبك، كيف أمكن هذا، لا أدري، كان يجب أن يكون، عانقني، أعشقك... هذه الهمهمة المغرقة في القدم (سواء كانت بهذه الكلمات أو بكلمات أخرى أشد منها عذوبة أو خشونة أو فظاظة) التي تطارد منذ ليل الأزمان– ولنسمح لأنفسنا باستخدام هذا التعبير مرة أخرى– ما لا يمكن وصفه. كانت يد رايموندو سيلبا تحاول بحركات خرقاء فتح محبس السوتيان، ولكن ماريا سارة هي التي فتحته بلمسة بسيطة وحركة من الكتفين، وحررت النهدين من محبسهما، مظهرة إيّاهما ليدىّ وعينيّ وفم رايموندو سيلبا. تعريا أخيراً بمساعدة كل منهما للآخر أو باستسلامه له، وفجأة أزاح رايموندو سيلبا الملابس، ودون خجل، متناسياً الخوف، ومظهراً نفسه للضوء– وإن كان خافتاً–، كانت الملاءة البيضاء هي التي تلمع

فحسب وكأنها غارقة في ضوء القمر، والليل يسقط بطيئاً على المدينة، كان يبدو وكأن العالم الخارجي قد تجمع منتظراً حدوث معجزة جديدة، ولكن أحداً لم يتنبه متى حدثت، هنا، عندما أحس هذان بطعم الاتصال ببعضهما لأول مرة، عندما تأوّها سوياً لأول مرة، عندما صرخا سرّاً، عندما انفتحت كل بوابات الطوفان على الأرض، وبعد ذلك السكون، المصبّ الشاسع لنهر التاجُه، وجسد إلى جوار جسد يجدفان، اليدان متشابكتان، أحدهما يقول: «آه، يا حبي»، والآخر: «أتمنى ألا يحدث في المستقبل شيء أقل من هذا»، وفجأة يحس الاثنان بالخوف مما قالاه، ويتعانقان، كانت الغرفة مظلمة، «أنر المصباح– قالت– أريد أن أعرف إذا كان هذا حقيقة وليس حلماً».

* * *

قضت ماريا سارة الليلة في شقة رايموندو سيلبا. بعد طلبها منه إضاءة المصباح وتأكدها، بجميع حواسها، من حقيقة كونها هناك، عارية ومع هذا الرجل العاري إلى جوارها، ناظرة إليه ومتحسسة إيّاه، وتاركة نفسها دون تحفظ لعينيه ويديه، قالت بين قبلتين: سوف أتصل بكنتي[1]. لفلفت نفسها بالمفرش الأبيض وجرت حافية إلى غرفة المكتب، سمع رايموندو سيلبا تسجيل الرقم، وبعده مباشرة: «إنه أنا»، ثم فترة صمت، من المحتمل أن زوجة أخيها تعرب لها عن دهشتها للتأخير، وسائلة إيّاها- على سبيل المثال- «هل من جديد»، وعندئذ أجابت ماريا سارة المؤهلة للحديث عن المستجدات الكبيرة والعديدة: «لا، أردت إخبارك فحسب أنني لن أعود الليلة إلى البيت»، ومن جانبنا نقول- توخياً للصدق- إن هذا الأمر في حد ذاته جديد كل الجدّة، آخذين في الاعتبار حدوثه لأول مرة منذ ذهابها للعيش في بيت أخيها بعد الطلاق. فترة صمت أخرى،

(1) الكنّة: هي امرأة الابن أو الأخ، وجمعها: كنائن. (المترجم).

التعجب الفطن لزوجة الأخ والذي ما لبث أن تحوّل إلى تواطؤ في الكلمات التي قالتها، انفجرت ماريا سارة ضاحكة: «سأحكي لك فيما بعد، ولكن قولي لأخي أن يدعه من تقمص دور المدافع عن الأرامل والآنسات لأني لست منهن». لابد وأن الكنّة قد أبدت من على الطرف الآخر اهتماماً عائلياً مقبولاً: «آمل أن تكوني على علم بما تفعلين»، فهذا ما يمكن قوله في مواقف مثل هذه، وكانت إجابة ماريا سارة كالتالي: «يكفيني الآن معرفة أنه حقيقة– وبعد وقفة قصيرة أضافت ببساطة– نعم»، لم يكن رايموندو سيلبا بحاجة لكي يفهم أن زوجة أخيها سألتها: «هل هو المصحح» وأن ماريا سارة أجابت بنعم. وبعد وضعها للسماعة ظلت هنالك لبضع دقائق، وعلى حين غرّة اكتسبت الأشياء حولها صفة اللاواقعية، الأثاث والكتب، والرجل المستلقي هناك داخل الغرفة، أحست بهبوط مداعبة باردة على طول فخذيها من الجهة الداخلية، وعندئذ قالت لنفسها «هل هي منه»، ارتجفت وأحكمت تدثرها بالمفرش، أعادت إليها هذه الحركة الوعي بالعري الكامل لجسدها، وعندئذ تصارعت بداخلها ذكرى المشاعر الحديثة مع فكرة حانقة تئز برأسها: «لو لم يستر نفسه وظل عارياً فوق السرير، فهل ستنتهي المسألة عند هذا الحد، أم أنها هي التي ترفض الاستمرار حتى النهاية»، من الواضح أن الأمر يتعلق بتهديد، بقرار متخذ من جانب واحد، دون مراعاة لشكليات إعلام المرسل إليه الغائب. تفاجأت من عدم قيامه بالنداء

عليها بعد وضعها للسماعة، لقد أعطى الجرس الصغير الإشارة بانتهاء المكالمة الهاتفية، خيّم الصمت على الشقة وكأنه عدو متربص وقلق، وبعد ذلك تصورت أنها اهتدت إلى السبب: إنه لا يعرف كيف ينادي عليها، بالطبع سيقول ماريا سارة، ولكن المشكلة لا تكمن في الكلمات وإنما في النّبرة التي ستُؤدى بها، في الاختيار بين النبرة الآمرة لمن أصبح يعتقد في ملكيته للجسد وبين التعبير بعذوبة عاطفية لن نقول إنها مصطنعة، بل تحتوي بالتأكيد على قدر من التعمد الواعي الذي لا يصلح التعبير بأن يكون طبيعياً معه. أخذت تردد بينها وبين نفسها في أثناء عودتها إلى حيث يوجد المصحح: «إنه مُغطى، إنه مُغطى»، وكأن مستقبل الكلمات والأفعال التي قيلت وحدثت هنا قد أصبح مُعَلّقاً على هذا التصرف من جانبه. كان الغطاء يستر رايموندو سيلبا حتى كتفيه.

تناولا العشاء سوياً بأحد مطاعم شارع «باكسيا»، أرادت معرفة كيف تمضي قصة الحصار. تبدو لي في حدود المعقول، بالنسبة لشيء غير معقول مثل هذا. أينقصك الكثير للانتهاء منها. يمكن الانتهاء منها في ثلاثة أسطر باتباع نهج الصيغة المعروفة: «تزوجا بعد ذلك، وعاشا في سعادة وراحة بال، وأنجبا الكثير من الصبيان والبنات»، وبالنسبة لحالتنا هذه ستكون كالتالي: «استولى البرتغاليون على المدينة بعد جهد جهيد»، ويمكن ألا أنتهي منها قط إذا لجأت إلى تعداد

الأسلحة ومهمات العسكر، وأدخلت الأشخاص والشخصيات في سلسلة من المتاهات، وهناك خيار ثالث يتمثل في تركها على ما هي عليه الآن، مادمنا قد التقينا. أفضِّل أن تستمر فيها حتى النهاية، إذ يجب عليك تقرير مصير موجيمي وأوروانا، أما الباقي فأهميته ضئيلة، لأننا في جميع الأحوال نعرف كيف ستنتهي القصة، والدليل أننا نتناول العشاء الآن في لشبونة، ولسنا مسلمين أو سيّاحاً ببلاد المسلمين. من المحتمل أن تكون قد مرّت من هنا القوارب التي حملت إلى المقابر قتلى الهجوم الأول على أبواب المدينة. عندما نرجع إلى البيت سوف أقرؤها من البداية. هذا إن لم نكن مشغولين بأمور أهم. في الوقت متسع، أيها السيد الغالي. القصة قصيرة، يمكنك الفراغ منها في نصف ساعة، لقد اقتصرت- كما سترين- على ما بدا لي أنه نتيجة لرحيل الصليبيين بعد رفضهم مدّ يد العون للبرتغاليين. وهل تحتاج أية قصة لأكثر من هذا. أصدقكِ القول، ولكنك كنت تعرفين عندما ألقيت بي إلى خضم هذا العمل أنني مجرد مصحح متواضع وعادي، لا يتمتع بمواهب إضافية. تتمتع بما يكفي منها لقبولك التحدي. الأفضل أن تسميه «تحريضاً». ليكن، تحريض. ماذا كان يدور بخلدك عندما ألقيت في وجهي بقفاز التحدي، عن ماذا كنت تبحثين. لم أكن أدرك بجلاء في تلك اللحظة كُنْه ما أبحث عنه، رغم اجتهادي في التفسير والتحليل، أما الآن فمن الواضح أنني كنت أبحث عنك. عن هذا الفرد النحيف

الجاد، ذي الشعر المصبوغ، الذي يعيش حبيس البيت، حزيناً مثل كلب بلا صاحب. بل عن رجل أعجبني منذ أن رأيته، رجل وضع متعمداً خطأ في المكان الذي يجب عليه فيه تصحيح الأخطاء، رجل أدرك أن الفرق بين «لا» و«نعم» إنما هو نتيجة لعملية ذهنية ليس لها من هدف سوى البقاء على قيد الحياة بعد موت الآخرين. إنها حجة وجيهة. بل أنانية. ومفيدة اجتماعياً. دون شك، وإن كان كل شيء يعتمد على من سيكونون أصحاب «نعم» و«لا». نحن نسترشد بقواعد عامة أفرزها التراضي، والسيطرة، ومن البديهي أنه كلما تغيرت السيطرة تغير التراضي. لا تترك لي مخرجاً. لأنه لا يوجد مخرج، فنحن نعيش في غرفة مغلقة ونرسم العالم والكون على حوائطها. أنسيت أن هناك رجالاً قد ذهبوا إلى القمر. وكانت معهم غرفتهم المغلقة. أنت متشائم. لم أصل إلى هذا الحد، أنا فحسب متشكك راديكالي. المتشكك لا يحب. على العكس، قد يكون الحب هو الشيء الوحيد الذي يؤمن به المتشكك. ممكن. الأفضل القول إنه يحتاج إليه. انتهيا من احتساء القهوة. طلب رايموندو سيلبا الحساب، ولكن ماريا سارة سارعت بإخراج البطاقة الائتمانية من حقيبتها ووضعتها على الطبق، وأردفت قائلة: أنا مديرتك، ولا يمكن أن أسمح لك بدفع حساب العشاء، سوف ينتهي احترام السلّم الوظيفي لو قام المرؤوسون بإظهار الكرم مع رؤسائهم. أقبل هذه المرة، وعلى أي حال أذكرك بأنني في سبيل التحول إلى مؤلف،

وعندئذ... وعندئذ لن تدفع مليماً واحداً، لم يثبت حتى الآن أن مؤلفاً دفع عشاء الناشر، حقاً إنك لا تعرف شيئاً عن العلاقات العامة. سمعت كثيراً أن الناشرين يفوزون بالغداء والعشاء على حساب المؤلفين التعساء. افتراءات بذيئة، وتنفيس بغيض عن الحقد الطبقي. لست أكثر من مصحح، ولا شأن لي بهذه الحرب. إن كنت ستأخذ المسألة على محمل الجد... لا، لا، ادفعي الحساب، ولكن أسباب سماحي لك بالدفع مختلفة. وما هي. لأن انهماكي في قصة الحصار هذه، التي لم يكن لي فيها ناقة ولا جمل، قد حال تقريباً بيني وبين العمل في التصحيح، ومادمت أنت المسؤولة عن تعريض أحوالي الاقتصادية للخطر فمن قبيل الإنصاف تحملك لحساب العشاء، وللتعويض عنه سأجهز في وجبة الإفطار غداً خبزاً مُحَمّصاً. ستتركني برصيد مثقل بالديون.

كانت سيارة ماريا سارة مركونة في شارع «لارجو دوس ليوس»، ولكنهما فضّلا السير على القدمين في تلك الليلة الفاترة، والرطبة بعض الشيء. كانا قد هبطا قبل ذلك من شارع «ليمويرو»، وظلا لبعض الوقت في مَرْقب هذا الشارع، يتأملان نهر التاجُه، البحر الداخلي، الشاسع والغامض. وضع رايموندو سيلبا ذراعه على كتف ماريا سارة، كان يعرف هذا الجسد، كان يعرفه، ومن معرفته تولّد لديه إحساس بقوة لا محدودة، وبقوة أخرى مغايرة، لفراغ لا

محدود، لتراخ كسول، مثل طائر ضخم معلّق فوق العالم ومرجئاً لحظة جثومه. الآن يعودان إلى البيت، ببطء، كان يبدو لهما الليل وكأنه بلا نهاية، لم يكن عليهما الركض لإيقاف الوقت، أو الشروع فيه بسرعة، فالزمن لا يسمح بأكثر من هذا. قالت ماريا سارة: أنا متشوقة لقراءة ما كتبته، ربما كنت على صواب عندما قلت إنك في طريق التحول إلى كاتب. ظننت أنك تتمتعين بالعقلانية حتى لا تأخذي كلامي على محمل الجد. من يدري، من يدري، فالأقمطة الجيدة لا يقتصر نفعها على تلقي البقع. إذا كان الجحيم هو عقوبة المصحح، تخيلي إذن مصيري لو كنتُ مؤلفاً. لا شيء أسوأ من الجحيم سوى الأعراف، على ما أظن. وهذا ما أعتقده أيضاً، ولكن سنّي الآن تجاوزت الأعمار المسموح بها في الأعراف، ولما كنتُ من المُعَمَّدين في الصغر، فلو استطعت النجاة من العقاب فلا مهرب لي سوى تلقي الثواب، إذ لا يوجد احتمال آخر، كانت هنا بوابة «فييرو»، هدموها– أو ما بقي منها على الأصح– منذ مائتي سنة تقريباً، ومن ثمّ لا يدري أحد كيف كانت في عهد المسلمين. لا تغيّر مجرى الحديث، الفكرة جيدة. أية فكرة. نشر هذه القصة. في الدار التي نعمل بها. ولم لا. ستجعلين من نفسك أنموذجاً سيئاً للمدير الأدبي الذي يمكن رشوته بحفنة مشاعر. أنا أعتمد في تكوين الرأي على قيمة الكتاب، وستكون أكثر من كافية دون شك. وتعتقدين أن أصحاب العمل عندنا سوف يوافقون بعد واقعة الاستهزاء بهم.

نعم، لو أنهم يتمتعون بحس الدعابة. لم ألحظ هذا عليهم قط، وربما يكون التقصير من جهتي لأنني لست متفتحاً. انتهِ من الكتاب، وبعد ذلك نرى، لن نخسر شيئاً لو جربنا. ما لديّ هناك في البيت ليس كتاباً، وإنما بضع عشرات من الصفحات ذات الأحداث المتفرقة. لا بأس بها كنقطة انطلاق. حسنا، ولكن بشرط. وما هو. أن أصحح ما قمت بتأليفه. ولماذا، وأنت تعرف أن المؤلف يكون دائماً مصححاً سيئاً لنفسه. حتى لا يضع أحد «لا» مكان «نعم». ضحكت ماريا سارة وقالت: أنا معجبة بك. وأنا أفعل ما في وسعي لكي يستمر هذا الإعجاب. كانا يصعدان طريق «كورّيو بلهو»، الطريق الذي كان يتفاداه دائماً، ولكنه اليوم يحس بأنه مجنح، كان يبدو له التعب- هناك تعب بالتأكيد- مختلفاً، لم يكن يتطلب الراحة، بل يطلب تعباً جديداً. الشارع صحراء بلقع، والمكان والفرصة مواتيان، قبّل رايموندو سيلبا ماريا سارة، لا يوجد شيء أكثر من هذا شيوعاً في أيامنا الحالية، القبلة في الطريق العام، ولكن يجب الأخذ في الاعتبار أن رايموندو سيلبا ينتمي إلى جيل كتوم، لا يبوح بمشاعره، ولاسيما الرغبات. لم تكن الجرأة في نهاية المطاف شيئاً من العالم الآخر، وإنما هي بداية، شارع خالٍ منعزل وإضاءته خافتة. استمرا في صعودهما، توقفا عند بداية السلّم الطويل. سلمّ سان كريسبن- قال رايموندو سيلبا- يحتوي على مائة وأربع وثلاثين

درجة، شديدة الانحدار مثل نظائرها في المعابد «الأزتكية»[1]، ولكن الانتهاء منها يعني أننا وصلنا تقريباً إلى البيت. لست أشكو، هيا بنا. هناك فوق، تحت تلك النوافذ، مازالت توجد آثار من سور بناه القوط، هذا ما يقوله العُرفاء. وأنت الآن واحد منهم. لست منهم، أعرف فحسب أشياءً قرأت عنها، وفي الوقت نفسه كنت أتسلى، أو أثقف نفسي، رويداً رويداً، مستكشفاً الفارق بين النظر والرؤية، وبين الرؤية وإنعام النظر. هذا مهم للغاية. إنه جوهري، بل إني أظن أن المعرفة الحقّة تكمن في الوعي الذي تولّد لدينا من جرّاء تغيير مستوى التلقي بمستوٍ آخر. أنت رجل متوحش، قوطيّ[2] أكثر من الجميع، أنا التي تعبت من تغيير المستويات بعد شروعنا في تسلّق هذا الجبل، لنتوقف قليلاً على هذه الدرجة، أحتاج للتنفس، لنجلس ولو دقيقة. وفجأة أعادت إليه هذه الكلمة (لنجلس)، بما تتضمنه من فعل، ذكرى ذلك اليوم الذي هرب فيه، خوفاً من عثور كوستا الغاضب عليه، وهبوطه الأخرق لذلك السلّم وجلوسه على إحدى درجاته، متخفياً هناك، وعيناه تتهمانه، ليس بالجبن فحسب، بل بالخجل أيضاً من الإحساس به. سوف يحكي لماريا سارة ذات يوم، بعد تأكده من الحب الوليد، عن كل هذه النقائص الصغيرة للروح،

(1) Azteca: أزتكية، نسبة إلى «أزتكي» وهي الحضارة المكسيكية القديمة، السابقة للاحتلال الإسباني. (المترجم).

(2) قوطيّ: نسبة إلى القوط الذين كانوا يستعمرون إسبانيا قبل الفتح الإسلامي، وكانوا مشهورين بالغلظة والفظاظة. (المترجم).

وإن كان من المحتمل كذلك مواصلة الكتمان حتى لا يشوّه الصورة الإيجابية التي يجتهد في تكوينها لنفسه ولن يدخر وسعاً من أجل الحفاظ عليها في المستقبل. ورغم هذا، يعتريه في اللحظة نفسها- وبينما لم يقرر حتى الآن ما سيفعله مستقبلاً- إحساس بقلق تأنيب الضمير الذي يسبق ارتكاب الخطأ، بشوكة ذهنية. يَعِد نفسه بأنه سيأخذ في الحسبان هذا الإنذار التحذيري لضميره، ثم ينتبه فجأة إلى أن جداراً من الصمت يفصل بينهما، ربما يكون نوعاً من القلق، ولكن لا، لأن وجه ماريا سارة هادئ ورائق، تشوبه مسحة ضوء من قمر هزيل يذيب شيئاً من ظلمة المكان الذي يجلسان فيه ولا تصل إليه الإنارة العمومية، القلق يسكنه وحده، والسبب إدراكه بأنه يُخفي شيئاً، ولنقل إنه ليس الخجل من الخوف، بل الخوف من الخجل. إذا كانت ماريا سارة لا تتكلم فلأنها لا ترى داعياً للكلام، وإذا كان رايموندو سيلبا سيتكلم فلأنه لا يريد الإفصاح عن السبب الحقيقي لصمته: «كان هنا منذ فترة كلب ضال»، وانطلاقاً من هذا التصريح شرع في تأليف قصة عن لقائه بالحيوان، مضيفاً إليها قسطاً وافراً من الخيال كي يجعلها أكثر واقعية وأصالة. «لم يكن يريد الابتعاد عن هنا، قدمت له طعاماً مرتين أو ثلاثاً، وأعتقد أن بعض سكان المنطقة كانوا يمدونه أيضاً بالغذاء، ولكن من الواضح أن المساعدات مجتمعة لم تكن كافية، لأن الحيوان كان يبدو دائماً وكأنه على وشك الموت جوعاً، لا أدري ماذا حدث له، هل واتته الشجاعة للخروج من هنا

والضرب في أرض الله الواسعة بحثاً عن الحياة، أم أنه مات– رويداً رويداً– بذات المكان، أقول لنفسي الآن ليتني اعتنيت به أكثر، لم يكن سيكلفني شيئاً لو أحضرت له يومياً بقايا الطعام، أو لو اشتريت له حتى مأكولات جاهزة من تلك التي يبيعونها للكلاب، لم يكن هذا سيفقرني». ولبضع دقائق ظل رايموندو سيلبا يكرر ما يقوله عن مسؤوليته وإحساسه بالذنب تجاه الحيوان، وهو على وعي تام– رغم هذا– بأنه يتستر بتأنيب ضمير مزيف على آخر حقيقي. لزم الصمت فجأة، أحس بأنه جعل من نفسه أضحوكة بهذا الموقف الصبياني. لم يكن ينقص هذا الاهتمام الكبير بكلب ضال سوى أن تقوم ماريا سارة– ولو من باب المجاملة– بالتعليق عليه بعبارة ما، كأن تقول مثلاً: «يا له من حيوان مسكين»، وهذا ما قالته بالضبط: « ياله من حيوان مسكين»، وبعد ذلك، وهي واقفة: «هيا بنا».

رايموندو سيلبا جالس أمام المنضدة التي يكتب عليها «قصة حصار لشبونة»، ينظر إلى الصفحة الأخيرة، في انتظار الكلمة البصيرة التي ستعيد– بجاذبيتها أو صدمتها– التدفق المتواصل للكتابة. يجب عليه أن يقول لنفسه– مثلما قالت ليلة أمس ماريا سارة على سلّم سان كريسبن– «هيا»، ولكن بنبرة مختلفة الآن، نبرة أمر إلزاميّ «هيا، اكتب، تقدم، طوّر الأحداث، اختصر، علّق، انتهِ»، نبرة لا تشبه على الإطلاق النغمة الناعمة لـ «هيا» الأخرى، التي

ظلت– رغم عدم دوامها في الفضاء– ترنّ بداخليهما مثل صدى يتسع باضطراد، خطوة خطوة، حتى تحوّل إلى أنشودة مجيدة عندما انفتح السرير مرة أخرى لاستقبالهما. تُشتت ذكرى الليلة المدهشة ذهن رايموندو سيلبا، مفاجأة الاستيقاظ صباحاً ورؤية جسد عارٍ إلى جواره والإحساس به، والمتعة الفائقة للمسه، هنا وهناك، بنعومة، كأنه وردة كله، كان يقول لنفسه: ببطء، لا توقظها، دع الوردة، الجسد، الزهرة، تعرفك. استعجال اليدين والمداعبة الطويلة الملحّة جعلا ماريا سارة تفتح عينيها وتبتسم، قالا في الوقت نفسه «يا حبي»، ولكن من المشكوك فيه أن موجيمي وأوروانا يمكنهما النطق بها ولو مرة، إضافة إلى أن هذين لم يكونا– بالرجوع إلى أحداث القصة– قد التقيا حتى الآن، فكيف سيميطان اللثام هكذا فجأة عن أحاسيس يبدو التعبير عنها بعيداً عن متناولهما.

في تلك الأثناء كان الفارس إنريكي– دون أن يدري أنه أداة في يد القدر– يُعمل التفكير فيما إذا كان من المناسب أخذ أوروانا معه إلى معسكر «ميم راميريس» أو تركها في المعسكر الملكي تحت عناية وحراسة خادمه الأثير، ولكن تركها يعني خسارته للخادم الذي يعتمد عليه في أمور كثيرة ولا يستطيع التخلّي عنه. وبعد تقليبه للأمر على كافة وجوهه نادى على الخادم وأمره بتجهيز الأسلحة والأمتعة لأنهم سيهبطون في الصباح الباكر ليوم غد من على

هذه المرتفعات المصونة للانضمام إلى القوات الموجودة أمام بوابة «فييرو»، حيث سيشرعون- تحت رئاسته وقيادته- في بناء برج الاقتحام: «لنرى من سينتهي من برجه أولاً، نحن، أم الفرنسيون أم النورمانديون الموجودون عند بوابتي «سول» و«ألفاما». وأوروانا، محظية حضرتك، ماذا عنها- سأل الخادم. ستذهب معي. وسط هذه المخاطر الكبيرة، وفي ظل المواجهة المباشرة هناك بين المسلمين والمسيحيين. سنرى ما سوف يحدث، لم يجرؤ المسلمون حتى الآن على ملاقاتنا خارج الأسوار. انطلق الخادم لإبلاغ أوروانا ولإعداد العدّة للرحيل. سيذهب مع الفارس إنريكي أيضاً رجاله الخمسة المسلحون، لم يكن هذا الألماني واسع الثراء حتى يجهز جيشاً كاملاً، إنه متخصص في الهندسة، وهي وإن كانت تعتمد في معظم الأحيان على أناس كثيرين لتصنيع الآلات الحربية، إلا أنها تعتمد أكثر على ما يحمله المهندس في رأسه، من علم وفن وعبقرية. وفي الصباح الباكر لليوم التالي- حسب الاتفاق -، وبعد سماعه للقُدّاس، ذهب الفارس إنريكي لتقبيل يدي الملك: «أستودعك الله يا سيدي»، أنا ذاهب إلى العمل». كان في انتظاره، مبتعدين قليلاً- لأن الوداع الملكي ليس من حقهم- الخادم والرجال الخمسة المسلحون وأوروانا على المحفّة، كان جلوسها على المحفّة بمثابة تفاخر ومباهاة لسيدها وليس لكونها رقيقة الحاشية، فقد كانت قرويّة من جليقية- الأرض التي اختُطفت منها- تساعد أبويها في أعمال الفلاحة الشاقة. عانق

دون أفونسو هنريكس الفارس قائلاً له: لتصحبك ماريا المقدسة وتحميك وتساعدك في تشييد هذا البرج الذي لم تشهده هذه النواحي من قبل، سوف يعمل معك نجارو سفن، فنحن لم نستطع العثور على مهنة أقرب إلى تخصصك من هذه، ولكنهم لو كانوا تلاميذ نابهين- طبقاً للمعلومات التي لديّ عنهم- فستكون أنت معلّمهم، لأنني عقدت العزم على الاعتماد في حروبي الوشيكة التي تتطلب حصاراً على الأيدي العاملة الوطنية في تشييد أبراج الهجوم هذه، والاستغناء عن الخدمات الأجنبية. سيدي، لقد طارت إلى الأراضي التي أنتمي إليها الشهرة العريضة للبرتغاليين في التواضع والخنوع والقناعة والتفاني والاستعداد الدائم لخدمة مليكهم ووطنهم، ولو أنهم أضافوا إلى المواهب الكثيرة والغريبة التي يتمعون بها قليلاً من الذكاء وكثيراً من الإرادة والحماس، فأنا على يقين من أنكم لن تجدوا عائقاً لتشييد أيّ برج كان، سواء في الغد القريب أو في الأيام التي في سبيلها إلى المجيء. أثلجت هذه الكلمات الواعدة صدر الملك وتغلغلت في أعماقه، وبلغ الرضا مبلغاً جعله ينتحي جانباً بالفارس إنريكي ليُسرّ إليه بما يعتمل في نفسه: لقد لاحظتم بالتأكيد أن بعض قادة أركان حربي لا تروقهم فكرة الأبراج هذه، إنهم أناس محافظون، متشبثون بالأساليب العتيقة للحرب، ولذا لو جاءك أحد منهم بذريعة أو مبرر انهزامي لتعطيل العمل فلا تتوانَ في القدوم إلى هنا لكي تخبرني، أنا مهتم للغاية- لكوني ملكاً عصرياً

متفتح العقل- بالسير قُدُماً في هذه المهمة وعدم إرجائها لأي سبب من الأسباب، لاسيما وأن مواردي المالية التي التهمتها هذه الحرب تمضي من سيئ إلى أسوأ، ولا يناسبني على الإطلاق الاضطرار إلى صرف رواتب جديدة للجند في نهاية شهر أغسطس، الذي سيحل فيه موعد صرف مستحقات الأشهر الثلاثة التالية، فرغم ضآلة راتب الجندية الذي نقدمه إلا أن الرواتب مجتمعة تمثل عبئاً باهظاً لا نطيقه، ومن ثمّ سيكون لنا بمثابة المنّ والسلوى لو استطعنا الاستيلاء على المدينة قبل أغسطس، تخيّل إذن كم من الآمال أعقدها على برجكم هذا وعلى الأبراج الأخرى، ولذا أستحثكم وأحفزكم وأحمسكم لتنفيذ ما اتفقنا عليه، أما بالنسبة للمكافأة فلا تشغل بالك، ها هي أموال المسلمين وثرواتهم التي ستُعطى لنفسك منها ما شئت، مرة وعشر مرات. طمأن الفارس إنريكي الملك، ووعده ببذل ما في وسعه لعمل الأفضل، بمعونة الرب، وأنه سيحتفظ لنفسه بسرّ تدهور الأحوال المالية، وأنه لن يشغل باله قط بمسألة المقابل المادي، ثم أضاف قائلاً: «العطاء الأفضل يا سيدي، موجود في السماء، هناك في جنة الخلد، التي لو اقتضى الصعود إليها بناء أبراج أخرى فلن نتقاعس حتى لا نُبقي مسلماً على قيد الحياة، لو تمادوا في عنادهم ولم يستسلموا. ودّع الملك الفارس، مضمراً في نفسه تتبع أخباره (فكما يفيد القسيس، يفيد أيضاً الجنرال) ولو حالف الحظ صفقة الأبراج هذه وآتت ثمارها المرجوّة سوف يعرض عليه الجنسية

البرتغالية ويُنعم عليه بالألقاب والأراضي لكي يبدأ حياته هنا.

بدا واضحاً أن الفارس إنريكي ليس مستعداً لإضاعة الوقت، وخير دليل على هذا أنه اجتمع فور وصوله إلى معسكر بوابة «فييرو» بميم راميريس وطلب منه تخصيص الأعداد الكافية من الرجال للنهوض بأعباء العمل الضخم، ومن ثمّ فقد شرعوا في تقطيع الأشجار الموجودة هناك، البعض منها أنبتته الطبيعة صدفة، والبعض الآخر زرعته أيدي المسلمين الذين لم يكونوا يتصورون وقتئذ أنهم يجهزون الخشب الذي سيُحرقون به، إنها- ولنقله مرة أخرى- سخريات القدر. لن نمضي قُدُماً في وصف الأحداث قبل الإشارة أولاً إلى حالة الهرج والمرج التي صاحبت وصول الفارس ومرافقيه، ولم يكن السبب هيّناً لأنه يتعلق بقدوم فني أجنبيّ، فضلاً عن كونه ألمانياً (أي ما يعني أنه فنيّ حتى النخاع)، المترددون- بطبيعتهم أو بفعل فاعل- ساورهم الشك في أهمية العمل ونتائجه، وفريق آخر كان يقول إنه لا ينبغي الحكم على شيء مازال قيد التجريب، أما الفريق الثالث- وهو من الرجال الموضوعيين والعمليين- فقد أسهب في الاعتراف بالبديهية القائلة بإن قتال العدو المسلم وهو أمامنا وعلى نفس الارتفاع أفضل بكثير من تصديه لنا من علٍ بإلقائه الحجارة علينا ومستفيداً من ميزة الجاذبية، لأننا في هذه الحالة نعاني ونحن تحت من آثار الأمرين مجتمعين: الحجارة المتساقطة والجاذبية.

ومنصرفاً عن هذه القضايا الجدلية، وعيناه معلقتان فحسب على المرأة المحمولة على المحفّة، لم يكن موجيمي يصدق ما حباه به الحظ. لن يحتاج بعد ذلك إلى الطّواف خِلْسة بمعسكر «جارثا»، مُعرضاً نفسه لخطورة ظهور دوريّة من البوليس الحربي مهتمة بمعرفة: «ماذا تفعل هنا، بعيداً عن معسكرك»، الآن أتى الجبل سعياً إلى موسى، لا لأن موسى تقاعس عن الذهاب إلى الجبل، فنحن شهود عيان على ما بذله من جهد كبير، بل لأن فوق موسى- كما نعرف- يوجد الرّقيب، وفوق الرّقيب يوجد الجاويش، وفوق الجاويش يوجد الضابط، وفوق الضابط يوجد القائد، وبما أن الوقت وقت حرب فإن انتهاز الفرص المتاحة أكثر ضماناً من التعلّق بوهم الحصول على تصريح بالغياب مهما كان في الجراب من حِيل. لن تُمضي أوروانا الوقت كله حبيسة الخيمة، في انتظار قطع الفارس إنريكي لعمله في نشر الأخشاب وتسويتها وقدومه لكي يُفرج فيها الهموم التي تنسال بسهولة من روح توّاقة للعشق الإلهي (متصوفة) إلى لحم متصوف فحسب في لهفة اللحم. أوروانا هنا، ومع الأخذ في الاعتبار ضآلة رقعة مسرح العمليات، فإنها ستكون في متناول النظر مرات عديدة، سواء كانت تتجول داخل المعسكر أو على ضفة النهر لرؤية سمك الأتون وهو يتراقص على صفحة الماء، في تلك الساعات الساكنة المصاحبة لسقوط المساء، حين يذهب الجنود إلى هناك للترويح عن أنفسهم من حرارة النهار القاسية ومن

حمى الوطيس الأشد سوءاً للمعركة. المسألة مسألة وقت إذن، لاسيما وأن مجهودات الأفراد مركّزة الآن في تشييد الأبراج، إذ أن تشتيت الأيدي الفعّالة– وهي محدودة للغاية– في أنشطة غير محتملة النجاح يعتبر ضرباً من الانتحار، باستثناء تلك الأنشطة المخصصة لشغْل العدو من أجل توفير الحماية والأمان للنجارين اللازمين لإتمام العمل المحفوف بالمخاطر على أكمل وجه. في النّوتة التي يسجل فيها ملاحظاته من أجل الخطاب الموجّه إلى «أوسبرنو»، كتب الراهب «روخيرو» وصفاً دقيقاً لوصول الفارس إنريكي إلى معسكر بوابة «فييرو»، مُدرجاً فيه إشارة– يصعب كظمها على ما يبدو– إلى المرأة القادمة معه: «جميلة مثل الصباح، وغامضة مثل مولد القمر»، ولكن فطنة الانضباط لدى المرسل والخَفَر الذي يبدو صارماً للمرسل إليه كانا خير ناصح لحذف هذين التشبيهين ساعة التحرير النهائي للخطاب. حسنا، من المحتمل جداً أن سبب الاهتمام الزائد للراهب «روخيرو» بأقوال وأفعال الفارس الألماني يرجع– في البداية– إلى إعجابه الشديد بالمرأة، وبعد ذلك إلى الميتة البائسة للفارس، بائسة ولكنها ليست شقية، من وجهة نظر عصرها بالطبع. ولتوضيح الأمر أكثر نقول: إن الراهب «روخيرو» لم يجد مصرفاً أفضل لعواطفه– حين لم يستطع إشباع نهمه من أوروانا– من الإشادة المبالغ فيها بالرجل الذي كان يستمتع بجسدها. لا يمكن استبعاد شيء على تعقيدات النفس البشرية.

جاءت السيدة ماريا في الموعد المعتاد، بعد الغداء، ولم تكد تدخل حتى شهقت بطريقة تحوي الكثير من التحفظ والكثير من التباهي، وهو أداء من المتعذر الوصول إليه، لتضمنه غاية مزدوجة: محاولة القائم به إخفاء ما يدعي معرفته، مع الإظهار في الوقت نفسه أن ليس مستعداً للسماح للآخر بالتظاهر بعدم الفهم. إنه فن دبلوماسي رفيع، ولكنه محكوم بالبداهة، إن لم يكن بالغريزة، وعادة ما يبلغ مراده الأساسي، ويتمثل هنا في الإلقاء في روع المصحح بإحساس مبهم بالفزع، كأن أسراره الدفينة قد انكشفت فجأة على الملأ. السيدة ماريا سادية دون أن تعرف. ألقت بتحية المساء من على باب حجرة النوم، ثم شقهت مرتين أخريين لكي تجعل رايموندو سيلبا يدرك أنه لا ينقصها– رغم كونها خادمة بسيطة– حاسة مرهفة للشم تستطيع بها التقاط بقايا رائحة عطر مازالت عالقة بالهواء. رد رايموندو سيلبا على التحية واستمر في الكتابة، مقتصراً على إلقاء نظرة خاطفة تجاهها، ومتخذاً القرار بتجاهل ما يجري حوله، والسيدة ماريا، مندهشة في البداية لكي يرتسم على وجهها بعد ذلك– وهي تنظر إلى السرير– ذلك التعبير الذي يُقصد به: «كان ظني في محلّه، ما لهذه التسوية التي لا تشوبها شائبة لأغطية السرير– والتي لا يمكن أن تقوم بها سوى يد نسائية– وتلك الجذبة المختصرة التي تعلمها رايموندو سيلبا لفرد الغطاء حتى لا يبدو مضجعه مثل مضجع شحاذ». تنحنحت لكي تجذب انتباهه، ولكن

رايموندو سيلبا تظاهر بالانشغال، رغم الهرج الأخرق لقلبه: «لا يجب أن أقدم كشف حساب عن حياتي الخاصة– قال لنفسه»، ولكنه سرعان ما صبّ جامّ غضبه على نفسه للجوئه إلى البحث عن مبررات جبانة، هو الذي بدأ الآن حباً هكذا، كاملاً، وعندئذ رفع رأسه وسأل: «تريدين شيئاً»، في نبرة جافة وعدوانية أخمدت وقاحة المرأة. لا يا سيدي، لا أريد شيئاً، كنت أنظر فحسب. كان بوسع رايموندو سيلبا الاكتفاء بالإجابة المشوّشة ولكنه فضّل التحدي: تنظرين إلى ماذا. لا شيء، إلى السرير. وماذا جرى للسرير. لا شيء، إنه مُرتّب. نعم، وهل في هذا ما يضير. لا شيء، لا شيء. رجعت السيدة ماريا القهقرى، جبنت، لم تتخلص من السؤال الذي كان يضطرم على لسانها: ومن الذي رتّبه، ولو سألته لما عرف رايموندو سيلبا بماذا يجيب عليها. لم تعد السيدة ماريا للظهور ثانية بالغرفة طيلة وقت عملها هناك، وكأنها تقول لرايموندو سيلبا إن ذلك الجزء من البيت قد أصبح خارج اختصاصها، ولكنها لم تستطع أو لم ترد إخماد خيبة الأمل الملولة، أو الحدّ من الجلبة الصادرة عن عملها، بل على العكس كانت تبالغ فيها. قرر رايموندو سيلبا أخذ الأمر على محمل الفكاهة، ولكن إسرافها في إحداث الضوضاء جعله يذهب إلى الطرقة وينادي: «ضوضاء» أقل، من فضلك، أنا أعمل»، كان يمكن للسيدة ماريا الردّ عليه قائلة: « وأنا أعمل أيضاً، ولكني لا أتمتع بحظ الآخرين الذين يكسبون قوتهم جلوساً، في سكينة وصمت»،

ولما كانت الحاجة تقهر الإرادة فقد آثرت السكوت. ما كان يثير حفيظة السيدة ماريا هو أنها لا تعرف الكثير عن المتغيرات التي تحدث أمامها، وبما أنها تتمتع بخبرة لا بأس بها يراودها الإحساس بأنها ستُفاجأ ذات يوم باصطدامها مع امرأة أخرى داخل البيت دون أن تستطيع حتى توجيه السؤال المأمول إليها: «من أنت، ومن الذي أتى بك إلى هنا»، حقاً إن الرجال مجموعة من الحمقى، ماذا سيضير رايموندو سيلبا لو أنه أسرّ إليها بنصف جملة باسمة- حتى وإن كانت ستؤلمه كثيراً- ستكون بمثابة البلسم الشافي من الغيرة المريرة، فهذا ما تعاني منه فعلاً السيدة ماريا دون أن تدري. كانت تعشش أيضاً في تفكيرها اعتبارات أخرى- بعضها موضوعي والآخر تافه- ومن الاعتبارات الموضوعية احتمال تعرض وظيفتها للخطر إذا صعد برأس تلك المرأة- على افتراض أن الأمر ليس مجرد علاقة عابرة- التدخل في عملها: «نظفي هذا ثانية»، شاهرة لها طرف إصبع عالق به تراب من الحلية الخشبية لأحد الأبواب، هذه الإشارة البغيضة التي لم تستطع أن ترد عليها حتى اليوم أية خادمة بعبارة تدخل التاريخ: ضعي هذا الإصبع في مؤخرتك وسترين كيف سيخرج أشد اتساخاً. واحسرتاه على من أتى إلى العالم لكي يطيع فحسب، قالت هذا لنفسها وعادت لتنظيف ما نظفته من قبل، بينما- ولا ندري لماذا- تصاعدت الدموع من قلبها إلى عينيها، شاء الحظ أن يحدث هذا أمام مرآة الحمام، لم يكن هناك شيء يستطيع

التخفيف عن السيدة ماريا في هذه اللحظة ولا حتى شعرها الجميل.

رنّ الهاتف في منتصف المساء، التقط رايموندو سيلبا السمّاعة، كانت المكالمة من دار النشر، أخفقت السيدة ماريا في توقعاتها، إنها شؤون العمل، «نعم، لا يوجد لديّ شيء الآن– قال– أرسلي إليّ بالأصل وقتما تريدين، يا دكتورة ماريا سارة، أو لو تفضلين سأذهب أنا لاستلامه»، كانت بقية الحوار على هذا المنوال، تصحيح، مدة، سمعت السيدة ماريا حوارات كثيرة مثل هذا، الفارق الوحيد يكمن في المحاور غير المسموع، قبل ذلك كان يُدعى كوستا، الآن سيدة دكتورة، وربما من أجل هذا كانت ملتوية قليلاً نبرة صوت رايموندو سيلبا، وكان ملتوياً أيضاً تفكير السيدة ماريا: « يا لهؤلاء الرجال»، ولكن لم يدر بخلدها– رغم ألمعيتها الزائدة– أن رايموندو سيلبا يتحدث الآن، وتحديداً، مع المرأة التي شاركها الفراش في تلك الليلة، مستمتعاً بالطلاوة الفائقة لاستخدام كلمات محايدة ترجمتها إلى لغة أخرى مقصورة عليهما وحدهما، لغة العواطف المثيرة للمشاعر: النطق بكلمة «كتاب» وسماع «قبلة»، قول «نعم» وفهم «دائماً»، سماع «مساء الخير» وفهم «أحبك». لو كان لدى السيدة ماريا بعض الإلمام بعلم الشفرات الصوتية، فسوف تخرج من هنا وهي محيطة بالسرّ كله، ساخرة بهذا الشكل ممن يعتقد أن بإمكانه الاستهزاء بها، وهذا بالطبع تفكير تعسفي ليس له من وازع سوى المقت، لاسيما إذا وضعنا في الحسبان أن رايموندو سيلبا وماريا سارة

لم يكونا يتصوران على الإطلاق أنهما يتسببان في تعذيب السيدة ماريا، أو أنهما لو كانا يعرفان لما أقدما قط على الاستهزاء بها، وإلا فلن يكونا أهلاً لاستحقاق النعيم الذي يتقلبان فيه. ورغم ما تقدم ذكره، فليس من المستبعد أن تقع ماريا سارة في النهاية موقعاً حسناً من نفس السيدة ماريا، فمن القلب أيضاً يمكن انتظار أي شيء، حتى الانسجام بين المتناقضات.

أصبح رايموندو سيلبا وحيداً مرة أخرى، ظل لبضع ثوان يتساءل متعجباً عن سرّ النبرة المعسولة التي ألقت بها السيدة ماريا تحية الوداع، ولكن قصة حصار لشبونة نادت عليه حتى يلتفت إلى الحقيقة الأخرى، إلى بناء البرج المخصص للقضاء إلى الأبد على مقاومة المسلمين، ولما كنا نعرف أن وجود وطن متوقف على هذا فلا مجال إذن لتعطيل العمل، وإن كان رايموندو سيلبا يروقه أكثر وجود ماريا سارة إلى جواره بدلاً من الخوض في وصف عمليات لا يعرف عنها شيئاً: رفع جذوع الأشجار، سجح الألواح، دق المسامير وتركيب المفصّلات، تضفير الحبال، هذه المواد التي ترفع مجتمعة– شيئاً فشيئاً– برجاً، ليس برج بابل، لأن الحالي لا يطمح في الارتفاع أكثر من منسوب درْب السور، أما بالنسبة للألسن[1]،

(1) الكلمة المذكورة في النص (Lengua) لها معنيان أساسيان: أحدهما قريب ويعني اللسان، والآخر بعيد ويعني اللغة، والمؤلف يقصد المعنيين طبقاً لإشارته الواردة في الجملة التالية. (المترجم).

فإن دون أفونسو هنريكس لا ينوي تكرار تكاثرها، بل قطع هذا اللسان من جذره، سواء بالمعنى المجازي البعيد للكلمة أم بمعناها القريب والدموي. عندما تعود ماريا سارة– طبقاً لوعدها لحظة الانصراف– لقضاء ليلة غد هنا، وليلة ما بعد غد أيضاً، ونهار الأحد الفاصل بينهما، سيكون العمل قد تقدم كثيراً، فهناك أحداث أخرى تنتظر بدورها، لقد غيّر الوقت اسمه، الآن يُدعى «استعجال». على رِسْلك– ستقول له ماريا سارة–، فما لا يمكن لعام استيعابه لا تستوعبه دقيقة فحسب بسبب كونها دقيقة وعاماً، حجم الكوب ليس هو المهم، بل ما يمكن أن يضعه فيه كل واحد منا، رغم أن الحال قد ينتهي به إلى الفيضان والضياع. مثلما سيضيع أيضاً هذا البرج.

استغرق تشييد البرج أكثر من أسبوع. وفي تلك الفترة كان الفارس إنريكي منهمكاً في عمله من الصباح حتى مغيب الشمس، بل إن التفكير فيه لم يكن يفارقه حتى في ساعات الليل التي يقضيها داخل خيمته، فكثيراً ما كان يستيقظ فزعاً من نومه لأنه تذكر ضعف إحدى الدعامات، وكثيراً ما وصل به الأمر إلى حدّ النهوض من فراشه والذهاب في جوف الليل إلى موقع العمل للتأكد من متانة بعض التعشيقات أو من الرّبط المحكم لبعض الأمراس. كان سيداً من طراز فريد، لم يترفع قط عن وضع كتفه في أثناء سير العمل لسنْد حمولة لو تحطمت في لحظة ضعف سوستة الكليتين لدى

أحد الجنود المنهكين. وفي إحدى هذه التدخلات وجد موجيمي- الذي كان يساعد أيضاً في العمل- نفسه واقفاً خلفه، وشاء الحظ أن تأتي أوروانا لتفقّد سير العمل وبالطبع لرؤية من يجب أن تتجه إليه عيناها فحسب، سيدها ومالك أمرها، ولكن هذا لم يمنعها من ملاحظة الثبات الذي ينظر به إليها الجندي طويل القامة الواقف خلف سيدها، لقد لاحظت منذ اليوم الأول أنه ينعم النظر إليها دائماً في أي مكان وجدها فيه، في معسكر جبل سان فرانثيسكو أولاً، وبعد ذلك في معسكر الملك، والآن في هذه الرقعة الضيقة من الأرض، ضيقة للغاية بحيث يبدو من قبيل الإعجاز استيعابها لهؤلاء جميعاً دون اصطدامهم ببعضهم بعضاً، وعلى سبيل المثال هذا الرجل وتلك المرأة اللذان لم يفعلا حتى الآن سوى تبادل النظرات. كان موجيمي يرى من على بعد شبر واحد القفا العريض للألماني، المغطى بالشعر الطويل الأشقر المكفّت بالتراب والعرق، ربما من السهل قتله وسط هذه البلبلة، وتبقى أوروانا حرّة، ولكنها لن تكون أكثر قرباً مما هي عليه الآن. وساوس للموت العنيف، مجرد التفكير فيها يوجع الضمير كثيراً، ينبغي حملها إلى كرسي الاعتراف، وعرضها أمام الراهب المُتَيّم أيضاً بامرأة الضحية، رغم كونها محظية، ولكنه لا يملك الشجاعة للاعتراف. تحركت يده من جرّاء الغضب والحنق وهَوَت بشدة على ظهر الألماني، الذي نظر خلفه، بهدوء وبلا دهشة، فمن المعتاد حدوث مثل هذا في أعمال

تتطلب الجذب والشدّ وتتذبذب فيها القوى، وهذه النظرة المباشرة كانت كافية لإذابة غضب موجيمي، لم يكن بوسعه كراهية رجل لا ذنب له سوى امتلاكه للمرأة التي يهواها بشغف.

وأخيراً انتهى بناء البرج. كان بمثابة قطعة رائعة للهندسة الحربية تتحرك على عجلات مصمتة ومتضامة، وتحوي نظاماً معقداً من الأربطة الداخلية التي تمسك بالمنصات الأربع التي تحدد الهيكل العمودي للبرج: منصة داخلية ترتكز مباشرة على المحاور الثابتة للعجلات، ومنصة عليا على شكل شرفة تتجه مُهَدِّدة نحو المدينة، ومنصتان وسطيتان لإحكام وثاق الهيكل الإجمالي ولحماية الجنود الذين يجهزون أنفسهم للصعود إلى أعلى. كما كان مزوداً برافعة يتم التحكم فيها من أسفل، مهمتها الرفع السريع للزنابيل المملوءة بالأسلحة، حتى تكون موجودة بوفرة ساعة احتدام وطيس المعركة. حين سرى نبأ الانتهاء من البرج تعالت هتافات القوات، التوّاقة للهجوم، لقد بدا لها أن احتلال المدينة أصبح سهلاً الآن. يجب أن يكون الهلع قد استولى على المسلمين، وأسكت الصمت المَذهل سيل الشتائم التي تتساقط باستمرار من الأعالي هناك. ازداد الحماس في معسكر بوابة «فييرو» أكثر وأكثر عندما عرفوا أن الفرنسيين والنورمانديين لم ينتهيا بعد من برجيهما، ومن ثمّ، فهاهو المجد في متناول الأيدي، لم يبق سوى دفْع عربة الهجوم وجعلها ملاصقة

للسور، كان عندئذ عندما رفع القائد «ميم راميريس» صوته آمراً: «ادفعوا، أيها الفتيان، هيا بنا إليهم»، وبذل الجميع ما في وسعهم. لسوء الحظ لم يفطنوا إلى انحدار الأرض أمامهم، ولذا فإنهم كلما تقدموا تحت نيران العدو ازداد ميل الجزء العلوي من البرج إلى جهة الخلف، وهكذا فإنهم حتى لو استطاعوا الوصول إلى السور فإن المنصة العلوية ستبتعد كثيراً عنه وتصبح خارج الخدمة. عندئذ أمر الفارس إنريكي- خجلاً من عدم تحوّطه- بالرجوع إلى نقطة البداية، الآن يترك النجارون مكانهم لأنفار سلاح المهندسين لكي يشقوا طريقاً مستوياً، وهي مهمة بالغة الخطورة حقاً، لأن الحفّارين سيضطرون للعمل تحت وابل القذائف متعددة الألوان والأشكال التي تتساقط عليهم من فوق، وسوف يتأزم الموقف أكثر فأكثر كلما اقتربوا من السور. ومع كل هذه المخاطر، ورغم سقوط الضحايا، فقد استطاعوا شق طريق لمسافة عشرين متراً تقريباً يمكن أن يسير فيها البرج، بحيث يصبح درعاً واقياً للعمل في المرحلة التالية. وبينما هم منهمكون في هذا، وكل واحد منهم يبذل قُصارى جهده- المسلمون من جهة، والمسيحيون من جهة أخرى- تراخت الأرض فجأة من أحد الجوانب وابتلعت العجلات الثلاث الموجودة في تلك الناحية حتى صرّتها، مما جعل البرج يميل بشكل مخيف. سُمع صراخ عام، لغم وخوف في المعسكر البرتغالي، ولفرحة شيطانية من جهة المسلمين الواقفين على الدروب وكأنهم يشاهدون عرضاً

مسرحياً من موقعهم في المقصورة الأمامية. كان البرج يصرّ من أعلاه إلى أسفله، وفجأة تكسرت بعض الدعامات نتيجة للضغوط غير المتوقعة. انذهل الفارس الألماني وفقد عقله عندما أحس بأن البرج الذي يمثل عبقريته الفذّة على وشك الانهيار، وانبرى لسانه– باللغة الألمانية– في إطلاق سيل من الشتائم واللعنات لا تليق بما يتمتع به من شهرة (وهو يستحقها رغم كل شيء) وليس لها من مبرر سوى ما كانت عليه تلك الأزمان من فظاظة وجلافة. وبعد أن هدأت سوْرته اقترب من البرج لتقييم الموقف ومعاينة الأضرار، وخَلُص إلى أن العلاج– لو كان هناك من علاج– يكمن في ربْط أمراس غليظة بالدعامات العلوية، وجذب القوات جميعهاً لهذه الأمراس من أجل تخفيف الضغط عن العجلات المدفونة بحيث يمكن وضع الحجارة تحتها شيئاً فشيئاً لكي يعود البرج إلى وضعه الرأسي السابق. كانت الخطة محكمة، ولكن الوصول إلى المراد كان يتطلب اللجوء أولاً إلى عملية بالغة الخطورة، ألا وهي تحرير العجلات بسحب التراب من تحت الكتلة الثقيلة التي تعتمد عليها المنصة السفلية المائلة. إنها جملة من المخاطر ومعادلة صعبة مجهولة النتائج، ولكن ليس هناك حلّ آخر، أو بالأحرى تسميته «احتمالاً ضعيفاً واهناً». كانت هذه هي الفرصة التي انتهزها المسلمون لإطلاق وابل من السهام والقذائف المزوّدة بالفتائل المشتعلة والتي كانت تئز في الهواء مثل أسراب النحل وتتساقط هنا وهناك، متفرقة، ومن حسن الحظ أن

الريح كانت تفسد تصويب الرُّماة، ولكن ليس في كل مرّة تسلم الجرّة، إذ يكفي أن تصيب قذيفة الهدف لكي تعرف الأخريات طريقها الصحيح، وزاد الطين بلّة بتأرجح البرج في النهاية، ولم يكن السبب الرئيسي لتأرجحه يرجع إلى الميل الذي ساءت حالته أكثر بعد حفر الأرض من تحته، بل إلى الفوضى العارمة التي واكبت محاولات إخماد النيران الممسكة بأجزائه المختلفة. ومن جرّاء سقوطه المريع مات أو أصيب بإصابات بالغة الجنود الذين كانوا يربطون الأمراس في أطرافه العليا، كما مات أيضاً عدد من الجنود الذين كانوا يحفرون بالمعاول عند العجلات المدفونة، خسائر بالجملة لم يكن بمقدور أحد تفاديها، أما الفارس إنريكي فقد أصابه في مقتل سهم مشتعل أطفأته في النهاية دفقات دمه السخيّ. ومثله، وإن كان قد استقبل بكامل صدره دعامة طائرة من الانهيار السريع، مات الخادم الوفي، وبهذا الشكل أصبحت أوروانا وحيدة في هذا العالم، وإثبات وحدتها هنا- رغم أنه من المحتمل قيام أحد بتذكيرنا به في مناسبة قادمة- يرجع إلى أهمية الحدث في استمرار هذه القصة. لا يمكن وصف فرحة المسلمين، الذين تأكدوا- لاسيما في تلك الحظة- من تفوق قدرة الله على قدرة رب المسيحيين، والماثلة في الهزيمة النكراء للبرج الملعون. ومن غير الممكن أيضاً وصف حزن وغضب ومهانة البرتغاليين، وإن كان بعضهم لم يستطع كظم همهماته القائلة بأن أي شخص يتمتع بربع عقل وخبرة حربية يعرف أن الحروب لا يمكن كسبها إلا بحدّ

السيف، وليس عن طريق المخترعات الأجنبية التي قد تنفع مثلما تضر. كان البرج يشتعل مثل محرقة عمالقة، وفيها يُختزل إلى رماد وشحم مقليّ يعلم الله كم من الرجال الذين داهمهم الانهيار ولم يستطيعوا الفكاك من بين براثنه. إنها كارثة بجميع المقاييس.

حُمل جثمان الفارس إنريكي إلى خيمته، حيث توجد أوروانا، العليمة الآن بالنّكبة، تؤدي واجبها في النواح كمحظية، ولا شيء أكثر. كان الفارس جاثماً على سرير بدائي نقّال، يداه مضمومتانِ فوق صدره، كأنه يصلي، كان وجهه صافياً من جرّاء ميتته السريعة، شديد الصفاء كأنه نائم، أو حتى كأنه ينظر عن قرب، ولنقل يبتسم كما لو كان أمام أبواب جنة الخلد، بلا برج ولا سلاح، لا شيء سوى رصيده الدنيوي من الأعمال الطيبة، ولكنه متأكد من دخول الجنة مثلما هو متأكد من موته. ولما كانت الحرارة شديدة فقد تغيّرت أسارير وجهه بعد فوات بضع ساعات، غاضت ابتسامته، لا يمكن بأي حال ملاحظة أي فارق بين هذه الجثة الشهيرة وبين أية جثة أخرى عارية عن الفضائل، سينتهي الأمر بنا جميعاً- في المستقبل القريب أو البعيد- لنصبح سواسية أمام الموت. نكثت أوروانا شعرها، الأشقر من جليقيّ أشقر، وبكت، بكاءً مرجعه التعب لا الإحساس بالكدر، إنه حزن حصيف فحسب على رجل لا شكوى من جهته سوى اختطافها من أرضها عُنْوة، أما بالنسبة للباقي، فلا

شيء سوى المعاملة الحسنة، طبقاً لما يمكن أن نتخيله اليوم عما يمكن أن يحدث بين محظية والفارس سيدها. أرادت أوروانا معرفة ما حلّ بالخادم الوفي، هل مات أم أن إصابته بالغة بحيث تُقعده عن المجيء لذرف الدموع على رأس سرير سيده، وأخبروها أنهم حملوه على الفور إلى المقابر الموجودة على الجانب الآخر من المصب، منتهزين فرصة إخلاء المكان من الجذوع والدعامات المتفحمة لكي لا تعوق الحركة هناك، كما قاموا أيضاً في الوقت نفسه بجمع وحمْل الجثث الكاملة، لأن الأشلاء الصغيرة التي عثروا عليها دفنوها- كيفما اتفق- في تجويف بهذا المنحدر، سيكون من الصعب بعثها من جديد حين يُنفخ في الصور يوم القيامة. ألفت أوروانا نفسها حرّة، من السادة المباشرين أو غير المباشرين، وساقت الدليل على حريتها مع أول فرصة، عندما أراد أحد رجال الفارس إنريكي، ودون مراعاة لحرمة المتوفي، أن يضع يده عليها. وكالبرق الخاطف ظهر بيد أوروانا خنجر، كانت قد استلّته بخفة- تحسباً للطوارئ- من حزام الفارس عندما أحضروه، وهي جريمة لم يضبطها- لحسن الحظ- أحد متلبسة بها، فالفارس ينبغي أن يذهب إلى الجثْوة، إن لم يكن بأسلحته كلها، فعلى الأقل بالصغير منها. حسناً، خنجر في اليد الضعيفة لامرأة، حتى لو كانت معتادة على أعمال الفلاحة الشاقة والعناية بالقطعان، لا يمثل تهديداً يمكن أن يخشاه محارب ألماني، على وعي دون شك بتفوق جذوره الآريّة المترسخة، ولكن هناك أَعْيُناً تساوي

كل أسلحة العالم، وإذا لم تكن هاتان من الأعين التي تستطيع إبراز الشر الدفين، فإنه يمكنهما من على بعد ثلاث خطوات أن تشيا بما يعتمل في النفس، والذي ذيّلته بتحذير لا يمكن أن يكون أوضح من هذا: لو اقتربت خطوة أخرى سأقتلك أو أقتل نفسي- قالت أوروانا -، وتراجع الرجل، لا بسبب الخوف من الموت، ولكن خوفاً من تحمل تبعة موتها، رغم أنه من الممكن التملص من المسؤولية بترديد المبرر الدائم والمعروف: لم تتحمل المسكينة لظى الأحزان وقامت- في المكان نفسه، وأمام عينيه- بقتل نفسها. الجندي فضّل التراجع إذن، داعياً الرب بأن يهديه- لو أخرجه سالماً من المغامرة الخطيرة بهذه الأرض الغريبة- للعثور عليها هنا، لو بقيت هنا، أو في ألمانيا البعيدة، فامرأة مثل أوروانا هذه تستحق أن يستقبلها على أرضه بحبور وسعادة رغم أنها لا تنتمي إلى الجنس الآريّ.

وضع رايموندو سيلبا القلم، فرك عينيه المتعبتين، ثم أعاد قراءة السطور الأخيرة، سطوره. بدت له مقبولة. نهض، ووضع يديه على كليتيه وانحنى إلى الوراء، وأخذ نفساً عميقاً. لقد عمل لساعات طويلة متصلة، أنسته حتى تناول العشاء، استغرقه الموضوع واستولت على لبّه مطاردة الكلمات التي كانت تفر منه أحياناً حتى أنه لم يتذكر ماريا سارة، وهو نسيان يُلام عليه لو لم يكن حضورها فيه- ولا محلّ هنا للمبالغة التي تنطوي عليها الاستعارة- مثل حضور

الدم في العروق، وهو أمر لا يلفت انتباهنا حقاً، رغم أن وجوده هناك وسريانه شرط لزومي للبقاء على قيد الحياة، ولا محلّ هنا– نعيد مرة أخرى– للمبالغة التي تنطوي عليها الاستعارة. تستحم وردتا الزّهرية في الماء، تتغذيان عليه، رغم أنهما لا تدومان كثيراً، وإن كنا نحن– بالنسبة لهما– لا ندوم أكثر. فتح النافذة ونظر إلى المدينة. يحتفل المسلمون بتدمير البرج. في هذه الجهة توجد خيمة الفارس إنريكي، سوف يدفنونه غداً في مقابر سان بيثنتي. وأوروانا دون دمعة ساهرة على الجثمان، الذي تفوح رائحته الآن. من الرجال الخمسة المسلحين، ينقص واحد، أصيب بجرح بالغ. أما الذي حاول وضْع يده على أوروانا، فإنه يختلس النظر إليها بين الفينة والفينة، ويفكر. في الخارج، موجيمي مختبئاً، يحوم حول الخيمة مثل فراشة تستهويها أشعة ضوء القنديل. ينظر رايموندو سيلبا إلى الساعة، سوف يتصل بماريا سارة إن لم تتصل به في خلال نصف ساعة: «كيف حالك، يا حبيبتي»، وسوف تجيب: «على قيد الحياة»، وسوف يرد عليها: «إنها حقاً لمعجزة».

* * *

يقول «فراي روخيرو» إن شبح الجوع أخذ في تلك الفترة ينشب أظفاره في المسلمين المحاصَرين داخل لشبونة. ولا ينطوي هذا القول على مبالغة إذا وضعنا في الاعتبار أنه كان يعيش خلف تلك الأسوار- وكأنها قضبان سجن- أكثر من ستين ألف عائلة، وهو رقم يثير الدهشة في الوَهْلة الأولى ويثيرها أكثر في الوهلة الثانية، لأن العائلة المكوّنة في تلك الأزمان الغابرة من أب وأم وابن كانت من الغرائب المشكوك فيها، وحتى لو أجرينا الحساب على أساس خمسة أفراد لكل عائلة- وهو أدنى متوسط للعائلات وقتئذ- سنصل إلى عدد يقدر بحوالي مائتي ألف نسمة، وإن كان هذا التقدير لم يَسْلم بدوره من طعن مصدر بحثي آخر يشير إلى أن تعداد الرجال فحسب كان يصل إلى مائة وأربعة وخمسين ألفاً. حسناً، ولو أخذنا في الاعتبار أن الإسلام يُبيح للرجل الزواج بأربع نساء والإنجاب منهن جميعاً- ناهيك عن العبيد وأسرهم وإن كانوا أقل عدداً إلا أنهم يأكلون أيضاً، بل إنهم أول من يحس قبل غيرهم

بشحة الطعام- فإننا سنصل في النهاية إلى رقم تقتضي الحيطة بالشك فيه، أي إلى حوالي أربعمائة ألف أو خمسمائة ألف نسمة، تخيلوا. وعلى أي حال، فإنهم لو لم يكونوا يبلغون هذا الرقم، فإننا نعرف على الأقل أنهم كانوا كثيرين، ومن وجهة نظر من كانوا يعيشون هناك كانوا متجاوزين للحد.

لولا التعطش المستمر للمجد الذي ينغص حياة الملوك والرؤساء وزعماء الحرب منذ فجر التاريخ، لكان من الممكن انتزاع لشبونة من أيدي المسلمين بكل راحة وهدوء العالم، معتوه ذلك الذي يدخل عرين الأسد لمصارعته بدلاً من قطع الغذاء عنه والجلوس ناعم البال للفرجة عليه وهو يموت. لقد تعلمنا بالطبع شيئاً من مرور الأيام وتعاقب القرون، ولذا يُعتبر من التكتيكات الأكثر شيوعاً في عالم اليوم استخدام سلاح الحرمان من الغذاء أو متطلبات الحياة الأخرى لإقناع المعاندين والمكابرين بالاستسلام وفقاً للشروط التقليدية المعروفة منذ القدم. ومع هذا فإن هؤلاء الخمسمائة ألف كانوا مختلفين، ومن ثمّ يجب أن يكون تاريخهم مختلفاً. المهم، في هذه الحالة، ملاحظة تزامن صدفتين مختلفتين: احتراق برج بوّابة «فييرو»، ونواقيس الإنذار الأولى للجوع المتفشي في المدينة، تدارس أعضاء مجلس الأركان الحربي الملكي الموقف في ضوء هاتين الصدفتين المتزامنتين، وخلصوا إلى القرار التالي: ضرورة الاستمرار في الحرب- بالمعنى

الحرفي للكلمات– وتضييق الحصار أكثر، لأن المسلمين لن يقتصروا على ازدراد بقايا الفُتات وفئران المجاري، بل سينتهي بهم الأمر إلى التهام بعضهم بعضاً. ليستمر الفرنسيون والنورمانديون في تشييد برجيهما، وعلى البرتغاليين القيام بتطبيق التقنيات التي تعلموها من الفارس إنريكي لتشييد برجهم الخاص، وليستمر رجال المقاليع في مواصلة إطلاق قذائفهم المعتادة، والرّماة في إطلاق السهام العادية والمُراشة والمُذنّبة بالشهب لاستهلاك الإنتاج اليومي لمصانع «براثو دي براتا»، وكل ما تقدم بمثابة أعمال رمزية للتسجيل في الملاحم، قبل الحل الأخير والنهائي والكامل: الجوع. ومن ثمّ فقد حمل القادة جميعاً الأوامر الصارمة لإبلاغها لقواتهم الغازية كي تقوم بتشديد الحراسة على الأسوار، ليلاً ونهاراً، لاسيما على الأركان الأشد انزواءً فيها، وتتمثل في بعض الزوايا المهملة من السور والقريبة من البحر، والتي يمكن استخدامها كمخابئ، ولم يكن تشديد الحصار عليها نابعاً من الخوف من احتمال تسلل الإمدادات من خلالها إلى داخل المدينة لأنها لن تقدم ولن تؤخر في جميع الأحوال، بل لتفادي قيام المسلمين بالتحايل على الحصار وإيفاد الرسل إلى «ألينتيخو» لطلب المعونة، سواء بإرسال المؤن أو بمهاجمة المحاصِرين من الخلف، فأيّ لون منها سيكون على الرّحب والسّعة. بعد قليل من الوقت تبين صحة ما ذهبوا إليه من ضرورة توخي الحذر، عندما باغتوا في جوف إحدى الليالي غير المقمرة زورقاً صغيراً يحاول التسلل

من بين سفن الأسطول الرّاسية في البحر، وعلى متنه ساعي بريد لم يجد بُدّاً بعد حمله إلى أمير البحر من إماطة اللثام عن الخطابين اللذين يحملهما في رأسه، أحدهما مُوَجَّه إلى صاحب قلعة «ألمادا» والآخر لصاحب قلعة «باليلا»، ومن مضمون هذين الخطابين اتضح بجلاء إلى أي مدى وصل العَوَز بأهل لشبونة التعساء. ورغم الحراسة المشددة فقد استطاع رسول آخر اجتياز نقاط المراقبة كلها، إذ تم العثور بعد أسابيع من الحادث السابق على مسلم يخوض في الماء بجوار السور المطلّ على النهر، وبعد انتشاله من الماء ورفعه إلى قارب الاستكشاف القريب تبين أنه يحمل رسالة من ملك «يابُره» (Evora)، رسالة لم يكن لها من مصير أفضل من عدم وصولها إلى وجهتها، لقسوتها الشديدة، ولمضمونها المغرق في اللا إنسانية، ولما تحويه من نفاق وشماتة على وجه الخصوص- آخذين في الاعتبار أن الأمر يتعلق بإخوان في الدين والسلالة -، تقول الرسالة: «يتمنى ملك يابُره للشبونيين النجاة بأبدانهم، أنا مرتبط منذ فترة باتفاقية هدنة مع ملك البرتغاليين ولا أستطيع التحلل من قسمي لإزعاجه هو وأتباعه بإعلان الحرب، افتدوا حيواتكم بأموالكم، حتى لا يكون سبباً في شقائكم ما ينبغي أن يُفيد في خلاصكم، والسلام». هذا هو الملك، لكي لا يخرق الهدنة المعقودة مع مليكنا أفونسو هنريكس- متناسياً أن أفونسو هذا هو الذي خرقها بنفسه من قبل لكي يهاجم شنترين ويستولى عليها- يترك أهل لشبونة التعساء نهباً

للموت الأسود، بينما لم ينتهز حامل الرسالة الفرصة للهروب إلى أرض آمنة وعاد حاملاً الخبر السيئ ليلقى حتفه قبل تسليم الرسالة الملطخة بالخذلان والخيانة. لو كان هذا الرجل في مكان ملك يابُره لخفّ لنجدة لشبونة على الفور، ولكن ملك يابُره لو كان في مكانه لسارع بالفرار في الرحلة الأولى، اللهم إلا إذا أحضروه عنوة برسالته حتى «كاثيلهاس» وأصدروا إليه الأمر الصارم التالي: هيا، اقفز في الماء، وإياك والتفكير في العودة إلى الوراء. حقاً، إن المكان المناسب لا يشغله دوماً الرجل المناسب.

نُقل جثمان الفارس إنريكي إلى مقابر «سان بيثنتي»، من خلال الطرق الملتوية الواقعة تحت أقدام السفح شديد الانحدار، وعلى بُعد خطوتين من الماء لتفادي الحجارة المتساقطة أو ما هو أسوأ منها، كان عملاً أقل ما يوصف به أنه لا يُطاق. ولكن فروسية المتوفي وعظمة عمله الأخير يبرران الموكب باهظ التكلفة، وإن كانت كلفته لا تُقارن بأي حال بالأهوال التي شهدتها القوات الموجودة حالياً أمام بوّابة «فييرّو» والتي سلكت هذا الطريق، وهو مشهد موصوف في حينه بما يستحق وزيادة. كان يحمل النعش الجنائزي الرجال الأربعة المسلحون، في معيّة قوة من الجند للحراسة تحت قيادة «ميم راميريس»، وأوروانا على قدميها في الخلف، كما يجب أن يذهب من فقد من كان يخدمه وسط هالة من الفخر والازدهاء.

ولكونها محظية مؤقتة، ما كان ينبغي عليها حقاً السير في الجنازة، ولكن ضميرها صوّر لها أن مجرد الضنّ على المتوفى بالوداع الأخير ليس تصرفاً مسيحياً، لم يفرق بينهما الموت- في الواقع- بأكثر مما كانت تفرق بينهما الحياة: سيد وامرأة لبضعة أيام. ورغم هذا، فقد كانت هنالك حياة أخرى، ملحة ومثابرة، قادمة في الخلف، جندي يتبعها من بعيد، لا يتبع الجنازة بل هذه المرأة التي تسأل نفسها حين أبصرته: «ماذا تريد مني أيها الرجل، ماذا تريد مني»، ولا تجيب، ولكنها لا تعرف أن ما يريده ويصبو إليه هو احتلال مكان الفارس إنريكي، ليس هذا المكان حيث يمضي الآن، مُرْتَجاً بعنف من جرّاء السير غير المنتظم، تحت كَفَن قذر، بل المكان الآخر، أيّ آخر حيث يمكن لجسدين الإحساس بدفء الحياة، سرير حقيقي، أو أرض مُعشبة، أو مصطبة طين، أو كوْمة رمل. لم يكن موجيمي يجهل أن انتقال أوروانا إلى حظوة سيد آخر أمر طبيعي ومؤكد، ولكن هذا لم يكن يزعجه، ربما لأنه يعتقد اعتقاداً راسخاً بأنه لن يتمكن في يوم من الأيام- حتى لو ساعده القدر- من لمسها بإصبعه، وحتى لو لم ترغب في الالتحاق بخدمة سيد آخر ولم تجد مفراً من الانضمام إلى نسوة الجانب الآخر من المصبّ، فإنه لن يقدر على دفع سياج الكوخ حيث توجد لكي يروي ظمأه كرجل من جسد مباح لكل من هبّ ودبّ، لأنه لن يكون عندئذ جسدها. هذا الجندي موجيمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، ولا يتذكر بأي أرض وُلد ولا لماذا أطلقوا عليه

اسماً أقرب إلى أسماء المسلمين من أسماء المسيحيين، هذا الجندي موجيمي الذي كان مجرد درجة في ذلك السلّم الذي دخلوا من عليه شنترين والآن في حصار لشبونة فرد مشاة نكرة بأسلحته الهزيلة، هذا الجندي موجيمي يمضي في إثر أوروانا مثل من لا يُبصر طريقاً آخر يُبعده عن الموت، مُدركاً- رغم هذا- أنه سيعود لمواجهته مرات ومرات، ولا يريد أن يفهم بأن الحياة يجب ألا تكون سوى سلسلة لا نهائية من الإرجاءات. الجندي موجيمي لا يفكر في شيء من هذا، الجندي موجيمي يريد تلك المرأة، لم يكن الشعر البرتغالي قد وُلد بعد.

كتبنا في موضع سابق (وهذا بفضل قدرة العقل أحياناً على الاختراق البصير والعجيب للمستقبل) أن موجيمي غسل ذات يوم يديه الملطختين بالدماء في مياه المصبّ، وأن الجنديين اللذين قاما في المعسكر الملكي باغتصاب أوروانا عُثر عليهما بعد ذلك مقتولين بضربتي سكين. ولما كنا قد عاينا مهارة أوروانا في استخدام خنجر الفارس إنريكي ضد الرجل المسلح الذي أراد أخذ زمام المبادرة والاستيلاء عليها قبل غيره، فمن السهل جداً أن يشطح بنا الخيال ويجعلنا نظن أنها لكي تنتقم لشرفها المُهان قد كمُنت للمغتصبين- في غسق المساء أو الصباح- وعندما مرّا على مقربة منها في الظلمة انتهزت فرصة خلوّ المكان من الشهود وباغتتهما بطعنتي خنجر

في أسفل البطن، في الجزء الذي لا يغطيه قميص الزّرد. هكذا مات الجنديان دون شك، ولكن أوروانا لم تقتلهما. وبما أن شطحات الخيال لا تتوقف، قد نتصورمن جهة أخرى أن حب موجيمي الشديد للمرأة هو الذي دفعه- لفرط الغيرة- إلى اقتراف هاتين الجريمتين، ونكون بتصورنا هذا قد أكملنا مضمون اللوحة السابقة (مشهد موجيمي وهو يغسل يديه الملوثتين بالدم) لو كان الدم الذي أذابته المياه على الفور وحملته الأمواج- كما تتلاشى الحياة أيضاً في الزمن- هو فعلاً دم الضحيتين البائستين. يمكن أن يكون هذا ما حدث، ولكنه ليس كذلك، لقد مات هذان الرجلان صدفة في الوقت نفسه وبالكيفية نفسها، كانت المصادفات موجودة أيضاً في تلك الأزمان، ولكن لم يكن أحد ينتبه إليها تقريباً. عندما يصلان ذات يوم إلى تبادل أطراف الحديث وإلى دفء العلاقات الحميمة، سوف تسأل أوروانا موجيمي إذا كان هو الذي قتل الجنديين المخالفين لواجبات وظيفتهما، «لا»- أجاب، وقال لنفسه «ربما كان من الواجب فعل هذا حتى أكون جديراً بحب هذه المرأة».

لا يوجد في الدنيا شر لا ينطوي على خير، وهذه المقولة الملهمة تسبق بكثير مذاهب الفلسفة النسبية ، ونتعلم منها حقاً أنه من الكدر الذي لا طائل من ورائه الحكم على أمور الحياة بالفصل المطلق بينها مثل من يحاول الفصل بين حبة القمح وبين غشائها

الرقيق. يخاف موجيمي من فقدان الأمل في الظفر بأوروانا في حالة ما إذا صعد برأس واحد من السادة- مدفوعاً بالافتخار أو بمجرد نزوة، أو من يدري، بإحساس أكثر جدية رغم كونه مؤقتاً- أخذها لنفسه، منتشلاً إيّاها- في وقت الحرب على أقل تقدير- من وّهْدة الحياة السيئة بهذا الوادي. لم يحدث هذا، وهو خير، ولكن سبب عدم حدوثه شر، ويكمن السبب في ذيوع خبر مواقعة بعض الجنود العاديين لتلك المرأة الوحيدة التي لم تتحول رسمياً إلى بغيّ، وأن اثنين من هؤلاء الجنود قد لقيا مصرعهما في ظروف غامضة (وتحديد هوية الجاني أو الجناة لا يهم- كما نعرف- بالنسبة لسير أحداث القصة)، لقد أفاد انتشار خبر موتهما في تدعيم أسباب عدم الاهتمام بالمرأة من قِبَل السادة الذين لا يطمحون في جلب المزيد من النساء ويؤمنون بالتطير والتشاؤم إيماناً يكفي لصرفهم عن محاولة استعداء الشيطان حتى لو كان متقمصاً شخصية امرأة رائعة الجمال. وبعد أن تركها الجميع- لأسباب شديدة التناقض- كانت أوروانا تغسل الثياب في جدول يصرف مياهه العذبة في المصبّ (وهي مهنة نظيفة لجأت إليها لكسب لقمة العيش) عندما لمحت بطرف عينها اقتراب ذلك ا لجندي الذي يتبعها أينما ذهبت. ورغم أن اللحية الطويلة تجعل الرجال متشابهين إلى حد كبير، إلا أن هذا لا يمكن الخلط بينه وبين غيره، لأن قامته تزيد عن أطول رجل من بين الآخرين.بما لا يقل عن نصف المتر، وبنيته مناسبة بوجه عام لقامته،

وهذا كله يصب بالطبع في صالحه. جلس على حجر قريب منها، وظلت هي صامتة، منتظرة، انتصبت الآن، ترفع ذراعها لكي تهوي به على الثياب بقوة، تجري جلبة الضربة على صفحة الماء، إنه صوت متميز لا يختلط بغيره من الأصوات، وضربة أخرى وأخرى، ثم يسود الصمت. تريح المرأة يديها على الحجر الأبيض، إنه نصب تذكاري جنائزي من عهد الرومان، ينظر موجيمي ولا يتحرك، كان عندئذ عندما حملت الريح الصوت الحاد للمؤذن. تميل المرأة رأسها ببطء ناحية اليسار، وكأنها تريد الاستماع بشكل أفضل للأذان، ولما كان موجيمي في تلك الناحية، إلى الوراء قليلاً، كان من المستحيل ألا تلتقي عيناه بعينيها. بقدمين حافيتين على الرمال الثخينة والرطبة يحس موجيمي بالثقل الكامل لجسده، وكأنه أصبح جزءاً لا يتجزأ من الحجر الذي يجلس عليه، لو دقّت طبول الملك الآن إيذاناً بالهجوم فلن يسمعها بالتأكيد، مايطنّ في رأسه هو صوت المؤذن، يستمر في سماعه بينما ينظر إلى المرأة، وعندما تشيح في النهاية ببصرها يُطبق الصمت، بالطبع توجد ضوضاء على مقربة، ولكنها تنتمي إلى عالم آخر، تصهل البغال وتشرب من مياه الجدول المنصرفة في المصبّ، وبما أنه من المحتمل عدم وجود طريقة أخرى أفضل للشروع فيما ينبغي عمله يسأل موجيمي المرأة: «ما اسمك»، كم من المرات سأل فيها بعضنا بعضاً منذ بدء الخليقة «ما اسمك» مع إضافة اسمنا نفسه بعد ذلك «أنا اسمي موجيمي»، لفتح الطريق،

ولكي يُعطي قبل أن يأخذ، ونظل منتظرين سماع الإجابة، عندما تأتي، عندما لا تكون صمتاً مثل هذا الذي يردون به علينا، ولكن الحالة الرّاهنة لم تكن هكذا، «أنا اسمي أوروانا»– قالت، كان يعرفه من قبل، ولكنه الآن منطوق لأول مرة بهذا الفم.

رفع موجيمي رأسه وخطا ست خطوات نحوها، المرء يمشي في حياته أميالاً وأميالاً ولا يناله سوى النَّصَب وجروح في القدمين– وربما في الروح أيضاً– ويأتي يوم يخطو فيه ست خطوات بالكاد ليجد ما يبحث عنه، هنا، في أثناء حصار لشبونة، هذه المرأة التي كانت جاثية على ركبتيها وتقف الآن لاستقبالي، يداها مخضلتان بالماء، والتنورة مبتلة، لا أدري كيف يتسنى لنا اللقاء في هذه المياه الضحلة، ونحن نحس معاً بالغرق الوديع للأعقاب في التيار، بصهيل الحصى الصغير تحت الماء، يقول مازحاً أحد الغلمان الذين يسقون البغال: «إيه، يا رجل» وكأنه يقول «إيه[1]، أيها الثور»، وتلاشى بعد ذلك، موجيمي لا يسمع، يرى فحسب وجه أوروانا، يراه أخيراً، شديد القرب منه بحيث يمكنه لمسه وكأنه يتحسس زهرة متفتحة، يلمسه فحسب بإصبعين يمران ببطء على الخدين ثم الفم ثم الحاجبين، مرة بعد مرة، راسماً له الرسم الذي هو عليه، وبعد ذلك الجبهة ثم الشعر

---

(1) Eh، أيا، أو هيّا (حرف نداء)، ويستخدمه مصارع الثيران عادة لكي يستحث الثور بالهجوم عليه. (المترجم).

إلى أن يسألها ويده جاثمة على كتفها: «أتريدين البقاء معي من الآن»، فتجيب: «نعم، أريد»، وعندئذ تفتحت مسامع موجيمي، وعزفت طبول الملك كلها لحن الخلود، بصوت جهوريّ يستحيل أن يصدر منها وحدها إلا إذا كانت قد انضمت إليها طبول أخرى كثيرة من السماء. انتهى عمل أوروانا في غسيل الثياب هناك بوصول اليوم الموعود، وفي أثناء فراغها من الالتزام الأخير الذي بين يديها يحكي لها موجيمي عن حياته، لا شيء عن والديه لأنه لا يعرفهما، وهي، على العكس، لم تتحدث عن حياتها بعد الاختطاف، أما بالنسبة للحياة الأخرى فقد حكت الشائع والمعروف عن حياة أهل الريف، لأنها كانت واحدة منهم وليست ريفية بالصدفة. حملت أوروانا الملابس المغسولة إلى معسكر جبل «جارثا» حيث عاشت الأيام الأخيرة، أخبروها أنهم سيعطونها الأجرة– من صنف الزّاد بالطبع– في فرصة قادمة، لم تهتم بالتسويف (من يخدم السادة ينبغي عليه عدم الاكتراث بالتسويف في دفع الأجرة) لأنها راحلة من هناك إلى حياة أخرى، مع هذا الرجل الواقف إلى جواري، والذي يجتهد في البحث عني ورؤيتي حتى لو كانت الحرب في ذروتها عند بوابة «فييرو»، ولكنه لن يبحث عني الليلة لأننا سنكون معاً لأول مرة، امرأة ورجل، بعيدين قدر الإمكان عن المعسكر حتى يكون لقاؤنا خالياً من الرُّقباء، تحت السماء المرصعة بالنجوم، مستمعين لهديل الأمواج، وعندما يُولد القمر، سيقول موجيمي وعيوننا مازالت

مفتوحة: «لا توجد جنة أخرى»، وسوف أرد عليه: «لم يكن هكذا آدم وحواء لأن الرب طردهما منها لعصيانهما».

وصلت ماريا سارة في الموعد المحدد. كانت تحضر معها طعاماً، سوف نطلق عليه هنا- مستخدمين حقنا المشروع في نحت الكلمات- «ذخائر للفم»، لأنها جاءت من أجل حرب، وهي على وعي تام بتبعاتها. نعم، قبلة، اثنتان، ثلاث، ولكن لا تسرح بعيداً، كنت تعمل، وفي العمل يجب أن تستمر، في الوقت متسع لكل شيء حتى لو كان قليلاً، أمامنا ليلتان كاملتان ونهار بينهما، الخلود بعينه، أعطني قبلة أخرى فحسب، والآن اجلس وأخبرني كيف تمضي القصة، هل التقى موجيمي بأوروانا. لا داعي لتلطيف العبارة، تريدين معرفة ما إذا كان قد جمعهما سرير. إلى حد ما، نعم. إلى حد ما، كيف. لأنه لم يكن لديهما سرير، والتقيا تحت ضوء النجوم. يا له من حظ، ليلة حارة، وكانا معاً بينما يرتفع المدّ. آمل أن تكون قد كتبت هذه الكلمات. لا، لم أكتبها، ولكن مازالت الفرصة سانحة. حملت ماريا سارة الأكياس إلى الداخل، بينما ظل رايموندو سيلبا واقفاً يحدّق في صفحاته وعلى وجهه تعبير من يفكر في شيء آخر. ألا تستطيع كتابة المزيد- سألته عند عودتها- هل تسبب وصولي في تشتيت فكرك. ليس هو الشيء نفسه كونك المتسببة أم لا، لسنا زوجين طاعنين في السنّ خَفُت بداخلهما وهج الأشواق

وماتت فيهما حتى ذكرى امتلاكها ذات يوم، فنحن، أوروانا وموجيمي، مازلنا على العكس في البداية. تريد أن تقول عندئذ أن وجودي هو سبب شرودك. حمداً لله، ولكن ما كنت أفكر فيه هو عدم الاستمرار في الكتابة هنا، في غرفة النوم. لماذا. لا أدري على وجه الدّقة، أظن أن ترك المكتب كان هروباً من الروتين، مخالفة للعادة التي قد تساعدني على التسلل إلى زمن آخر، ولكن الآن، وبما أنني على وشك العودة من ذلك الزمن، يروق لي الرجوع إلى كرسي ومنضدة المصحح، لأنني في نهاية المطاف لست سوى هذا. لماذا كل هذا الإلحاح فيما يتعلق بالمصحح. لكي يصبح كل شيء واضحاً بين موجيمي وأوروانا. أوضح ما تقول. لن يصل موجيمي قط إلى مرتبة قائد، ولن أصل أنا مطلقاً إلى أن أصبح مؤلفاً. وتخاف من أن تدير أوروانا ظهرها لموجيمي عندما تكتشف أنه لن يصل قط إلى مرتبة القائد. وهذا ما حدث في حالات كثيرة. رغم كل شيء، فقد كانت أوروانا تعيش حياة أفضل مع الفارس، ولكنها قبلت الآن موجيمي ولا أظن أنه أجبرها على القبول. لست أتحدث عن أوروانا. تتحدث عني، أعرف هذا، ولكن ما تقوله لا يعجبني. أعتقد هذا. لتستمر هذه العلاقة أنّى لها الاستمرار، ولكنني أريد أن أعيشها خالية من المنغصات، أعجبتني على الحال الذي أنت عليه، وأظن أن ما أكون عليه لا يعوق إعجابك بي، وكفى. معذرة. لا يفيدك في شيء طلب الاعتذار، الذكورية هي مكمن الأرزاء فيكم معاشر الرجال، حين

تنتفي التعلاّت من المهنة تجدونها في العمر، وعندما لا يكون العمر هو السبب تكون الطبقة الاجتماعية، وعندما لا تكون الطبقة الاجتماعية هي السبب يكون المال، وهذا لأنكم لا تقررون أبداً بأن تكونوا طبيعيين. لا يوجد كائن بشري طبيعي. ليس من الضروري أن تكون مصححاً لتدرك هذا، أية خريجة جامعية لا تجهله. يبدو وكأننا في حرب. بالطبع نحن في حرب، حرب حصار، كل واحد منا يحاصر الآخر ومُحَاصَر به في الوقت نفسه، نريد هدم أسوار الآخر والإبقاء على أسوارنا نحن، الحب يُلغي الحواجز، الحب هو نهاية الحصار. ابتسم رايموندو سيلبا: كان من المفروض أن تقومي أنت بكتابة هذه القصة. لم تدر بخلدي قط الفكرة التي دارت بخلدك، فكرة إنكار حدث تاريخي ليس محلاً للخلاف. أنا نفسي لا أستطيع اليوم تقديم إجابة أو تفسير لما حدث. أعتقد أننا يجب أن نقسم الأشخاص على أساس من يقولون «لا» ومن يقولون «نعم»، مع وضعي في الاعتبار- قبل أن تقوم أنت بتنبيهي إليه- وجود فقراء وأغنياء، ضعفاء وأقوياء، ولكن ما أريد قوله ليس هذا، طوبى لمن يقولون «لا»، لأن مملكة الأرض ربما يجب أن تدين لهم. لقد قلتِ «ربما يجب». صيغة الشك متعمدة، لأن مملكة الأرض في يد من لديهم موهبة وضع «لا» في خدمة «نعم»، أو إزالة «لا» بسرعة لو كانت من وضعهم لكي يُدّشّنوا «نعم» على أنقاضها. لا فُضّ فوك، يا أوروانتي العزيزة. شكراً، يا عزيزي موجيمي، ولكني لست

سوى مجرد امرأة، رغم كوني دكتورة. ضحكا معاً، ثم قاما بعد ذلك بحمل الأوراق إلى غرفة المكتب، فضلاً عن قاموس ومراجع أخرى. كان رايموندو سيلبا حريصاً على حمل الزهرية التي تحوي الوردتين بنفسه: هذا يخصني، إنه ثمرة إبداعي. وضع الأشياء كلها على المنضدة، جلس، نظر بجدية إلى ماريا سارة وكأنه يُحَمِّل وجودها هناك مسؤولية التحوّلات التي طرأت على المكان. سوف أكتب الآن عن المعجزات التي قام بها، بعد موته ودفنه، إنريكي الألماني (المُحْتَفَى به من قبل لأسباب جدّ وجيهة)، فارس مدينة بون، طبقاً لما يرويه بالتفصيل المملّ الراهب «روخيرو» في خطابه الموجَّه إلى المدعو «أوسبرنو»، الذي استأثر بشهرة المؤرخ، ومن ثمّ فإن، الخطاب جدير بأقل القليل من الثقة على صعيد التأريخ، وإن كان مُضمخاً بأقصى درجات اليقين، وهذا ما يُحسب له. وأنا– قالت ماريا سارة– وإلى أن يحين موعد العشاء، الذي سأعده اليوم هنا لكي نتناوله في البيت، سأظل جالسة على الأريكة وأتسلى بقراءة كُتَيِّب معجزات سان أنطونيو المليء بالعِبَر، لقد فتح شهيتي للاطلاع عليها قراءتك لحكاية معجزة البغلة التي تركت تناول الشعير من أجل عيون القربان المقدس، لم تتكرر هذه الظاهرة، لأن تلك البغلة– لكونها عقيماً مثل بنات جنسها– لم تترك وراءها ذرية. هيا بنا نبدأ، هيا بنا نبدأ.

لم يكن قد مرّ أكثر من أسبوع على موت الفارس إنريكي ودفنه بمقابر «سان بيثنتي» (المدافن المخصصة للشهداء الأجانب)، عندما كان الراهب «روخيرو» جالساً في خيمته يُصنّف الملاحظات التي دوّنها في أثناء طوافه الأخير بالمعسكرات، إنه لنعم الفارس على بغلته الوفية، التي كانت تتمتع في الحقيقة بكل مواهب بنات جنسها، وإن كانت تعاني من شراهة لا برء منها بحيث لم تكن تترك عشباً ولا حبّة شعير يفرّان من بين أسنانها الصفراء، كان الراهب «روخيرو» على هذا الحال، في ليلة دامسة، عندما داهمه من جرّاء تعب الرحلة نوم عميق- بدا وكأنه من فعل شيء خارق للطبيعة- مسبوق بثلاث نطحات عِذاب من رأسه للهواء. يقول هنا[1]: إن سان أنطونيو عندما لم يتمكن من حضور جوقة الإنشاد الديني ليلة عيد الميلاد، بسبب وجوده في المستشفى لزيارة رجل دين في النزع الأخير، فإن حوائط الأبنية قد انفرجت من موقعه في المصحّة وحتى الكنيسة لكي يستطيع الصلاة للقربان المقدس في نفس لحظة إقامة القُدّاس. كان الراهب «روخيرو» مستغرقاً في النوم عندما دخل الخيمة فارس مسلح بكل أسلحته الصغيرة، باستثناء الخنجر، وهزّه من كتفه ثلاث مرات أيضاً، المرّة الأولى بهوادة، وبشيء من القوة في الثانية، وبشدة

(1) يقول هنا: أي الكتيب الذي تقرأه ماريا سارة عن معجزات سان أنطونيو، وهي مُدرجة هنا، وعلى التوالي، وسط ما يكتبه رايموندو سيلبا- نقلاً عن خطاب الراهب «روخيرو» إلى المدعو «إسبرنو»- عن الأعمال الخارقة التي قام بها الفارس إنريكي بعد موته. (المترجم).

في الهزّة الثالثة. يقول هنا: بينما كان سان أنطونيو يعظ الناس في الخلاء شرع المطر في السقوط على شكل دائرة، لتفادي السقوط على الواعظ والمتحلقين حوله. فتح الراهب «روخيرو» عينيه فزعاً وشاهد أمامه الفارس إنريكي الذي وجّه إليه الأمر التالي: انهض واذهب من فورك إلى ذلك المكان الذي دفن فيه البرتغاليون تابعي، بعيداً عني، أحضر جسده من هناك وادفنه قريباً مني، إلى جوار لحدي. يقول هنا: إن إحدى الورعات المؤمنات بسان أنطونيو جعلته يسمع صوتها من مسافة فرسخ، وأن تلك الوَرِعَة قد أعادت خصلات مقصوصة من إحدى النساء إلى الشعر المتبقي على رأسها وعندئذ التأم الشعر ورجع إلى سابق عهده قبل القصّ. أنعم الراهب «روخيرو» النظر حوله، وعندما لم يجد فارساً ولا لحداً اعتقد أنه كان يحلم، وحتى لا يكذب نفسه عاد إلى النوم من جديد. يقول هنا: إن سان أنطونيو قابل عاصياً يريد التوبة والتكفير عن ذنوبه، ولما وجد أن التائب يستحق العفو فقد أعطاه له، مع القيام في الوقت نفسه- وأمام عين التائب- بمحو سيئاته من السجل الذي تدوّن فيه الملائكة أعمال البشر. استغرق الراهب «روخيرو» في النوم العميق، معتقداً أن وجبة معطوبة هي التي تسببت في هذا النوم المضطرب، وعندئذ عاد الفارس للدخول وهزّه مرة أخرى ليوقظه، وقال له: لا تنم أيها الراهب، أمرتك بالذهاب للبحث عن مقبرة تابعي الرّاقد بعيداً عني، وسمعتني وكأنك لم تسمع. يقول

هنا: بعد أن سال نبيذ إحدى الحانات على الأرض جعله سان أنطونيو يعود إلى مكانه السابق داخل البراميل. لابد أن يكون الراهب «روخيرو» مُتعباً للغاية حتى يعود من فوره إلى النوم، ضارباً عرض الحائط بالالتماس الأول ثم بالأمر الثاني، ولكن نومه الآن قلق، وكأنه يتوقع انقطاعه من جديد، وهذا ما حدث، لأن الفارس دخل مُغاضباً هذه المرّة وفي هيئة مفزعة تنذر بالخطر، وانتهره بكلمات مخيفة: سترى ما سوف يحيق بك إن لم تذهب في الحال لتنفيذ ما طلبته منك أكثر من مرة. يقول هنا: إن سان أنطونيو حوّل بعلامة الصليب ضفدعة إلى ديك سمين، وبعد ذلك– وبعلامة الصليب أيضاً– حوّل الديك السمين إلى سمكة. لن يكون الراهب «روخيرو» جديراً بمهنته والملابس التي عليه إن لم يكن قد تعلم الدرس الذي أملاه سان بدرو، ويقول فيه: يمكن الإنكار والرفض لمرتين فحسب، أما في الثالثة فهنالك خطورة كبيرة في تعريض النفس لانتقامات رهيبة، لاسيما في الحالات التي تتدخل فيها الأرواح، لأن قوتها المادية تفوق دائماً قوة الأحياء بنسبة لا بأس بها. يقول هنا: إن سان أنطونيو انتزع بعلامة الصليب عيني أحد الهراطقة عقاباً له، ولكنه أعادهما إلى وضعهما السابق بدافع الشفقة. نهض، إذن، الراهب «روخيرو» من فرشته المريحة، ثم أخذ قنديلاً وهبط إلى المصبّ، مخيفاً بخطواته غير قليل من العسس لاعتقادهم بمرور إحدى الأرواح المذنبة، ركب زورقاً، ومُجهداً

نفسه مع المجدافين وصل إلى الجانب الآخر للمصبّ. يقول هنا: إن سان أنطونيو أعاد كوبين مهمشين إلى سابق عهدهما قبل الكَسْر، وأنه أعاد لإحدى الورعات المؤمنات به نبيذها المُرَاق إلى البرميل، مبيناً بهذا الشكل أن المعجزات يمكن أن تتكرر دون أن يَفُتّ التكرار في عضد القوة الإعجازية. إلى أين ذهب يا تُرى الراهب «روخيرو» للبحث عن القوّة اللازمة للعمل الهرقليّ[1] الذي كُلّف به، لا أحد يعلم، رغم أنه يمكن القول إنه بحث عنها في الخوف الشديد الذي تملكه، فتح اللحد في وقت قصير وسحب منه التابع، ثم حمله على ظهره حتى وصل إلى الزورق، عاد- مبتلاً بعرق بارد وعرق حار- إلى نقطة الانطلاق، رفع من جديد الحمولة الباهظة على ظهره واجتاز المنحدر حتى وصل إلى «سان بيثنتي»، وإلى جوار لحد الفارس شق حفرة وأقام لحداً جديداً. يقول هنا: شاهد سان أنطونيو- عندما كان في صقلية- إحدى الصالحات التابعات له تسقط في بركة، وعندئذ أخرجها بإشارة منه وهي في أوج نظافتها وهدوئها. دخل الراهب «روخيرو» خيمته ونام مثل حجر ما بقي من الليل، وعندما استيقظ في الصباح وتذكر ما حدث فإنه لم يساوره الشك فيه وحسب- لأن يديه كانتا ملوّثتين بالتراب وملابسه ملطّخة بلزوجات مريبة-، بل إنه ملأ الدنيا ضجيجاً في

(1) هرقليّ: نسبة على «هرقل»، وهو البطل الإغريقي المشهور بقوته الخارقة. (المترجم).

استنكار منه لجحود الفارس الذي لم يكلف خاطره القدوم لشكره، رغم أنه انتزعه من النوم اللذيذ بعد وقت قصير من دخوله فيه. يقول هنا: إن سان أنطونيو ألقى في روما موعظة بلغة واحدة (لغته)، ورغم هذا فقد فهمه بوضوح تام المستمعون الذين ينتمون إلى جنسيات مختلفة. حسناً، لم تتوقف الكرامات المدهشة للفارس إنريكي عند هذا الحد، بل حدث أن نبتت على رأس قبره نخلة صغيرة من تلك النخلات التي سوف يحضرها في أيديهم بعد ثلاثة قرون من الآن الحجاج العائدون من القدس. يقول هنا: إن سان أنطونيو أنقذ عندما كان في «فيّريرا» امرأة بريئة من الموت الظالم الذي دبّره لها زوجها، وذلك بجعل ابنها الرضيع يتكلم ويعلن براءتها. ترعرعت النخلة وارتفعت وبزغت أوراقها، حضر الملك والجنود جميعاً والعامة من الناس الذين كانوا يجوسون خلال المعسكرات، وشاهدوا المعجزة وتقدموا بالشكر إلى رب الأرباب. يقول هنا: عندما ذهب سان أنطونيو إلى «أريمينو» وقابله ملاحدتها بالرَّشْق بالحجارة، فإنه يَمَّم شطر البحر حيث عقد اجتماعاً مع الأسماك وألقى عليها موعظة مؤثرة. شرع المرضى في التوافد إلى حيث توجد النخلة، وكانوا يأخذون أوراقها ويعلقونها على صدورهم فيُشفون في الحال من الأمراض والعلل التي يشكون منها، مهما كان نوعها. يقول هنا: إن سان أنطونيو جعل– وهو في الطريق من «أريمينو» إلى «بادوا»– سبعة وعشرين لصّاً وقاطع طريق

يتوبون من موعظة واحدة. يا للإعجاز، ويا لها من معجزة جميلة. يقول هنا: إن سان أنطونيو زجر وانتهر بشدة فتى كان قد ركل أمه بقدمه، حزن المعتدي واعتراه الغم وندم على ما فعل، ولكي يكفر عن ذنبه أمسك بسكين وقطع في التوّ القدم الشريرة. مرضى آخرون كانوا يأخذون أوراق النخلة ويحمصونها ثم يدوسون عليها بأقدامهم لفرْكها، وبعد ذلك يأخذون التراب ويخلطونه بالماء أو النبيذ الذي يشفيهم شرابه من كل آلام وأوجاع الجسد. يقول هنا: إن الفتى كان على وشك فقدان حياته التعيسة بسبب النزيف، وأنه كان يصرخ من شدة الألم، ولما تجمع الناس حوله وسألوه عن الذي فعل به هذا أخبرهم- وهو يبكي بحرقة- أن الراهب أنطونيو هو الذي قال له إن هذا هو العقاب الذي يستحقه، وفي تلك الأثناء حضرت الأم وأعلنت وسط نواحها أن الراهب قتل ابنها، ملقية بتبعة عدم تبصّر ابنها على الغيرة الدينية الزائدة للقديس. ذاعت شهرة الفضائل العلاجية للنخلة، وبهذا الشكل لم يكد يمضي سوى وقت قصير حتى لم يبق من النخلة- نتيجة للإسراف في انتزاع أوراقها وسعفها- شيء فوق ظهر الأرض، ولما كانوا لم يعينوا عليها حراسة مشددة فقد جاء البعض ليلاً واقتلعوا ما بقي منها تحت الأرض وفرّوا به هاربين. يقول هنا: إن سان أنطونيو أخذ قدم الفتى المقطوعة وقام- أمام الجمهور المحتشد- بتركيبها في موضعها ثم أشار عليها بعلامة الصليب فالتأمت في الحال

وأصبحت مثلما كانت عليه من قبل، متانة وأماناً. قائمة الكرامات المباركة للفارس إنريكي طويلة للغاية بحيث لو أردنا تعدادها كلها- من منطلق عدم التمييز بينها بذكر البعض وإغفال البعض الآخر- فإننا سنبتعد كثيراً عن هدف هذه القصة، ألا وهو معرفة المصير الذي آلت إليه لشبونة، ومن ثمّ فإننا سوف نقتصر على ذكر المشهور منها، ولا يخفى على لبيب أننا قصدنا بذكر بعض كرامات الفارس الألماني بيان كيف أننا استطعنا، وبدون مساعدة الصليبيين، تحقيق الهدف الوطني الذي كان يصبو إليه مليكنا أفونسو، أول من تسمى بهذا الاسم والأول أيضاً في كل شيء. يقول هنا: بينما كان سان أنطونيو يعظ في «ميلان» ظهر في الوقت نفسه بلشبونة ليبرئ ساحة والده من دين لم يكن عليه، كما يقول أيضاً إنه ظهر أيضاً في لشبونة في نفس الوقت الذي كان يعظ فيه في «بادوا» لكي يجعل متوفياً يتكلم لإنقاذ والده من حكم الموت الصادر ضده. حسناً، من شهود العيان على هذه الأحداث الكثيرة والمدهشة رجلان أصمّان أبكمان، كانا قد جاءا على متن الأسطول الصليبي، ولا يدري أحد ما إذا كانا من الإنجليز أو الأكيتانيين أو الفلامنجيين أو الرّينانيين، المهم أنهما ذهبا ذات يوم إلى مقبرة الفارس واضطجعا إلى جوارها بتقوى وورع شديدين، وطلبا من الفارس- بكل ما يملكان من تضرع وخشوع- أن يشملهما بعطفه ورحمته. يقول هنا: إن هذه المعجزات هي المعجزات الأساسية التي جرت على يد

سان أنطونيو في أثناء حياته، أما التي حدثت بعد موته فلا حصر لها، وقيمتها لا تقل بأي حال عن تلك التي جرت نتيجة لتأثير حضوره، وقد ذكر الكتيّب معجزة واحدة فحسب من اللاتي حدثن بعد موته للتدليل على ما لها من قيمة، وتتمثل المعجزة في تحويل سان أنطونيو لإحدى الورعات المؤمنات به من عقيم إلى ولود، ولما ولدت هذه المرأة كتلة لحم مشوّهة حوّلها إلى طفل جميل الهيئة، وهو بهذا الشكل يكون قد حوّل نصف معجزة إلى معجزة مكتملة الأركان. استغرق في النوم الأصمّان الأبكمان، وعندئذ ظهر لهما في المنام- في هيئة وملابس حاج، وبيده عكاز طويل من سعف النخل- الفارس إنريكي وخاطب الفتيين قائلاً: «انهضا، وابتهجا، اذهبا واعرفا أنكما قد حصلتما بفضلي وبفضل الشهداء الرّاقدين هنا على مثوبة الرب وفضله»، ثم اختفى بعد قوله لهذه الكلمات، وعندما استيقظ الفتيان لاحظا أن بإمكانها السماع والكلام أيضاً، ولكنهما كانا يتمتمان بأصوات غير مفهومة، لا يدري أحد إلى أية لغة تنتمي، هل إلى الإنجليزية أم الأكيتانية أم الفلامنجية أم الرّينانية، أم البرتغالية كما كان يؤكد البعض. عاد الفتيان بعد ذلك إلى قبر الفارس بورع أشد- لو كان ممكناً -، ولكن صلواتهما ضاعت هباءً لأنهما ظلا يتمتمان بالطريقة نفسها ما تبقى لهما من حياة، ولا ينبغي أن نندهش أو نعجب من هذا الأمر، لأنه لا وجه للمقارنة- في نهاية المطاف- بين الفارس

إنريكي وبين سان أنطونيو فيما يتعلق ببند المعجزات.

هيا بنا لنتناول العشاء– قالت ماريا سارة، وعندئذ سأل رايموندو سيلبا: وماذا لدينا اليوم على مائدة العشاء. ربما سيكون سمكاً، وربما ديكاً سميناً، أما إذا كانت المعجزات تحدث معكوسة أيضاً– أي من الوراء إلى الأمام– فلا داعي للعجب لو قفزت علينا من الطاسة ضفدعة.

* * *

مضى أكثر من شهرين على بداية الحصار، وثلاثة أشهر على صرف الرّاتب الأخير للجنود. كان دون أفونسو هنريكس يعقد– كما علمنا في حينه– آمالاً كبيرة على فنون الهندسة الحربية للفارس إنريكي، وأيضاً على أولئك الفرنسيين والنورمانديين الذين لم يتم التصريح بأسمائهم، ولكن الموت المأساوي للرجل القديس– رغم كونه منبعاً ثرّاً لمعجزات أخرى– وتدمير البرج الذي كان مخصصاً للهجوم على السور الجنوبي لبوّابة «فييرو»، جعل جذوة الحماس الحربي المتقد تخفت وتتحول إلى وَهَج لدِن، ويمكن ملاحظة هذا في تأخر عمل الأجانب وفي الجدل المستمر الذي يُنفق فيه وقتهم النجّارون البرتغاليون، الذين لم يتوصلوا إلى اتفاق حول ما إذا كان من الأفضل التكرار الحرفيّ لعمل الألماني، باحترام الجوهري فيه، أو إدخال تعديلات هيكلية عليه بحيث تُضفي على البرج اللمسة الوطنية. كانت آمال الملك ترتكز على عاملين أساسيين، أحدهما أثر مباشر للآخر، ويكمن الأول في أنه لو نجح الهجوم وآتى ثماره

المرجوّة، فإنه يستطيع بالتالي- العامل الثاني- تسريح القوات إلى أن يحين موعد الحملة القادمة، وبهذا الشكل يوفر الراتب العام الذي سيُصرف لها. كان دون أفونسو يتحلى بالأمانة عندما أفصح عن الأزمة التي تمر بها خزائنه، ودون الانتقاص من رصيده الأخلاقي هذا إلا أن البساطة والصراحة ليستا من الصفات الحميدة التي يُزيّن بها حكام العالم كلامهم، دون استثناء لحكامنا حالياً. ولكن هذه الطريقة في إدارة القضايا السياسية لا يتم تعويضها بما تستحق، الآن لدينا هنا ملك وأمام عينيه مدينة لشبونة التي يخطب ودّها ولا يستطيع في الوقت نفسه وضْع يده عليها، وبالإضافة إلى هذا فإنه مضطر لنزح ما تبقى في خزائنه لسداد ما يدين به لجيش بدأ يهمهم احتجاجاً على التأخير. بالطبع ليست هذه هي المرة الأولى التي يتأخر فيها التاج في صرف الرواتب، لاسيما في أثناء الحروب، لأن الإجراءات الطويلة التي تسبق إحضار الأموال (من توجيه الأمر إلى الخزانة، ثم التجميع، ثم تغيير بعض العملات، ثم النقل في ظروف غير مأمونة العواقب...) تتسبب عادة في التأخير، ولذا فليس بغريب كثرة الحالات التي يموت فيها الجندي قبل تلقيه راتبه، ببضع دقائق أحياناً.

لو وصلت الأموال إلى دون أفونسو هنريكس قبل ذلك بعدة أيام فلربما تغيّرت قصة هذا الحصار، ولا يتعلق هذا التغيير بالخاتمة

المعروفة للحصار وإنما بالخطوات الإجرائية التي سبقتها. لقد مضى الوقت وأصبحنا في منتصف شهر سبتمبر، ودون أن يعرف أحد من أين خرجت هذه الفكرة غير المسبوقة، بدأ الجنود يقولون لبعضهم بعضاً: بما أننا لا نقل رجولة عن الصليبيين فإننا نستحق ما يستحقونه، وبما أن مصيرنا جميعاً هو المصير نفسه يجب أن نكون مساوين لهم في الحقوق عندما تحين ساعة الدفع. وفي كلمات أوضح، لقد كانوا يتساءلون عن المبرر الذي يخوّل للصليبيين- ومعظمهم لم يتحمس للمهمة وتركها وراء ظهره- الحق في أعمال السلب والنهب، في الوقت الذي ينبغي على الجندي البرتغالي الرضا براتب هزيل، ومن ثمّ الاكتفاء بالفُرجة- وجيوبه فارغة- على حفلات الأجانب الباذخة والسعيدة. وصل إلى آذان القادة صدى هذه اللقاءات والمداولات، ولكن ما تُطالب به كان مُخالفا لكل الأعراف والقوانين- سواء المكتوبة أو المتعارف عليها-، ولذا فقد اقتصر ردّ فعلهم في البداية على هزّ الأكتاف المصحوب بتعليق كريه: «إنهم نزر يسير (Parvos) بالنسبة لما يطمحون إليه»، ففي ذلك الوقت كان يمكن استخدام الكلمة السابقة بمعنى «صغير» (Pequeno)، أما اليوم فلا يمكن أن نطلقها على أحد، حتى لو كان قزماً، لأنه سيذهب من فوره إلى المحكمة ويرفع ضدنا دعوى بتهمة السبّ والقذف. تردد القادة في البداية، ولكنهم لم يجدوا مناصاً في النهاية من إرسال مكتوب إلى الملك لكي يُعجل بصرف الرواتب، لأن الانضباط قد

ترهّل وكلما أمر «الجاويشيّة» بالهجوم تطايرت على ألسن القوات هذه الكلمات المخزية: «لماذا لا يذهب هو، كيسه عامر بالنقود»، وهذا التعليق بمثابة ظلم بَيِّن، لأن أيّ جاويش لم يكن يتخلف قط في الخندق ليرى ما سوف يُسفر عنه الهجوم: هل يتقدم لحصد أكاليل الغار أم يظل قابعاً في مكانه لتأنيب الجبناء الفارّين وإنزال العقاب بهم. بعد مرور أكثر من أسبوع، وعندما انتقل التعبير عن الآراء المتمردة من مرحلة الصوت المنخفض إلى مرحلة المطالبة بالصوت العالي في تجمعات عشوائية أو مُخطط لها من قبل، سرى النبأ بأن الرواتب سوف تُصرف أخيراً. تنفس القادة الصعداء، ولكن أنفاسهم سرعان ما حُبست عندما جاء الصرّافون ليخبروهم بعدم تقدم أحد من الجنود لصرف راتبه. وفي المعسكر الملكي ذاته كان الإقبال على صرف الرواتب ضئيلاً للغاية، وحتى هذا الإقبال الواهن تم تفسيره على أنه نابع من الإحراج، وبهذا الشكل لم يكن من المستبعد أن يجد أقلّ جندي نفسه أمام الملك، وجهاً لوجه، فيسأله الأخير: هل ذهبت لصرف راتبك. لم أذهب يا صاحب الجلالة، إذا لم يدفعوا لي مثل الصليبيين لن أعود للقتال.

تملك القادة خوف عميم من وصول ما يدور في معسكرات المسيحيين من سفالة إلى أسماع المسلمين، لأنهم قد ينتهزون فرصة اللّغط المسيطر على هذه المعسكرات ويداهمونها بهجوم كاسح

من الأبواب الخمسة يكنس من أمامها شطراً من الجيش المسيحي إلى جهة البحر ويُلقي بالشطر الثاني من فوق المرتفعات. ولهذا، وحتى لا تتفاقم الأمور أكثر، أرسلوا في طلب زعماء التمرد، ولم يكونوا زعماء بالمعنى الحرفي للكلمة لأنهم جميعاً من الجنود الذين أصبحت كلمتهم نافذة على غيرهم بسبب علوّ صوتهم. شاءت الأقدار أن يكون موجيمي من بين المختارين من معسكر بوّابة «فييرو»، فحبه لأوروانا لم يكن يُقعده عن المسؤوليات المدنية أو المصالح الشخصية والعامة. ذهب، إذن، ثلاثة نوّاب إلى القائد الذي سألهم فأجابوه بالأسباب المعروفة. لجأ «ميم راميريس»- وأغلب الظن أن قادة المعسكرات الأخرى قد نهجوا نهجه واستخدموا نفس كلماته أو ما يشبهها- إلى استثارة الحسّ الوطني، ولكنه لم يزحزح- رغم جِدّته- الجنود عن موقفهم الرّاسخ قيد أنملة، انتقل بعد ذلك إلى الصياح ثم الوعيد، ولكنهما لم يفلحا أيضاً، لم يجد بُدّاً في النهاية سوى التوجه إلى موجيمي- متخذاً إيّاه محاوراً له- ليقول له بصوت مُتَهدّج من شدة الانفعال: وأنت أيضاً يا موجيمي، لا أكاد أصدّق، كيف تتورط في هذه المؤامرة الدنيئة، أنت، يا رفيق السلاح في شنترين، عندما أعرتني بأريحيّة كتفيك وقامتك الفارعة حتى أستطيع تعليق السلم في شرفات السور، السلّم الذي صعدنا عليه جميعاً بعد ذلك، وتأتي الآن لتشوّه دورك المهم في ذلك اليوم المجيد، في جحود منك لقائدك وللملك سيدك، أنت هنا، متواطئ

مع هذه الطغمة الجشعة، لا أكاد أصدق. عندئذ رد موجيمي في ثبات: سيدي القائد، لو أردت الصعود مرة أخرى على صهوة كتفيّ للوصول بالسيف أو اليدين أو السلّم إلى أعلى درْب في لشبونة، لن أخذلك، وهيا بنا الآن لو شئت، كل ما في الأمر أننا نريد أن يدفعوا لنا مثلما يدفعون للأجانب، ولاحظ جيداً مدى ما نحن عليه من تعقل، لأننا لم نأتِ إلى هنا للمطالبة بمساواة الأجانب بنا. أومأ النائبان الآخران برأسيهما علامة على الموافقة، فتلك الفصاحة لا تحتاج إلى تكرار، وانفضّ السَّامر.

رفع «ميم راميريس» تقريره إلى الملك، وهو لا يختلف- فيما هو جوهري- عن تقارير القادة الآخرين، مقترحاً، بكل احترام، أن يأمر جلالته بمثول نوّاب حركة التمرد بين يديه، فلربما تراجعت جرأتهم وفتر حماسهم أمام مهابة الذات الملكية. تردد دون أفونسو هنريكس في التفضّل بالمكْرُمة، ولكن إزاء تفاقم الوضع واحتمال تنبّه المسلمين لعدم فعالية الأعداء، فقد تنازل وأمر- وهو مشتاط غضباً- بإحضار نوّاب الجنود. دخل الخيمة النوّاب الخمسة، بادرهم الملك- بوجه عابس، ويديه القويتين معقوفتين على صدره- بهذا التأنيب القاسي: «لا أدري هل آمر بقطع الأرجل التي حملتكم إلى هنا أو الإطاحة بالرؤوس التي ستخرج منها- لو جرؤتم على هذا- الكلمات المتجاسرة»، كانت عيناه الملتهبتان مسلّطتين على أطول

النوّاب قامة، وكان موجيمي حسب المتوقع. كم كان جميلاً– وهو شيء محتمل فحسب في تلك الأزمان البريئة– رؤية كيف استطالت شخصية موجيمي أكثر، وكيف أتاه الصوت واضحاً ليقول: لو أمر جلالتكم بقطع رؤوسنا وأرجلنا، سيصبح جيشكم كله بلا أقدام أو رؤوس. لم يصدق دون أفونسو هنريكس ما سمعته أذناه، فرد مشاة نكرة يطالب لطائفته المنحطة باستحقاقات لا ينبغي الإنعام بها إلا على خيّالة النبلاء، لأنها بالفعل تمثل الجيش الحقيقي، أما المشاة فلا نفع لهاسوى الإحاطة بالفرسان في ميدان القتال أو عمل طوْق في الحصارات، مثل الحالة التي نحن فيها. ورغم أن مليكنا قد حرمته الطبيعة من نعمة الحسّ الساخر إلا أن الملابسات الرّاهنة جعلته يتكيف مع الموقف وينظر إلى ردّ النائب على أنه مِزْحة، ليست مزحة بالنسبة لما يتعلق بلبّ القضية– القابلة للنقاش– وإنما على مستوى التلاعب البارع بالكلمات، ومن ثمّ فقد التفت نحو القادة الأربعة الذين كانوا موجودين أيضاً هناك وقال بابتسامة ساخرة: «هذا الوطن يبدأ بداية سيئة، حسبما أرى»، وبعد ذلك، مغيّراً من لهجته ومنعماً النظر في موجيمي، أضاف: «أظن أنني رأيتك من قبل، من أنت». اشتركت في الاستيلاء على شنترين يا سيدي– أجاب موجيمي– وعلى أكتافي صعد القائد ميم راميريس الموجود هنا. وهل هذا يخوّل لك القدوم إلى هنا للاحتجاج والمطالبة بما لا يمكن أن يكون لك. ليس من أجل هذا يا سيدي،

وإنما جئت نزولاً على رغبة زملائي، وأنا بالنسبة لهم- مثل باقي النوّاب- الصوت واللسان. وماذا تريدون، هم وأنت. ما تعرفونه يا سيدي، أن يكون لنا نصيب عادل في الغنائم بعد المعركة، لقد أتينا إلى هنا لبذل الدم، الذي لو أريق لا يختلف في اللون عن دم الصليبيين الأجانب، ومثلهم أيضاً تتعفن أجسادنا وتتحلل لو طالنا الموت. وإذا رفضت، وقلت ليس لكم نصيب في الغنائم. عندئذ، سوف تستولون، يا سيدي، على المدينة بالقلّة القليلة التي لديكم من الصليبيين. هذا تمرد. أرجو ألا تحسبوه هكذا يا سيدي، وإذا كان هناك حقاً بعض النفع فينا فيا ليتكم تفكرون أيضاً فيما تمثله المساواة في الأجر من عدالة، وفي أن هذا البلد سيبدأ حياته بشكل سيئ لو لم يتحر العدالة من البداية، ولتتذكروا يا سيدي مقولة أجدادنا الخالدة، «من يُولد مُعْوَجّاً لا يوجد ما يقوّمه»، وأنتم لا تريدون أن تولد البرتغال مُعْوَجّة، لا تريدونه يا سيدي. أين علموك الحديث هكذا، ببراعة لا تضاهيها براعة الكاهن الأعظم.الكلمات هناك يا سيدي، في الهواء، وبوسع أي إنسان التقاطها. ظل دون أفونسو هنريكس- الذي هدأت ثورته الآن- مستغرقاً في التفكير، ويده اليمنى ممسكة بلحيته، كانت نظرته مغلّفة بتعبير كآبة وكأن الشك يساوره في كثير من الأعمال التي قام بها، وفي الأعمال الأخرى، المجهولة، التي تنتظره في المستقبل لكي تقيّمه من معيار الروح التي سيتحلى بها عند مواجهته لها، ظل هكذا لبضع دقائق، في صمت

لا يجرؤ أحد هناك على قطعه إلى أن قال في النهاية: اذهبوا، سوف يخبركم قادتكم فيما بعد عما سوف أقرره معهم.

عمّت الفرحة في المعسكرات الخمسة، حتى أن معسكر جبل «جارثا» تخلى أيضاً عن وقاره، عندما جاءت رسل الملك- في أثناء العرض العسكري للقوات- لتزف البشرى بالموافقة السامية على أحقية الجنود جميعاً، دون تفرقة في الرتبة أو الأقدمية، في سلب المدينة ونهبها، مع الحفاظ على الحصص المقررة للتاج وعلى المخصصات التي وُعد بها الصليبيون من قبل. تعالت الهتافات واستمرت طويلاً، مما جعل المسلمين يظنون بأن ساعة الهجوم الأخير قد حلّت، رغم أنهم لا يرون أثراً للتجهيزات التي تسبقه دائماً. لم يحدث هذا في حقيقة الأمر، لكنهم استطاعوا من أعالي الأسوار مشاهدة النشاط الدؤوب في المعسكرات التي كانت مثل جيش من النمل الهائج فور اكتشافه المفاجئ لمائدة عامرة بالفتات وبقايا الإدام منصوبة على قارعة الطريق. في ساعة واحدة كان النجارون قد توصلوا إلى اتفاق، وفي ساعتين كانت تغلي بالنشاط الترسانة حيث كادت القرضات المتكاسلة أن تأتي على البرجين اللذين لم يكتملاً، وهذا ضرب من ضروب التعبير المجازي لأن الغفْريات المُنَقَّطة[1] ليست مزودة بآلات قطْع وثقْب قادرة على التصدي

(1) الغَفْريات : (جمع غفْرية): نوع من الحشرات. (المترجم).

للأخشاب الخضراء والانتصار عليها، وفي ثلاث ساعات كانت قد لمعت برأس أحد الموجودين هناك فكرة حفر نفق عميق تحت السور وملئه بالأخشاب وإضرام النار فيها، لأن حرارة هذا الفرن ستؤدي إلى تمدد الحجارة وانفصالها عن بعضها، وبدفعها- بمساعدة ولو قليلة من الربّ- سوف تتهاوى في طرفة عين. يهمهم المتشككون في الطبيعة البشرية واللاعنون الدائمون لها قائلين: هؤلاء الرجال الذين كانت أحاسيسهم متحجرة تجاه حب الوطن وغير مكترثين بمستقبل الأجيال، قد استفاقوا الآن بدافع الحب الشيطاني للربح الذي أنهض هممهم وقدح زناد تفكيرهم. ولكن هؤلاء المتشككين واهمون، وفي غيّهم سادرون، لأن موتور الإرادة ومولّد السعادة هناك لم يكونا يستمدان طاقتهما من الدافع المادي فحسب، بل- وعلى وجه الخصوص- من غبطة الروح بالعدالة والمساواة بين الجميع، ومن إحساس كل فرد بأن حقه سيصل إليه- دون رشوة أو تزلّف- كاملاً غير منقوص.

بهذه الاستعدادات المحمومة للمسيحيين- والتي تُعلن عن نفسها من مسافة بعيدة- بدأ الخور يتسلل إلى نفوس المسلمين، النفوس التي يتم اللجوء إليها في معظم الأحيان لمقاومة الضعف البازغ واستنهاض الهمّة. تمكن الخوف الحقيقي أو المتوهَّم من نفوس بعض المسلمين، وعندئذ حاولوا إنقاذ أبدانهم باللجوء إلى

ما يُدين أرواحهم المسلمة: اتخاذ القرار المتعجل بالتعميد المسيحي. استخدموا حبالاً مرتجلة وهبطوا في جوف الليل من على الأسوار، كمنوا بين أطلال بيوت حي الرّبض وبين الأشجار الضخمة في انتظار بزوغ النهار. مشوا نحو المعسكر، وأذرعتهم مرفوعة والأحبال التي استخدموها في الهبوط ملتفة حول أعناقهم وكأنها علامة على الإذعان والطاعة، في الوقت الذي كانوا يصيحون فيه بصوت عالٍ «تعميد، تعميد»، معتقدين في الفعالية الإنقاذية لكلمة طالما مقتوها عندما كان إيمانهم بدينهم مازال راسخاً. ظن البرتغاليون، عندما شاهدوا هؤلاء المسلمين من بعيد، أنهم قادمون من أجل التفاوض حول تسليم المدينة، وإن كان قد بدا لهم غريباً عدم فتحهم للأبواب للخروج منها، وعدم اتباعهم للبروتوكول الحربي المعروف في مثل هذه الحالات، وزاد تعجبهم حين اقترب أكثر الرسل المزعومون إذ اتضح من الأسمال القذرة التي يرتدونها أنهم ليسوا من علية القوم. لا يمكن وصف الهياج والغضب المجنون للجنود المسيحيين عندما فهموا أخيراً ما يطمح إليه الفارّون، تكفي الإشارة إلى الكمّ الهائل من الآذان والأنوف والألسن المقطوعة وكأن المكان قد تحوّل إلى سوق، ولم يكتف الجنود بهذا بل طاردوهم بالضربات واللكمات والشتائم حتى أسوار المدينة. بعض الفارّين- من يدري- كان ينتظر بلا أمل عفْو هؤلاء الذين خانوهم، ولكن المشهد كان حزيناً، لأنهم ماتوا جميعاً هناك، بحجارة وسهام إخوانهم. خيّم على المدينة

بعد هذا الحادث صمت كثيف، وكأن سكانها يكفّرون- بالحداد العام- عن تُهمة الدين المُهان، وربما يكون قد أخرسهم تأنيب الضمير الذي لا يُحتمل لقتل الأخ لأخيه. كان عندئذ عندما أطلّ الجوع- محطماً الحواجز الأخيرة للكرامة والعفّة- بوجهه الدّاعر في المدينة، وإظهار التصرفات الحميمة للجسد يعتبر أقل فُحشاً وبذاءة من رؤية هذا الجسد وهو يفنى من جرّاء شحة الطعام تحت النظرة الساخرة وغير المبالية للأرباب، الذين بإقلاعهم عن حرب بعضهم بعضاً لكونهم خالدين، يسلّون ضجرهم السرمديّ بالتصفيق للفائزين والخاسرين، يصفقون للفائز لأنه قتل، وللخاسر لأنه مات. بالترتيب المعكوس للأعمار كانت الحيوات تنطفئ مثل قناديل مستنزفة، في البداية الأطفال الرُّضّع الذين لم يكونوا يعثرون على قطرة لبن واحدة في الصدور الذابلة لأمهاتهم وتتحلل دواخلهم في عفونات الغذاء غير المناسب الذي يُقدم لهم، ثم الصبية الذين لم يكن يكفيهم للبقاء على قيد الحياة ما يضنّ به الكبار- لاسيما النساء- على أنفسهم، كانت النساء تؤثرن الرجال على أنفسهن من أجل تزويدهم بالطاقة الأخيرة للدفاع عن الأسوار، وفي النهاية يأتي المسنّون والعجائز الذين يتمتعون بمقاومة أفضل للجوع، ربما لضآلة متطلبات أجسادهم التي تتهيأ للدخول في الموت بخفّة حتى لا تزيد من حمولة القارب الذي سيجتاز بها النهر الأخير. كانت القطط والكلاب قد اختفت عندئذ، وعلى قدم وساق كانت تجري مطاردة

الفئران حتى الغياهب المنْتنة التي تتوارى فيها، وفي الحدائق وأفنية البيوت يتم تجريف الحشائش من الجذور، ذكرى تقديم كلب أو قط على مائدة العشاء كانت تساوي الحلم بزمن الوفرة، عندما كان الأشخاص يتبطرون على النعمة برمي العظام التي لم تُقرض جيداً. الآن يفتش الناس في مقالب القمامة عن بقايا صالحة للاستخدام الفوري أو للتحويل- بأي شكل من الأشكال- إلى طعام، بلغت حمى البحث إلى الحدّ الذي لم تكن تجد فيه الفئران الأخيرة- عندما تخرج من مكامنها اللامرئية في جوف الليل المظلم- شيئاً تتبلغ به. كانت لشبونة تئن من وطأة البؤس، ومن سخريات القدر الفظة والمؤلمة حلول شهر رمضان في تلك الأثناء، عندما كان الجوع قد جعل من الصيام أمراً مستحيلاً.

وهكذا جاءت «ليلة القدر»، «الليلة» التي تتحدث عنها السورة السابعة والتسعون من القرآن، وتحتفي السورة بذكرى التنزيل الأول على الرسول، وطبقاً للتراث الإسلامي فإن أحداث العام كله تتكشف أيضاً في هذه «الليلة». ورغم هذا، فإن قدر مسلمي لشبونة هؤلاء لن ينتظر طويلاً، سوف يتحقق هذه الأيام، لم تُنبئ عنه «ليلة قدر» العام الماضي، أو أنهم لم يستطيعوا قراءته في ثناياها، وعندئذ غرّتهم الأماني، وركنوا إلى بُعد المسافة التي تفصلهم عن المسيحيين في الشمال، عن ابن الرّنك الملعون وفيالقه الجليقية. لا يمكن معرفة

سبب إضرام المسلمين للنيران على دروب الأسوار، كانت الدروب مثل تاج من اللهب يُطوّق المدينة، استعرت النيران طيلة تلك الليلة، وملأت قلوب البرتغاليين بالفزع وبخوف ديني قلق، ربما زعزع لديهم المشهد العجيب الآمال في النصر لو لم يكونوا على علم تام باليأس الذي وصل إليه التعساء. عندما نادى المؤذنون لصلاة الفجر كانت أعمدة الدخان السوداء الأخيرة ترتفع نحو سماء صافية، ومصبوغة بحمرة الشمس الوليدة، دفعتها نسمات عليلة، فوق النهر، باتجاه «ألمادا»، مُهَدِّدة.

حلّت بالفعل الأيام الموعودة. انتهى العمل في حفر الخندق، الأبراج الثلاثة- النورماندي والفرنسي، وأيضاً البرتغالي الذي تم تشييده في زمن قياسي ليلحق بالآخرين- كانت ترتفع بالقرب من الأسوار مثل عمالقة جاهزة لمدّ قبضاتها الهائلة التي ستحول إلى أنقاض وَيَباب حاجزاً ينقصه أسمنت إرادة وشجاعة من دافعوا عنه حتى الآن. يشاهد المسلمون- كالمُنَوَّمين مغناطيسياً- الأبراج تقترب، ويحسون أن أذرعتهم لا تكاد تقوى على رفع السيوف وشدّ أوتار الأقواس، العيون المتعكرة يختلط عليها تقدير المسافات، الهزيمة هي القادمة هناك، وهي أسوأ من الموت. كان عندئذ، عندما استمد المسلمون من يأسهم ذاته الطاقة الأخيرة، وانطلقوا كالبرق الخاطف من بوّابة «فييرو» لإحراق البرج الذي لم يستطيعوا تدميره

من فوق الأسوار، لمتانته وصلابة نظام الحماية المزوّد به. سقط القتلى والجرحى من الجانبين. تمكنوا من إشعال النار في البرج، ولكن الحريق لم ينتشر فيه، كان البرتغاليون يدافعون عنه بغيظ وحنق مماثلين لغيظ وحنق المسلمين، إلى أن جاءت لحظة قام فيها بعض البرتغاليين الذين تملكهم الفزع– سواء كانوا مصابين أو متظاهرين بالإصابة، وسواء كانوا قد ألقوا بأسلحتهم أو مازالوا ممسكين بها– بإلقاء أنفسهم في الماء هرباً، يا للخجل، لحسن الحظ لا يوجد هنا صليبيون لتسجيل هذا التصرف الجبان وحمل خبره المشين إلى الخارج، حيث تُصنع الشهرة أو تضيع. أما بالنسبة للراهب «روخيرو» فلا خطورة عليه بالمرّة، إنه يتجول بالتأكيد في مواقع أخرى للملاحظة ولو وَشَى له أحد بما حدث هنا ليضمنه مذكراته، سيكون بوسعنا دائماً التشكيك فيما يخبّر عنه قائلين: كيف يمكنه التأكيد على هذا رغم أنه لم يكن هناك وقتها. تراخى المسلمون بدورهم، وتقدم البرتغاليون في بسالة طالبين العون من العذراء، مريم القديسة، وبفضل هذا العوْن أو بسبب أن لكل مادة في الكون حدّ للمقاومة تصدّع السور تصدعاً مُدَوِّياً وانفتحت فيه فجوة كبيرة، وعندما انقشع الدخان والغبار منها تراءت المدينة أخيراً: شوارعها الضيقة، بيوتها المتراصّة، وسكانها المذعورون. تقهقر المسلمون ممرورين بالكارثة، أغلقوا بوّابة «فييرو»، دون جدوى لأن فجوة أكبر منها– وإن كانت مزعزعة– كانت قد انفتحت إلى جوارها تقريباً، سارع المسلمون

لسدّها بصدورهم في غضب يائس جعل البرتغاليين يترنحون من جديد، لحسن الحظ أن البرج الموجود هنا استطاع أخيراً الالتصاق بالسور، في الوقت الذي كان يُسمع فيه صراخ خوف واحتضار قادم من الجهة الأخرى للمدينة حيث يدعس البرجان الآخران الأسوار هناك ويشكلان قنطرتين يعبر من فوقهما الجنود إلى الدروب وهم يتصايحون: هلم بنا إليهم، هلم بنا إليهم. سقطت لشبونة، لشبونة ضاعت. هدأت المذبحة بعد استسلام القلعة. ولكن عندما كانت الشمس تشق طريقها إلى البحر، ملامسة الأفق الوضّاح، انطلق صوت مؤذن المسجد الجامع من أعلى المئذنة– التي كان يحتمي بها– بالنداء لآخر مرة: الله أكبر. اقشعرت أبدان المسلمين من صدى النداء الإلهي، ولكن النداء لم يكتمل، لأن جندياً مسيحياً– مدفوعاً بالغيرة الدينية أو انطلاقاً من ظنه بأن مازال ينقصه ميّت لكي تنتهي الحرب بالنسبة له– صعد المئذنة ركضاً وذبح الرجل المسنّ بحدّ السيف. في لحظة انطفاء جذوة حياة المؤذن لمع في عينيه ضوء.

إنها الثالثة بعد منتصف الليل. وضع رايموندو سيلبا القلم، ينهض ببطء، معتمداً بكفيه على الطاولة، كأن سنوات عمره الباقية قد انهارت بغتة فوق كتفيه. يدخل غرفة النوم، الغارقة في ضوء خافت لا يكاد يُبين، يتعرى باحتراس شديد، متفادياً إحداث ضجيج، وإن كان يتمنى من أعماقه استيقاظ ماريا سارة، لا لشيء، ليخبرها

فحسب أن القصة وصلت إلى نهايتها، لم تكن نائمة، تسأله: هل انتهيت، فيجيب: نعم، انتهيت. وكيف انتهت. بموت المؤذن. وموجيمي وأوروانا، ماذا حدث لهما. أظن أن أوروانا ستعود إلى جليقية، وسيذهب معها موجيمي، وقبل رحيلهما سوف يعثران على كلب مختبئ في لشبونة كي يرافقهما في الرحلة. ولماذا تعتقد أنهما راحلان. لا أدري، المنطق يستدعي بقاءهما. الأمر سواء، نبقى نحن. رأس ماريا سارة تستريح على كتف رايموندو، بينما تلاطف اليد اليسرى للأخير شعرها ووجهها. لم يستغرقا في النوم إلا متأخراً. تحت سقيفة الشّرفة كان يتنفس طيف.

* * *

(تمَّــت)

قصة حصار لشبونة:

تعتبر «هذه الرواية» التي صدرت طبعتها الأولى عام 1989 من أبرز روايات «ساراماجو» وقد لاقت نجاحاً كبيراً وصدى واسعاً في الأوساط النقدية. يدور الموضوع الرئيسي للرواية حول حدث تاريخي معروف، ألا وهو الحصار الذي فرضه البرتغاليون في عام 1147م على لشبونة المسلمة، وانتهى بسقوطها في أيديهم وطرد المسلمين منها. ولكن رواية أحداث القصة- التي جاءت على لسان بطلها «رايموندو سيلبا»- لا تنطلق من وجهة نظر تاريخية، بل من فكرة وردت على ذهن البطل وجعلت الصليبيين يرفضون مساعدة البرتغاليين في حصار المدينة. وقد اتخذ المؤلف «تيمة» الرواية تكئة لعرض أفكاره وتأملاته الفلسفية حول الوجود والفن والمعتقدات والسلوكيات البشرية.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

9 789948 017530